



رواية

رباعية الاسكندرية



لورانس داريل







ترجمة : د . فخري لبيب

كليا

الطبعـــة الأولـــى ١٩٩٢

دار سعاد الصباح
ص . ب : ٢٧٢٨٠
الصـــفاة ١٣١٣٣ - الكـــويت
ص . ب : ١٣ المقطم - القاهرة

☎ ٣٤٩٧٧٧٩
٣٤٩١٧٢٧

الاشراف الفنى : حلمى التونى



رواية

كليا

لورانس داريل

ترجمة : د . فخرى لبيب



إلى أبى

الكتاب الأول

- ١ -

ثمار البرتقال ، ذاك العام ، وافرة ، أكثر مما اعتادت أن تكون . تتوهج كالمصابيح فوق أشجارها ، بأوراقها الخضراء اللامعة ، ترفرف هنالك وسط الغابات المشمسة تبدو وكأنها تتلهف على الاحتفال بمغادرتنا الجزيرة الصغيرة - لقد وصلت أخيرا رسالة نسيم التى طالما انتظرناها ، وكـأنها أمر بالحضور الى العالم السفلى، رسالة سوف تعيدنى ، فى عناد ، الى المدينة التى كانت تتراوح ، بالنسبة لى ، مابين الوهم والحقيقة ، مابين الواقع والصور الشعرية التى يثيرها اسمها بذاته فى أعماقى . إنها ذاكرة ، كما قلت لنفسى ، زيفتها الرغبات والوجدانيات فقط ، كما تم التعرف عليها نصف تعرف فوق الورق . الإسكندرية، عاصمة الذكرى ! كل الكتابة اقتبستها عن الأحياء والأموات ، حتى غدوت أنا نفسى حاشية فوق رسالة ، لم تنته أبدا ، ولم ترسل أبدا ...

كم طال غيابى ؟ إننى لاأستطيع حساب ذاك الغياب، رغم أن التقويم الزمنى لا يقدم إلا قليلا عن العقبات التى تفصل نفسا عن نفس ، تفصل يوما عن يوم آخر . كنت أحيا حقا هنالك طوال الوقت ، فى الأسكندرية ، إسكندرية قلب جنانى . كنت أسلم نفسى صفحة صفحة ، ودقه قلب دقة قلب ، الى هذا الكائن العجيب الذى كنا جميعا ، يوما ما ، جزءا من انتصاراته وهزائمه على السواء . مدينة عتيقة تتبدل تحت ضربات فرشاة الأفكار التى تحاصر المحتوى ، تصرخ من أجل الهوية ، هنالك ، فى مكان ما ، فوق النتوءات الأفريقية السوداء الشائكة الممتدة داخل البحر ، تعيش حقيقة المكان ذات النكهة الخاصة ، يعيش

عشب الماضى المر الذى لا يمضغ ، يعيش لب الذاكرة . لقد شرعت ذات مرة فى اختزان الماضى وتصنيعه والتعليق عليه قبل أن يفقد تماما – كانت تلك ، على الأقل مهمة حددتها لنفسى . وفشلت فى تحقيقها (ربما كانت مهمة بلا أمل ؟) – إذ ما أن أمسك بفكرة ، اضمخها فى كلمات ، حتى يمزق اقتحام معرفة جديدة ذلك الإطار الذى أرجع إليه . كل شىء ينساب متباعدا ، متنافرا ، لا يتماثل ، مرة أخرى إلا فى كونه أمرا غير متوقع ، ونمطا لايمكن التنبؤ به .

« حتى تنقح الحقيقة » ، كتبت هكذا فى مكان ما . إنها فى الحقيقة كلمات طائشة وقحة ، إذ إن الحقيقة هى التى تشكلنا ، ثم تنقحنا على دولابها البطىء، ومع ذلك فاننى ان كنت قد اغتنيت بخبرة هذه الفترة الفاصلة فى الجزيرة ، فربما يعود ذلك إلى هذا الفشل الكلى فى تسجيل حقيقة المدينة من الداخل . اننى اقف الآن وجها لوجه مع طبيعة الزمن ، مع ذلك الاغتراب للنفس البشرية . لقد فرض علىّ أن أقر بالهزيمة فوق الورق . ومع ذلك ، فإنه من الغريب تماما أن عملية الكتابة ذاتها قد امدتنى بنوع آخر من النماء . انه الفشل بذاته للكلمات التى غاصت واحدة بعد الآخرى فى كهوف الخيال التى بلا قرار ، لتجرى بعيدا . إنها طريقة باهظة تبدأ بها حياتك . نعم ، الا اننا ندفع حينئذ ، نحن الفنانين ، نحو حيوات شخصية تغذيها تلك الطرائق الغريبة لملاحقة – الذات .

ولكن ..... إن كنت أنا قد تغيرت ، فماذا عن اصدقائى – بلتازار ، نسيم، جوستين ، كليا ؟ ما هى الرؤى الجديدة التى يمكن أن أراهم بها بعد هذه الفترة – الزمنية ، وقد أمسك بى مرة أخرى ، فى محيط مدينة جديدة ، مدينة ابتلعتها الحرب الآن ؟ كان ذلك هو المحك ، وهذا مالم يكن فى وسعى قوله . الإدراك كان ينتفض فى داخلى أشبه بالنجم القطبى . كان عسيرا ان اتخلى عن الحدود – الصعبة التى كسبتها أحلامى تجسد صورى الجديدة ، المدن الجديدة ، النزعات

الجديدة والحب الجديد . كان علىّ ان اعانق احلامى الخاصة عن المكان اشبه بممسوس ... اليس من الحكمة ، كما اتساءل ، ان اظل حيث أنا ؟ ربما . ومع ذلك فإننى أدرك ضرورة ان أذهب . حقا ، كان علىّ أن أغادر هذه الليلة بذاتها ! كان الامســاك بالفكرة ذاتها عســيراً حتى إننى ارغـمت على الهمس بها لنفسى عــاليا .

لقد امضينا الأيام العشرة الأخيرة ، منذ جاء الرسول حامل الرسالة ، فى هدوء ذهبى من الحدس والتوقع ، كما كان الطقس صنوا لما نحن فيه ، حيث توالت ايام رائعة الزرقة وبحار بلا رياح . ووقفنا بين هذين الوضعين ، غير راغبين فى التخلى عن اىّ منهما ، كما كنا نعانى الألم ، فى ذات الوقت ، لتصادم الواحد منهما بالآخر . كنا نرفرف ، نحفظ توازننا ، أشبه بطيور النورس على حــافة جرف صــخرى . كانت الصــور المختلفة المتباينة قد اخذت بالفعل تختلط ، تحبط أحلامى . المنزل فى هذه الجزيرة مثلا . مابها من اشــجار اللوز والزيتون الفضية الرمادية حيث يهيم طائر الحجل باقدامه الحمــراء ، الأرض الفضاء ، الغابة ساكنة حيث يمكن ان يظهــر ، فقــط ، الاله (بان) بوجه العنزه . لم يختلط كمال أشكالها وألوانها ، بما اتسم به من بســاطة وشفافية ، بكل تلك الهواجس التى تتزاحم ، تخيم علينــا . (سماء مليئة بنجوم تتساقط ، أمواج المد فى لون الزمرد تغسل الشواطىء المهجورة ، صــرخات النورس فوق طرق الجنوب البيضــاء) . هذا العالم اليونانى قد غزته بالفعل روائح مدينة منسية – نتوءات البر فى البحر حيث يسرف قباطنة الســفن ، الذين يرشــحون عرقاً ، فى الشــراب والأكل حتى تتفجــر امعاؤهم ، انهم ينزحون أبدانهم ، كما تنزح براميل صغيرة من كل شهوة . ينغمسون فى عناق جوارى سود لهن عيون اســبانية . (المرايا . القلب يتمزق

رقة من أصوات الكاناريا وقد أُعميت ، بقبقة المياه فى طاســـات النرجيلات – رائحة التبثول [١] والبخور) .

كانت تأكل بعضها البعض ، تلك الأحلام المتضاربة . ورأيت اصدقائى مرة اخرى (ليسوا الآن كأسماء) يشرقون من جديد وقد عرفوا بالرحيل . لم يعودوا بعد ظلالا لما كتبته أنا عنهم ، لقد انتعشوا ثانية – حتى الموتى منهم . كنت أسير . في الليل ، انا وميليسا ، مرة أخرى ، فى تلك الشوارع المتموجة (كانت الآن فى وضع يتجاوز كل اسف وندم ، اذ كنت أعى ، حتى فى أحلامى ، انها قد ماتت) نسير فى راحة ، ذراع كل منا فى ذراع الآخر ، ورجلاها قصيرتا المدى ، اشبه بمقص اضفى عليها مشية مترنحة ، وعادتها فى ضغط ركبتها بركبتى عند كل خطوة . كان فى وسعى أن أرى الآن كل شىء فى ود ومحبة ، حتى عباءتها القطنية العتيقة وحـــذاؤها الرخيص الذى كانت ترتديه أيام العطــلات . لم تكن قادرة على إزالة طابع الحســن الأزرق الموجود على رقبتها ......ثم اختفت . واستيقظت اصرخ آسفا. كان الفجر يشق طريقه بين أشجار الزيتون يلون أوراقها الساكنة بلون الفضة .

استعدت سلام عقلى فى مكان ما على الطريق . هذه الحفنة من الأيام الزرقاء قبل أن أقول وداعا – أيام أدخرها ، أنميها بوفرة فى بساطتها : نيران اخشاب الزيتون تشتعل فى المدفأة القديمة والتى عليها لوحة جوستين ، آخر ما يحزم من أشياء ، الوثب على المنضدة والمقعد وماترك عليهما من آثار دقدقتهما ، كذا طاسة بخور مريم [٢] الزرقاء المطلية بالميناء . ماعلاقة المدينة بكل هذا – ربيع ايجى معلق فوق خيط بين الشتاء والنفحات البيضاء الأولى لنوارة اللوز ؟ لم تكن غير مجرد كلمة ، لا تعنى الكثير ، وقد خربشت على حواشى حلم ما ، او

---

(١) عشب عطرى – المترجم .   (٢) نبات عشبى جميل الزهر – المترجم

ترددت في العقل موسيقى زمن دارجة ، لم تكن غير رغبة عبرت عنها ضربات القلب . حقا ، رغم انني أحببتها كثيرا جدا . الا انني كنت عاجزا عن البقاء فيها، والمدينة التي اعرف الآن اني كرهتها ، تقدم لي شيئا مختلفا - تقييما جديدا للتجربة التي تركت عليّ آثارها ، يجب أن اعود اليها حتى يكون في وسعي مغادرتها الى الأبد ، طرحها ورائي . ان كنت اتحدث عن الزمن فما ذاك الا لأن الكاتب الذي اصير اليه ، كان يتعلم اخيرا ان يقطن تلك الاماكن المهجورة التي يفتقدها الزمن - وإن يبدأ الحياة بين تكات الساعة ، إن جاز القول . إن الحاضر المتصل والذي هو التاريخ الحقيقي لتلك الحكاية المجمعة ، إنما هو العقل البشري عندما يموت الماضي ، ولا يتمثل المستقبل إلا في الرغبة والخوف . فماذا يكون أمر اللحظة العرضية التي لا يمكن قياسها ، ولا يمكن الاذن لها بالانصراف ؟ ان ما يمسى بالحاضر ، بالنسبة للغالبية منا ، يختطف بعيدا مثل وجبة سخية اخذها الجن - قبل ان يلمس المرء منها لقمة واحدة . إنني آمل أن أكون ، في القريب ، أمينا مثل بورسواردن الذي مات حتى اصبح انا قادرا على القول « انني لا أكتب لهؤلاء الذين لم يسألوا أنفسهم البتة هذا السؤال : « عند اي نقطة تبدأ الحياة الحقيقية ؟ »

مرت بخاطري افكار لاقيمة لها ، وانا راقد فوق صخرة مسطحة تطل على البحر، آكل برتقالة ، تحيط بي عزلة تامة سوف تبتلعها المدينة قريبا . الحلم الممل اللازوردي لاسكندرية تتشمس مثل حية عجوز ، في الضوء الفرعوني البرونزي للبحيرة الكبيرة . سادة الحسية في التاريخ ، وقد تركوا اجسادهم للمرايا ، لقصائد الشعر ، لقطعان الصبية والنساء ، الرعاة والراعيات ، لإبر في العروق ، لانبوب الأفيون ، للموت وهم احياء من قبلات دون شهية . وعرفت ، مرة أخرى ، وانا أسير عبر تلك الشوارع ، في خيالي ، انها تستغرق ، ليس التاريخ

البشرى فحسب ، ولكن كل الميزان البيولوجى لعواطف القلب – منذ لوحات كليوباترا الزيتيـــة الصوفيـــة (ومن الغريب انه كان يجب اكتشـاف العنب هـنا قـرب « تابوزيرس » ، الى التعصب الأعمى « لهيباتيا » (اوراق العنب الزابلة ، قبلات الشهيد) والزوار الأجانب ، « زيمبود » دارس « الطريق الوعر » يسير هنا وقد تمنطق بحزام عامر بالعملات الذهبية ، وكل هؤلاء داكنى البشرة ، مفسرى الأحلام والسياسيين والخصيان الذين يشبهون سربا من الطيور براق الريش ، ورأيت المدينة تمتد بين أحاسيس الشفقة والرغبة والرهبة ، تنتشر امامى مرة اخرى ، تقطنها وجوه اصدقائى وتوابعى ، لقد ادركت ضرورة ممارسة الحياة فيها ثانية والى الأبد هذه المرة .

ومع ذلك ، فقد كان الرحيل غريبا حافلا بأدوار غير متوقعة – أعنى الرسول الذى حمل الرسالة كان أحدب يرتدى بذة فضية ، يضع زهرة فى طية صدر سترته ، ومنديلا معطرا فى كمه ! وذاك الانطلاق المفاجىء للحياة من القرية الصغيرة التى تجاهلت بلباقة وجودنا ذاته مدة طويلة ، باستثناء هدية مابين الحين والحين من السمك او النبيذ او البيض الملون الذى كانت تحضره « اتينا » لنا ، وقد لفته فى شالها الأحمر . كانت هى نفسها ، ايضا لا تكاد تتحمل ذهابنا كان قناعها العجوز الصارم يتفتت دموعا فوق كل قطعة من متاع سفرنا الهزيل ، وهى تكرر فى عناد ، « انهم لن يدعوكما تغادران دون أن يقوموا بواجب الضيافة . إن القرية لن تدعكما تغادران هكذا » . كان عليهم أن يعدوا لنا مأدبة غداء .

أما الطفلة فقد افضيت اليها بكل تلك الرحلة حكيا وتكرارا (حقيقة ، قصة حياتها كلها) فى صورة حكاية من حكايات الجن الرقيقة الجميلة ، التى لم يبتذلها عـديد تكرارها ، كانت تجلس تحملق فى الصـور الزيتية تستمع فى انتباه . كانت أكثر من معدة للأمر كله ، تكاد تتوق حقا الى اخذ مكانها فى

معرض اللوحات التى رسمتها لها . لقد استوعبت وامتصت كل الألوان المعقدة لهذا العالم الخيالى والذى انتمت اليه ، ذات يوم ، بما لها من حقوق ، والذى سوف تستعيده الآن - عالم تسكنه تلك الاطياف - الأب ، أمير - قرصان اسمر ، وزوجة الأب ملكة داكنة اللون طائشة .....

« انها تشبه اوراق اللعب ؟ »

« نعم ملكة البستونى »

« واسمها جوستين »

« إنها تدخن فى الصورة . هل ستحبنى أكثر أم أقل من أبى ؟ »

« سوف تحب كلاكما »

لم تكن هنالك من طريقة أخرى لشرح الأمر لها ، باستثناء استخدام مصطلحاتها الأسطورية والرمزية - قصائد اطفال شعرية مجهولة . لقد اتقنت الفاظها وأنا اقدم لها تلك الحكاية الرمزية عن مصر والتى كان عليها أن تعرفها بلوحات اسرتها ، اسلافها (وقد كُبرت الى حجم الآلهة او المجوس) ولكن اليست الحكاية ذاتها حكاية من حكايات الجن تفقد القدرة على إدراكها كلما تقدم بنا العمر . لايهم . انها بالفعل منتشية بصورة أبيها .

« نعم ، اننى افهم كل شىء » ، تقول وهى تومىء متنهدة ، تختزن هذه الصور المرسومة فى صندوق - كنوزها ، فى عقلها . كانت تتحدث فى بعض الاحيان عن ميليسا ، امها المتوفاة ، وعندما كانت تفعل ذلك ، كنت اجيب عليها بنفس طريقة كتاب - الحكايات ، الا انها قد غاصت الأن بالفعل ، نجما شاحبا ، اسفل الأفق فى سكون الموت ، تاركة صدارة الصورة لهؤلاء الآخرين - شخصيات أوراق لعب الأحياء .

كانت الطفلة قد القت بيوسفية فى الماء ومالت تراقبها وهى تتدحرج فى

نعومة إلى أسفل فوق الأرضية الرملية للغار ، ورقدت هناك تتدحرج مثل شعلة صغيرة تدفعها برفق حركة الأمواج الصاعدة الهابطة .

« راقبنى الآن وأنا احضرها »

« ليس فى هذا البحر الثلجى ، سوف تموتين بردا » .

« ليس اليوم باردا ، راقبنى » .

إلا انها كانت تستطيع العوم مثل قضاعة [1] صغيرة . جلست هنا فوق الصخرة المسطحة أرى فيها عينى ميليسا المسالمة وقد انحدرت قليلا عند الأطراف ، وفى بعض الأحيان ، على نحو متقطع ، تبدو فى الأركان بقية من نعاس منسية ، النظرة الداكنة (المتوسلة غير المتيقنة) لنسيم والدها . وتذكرت صوت كليا وهى تقول ذات مرة ، « لاحظ ، أن كانت الفتاة لاتحب الرقص والسباحة ، فإنها سوف تعجز عن ممارسة الحب » ، وابتسمت وانا أتساءل ان كانت الكلمات صادقة وانا أراقب الكائن الصغير يستدير فى الماء فى نعومة تنســـاب فى رشاقة إلى أســـفل ، إلى الهدف فى براعة فقـــمة ، وقد ضغطت اصـــابعها الى وراء نحو الســـماء ، وكيس ابيض صغير يبرق بين رجليها . اســـتعادت اليوســـفية بطريقة جـــميلة وخرجت إلى الســـطح بطريقة لولبية وقد امســـكت بها بين أسنانها .

« أجرى الآن ، وجففى نفسك فى ســـرعة » .

« ليس الجو باردا » .

« افعلى كما يقال لك . ابتعدى واسرعى . » .

(١) ثعلب الماء – المترجم .

« وماذا عن الرجل ذى الحدبة ؟ » .

« لقد غادر » .

أثار ظهور منمجيان ، على غير انتظار ، فزعها كما هز مشاعرها أيضا ، فهو الذى أحضر رسالة نسيم . كان من الغريب رؤيته يسير فوق حصباء الشاطىء ، يحيط به جو من القلق الذى يثير الضحك ، كأنما يسير يحافظ على توازنه فوق فتاحات سدادات الفلين . لقد أراد ، فى اعتقادى ، انه اراد ان يرينا انه اعتاد لاعوام الا يسير الا على الأرصفة الناعمة . لم يكن معتاداً ، من الناحية الواقعية ان يسير فوق البر ، كان يشع رقة مفتعلة تتجاوز منبته ، يرتدى بذة فضية باهرة، وطماقا لكاحليه ، ودبوس رباط عنق لؤلؤى ، وقد أثقلت الخواتم أصابعه ، فقط لم تتغير ابتسامته ، ابتسامته الطفوليه ، وخصلة الشعر اللولبية المدهونة بالزيت مازالت مثبته على جبينه .

« لقد تزوجت أرملة « هاليل » . اننى ، ياصديقى العزيز أغنى حلاق فى مصر الآن . قال كل ذلك دون تفكير ، وفى نفس واحد ، وهو يستند الى عصا السير ، بها عقد فضية ، وكان من الواضح انه غير معتاد عليها . وطوفت عينه البنفسجية ، فى ازدراء ، على نحوما ، وهو ينظر فى كوخنا البدائى ، بصورة ما ، ورفض الجلوس على مقعد . كان ذلك ، دون شك ، خشية أن يتغضن بنطلونه المهيب ، « أنت تعيش هنا نمطا من الحياة عسير ، اه ؟ ليس فيه الكثير من الترف يادارلى » ، ثم تنهد وقال ، « لكنك الآن ستعود إلينا » . ثم أتى من عصاه بحركة غامضة ، قصد بها أن يشير الى الضيافة التى نستمتع بها فى المدينة . « اننى عن نفسى لا استطيع البقاء هنا . اننى فى طريقى الى العودة . لقد قمت بهذا خالصا كمعروف لحصننانى » . كان يتحدث عن نسيم فى اجلال يتسم بالشفافية، وكأنه الآن نده اجتماعيا ، ثم رأى ابتسامتى ، وكان فضلا منه ان قهقه مرة قبل

أن يعود جادا مرة أخرى . ثم قال وهو ينفض الغبار عن أكمامه ، « ليس لدى وقت ، على أى حال » .

كان لهذا القول فضيلة الحق ، اذ ان سفن ازمير لا تبقى هنا الا لما يكفى لتفريغ البريد والبضائع التى تأتى مابين الحين والحين - أكياس قليلة من المكرونة ، بعض كبريتات النحاس ، مضخة - ان احتياجات الجزيرة قليلة وسرنا معاً عائدين نحو القرية عبر بساتين الزيتون ، ونحن نتبادل الحديث كان منمجيان لايزال يسير تلك المشية المجهدة البطيئة كالسلحفاة ، الا اننى سعدت بذلك ، حيث مكنتنى من أن أسأله بضعة أسئلة عن المدينة ، وأن أكتسب من إجاباته بعض اللمحات عما يمكن أن أجده فى حالة أوضاع متغيرة وأوضاع مجهولة .

«هنالك تغييرات كثيرة منذ هذه الحرب . دكتور بلتازار مريض للغاية ، وأنت تعرف عن مكيدة حصنانى فى فلسطين؟ والانهيار ؟ ان المصريين يحاولون فرض المصادرة عليه . لقد اخذوا منه الكثير . نعم انهما الآن فقراء ، ومازالا يواجهان المتاعب . لا إنها لاتزال محتجزة فى المنزل فى كرم أبو جيرج ، ولم يرها احد منذ دهر . انه يعمل بتصريح خاص سائق سيارة اسعاف فى أرصفة الميناء ، مرتين فى الأسبوع ، انه عمل خطر للغاية . لقد كانت هنالك غارة جوية سيئة ، فقد فيها واحدة من عينيه واصبعاً » .

« نسيم ؟ . قلت فزعاً . وأوما الرجل الضئيل برأسة ، وهو يحس بأهميته الذاتية . هذه الصورة ، غير المتوقعة لصديقى صدمتنى كطلقة رصاص . قلت ، « ياالهى » ، وأوما الحلاق كأنما ، يوافق على ملاءمة هذا القسم . قال ، « كان الأمر سيئا . انها الحرب يادارلى » ، ثم فجأة واتته فكرة اكثر مدعاة للفرحة فابتسم مرة اخرى ابتسامته الطفولية مرة اخرى والتى لم تكن تعكس غير القيم المادية الحديدية للشرق . واكمل وهو يمسك بذراعى ، « الا ان الحرب مجال طيب

للعمل ايضا .أن صالوناتى تعمل ليل نهار فى حلاقة شعر الجيوش . ثلاثة صالونات للحلاقة واثنا عشر مساعدا ! سوف ترى . انه عمل رائع ، وبومبال يقول على سبيل ، الدعابة ، « انت الآن تحلق للموتى وهم مازالوا احياء » . وتثنى ضاحكاً ضحكة مهذبة بلا صوت .

« هل عاد بومبال الى هناك ؟ »

« بالطبع انه الآن رجل عالى المقام فى « الفرنسيين الأحرار » . وهو يعقد مؤتمرات مع سير ماونت اوليف – انه ايضا لايزال هناك . هنالك الكثيرون من زملائك . سوف تراهم يادارلى ».

بدا منمجيان مبتهجا لقدرته على اثارة دهشتى بهذه البساطه . ثم قال شيئا جعل عقلى يتشقلب مرتين رأسا على عقب . وقفت ساكنا وسألته ان يكرر ما قال ، ظانا اننى قد اخطأت السمع . « لقد زرت كابوديستريا منذ قريب ». وحملقت فيه غير مصدق لما يقول . كابوديستريا ! وصرخت مندهشا ، « لكنه مات » .

ومال الحلاق الى الخلف كثيرا وكأنه يمتطى حصانا يتأرجح ، وضحك طويلا ضحكة مكتومة . كانت النكتة ظريفة للغاية هذه المرة واستمر يضحك دقيقة كاملة . واخيرا اخرج من جيب صدره ، وهو يتنهد فى ترف لهذه الذكرى ، صورة بطاقة بريدية مثل تلك التى يشتريها المرء من واجهات المدن المطلة على البحر المتوسط . وقدمها لى قائلا ، « اذن من يكون هذا ؟ » .

كانت معتمة الى حد كبير وعليها آثار التحميض الثقيلة والتى هى سمة للصور الفوتوغرافية التى تؤخذ سريعا فى الشوارع . كانت تحتوى شخصين يسيران فى الشارع المطل على البحر . كان احدهما منمجيان ، وكان الأخر ... أخذت أحملق فيه وانا اتعرف عليه اكثر فأكثر .

كان كابوديستريا مرتديا بنطلونا انبوبيا على الطراز الأدواردى ، وحذاءين سوداوين مدببين للغاية . والى جوار ذلك معطف اكاديمى ذو ياقة وأطراف اكمام من الفرو . واخيرا قبعة غريبة الشكل كالشمامة ، حتى بدا أقرب الى فأر طويل فى احد الرسوم الكرتونية الحيوانية . وهو قد ترك شاربه رفيعا يتدلى قليلا عند ركنى فمه . وكان هنالك فم سجائر طويل بين اسنانه . كان هو كابوديستريا الذى لا يمكن للعين ان تخطئه . « ماذا يجرى فى هذه الدنيا .... » ، بدأت القول ، الا ان منمجيان المبتسم أغلق إحدى عينيه ، ووضع اصبعه على شفتيه وقال ، « هنالك دائما اشياء غامضة » ، وحتى يمثل دور من يقوم على حماية تلك الاسرار الغامضة ، انتفخ حتى غدا أشبه بضفدع ، محملقا فى عينى برضاء يتسم بالخبث ، ربما كان سيتفضل علىّ ، يشرح لى هذا الأمر الا ان صفارة انطلقت من ناحية القرية ، فأثارت اضطرابه ، « فلنسرع » . وبدأت مشيته المجهدة . « يجب الا انسى اعطاءك رسالة الحصنانى » . كانت موضوعة مطوية فى جيب صدره ، واستطاع أخيرا العثور عليها ، قال ، » ان كل شىء قد أعد ترتيبه . سوف نلتقى ثانية » .

حييته مصافحا ، ووقفت لحظة انظر اليه وهو يعود ، ينتابنى إحساس بالدهشة وعدم اليقين . استدرت عائدا الى طرف بستان الزيتون وجلست على صخرة أقرأ خطاب نسيم . كان مختصرا ، يشتمل على تفاصيل السفر التى اعدها لنا . سوف يأتى الينا زورق صغير ليأخذنا من الجزيرة . واعطى مواقيت تقريبية ، وتعليمات عن المكان الذى يجب ان ننتظر فيه . كل ذلك كان محددا بطريقة واضحة . ثم كانت هنالك حاشية ، أضافها نسيم بيده الطويلة ، « سوف يكون حسنا أن نلتقى من جديد ، دون تحفظات . اننى لأحسب ان بلتازار قد روى لك كل ما اصابنا من نكبات . وأنت لن تقتضى من اناس يهتمون بك كثير

الاهتمام ، ندما عميقا فى غير موضعه . آمل الا تفعل ذلك . دع الماضى كتابا مغلقا بالنسبة لنا جميعا » .

هكذا جرى الأمر .

أكرمتنا الجزيرة خلال هذه الأيام الأخيرة القليلة ، فى نبل ، بأفضل طقس ، وبتلك الأعمال الخشنة التى تتسم بالبساطة وسلامة الطوية ، والتى كانت تبدو كعناق المحب الواله - والتى أدركت أنى سأتوق اليها ، عندما يطبق على رأسى جو مصر الخانق .

خرجت القرية كلها ليلة رحيلنا لتقدم لنا عشاء الوداع الذى وعدت به ، حَملا فى سيخ شواء ونبيذ «رزينا» الذهبى - مدوا الموائد ووضعوا المقاعد على امتداد الشارع الرئيسى الصغير ، وأحضرت كل أسرة ماسوف تقدمه فى هذه الوليمة . حتى هاتان الشخصيتان المختالتان - العمدة والقسيس - جلس كل واحد منهما عند طرف من طرفى المائدة الطويلة . كان الجو أبرد من أن يجلس المرء فيه هكذا فى ضوء المصابيح ، متظاهرا بأن الأمسية حقا أمسية صيفية . وتعاون القمر مشاركا ، صاعدا بطريقة عشوائية من البحر لينير أغطية المناضد البيضاء ويصقل زجاجات النبيذ . ودفئت الوجوه العجوزة اللامعة بالشراب ، وتوهجت كالأوانى النحاسية . البسمات الغابرة وانماط الأردية المهجورة لقدمها والمسرات التقليدية ومجاملات العالم العتيق ، والذى كان يتلاشى بالفعل ، كانت كلها ترتد عنا الى الوراء . كان قباطنة أساطيل صيد الأسفنج القدامى يرشفون نصيبهم من النبيذ من أقداح زرقاء مطلية بالميناء ، وحضناتهم الدافئة تشع برائحة تفاح برى متغضن ، وشواربهم الضخمة التى صبغها الطباق تتلوى تحت آذانهم .

لقد تأثرت في البداية ، معتقدا أن كل هذا الحفل كان من أجلي . الا انني اكتشفت انه كان من أجل بلدي . عندما تكون انجليزيا وقد سقطت اليونان ، فأنت هدف محبة وامتنان كل يوناني . وفقراء هذه القرية الصغيرة المتواضعة يحسون بذلك ، بما لا يقل حدة عن اليونانيين في كل مكان . ان سيل الأنخاب كان يتردد مدويا في الليل ، وانسابت كل الكلمات كالطيور الجوارح ، بأسلوب يوناني جليل، رنان ، طنان ، كانت تبدو وكأنها تحمل نغم القصائد الشعرية الخالدة - أشعار ساعات اليأس . لكنها بالطبع كانت كلمات فقط . الكلمات العاصفة التعسة التي تولدها الحرب في يسر وسهولة والتي سوف تمحو بلاغة السلم استخدامها .

لكن الحرب أشعلت الليلة عجائز الرجال ، مثل شمعة مستدقة الطرفين ، وقد أسبغت عليهم جلالا ملتهبا . فقط لم يكن الشاب هناك ليلزموهم الصمت أو يصيبونهم بالخجل بنظراتهم المروعة - كانوا قد ذهبوا الى البانيا ليموتوا هنالك وسط الثلوج . وتحدثت النسوة في أصوات ثاقبة جعلتها الدموع الحبيسة خشنة مرتعشة . وبين الضحكات المتفجرة والأغاني كان الصمت المطبق يهبط - مثل كثير من القبور المفتوحة .

لقد سارت الحرب نحونا ناعمة عبر المياه ، تدريجيا مثل سحابات ملأت الأفق من منتهاه ، ورغم ذلك فإنها لم تتوقف بعد . فقط أمسكت الاشاعات بالقلب تتنازعه الآمال والمخاوف . لقد بدت في البداية نذيرا بنهاية مايسمى بالعالم المتحضر ، الا ان هذا التوقع سرعان ماتبدد . كلا ، انها ، في بساطة ، نهاية الرقة والامان والأساليب الوسطية ، نهاية آمال الفنانين ، نهاية عدم المبالاة ، نهاية الفرح والبهجة . وماخلا ذلك ، فان كل شيء آخر ذا علاقة بالأحوال

البشرية سوف يثبت ويتأكد . ربما بدأت تبزغ مصداقية ما من وراء المظاهر القائمة ، حيث يزيد الموت من كل توتر ويسمح لنا بالقليل من نصف الحقائق التى نعيش عليها عادة .

كان هذا هو كل ماعرفناه هنا ، حتى تاريخه . هذا التنين الذى انشب مخالبة بالفعل فى كل مكان آخر . كل ماعرفناه ؟ نعم . دون شك ، فقد انتفخت السماء مرة أو مرتين بلطخ من قاذفات قنابل غير مرئية ، الا أن أصواتها لم تستطع إغراق طنين نحل الجزيرة ، الأقرب الينا ، إذ إن كل عائلة كانت تمتلك عددا قليلا من خلايا النحل المدهونة بالجير الأبيض . وماذا ايضا ؟ دفعت غواصة ذات مرة (وهذه تبدو أكثر حقيقية) ببرسكوبها [1] فى الخليج وأخذت تمسح لدقائق خط الساحل بالتتابع . هل رأتنا ونحن نستحم فى الموقع ؟ ولوحنا لها ، الا أن البيرسكوب ليس له أذرع يمكن أن يلوح بها ، يرد علينا تحيتنا . ربما اكتشف على الشطئان الشمالية شيئا آخر أكثر ندرة ، عجل بحر فى غفوة تحت الشمس ، يشبه مصليا على حصيرة الصلاة ، الا أن هذا لم يكن له أدنى علاقة بالحرب .

لكن الأمر كله غدا أكثر حقيقية عندما أثار « الكيك » [2] الصغير الذى أرسله نسيم ضجيجا فى المرفأ المعتم ذلك المساء ، وبه ثلاثة رجال مقطبو الجبين مسلحون بالرشاشات . لم يكونوا يونانيين ، رغم أنهم يتحدثون اللغة بطريقة متسلطة لاسعة . كانوا يروون حكايات عن الجيوش التى دمرت والموت تحت الجليد. إلا أن الوقت ، على نحوما كان متأخرا للغاية حيث أفقد النبيذ عواجيز الرجال فطنتهم سكراً . وسرعان ماذبلت حكايتهم التى تركت رغم ذلك أثارها

---

(١) منظارها - المترجم .   (٢) زورق طويل تتميز به منطقة البوسفور - المترجم .) .

فى نفسى ، هؤلاء الرجال الثلاثة الأشبه بعينات جلدية ، الوجه ، من حضارة غير معروفة تدعى «الحرب» . جلسوا قلقين وسط الصحبة الطيبة . كان اللحم مشدودا بقوة فوق عظم وجناتهم غير المحلوقة ، كأنما حل بهم الارهاق . انهم يدخنون في نهم وشراهة ، ينفثون الدخان الأزرق من انوفهم وافواههم على حد سواء مثل من أصابه شبق . وعندما تثاءبوا بدوا وكأنهم يستحضرون تثاؤبهم من أكياس خصياتهم بذاتها ، وأمناهم على أنفسنا للرعاية بنا والهواجس تنتابنا ، فقد كانت تلك اول وجوه، لاتحمل وداً ، نراها منذ زمن طويل .

وانسبنا عند منتصف الليل منحرفين عن الخليج ، والقمر فى تمامه – كان الظلام الأكثر بعداً ، أكثر نعومة ، وأكثر مدعاة للثقة بتحيات الوداع الدافئة التى انهمرت علينا عبر الشواطىء البيضاء . كم هى جميلة كلمات التحايا والوداع اليونانية .

وتحركنا كالملوك للحظة على امتداد خط الجروف الصخرية بظلالها السوداء كالحبر ، حيث كانت ضربات قلب الماكينة تخفق ثم ترتد الينا ثانية ، دفعة واحدة ، مثل الطلقات النارية . واخيرا خرجنا الى المياه العميقة الأساسية ، ونحن نحس بالمسحة المتزايدة الناعمة لايقاع المياه وقد اخذت تهدهدنا على صدرها ، تأرجحنا – تطلقنا ، كأنما فى لعبة . كانت الليلة دافئة رائعة بصورة فائقة . وظهر دولفين مرة أو مرتين عند مقدم القارب . كان المجرى قد تحدد .

وسيطر علينا الآن خليط من البهجة والحزن العميق . من الأرهاق والسعادة فى ذات الوقت . كان فى مقدورى أن أتذوق طعم الملح فوق شفتى . شربنا قليلا من شاى نبات القصعين دون كلام . كانت جماليات الرحلة قد اسرت الطفلة فلم تنطق – الأثر الذى يخلفه القارب وراءه فى الماء يرتعش بوميض

فوسفورى ، وقد مشط خلفنا كشعر نجم مذنب يطفو منتعشاً . وانسابت ، ايضـا ، فوقنا فروع السماء مكسوة بالريش ، النجوم متناثرة كثيفة كثافة ازهار اللوز فى السماء الغامضة . وهكذا ، اخيرا ، سعيدة بهذه النذر والبشائر ، تهدهدها خفقات المياه، واهتزازات الماكينة المنتظمة ، سقطت نائمة وابتسامة فوق شفتيها المنفرجتين وقد ضغطت عروستها المصنوعة من خشب الزيتون إلى وجنتها .

كيف كان فى مقدورى الا أن افكر في الماضى الذى نعود اليه عبر ادغال الزمن الكثيفة ، عبر ممرات البحر اليونانية المألوفة ؟ ومضى الليل كشرائط ظلام مبسوطة ممدودة – ومست رياح البحر الدافئة وجنتى مسا خفيفا – كانت ناعمة مثل فرشاة من شعر ثعلب . ورقدت ما بين اليقظة والنوم ، احس بشدات الذاكرة الثقيلة كالرصاص : شدات مدينة كورقة شجر مليئة بالعروق ، والتى جعلتها ذاكرتى آهلة بأقنعة خبيثة وجميلة فى ذات الوقت . يجب أن أرى الاسكندرية ثانية بمنهج طيف يراوغ الزمن – اذ انك ما أن تغدو مدركا لعملية الزمن ، التى هى ليست تقويما زمنيا ، حتى تصبح طيفاً ما . ان فى وسعى ان اسمع ، في هذا النطاق الآخر اصداء كلمات قالتها اصوات أخرى منذ زمن بعيد . كان بلتازار يقول ، « إن هذا العالم يمثل وعداً بسعادة لا نظير لها ، سعادة لسنا معدين ، بما يكفى ، للامساك بها » . إن الاستدعاء المخيف الذى تمارسه المدينة على الحميمين اليها ، يصيب العاطفة بالشلل ، ويغمس كل شىء فى دنان عواطفها المرهقة . القبلات تغدو عاطفية إن صاحبها تبكيت الضمير وتأنيبه . الايماءات التى تجرى فى الضوء العنبرى للحجرات الموصدة . اسراب الحمام الأبيض تطير عاليا بين المآذن . الا اننى كنت مخطئا – اذ إن كل مدخل جديد يختلف عن سابقه . اننا نخدع انفسنا ، فى كل مرة باعتبار ان الوضع ثابت كما هو . ان

الاسكندرية التى اراها الآن ، من اول نظرة من البحر ، كانت شيئا ما كان فى وسعى ان أتخيله ....

كان الوقت لايزال ظلاما عندما توقفنا خارج المرفأ غير المرئى بكل مافيه من تحصينات القلاع التى اتذكرها ، والشبكة المانعة للغواصات . حاولت رسم معالمها بعقلى فوق العتمة . الضجيج لا يثور الا فجر كل يوم . ويسود ظلام يطمس كل شىء . فى مكان ما أمامنا يرقد ساحل افريقيا غير المرئى ، « بقبلته الشائكة » ، كما يقول العرب . كان امرا يتجاوز القدرة على الاحتمال ان تكون واعيا بها هكذا ، أبراج المدينة ومآذنها ، ومع ذلك عاجز عن ان تفرض عليها الظهور ، لم يكن فى مقدورى أن أرى أصابعى أمام وجهى . لقد غدا البحر غرفة انتظار خالية واسعة ، فقاعة من الظلام مجوفة .

ومرت فجأة نسمة ، نفحة أشبه بريح تمر عبر طبقة من جمرات ، وتوهج المكان الأكثر قربا بلون قرنفلى ، أشبه بمحارة بحرية ، يغرق تدريجيا فى لون وردة حمراء اكثر كثافة . وجاء أنين مخيف عبر الماء نحونا ، يخفق مثل ضربات جناح طائر من طيور ماقبل التاريخ . صفارات تعوى عواء سجين حكم عليه بالهلاك . واهتزت اعصاب المرء كفروع شجرة . وبدأت الأنوار وكأنها تستجيب لهذا الصوت ، تنطلق من كل مكان ، بصورة مشتتة متفرقة فى البداية ، ثم فى شرائط وأحزمة ومربعات من الكريستال ... وفجأة حدد المرفأ معالمه بوضوح فوق لوحة السماء المظلمة ، بينما بدأت أصابع بيضاء طويلة ذات ضوء ابيض ناعم تجوب السماء بطريقة خرقاء وكأنها اقدام حشرة بلهاء تجاهد ان ترفع نفسها على ظهر زلق . وبدأ سيل كثيف من صواريخ ملونة يصعد من بين ضباب السفن الحربية ، يفرغ فى السماء عناقيد من نجوم متلألئة ، وحطام علب – سعوط لؤلؤية ، فى اسراف رائع . واهتز الجو بالضربات . وارتفعت سحابات قرنفلية

وصفراء من اتربة مع الأسهم النارية وصواريخ الانذار لتضىء المؤخرات اللزجة الملوثة بالشحم للبالونات ، التى تشكل غلالة ضد الطائرات ، والتى كانت تطير فى كل مكان . وبدا ان البحر ذاته ينتفض . لم يكن لدى ادنى فكرة أن المدينة يمكن أن تكون جميلة الى هذا الحد فى عيد ميلاد ساتورن [١] ، فى الحرب المجردة . كانت قد بدأت تنتفخ ، تتمدد اشبه بوردة ظلامية غامضة . واستمر القاء القنابل يفيض علي عقولنا . ولدهشتنا وجدنا انفسنا نصرخ فى بعضنا البعض . كنا نحملق فى الجمرات المشتعلة لقرطاجنة اوجستين . وقلت لنفسى ، اننا نشاهد سقوط انسان المدينة .

كان الأمر جميلا للغاية ، كما كان صاعقا يفقد الانسان رشده . كانت الأنوار الكاشفة ، فى الركن العلوى الشمالى للوحة ، وقد بدأت تتجمع ، ترتعش ، تنزلق بطريقتها الفظة الخرقاء مثل ساقى والدى الطويلتين . كانت تتقاطع ، تتلاصق بطريقة محمومة ، وكان واضحا ان اشارة ما قد بلغتهم تخبرهم عن مقاومة حشرة ما أمسك بها فى بيت العنكبوت الخارجى للظلام . ومرة بعد أخرى كانت تتقاطع ، تتحسس ، تبزغ ، تنقسم . ثم رأينا ، اخيرا ، ماكانوا يحاصرونه ستة فراشات فضية دقيقة تتحرك عبر الممرات الجوية فى بطء لايطاق كما بدا . وجنت السماء حولهم ، ومع ذلك فانهم يتحركون بذلك الاسترخاء القاتل ، وفى تراخ ايضا تجعدت الخطوط الملتوية المنحنية للماسات المنطلقة من السفن ، أو النفثات الباهتة للقنابل شديدة الانفجار بسحاباتها التى تحدد مسارها .

كان فى مقدورى ، رغم الزئير الذى ملأ آذاننا الآن بالصمم ، أن أعزل العديد من الأصوات المنفردة التى تشكل اوركسترا الضرب بالقنابل . فرقعة

---

(١) اله من الهة روما تميز بالقصف والعربدة – المترجم .

الشظايا التى تعود تسقط كزخة البرد والمطر فوق الأسقف المضلعة للمقاهى قرب البحر ، الأصوات الآشبه بالخدوش لارسال اشارات من السفن وهى فى صدى أشبه بالدمى التى تتحدث من بطنها ، عبارات شبه - واضحة مثل . « الساعة الثالثة - أحمر . الساعة الثالثة - احمر» . ومن الغريب للغاية ايضا صدور موسيقى من مكان ما فى هذه الجلبة فى ربع نغم غير مستو حتى انها كانت كالوخزات ، وهنالك ايضا ذلك الهدير الأساسى لسقوط المبانى . وقطع من ضوء تختفى تاركة وراءها كوة من ظلام . ربما يخرج منها لهيب اصفر داكن يلعق ماحوله كحيوان ظمآن . وفى القرب منا (كانت المياه تطقطق بالصدى) كان فى وسعنا سماع المحصول الوفير لقنابل المدافع الطائشة وهى تنهال فوق ظهر المراكب كمعزوفة من شيكاغو ، طرطشة تكاد تكون متصلة للمعدن اللامع وهو يقع من خزائن المدافع الموجهة الى السماء .

هكذا جرى الأمر ، العين مثبتة والوهن ينبعث من الفقرات امام هذا الاعصار الذى يكشف عن قوى لا معنى لها . لم ادرك من قبل ، الى من تنسب الحرب . ليس فيها من مكان للبشر او الاهتمام بهم تحت مثل هذه المظله الواسعة من الموت الملون - لقد غدا كل نفس يسحبه المرء مجرد ملاذ مؤقت الى حين .

ثم فجأة ، انتهى المشهد تقريبا كما بدأ . اختفى المرفأ فى مفاجأة مسرحية ، انطفأ خيط الاحجار الكريمة ، فرغت السماء . احاط الصمت بنا ليتمزق ، فقط مرة او اكثر بتلك الصفافير الصارخة الجائعة التى كانت تثقب اعصابنا - ثم لا شىء . درجات من كثافة ظلام عدمى ، تنمو من خلالها أصوات محدودة مألوفة للماء يلعق حواف السفن . وزحفت ريح قصيرة واهنة لتغلفنا ومعها الروائح الغرينية لمصب نهر غير مرئى . هل كان ذاك مجرد خيال حين سمعت من البعد اصوات طرائد من بط وأوز فى البحيرة ؟

وانتظرنا هكذا فترة من الزمن طويلة ، فى حيرة شديدة . الا ان الفجر ، فى تلك الأثناء كان قد بدأ من الشرق يباغت السماء ، المدينة والصحراء . وارتفعت فى نعومة اصوات بشرية ثقيلة كالرصاص ، تثير الدهشة والعاطفة . أصوات أطفال . وظهر فى الغرب هلال ينفث الوانا فوق الأفق - وتثاءبنا . كان الجو باردا . انتفضنا ونحن نستدير كل منا نحو الآخر ، وقد احسسنا فجأة باليتم فى هذا العالم الداهم مابين النور والظلام .

إلا أن الفجر الذى آلفه بدا ينمو تدريجيا من التخوم الشرقية : هذا الفيض الأول من الليمونى والوردى الذى سوف يمنح مياه مريوط الميتة بريقا . كان ناعما كالشعر ، ورغم ذلك كان غامضا الى حد انه كان على المرء أن يوقف تنفسه حتى يتعرف عليه . وسمعنا (أو فكرت انى سمعت) النداء الأول للصلاة من بعض المآذن والتى لاتزال غير مرئية .

هل لاتزال توجد ، اذن آلهة يتضرع الناس اليها ؟ ومأن ولج السؤال رأسى حتى انطلقت ثلاثة قوارب صيد صغيرة - ذات اشرعة فى لون الصدأ والكبد والخوخ الأخضر وتمايلت فوق سيل الماء وانحنت عبر مقدم قاربنا مثل الصقور . كان فى وسعنا أن نسمع وقع الماء يدق مقدمات تلك القوارب . و حافظت القوارب على توازنها مثل فرسان يمتطون الجياد . حيونا باللغة العربية وأخبرونا أن القصف والهدير قد انتهى وأنه فى وسعنا دخول الميناء .

وبدأنا فعل ذلك فى حرص وحذر ، تغطينا البطاريات التى تبدو مهجورة فى ظاهرها . وأخذ مركبنا يخب فى القناة الرئيسية بين خطوط السفن الطويلة ، اشبه « بفابوريتو» فى الـ «جراندكانال» . حملقت حولى . كل شىء كما كان ومع ذلك ، فإنه مختلف ، فى ذات الوقت ، بطريقة لا يصدقها العقل . نعم ، كان المسرح الرئيسى (لعواطف القلب ، للذكرى ، للحب) هو ذاته . ورغم ذلك فان

اختلاف التفاصيل ، اختلاف الديكور ، صدمنى فى عناد . كانت سفن الركاب قد دهنت الآن بطريقة باهرة ، بلطخات تكعيبية باللون الأبيض والكاكى ورماديات بحر الشمال . مدافع تعى وجودها تكمن فى أوكار خرقاء كأوناش فى اعشاش من خيش مشبع بالقار والشمع ونسيج عنكبوتى ، البالونات المشحمة عالقة فى السماء كأنها تتدلى من مشانق . وأخذت أقارنها بالسحابات الفضية القديمة للحمام ، والذى قد بدأ بالفعل صعوده فى مجموعات يلهث بين أشجار النخيل ، يغطس صعودا فى الضوء الابيض ليلقى الشمس ، لحن يثير الحيرة ، يضاف الى ما هو معروف وغير معروف . القوارب ، مثلا ، مشدودة على امتداد المرسى عند « نادى اليخت» ، وعليها ما أتذكره من ندى كثيف بالعرق فوق صواريها وحبال مراسيها . الاعلام والتندات الملونة تتدلى جافة متماثلة وكأنها قد نقعت فى النشا . (كم عدد المرات التى لم نبحر فيها من هناك ، فى نفس هذه الساعة ، فى قارب كليا الصغير ، المحمل بالخبز والبرتقال وزجاجات النبيذالمغلقة بجدائل الأغصان ؟) كم عدد أيام الابحار القديمة التى قضيناها فوق ذلك الشاطىء المفتت ، ودلائل عواطف منسية ؟ كنت مندهشا وأنا أرى بأى شعور عاطفى يمكن لعينى المرء أن تسافر عبر خط من أشياء عديمة الحياة مشدودة الى مرفأ طحلبى، تمتع نفسها بذكريات ماكانت تعى اختزانها ، حتى السفن الحربية الفرنسية (رغم أنها تعانى الآن الخزى والعار ،وقد اغلقت مؤخرات خزائن مدافعها ، واعتقل طاقم بحارتها اعتقالا اعتباريا) كانت فى اماكنها بالضبط التى رأيتها فيها آخر مرة من تلك الحياة الغابرة الفانية ، ترقد على بطونها فى دجى الفجر . إنها مازالت كما كانت دائما ، مغلفة بغلاف رقيق من سراب المدينة : والتى كانت مآذنها ، الأشبه بثمرة التين ، تغير ألوانها مع كل صعود للشمس .

وعبرنا فى بطء الممر الطويل الأخضر بين السفن الضخمة ، وكأننا نشارك

فى استعراض شعائرى . كانت الأشياء المفاجئة قليلة ، بين الكثير المألوف لنا ، وان كانت منتقاة : سفينة حربية مدرعة ترقد بكماء على جانبها ، طراد تلطخت وتسطحت أجزاؤه العليا باصابة مباشرة - مواسير مدافع مشقوقة كما يشق الجزر ، استحكامات ومتاريس ملتوية على نفسها كأنما تعانى آلام احتراق مبرحة . حزمة كبيرة من الصلب الرمادى هصرت فى ضربة واحدة ، مثل حقيبة ورقية ، البقايا البشرية محشورة على امتداد ثقوب جوانب السفن فى اعداد قليلة فى صبر هائل ، لا تحس على الاطلاق ولا تتألم . كان ذلك مثيرا للدهشة ، اشبه بسير المرء فى مدافن جميلة ، ثم يفاجأ بقبر حفر حديثا . (« إنها جميلة » ، هكذا قالت الطفلة) . ولقد كانت كذلك حقيقة - الغابات الهائلة من الصوارى والابراج المستدقة الأطراف تتمرجح ، تتمايل مع أقل ارتفاع للماء تسببه حركة النقل البحرى ، والمواء الناعم للكلاكسات ، والصور المنعكسة تذوب ثم نستعيد أشكالها . وهناك موسيقى جاز منهوكة تنساب فوق المياه كأنما تأتى من ماسورة صرف فى مكان ما . كانت بالنسبة اليها هى الموسيقى المناسبة لدخولها الظافر لمدينة الطفولة . « الحياة ابداً» * ووجدت نفسى ادندن فى عقلى فى رقة ، وقد ادهشنى كم كان صدى اللحن قديما ، كم هو عتيق الطراز ، كم هو بعيد عن العقل لايثير اهتمامى ! كانت تنظر الى السماء تبحث عن أبيها ، الصورة التى تتشكل كسحابة خيرة تعلونا وتحيط بها هى ، تغلفها .

وظهرت عن بعد ، عند نهاية الرصيف ، دلائل تشير الى عالمنا الجديد الذى نحن قادمون اليه : صفوف طويلة من عربات نقل البضائع ، سيارات الإســعاف ، حواجــز وعوائق ، حراب جند وعسكر من سلالة زرقـاء وكاكية من

---

*) بالفرنسية فى الأصل .

الرجـــال اشبه بالأقزام الجرافية . هنا نشـــاط بطيء وان كان له هدف ، مســـتمر ومسيطر . وبزغت شـــخوص من سكان الكهـوف من اقفـــاص حديدية وتجــاويف على امتداد الرصيف منهمكة في جولة متباينة الأغراض . هنا ايضا سفن شقت جزئيا في قطاعات هندسية ، أخرجت أحشاؤها البخارية ، سفن ترقد مفتوحة بعملية قيصرية : ويزحف عبر هذه الجروح خيط لاينتهى ، اشبه بخيط النمل ، من جنود وسترات زرقاء يحملون على ظهورهم قنابل وبالات وضلوع ثيران فوق اكتاف صبغتها الدماء . أفران مفتوحـــة ورجال يرتدون أغطية بيضـــاء يتعرضون لنور النار ، يسحبون بطريقة محمومة صوانى الخبز . كان كل ذلك النشـــاط بطيئا الى درجة لا تصدق ، على نحوما ، ومع ذلك فقد كان ، على امتداده ، عملا هائلا . كان ينتمى الى غريزة سلالة ما ، أكثر من انتمـائه الى شـــهية الطعام عندها . وبينما كان للســـكون هنا قيمة نســـبية فقط ، فإن بعض الأصوات الصغيرة غدت محددة ، ملحة - الديدبانات يدقون أحذية ذات نعال حديدية فوق الحصى ، عواء زورق سحب السفن أو طنين صفارة باخرة أشـــبه بصوت ذبابة زرقاء عملاقة امســك بها فى نسيج عنكبوتى . كل هذا كان من مكتســـبات المدينة الجـــديدة والتى كان علىّ أن أنتمى اليهـــا منذ الآن فصـــاعدا .

واقتربنا اكثر واكثر ونحن نستكشف مرسى بين القوارب الصغيرة فى حوض السفن . وأخذت المنازل تعلو وتعلو . كانت ، ايضا ، لحظة من الرقة الرائعة . كان قلبى فى فمى (كما يقول المثل) فقد رأيت بالفعل الشخص الذى أعرف انه لابد أن يكون فى انتظارنا - هنالك بعيدا عبر رصيف رسو السفن ، كان يستند الى سيارة اسعاف ، يدخن . ان شيئا ما فى هيئته أصاب منى وترا وعرفت أنه نسيم ، رغم أنى لم اجرؤ بعد على التيقن من ذلك . فقط عندما ألقيت

الحبال ورسونا ، اننى رأيت ، وقلبى يدق ، أنه كان حقا صديقى ، نسيم ! (تعرفت عليه بصورة غامضة من خلال تنكره ، كما تعرفت من قبل على كابوديستريا) .

كان يضع فوق احدى عينيه عصابة سوداء غريبة . كان يرتدى معطف خدمة أزرق فضفاضا له اكتاف محشوة غير متقنة وطويل للغاية عند الركبتين، وغطاء رأس مشدود الى اسفل فوق عينيه . بدا أطول بكثير واكثر نحافة مما كنت أتذكره . ربما كان هذا الزى الذى يرتديه يشبه ، الى حد ما ، الرداء الخاص بالسائقين ، والى حد ما ، رجال الطيران . أعتقد انه لا بد أحس بقوة تعرفى تضغط عليه لأنه وقف فجأة منتصبا ، واستطاع أن يميزنا بعد ان حملقت فيه قليلا . القى بالسيجارة بعيدا ، سار على امتداد المرسى بمشيته السريعة الرشيقة ، يبتسم فى عصبية . لوحت له ، إلا انه لم يرد علىّ ، رغم انه أومأ على نحوما وهو يتحرك نحونا . قلت وأنا مدرك للوضع ، « انظرى ، هاهو والدك قد جاء أخيراً » ، ووقفت تنظر بعينين مجمدتين مفتوحتين على اتساعهما ، تتابع الشخص الطويل حتى وقف يبتسم لنا ، على بعد يقل عن ستة أقدام . كان البحارة مشغولين بالحبال ، وانزلقت سقالة فى صوت مدو . ولم استطع تقرير ان كانت العصابة السوداء المشئومة على عينه قد اضافت أو اسقطت من وسامته القديمة . وخلع غطاء رأسه وهو لايزال يبتسم ، خجلا وحزنا بصورة ما . ثم مسح شعره يسويه قبل أن يعيد غطاء الرأس ثانية ، وناديت « نسيم » فأوما رغم أنه لم يرد علىّ . وبدا أن صمتا يهبط فوق عقلى عندما خطت الطفلة فوق السقالة . سارت يحيط بها جو من سرور مفرط مرتبك ، مأخوذة بالصورة أكثر من الحقيقة (هل الشعر اذن اكثر حقيقية من الحقيقة المرئية ؟) .

---

* بالفرنسية فى الأصل .

ومدت ذراعيها ، كالسائر فى نومه ، سائرة الى أحضانه وهى تضحك ضحكة خافتة . ولحقت بها فى صعوبة ، ومد نسيم يده لى ، وهو لايزال يضحك ويضمها الى صدره ، يده التى فقدت اصبعا ، غدا مخلبا ، انغرس فى يدى . وأطلق تنهيدة جافة قصيرة غلفها بصوت كأنمايسعل . وكان ذلك كل شىء . وزحفت الطفلة الى اعلى وكأنها حيوان الكسلان على جذع شجرة وقد لفت ساقيها قرب ردفيه . لم ادر بالضبط ماذا علىّ ان أقول وأنا أحملق فى تلك العين الواحدة الداكنة المتفهمة . كان شعره عند فودية ابيض تماما . لا يمكنك ان تضغط يدا ، فقدت اصبعا ، بالقوة التى تريد .

« وهكذا نلتقى ثانية »

ورجع الى الوراء فى رشاقة ، ثم جلس فوق العمود الذى تشد اليه الحبال، يتلمس علبة سجائره ليقدم الىّ سيجارة فرنسية شهية المذاق بصورة غريبة . كان كلانا صامتا كالأخرس . كان الثقاب رطبا فلم يشتعل الا بصعوبة . قال أخيرا ، « كانت كليا تزمع الحضور ، الا انها اعتذرت فى اللحظة الأخيرة ، لقد ذهبت الى القاهرة . جوستين فى كوم ابو جيرج ! » . ثم أحنى رأسه فى سرعة وقال فى صوت هامس ، « أنت تعرف الأمر كله إه ؟ » . أومأت برأسى ، فبدا عليه الارتياح ، « هنالك القليل الذى يحتاج الى ايضاح . لقد انهيت عملى منذ نصف ساعة مضت وانتظرتك لآخذك الى الخارج ، اذ ربما .....»

احاطت بنا ، فى تلك الأثناء ، مجموعة من الجنود ، تفحص اوراق هويتنا وتراجع معنا وجهتنا . كان نسيم مشغولا بالطفلة ، ففردت أوراقى للجنود الذين قاموا بدراستها فى وقار وبنوع مامن التعاطف دون تحيز ، وبحثوا عن اسمى فى صحيفة ورقية طويلة قبل ان يخبرونى بأنه يجب علىّ أن أقدم نفسى الى القنصلية حيث كنت « مواطنا يقيم فى دولة أجنبية » . عدت الى نسيم ومعى

تصاريح الدخول وأخبرته بما حدث . « حقيقة ، ليس الأمر سيئا . كان عليّ الذهاب الى هناك على اى حال ، وذلك لأحضار حقيبة كنت قد تركتها وبها كل بذاتى المحترمة ..... اننى اتساءل كم من الوقت مضى على ذلك ؟ »

وابتسم . « عمر »

« كيف سننظم هذا الأمر ؟ »

وجلسنا جنبا الى جنب نفكر مليا . كان غريبا ان اسمع لهجات كل المقاطعات الإنجليزية . وجاء الينا امباشى عطوف يحمل صينية مليئة بأكواب تتصاعد منها تلك الابخرة المخمرة التى ينفرد بها الجيش مع شرائح من الخبز الأبيض المكسو بالمرجرين (١) . وعلى مسافة متوسطة منا سارت فى تبلد فرقة من حاملى النقالات مبتعدة عن الأنظار ومعها حمل يتدلى من بناية ضربت بالقنابل . أكلنا وقد أمسك الجوع بنا . بدأنا نتنبه فجأة الى ركبنا المهتزة . قلت اخيرا ، » لماذا لا تذهب وتأخذها معك ؟ يمكننى ان آخذ الترام من عند بوابة الميناء وأزور القنصل . أحلق وأتناول غداء ما ، وآتى هذا المساء الى الكرم إن انت أرسلت لى جواداً عند مخاضة النهر » .

« حسنا جداً » ، قال وقد بدا عليه نوع من الارتياح ، وهو يعانق الطفلة ويقترح عليها هذه الخطة همسا فى أذنها . ولم تبد اعتراضا . بدت فى الحقيقة متلهفة على مصاحبته – مما جعلنى أحس بالامتنان . وهكذا سرنا ، يغمرنا احساس بافتقاد الحقيقة ، عبر الحصى الموحل – الى حيث كانت تقف سيارة الإســعاف الصغيرة ، وصعد نســيم ومعه الطفلة الى مقعد الســائق . ابتســمت وصفقت بيديها ، فابعدتهما وأنا مبتهج لاتمام الانتقال فى نعومة هكذا .

كان غريبا ان اجد نفسى ، على اى حال ، وحيدا هكذا مع المدينة ، كشارد

---

(١) المسلى النباتى – المترجم .

فوق صخور البحر السطحية المألوفة - « مألوفة » - نعم ! اذ ما أن يترك المرء شبه دائرة الميناء ، حتى يجد شيئا ، أيا كان ، لم يتغير . كان الترام الصفيحي الصغير يئن ، يتسلل فوق قضبانه الصدئة ، يتلوى عبر تلك الشوارع المألوفة والتى كانت تنتشر على جانبى صورى الوفية لذكرياتى وفاء مطلقا . دكاكين الحلاقين بشباكها المانعة للذباب تتدلى على الأبواب تنتفض من وخزات الخرز الملون الخفيفة : المقاهى بزبائنها الكسالى يقعون الى موائد من صاج (الى جوار الباب مازال هنالك الحائط المتساقط ونفس المنضدة التى جلسنا اليها بلا حراك ، يرهقنا الغسق الأزرق) .

أما أن بدأ نسيم تشغيل جهاز تعشيق تروس السيارة حتى حدق فىّ بحدة قائلا ، « دارلى ، لقد تغيرت كثيرا » رغم أنى لم استطع تحديد إن كان ماقاله تأنيبا أم مديحا . نعم ، لقد تغيرت ! وابتسمت عندما رأيت القوس قرب «الباب» ، متذكرا قبلة فوق أصابعى ، ترجع الآن الى ماقبل التاريخ - تذكرت الاجفالة الخفيفة للعينين السوداوين بينما تقول الحقيقة الشجاعة الحزينة، « إن المرء لا يتعلم شيئا من هؤلاء الذين يردون حينا » . كلمات ألهبت المرء كما يلهب كحول العمليات جرحا مفتوحا ، لكنها كانت مطهرة ، كما تفعل الحقيقة كل الحقيقة . ورأيت وأنا مشغول هكذا بتلك الذكريات ، رأيت بجانب آخر من عقلى ، الأسكندرية كلها تتمدد مرة أخرى على جانبىّ - بتفاصيلها التى تأسر الألباب ، بغطرستها اللونية ، بفقرها الساحق وجمالها . الحوانيت الصغيرة ، تحميها من الشمس قطع من تندات مهلهلة ، حيث كومت فى ظلامها كل أنواع السلع من السمان الحى الى أقراص الشهد ومرايا الحظ - اكشاك الفاكهة بهياكلها

الخشبية المتألقة والتى يتضاعف تألقها بنشر أوراق ساطعة عليها ، لون البرتقال الذهبى الدافىء يرقد على شرائح تتألق بالأحمر الأرجوانى والقرمزى . ويريق دخان كهوف صانعى النحاس ، وسروج الجمال بشراشيبها المبهجة : الخزف والخرز الأزرق المصنوع من حجر اليشم ضد العين الشريرة . كل ذلك قد اتسم بوميض منشورى حاد بحشود الناس السائرة جيئة وذهابا ، وهدير أجهزة المذياع فى المقاهى ، ونداءات الباعة الجائلين الأشبه بالنواح ، ولعنات عرب الشوارع ، والولولة المجنونة لنائحين بعيدين يهتزون وراء جثمان احد الشيوخ المرموقين . ويجىء هنا الأحباش ، فى مقدمة الصورة ، كمن استحوذ عليها تماما فى وقاحة ، يتجولون بلونهم الأرجوانى المائل للزرقة الداكنة ، وعماماتهم ثلجية البياض ، والسودانيون بلونهم البرونزى وشفاههم المنتفخة فى لون الفحم ، واللبنانيون بجلودهم فى لون الزنك ،، والبدو بمناظر وجوههم الجانبية الأشبه بالصقور البلدية ، كل ذلك منسوج فى خيوط متألقة فوق السواد الرتيب للنسوة المحجبات ، الحلم المعتم للمسلم ، والذى لا يمكن الإمساك به الا من خلال فتحة ثقب العين البشرية . وتسير الجمال تتمايل عبر تلك الشوارع الضيقة ، تحتك وماعليها من حزم ، بالجدران الطينية التى تندفع فيما بينها ، الجمال بأحمالها من البرسيم الأخضر ، وهى تنزل بأخفافها فوق الأرض فى رشاقة لا حد لها . وفجأة تذكرت سكوبى وهو يعطينى درسا فى أولويات التحية ، « يجب أن تعرف أنها مسألة شكل . إنهم ، ياولدى ، بريطانيون نظاميون فى أدبهم . ليس هنالك من قيمة لالقاء تحيتك « السلام عليكم »[1] على من حولك بأى صورة من الصور إنها تلقى أولا من راكب الجمل الى راكب الحصان ، ومن راكب الحصان الى راكب الحمار ، ومن راكب الحمار الى السائر على قدميه ، ومن السائر الى

---

(١) بالعربية فى حروف لاتينية .

الجالس ، ومن مجموعة من الناس صغيرة الى مجموعة كبيرة ، ومن الأصغر الى الأكبر سنا... إنها المدارس الكبرى فى المنازل التى تعلم مثل تلك الأشياء . الا أن كل صبى سائق سيارة هنا يضع التحية على أطراف أصابعه . والآن كرر ورائى ترتيب هذه المعركة » .

كان من الأيسر علىّ تكرار عبارة التحية ، من تذكر هذا النظام ، فى هذه الفترة من الوقت . وأخذت أجاهد ، وأنا ابتسم لهذه الفكرة ، كى أعيد تثبيت هذه الأولويات المنسية من الذاكرة ، بينما أتفرس فى نفسى . كان صندوق – دُمى الحياة المصرية كلها لايزال هنالك ، كل شخصية فى مكانها – من يرش الشوارع ، الناسخ والنائح ، البغى والكاتب والقسيس ، كلها تبدو وكأن الزمن أو الحرب لم تمسسها . وأحسست بالكآبة تغزونى وأنا أرقبهم ، فقد غزوا الآن جزءا من الماضى – لقد اكتشف تعاطفى عنصرا جديدا فى داخله – التجرد .

لقد اعتاد سكوبى على القول ، « لاتبتئس ياولدى . فأنت كى تنمو تحتاج الى عمر بأكمله . الناس لم يعد لها قدرة على الصبر . لقد صبرت ،أمى تسعة أشهر ، من أجلى » . فكرة فريدة) .

وتذكرت وأنا أعبر جامع الجوهرى اننى وجدت هنا حميد الأعور بعد ظهر ذات يوم يحك شريحة ليمون فوق قرش صاغ قبل ان يمصها . هذه ، قال ، علاج ناجع للكلى التى يصيبها الحصى . كان معتاداً أن يعيش فى مكان ما فى هذا الحى الملىء بمقاهيه التى تعبق بالروائح المحلية مثل ماء الشراب الذى يفوح برائحة الورد، وخروف بأكمله يُقلب فوق الأسياخ وقد حشى بالحمام والأرز والبندق والجوز . كل الوجبات التى تتلهى بها الكروش والتى تدخل البهجة على باشوات المدينة ذوى البطون الفحلة القادرة !

فى مكان ما ، هنا ، على تخوم الحى العربى يقفز الترام ، يصدر فجأة صريرا ، كمن يطحن ، وهو يلف ويدور . يمكنك اللحظة ان تنظر ، عبر افريز الأبنية المضعضعة المبعثرة ، الى ركن الميناء المخصص للقوارب التى تعمل فى المياه الضحلة . ان مخاطر الحرب في البحر قد تضخمت الى فيضان وطوفان . الفلوكة ترقد هنالك تحيط بها قباب ملونة ، ومراكب ذات أشرعة مثلثة الشكل ، وزوارق نبيذ شرقية كتلك التى تستخدم فى بوغاز البسفور ، ومراكب شراعية من كل أنحاء المشرق . باقة من الصوارى والساريات والعيون - الإيجية المتأملة ، من الأسماء والأشكال والمقاصد . إنها كلها ترقد هنالك ، وقد غدت كل واحدة منها اثنتين بصورتها المنعكسة فى مياه البحر العميقة الساجية ، عندما تسقط الشمس عليها . ثم تنتزع كلها فجأة ليبدأ الكورنيش الكبير فى الامتداد ، عرض البحر الطويل الرائع الذى يحيط بالمدينة الحديثة ، العاصمة الهيلينية لرجال البنوك والحالمين بالأقطان - كل هؤلاء التجار المتنقلين من الأوروبيين الذين أعادوا اشعال حلم الأسكندر فى الفتح وأجازوه ، بعد قرون من التراب والصمت الذى فرضه عمر عليها .

هنا ، ايضا ، كان كل شىء دون تغيير نسبيا ، باستثناء سحابات الجند الكاكية الكئيبة تتحرك فى كل مكان ، والبارات الجديدة الأشبه بالطفح الجلدى والتى بزغت فى كل مكان لتقوم على تغزيتهم . خارج فندق سيسيل صفوف طويلة من لوريات النقل وقد طغت على سيارات التاكسى . خارج القنصلية حارس من البحرية غريب يحمل بندقية مزودة بحربة . إننى لا استطيع القول ان كل شىء قد تغير بصورة يستعصى علاجها . فهؤلاء الزوار كانوا يتسمون بالرؤية الوقتية لمن فقد القدرة على التدبر . كانوا أشبه بقرويين يزورون العاصمة فى مناسبة سوق موسمى . سرعان مايفتح باب يُسحبون منه الى الخزان الهائل

لمعارك الصحراء . الا أنه كانت هنالك مفاجآت . ففى القنصلية ، مثلا ، هنالك رجل بدين للغاية يجلس الى مكتبه كملك برغوث البحر ، يضغط راحتيه معا وأظافره الطويلة التى تشبه البندق مصقولة ، ذاك الصباح ، بعناية ، تحدث الى فى ألفة ، « إن مهمتى تبدو مثيرة للاستياء » ، تحدث فى صوت كصوت الفلوت ، « ورغم ذلك فهى ضرورية ، اننا نحاول وضع يدنا على كل شخص ذى قدرة خاصة قبل ان تصل يد الجيش اليه . لقد ارسل السفير إسمك الىّ ، وهو الذى دل عليك ادارة الرقابة ، التى افتتحت لتوها ، والتى لايزال طاقمها دون المستوى بصورة غريبة » .

« السفير ؟ » ، اثار الأمر حيرتى .

« إنه صديق لك . أليس كذلك ؟ »

« إننى بالكاد أعرفه » .

« إننى ، على اى حال ، مقيد بقبول توجيهه ، رغم اننى المسئول عن هذه العملية . »

كانت هنالك أوراق رسمية يجب ان تملأ . كان هذا البدين ، والذى لم يكن يثير النفور واسمه كنيلورث ميالا لمساعدتى . قلت ، « هنالك شىء ما غامض فى هذا الأمر » . هز كتفيه وفرد يديه البيضاوين . « أقترح أن تناقشه فى هذا الأمر عندما تلقاه » .

قلت ، « ليس فى نيتى ... » إلا أنه بدا من الحمق مناقشة الأمر أكثر من ذلك قبل أن أكتشف ماذا هنالك ، كيف يمكن لماونت أوليف .... ؟ إلا أن كنيلورث كان يتحدث مرة أخرى ، «أعتقد أنك قد تحتاج الى أسبوع حتى تجد لنفسك مأوى هنا تستقر فيه . هل أخبر الإدارة بذلك ؟ » .

« إن شئت » . قلت وأنا فى حيرة . سمح لى بالانصراف لأقضى بعض الوقت فى القباء انبش فى صندوق ملابسى البائد ، أنتقى منه قليلا من الملابس

التى تليق بالمدينة ، لففتها فى ورق أصفر ، وخرجت أسير فى بطء على امتداد الكورنيش نحو فندق سيسيل حيث انتويت ان أخذ حجرة ، أخذ حماما واحلق ذقنى ، وأعد نفسى لزيارة المنزل - الريفى كان هذا قد بدأ يلوح فى عقلى ، ليس بالضبط مثيرا للحيرة ، ولكن للقلق الذى يأتى به التوتر دائما . وقفت للحظة أحملق الى أسفل فى الماء الساكن . وحدث وأنا واقف هكذا أن وقفت سيارة الرولز الفضية بقممها الصفراء ، وقفزت منها شخصية ضخمة ملتحية ، جاءت نحوى مهرولة ممدودة الذراعين ، ولم أشعر الا وهذان الذراعان يطوقان كتفى واللحية تحك وجنتى فى تحية غالية . وحينئذ تعرفت فى هذه الشخصية على « بومبال » .

« دارلى » . وسحبنى وهو لايزال ممسكا بيدى فى رقة ، والدموع لاتزال فى عينيه ، الى جانب حيث جلس ثقيلا فوق احد الدكك الحجرية التى تحيط بحد البحر . كان مظهر بومبال على قدر من الأناقة ، وطرفا كُميه المنشيين يخشخشان وقد تجعدت حواشيهما . واضفى عليه شعر ذقنه وشاربه الداكنين جوا مهيبا وإن كان بائسا .. بدا أنه لم يتغير وسط كل تلك الزخارف . لقد لاح من خلالهما وكأنه « تيبريوس» فى رداء خيالى . وحملقنا بعاطفه فى بعضنا البعض وقتا طويلا صامتا . كان كلانا يدرك أن الصمت الذى لاحظه كل منا على الآخر كان صمتا اليما لسقوط فرنسا ، وهو حدث رمز فى وضوح تام إلى الانهيارالروحى لأوربا ذاتها . كنا مثل ندابين عند نصب تذكارى غير مرئى خلال دقيقتى الصمت واللتين أحيتا ذكرى سقوط يستعصى علاجه على الارادة البشرية . واحسست فى قبضة يده بكل الخجل واليأس من هذه المأساة السمجة ، وبحثت فى يأس عن العبارة التى يمكن أن تواسيه ، يمكن أن تؤكد له أن فرنسا ذاتها لا يمكن أن تموت حقا لمدى طويل ، مثلها مثل الفنانين الذين يولدون فى

هذا العالم ، الا ان هذا العالم . من الجيوش والمعارك كان كثيفا ، متماسكا ، مما جعل الفكرة تبدو ذات أهمية ثانوية – حيث إن الفن يعنى الحرية حقا . وتلك هى التى كانت على كف عفريت . وأخيرا واتتنى الكلمات ، « لا تغتم . لقد رأيت اليوم صليب اللورين الصغير يزدهر فى كل مكان » .

وتمتم وهو يعصر يدى مرة أخرى ، « أنت تفهم أعرف انك لابد ستفهم ، حتى وأنت فى أشد حالاتك نقدا لها ، كنت تدرك أنها تعنى الكثير لك، كما تعنى الكثير لنا ، » . ومخط أنفه فجأة ، فى ضجيج مفزع ، فى منديل نظيف، واستند الى الخلف وهو فوق الدكة الحجرية ، وعاد ، فى فجائية مذهلة ، ليغدو ذاته القديمة ثانية ، بومبال الماضى الهياب ، البدين الذى يتعذر كبحه أو السيطرة عليه . « هنالك الكثير الذى أخبرك به . سوف تأتى معى الآن وفى الحال ، دون كلمة . نعم ، انها سيارة نسيم . لقد اشتريتها لأنقذها من المصريين . لقد اعد لك ماونت أوليف وظيفة ممتازة . اننى مازلت فى سكنى القديم ، لكننا أخذنا الآن كل المبنى . يمكنك أن تستخدم الطابق العلوى كله . سوف تصبح الأمور كما كانت فى الماضى مرة أخرى » . وقفزت على قدمى لهذه الفصاحة ولهذا التنوع المحير من الآمال والتوقعات التى وصفها فى سرعة وثقة دون انتظار تعليق واضح . لقد بلغت انجليزيته ، من الناحية العملية ، حد الكمال .

قلت متلعثما ، « الأيام القديمة » .

إلا أن تعبيرا بالألم عبر تقاطيع وجهه السمينة ، وأنّ وهو يضغط بين ركبتيه بينما يقول ، « فوسكا ! » ، ولوى وجـهه بطريقة كوميدية وهـو يحملق فيّ ، « أنت لا تعرف » وكاد أن يكون فزعا . « إننى أحبها » .

وضحكت . هز رأسه فى سرعة . « لا تضحك » .

« يجب أن أضحك يابومبال » .

« إنني أتوسل إليك » . ثم مال إلى الأمام ، وقد ارتسم اليأس في تقاطيعه . خفض صوته وهو يستعد لإئتماني على شيء ما . تحركت شفتاه . كان من الواضح أن هنالك أمرا له أهمية مأساوية . استطاع أخيرا أن ينطقه وقد طــفرت الدمــوع من عينيه ، بينما يقول : " أنت لاتفهم . انني مخلص رغم أنفي[1] . ثم لهث كسمكة وكرر ، « رغم أنفي » . * إن هذا لم يحدث لي من قبل . لم يحدث أبداً " . ثم انفجر فجأة من صهيل بائس ، وعلى وجهه نفس نظرة الحيرة الواجفة . كيف يمكنني منع نفسي من الضحك ؟ لقد أعاد اليّ الاسكندرية في نَفسٍ واحد – تامة وكاملة – اذ لا يمكن أن تكتمل ذكرياتها دون أن يفكر المرء في بومبال واقعا في الحب . وأصابه ضحكي بالعدوى فأخذ يهتز مثل الجيلي . "كُف" ،أخذ يتوسل أخيرا في شجن كوميدي ، وقد حشرت ضحكاته المكتومة ، كلماته ، في غابة لحيته . " لم أنم معها ابدا ، ولو لمرة واحدة . ذلك هو الشيء الذي يثير الجنون » . وضحكنا لما قال أكثر مما ضحكنا في أي وقت .

إلا أن السائق استخدم بوق السيارة في رقة ، مماجعله يستعيد نفسه فجأة ، منكرا إياه أن لديه واجبات عليه أداؤها ، صاح ، « تعال . عليّ ان أخذ خطابا إلى« بوردر » قبل التاسعة . ثم أوصلك الى المسكن ، يمكننا تناول الغداء معاً . إن حميد ، بالمناسبة ، يعمل معي . سوف يسعد لمجيئك . أسرع » . مرة أخرى ، لم أعط لهواجسي الوقت الكافي لتتشكل نفسها . أمسكت بلفافتي اصحبه الى العربة المألوفة ، وقد انتابتني غصة وقد لاخطت أن تنجيدها تفـــوح

---

* - بالفرنسية في الأصل .

منه الآن رائحة السيجار الثمين والدهان المعدنى . كان صديقى يتحدث فى سرعة طوال الطريق الى القنصلية الفرنسية . ودهشت اذ وجدت أن موقفه كله ، نحوالرئيس ، قد تغير . كل المرارات والحنق القديم قد تلاشى . كان كلاهما ، كما يبدو ، قد هجر موقعه الوظيفى فى عاصمتين مختلفتين (كان بومبال فى روما) حتى يلحق بفرنسا الحرة فى مصر .كان يتحدث الآن عن بوردر فى عاطفة حانية . « إنه ، بالنسبة اليّ مثل ابى . انه رائع ». . قال صديقى وهو يدور بعينيه الداكنتين المعبرتين . وقد حيرنى هذا الأمر ، الى حد ما ، حتى رأيتهما معا وأدركت فى سرعة البرق أن سقوط بلدهما قد خلق بينهما رباطا جديدا . لقد ابيض شعر بوردر تماما ، وأفسحت سهولة انقياده ورقته الذاهلة مكانها للاصرار الهادىء لإمرىء تُمسك به المسئوليات التى لاتترك مكانا للعواطف . كان كل منهما يعامل الآخر فى كياسة وعاطفة ، جعلتهما فى الحقيقة اشبه بأب وابن أكثر منهما زميلين . إن اليد التى وضعها بوردر ، فى حب ومودة ، فوق كتف بومبال ، والوجه الذى كان ينظر به اليه ، كانا يعبران عن زهو تشوبه الوحشة والشوق الكئيب .

إلا أن الوضع الجديد للقنصلية كان وضعا تعساً الى حد ما . النوافذ العريضة تطل على الميناء ، حيث يرسو الأسطول الفرنسى مثل رمز لكل ماهو مؤذ من النجوم التى تحكم مصير فرنسا. كان فى وسعى أن اتبين أن مجرد رؤياه راقدا ، خاملا ، كان تبكيتا وتأنيباً أبديا لهم . ولم يكن فى مقدورهم تفادى ذلك . كانت كل لفتة مابين المكاتب العالية قديمة الطراز والحائط الأبيض ، توقع بأعينهم فوق صفوف هذه السفن المصفوفة النافرة . كانت اشبه بشظية تسكن العصب البصرى . كانت عينـا بوردر تتوهجـان بتأنيب الذات والرغبـة الحـارة

المتعصبة فى إصلاح هؤلاء التابعين الجبناء للشخصية التى كان يشير إليها بومبال دوما (بأقل تعبيراته دبلوماسية) . « هذا الشيخ بوتان [١] . كان مما يبعث على الراحة أن ينفس المرء عن مشاعره الحادة ، بأستبدال حرف بآخر . وقفنا نحن الثلاثة ننظر الى الميناء ، الى هذا المنظر الاستفزازى . وفجأة انفجر الرجل العجوز ، « لماذا ايها البريطانيون لا تأسروهم ، وترسلون بهم الى الهند كما أرسلتم الايطاليين ؟ اننى لن استطيع استيعاب ذلك ابدا . سامحنى . ولكن هل تعرف انه مسموح لهم الاحتفاظ بأسلحتهم الخفيفة ، وديدبانات فوق الأسطح والحصول على اجازات ينزلون فيها الى الشاطىء ، وكأنهم مجرد اسطول محايد ؟ إن الأدميرالات يتعشون ويشربون النبيذ فى المدينة . الكل يخادع لحساب « فيشى » . إن هنالك مشاجرات بين اولادنا وبحارتهم » . كان فى وسعى أن اتبين أنه موضوع قادر على استشاطة غضبهم . وحاولت أن أغير دفة الحديث ، حيث لم يكن فى وسعى ان أقدم من المواساة غير القليل .

استدرت الى مكتب بومبال الذى كانت تنتصب عليه صورة فوتوغرافية كبيرة داخل إطار ، لجندى فرنسى ، وتساءلت من يكون ، وأجاب كلاهما على الفور ، «انه منقذنا » . وعرفت فيما بعد ، بالطبع ، أن هذا الرأس اللابرادورى الحزين ، المعتز بنفسه ، إنما هو ديجول بذاته . اوصلتنى سيارة بومبال الى المسكن . تحركت الهمسات المنسية فى أعماقى وأنا ادق الجرس .فتح لى حميد الأعور . وأقدم ، بعد لحظة من الدهشة ، على قفزة صغيرة غريبة فى الهواء . إن النبض الأصلى لهذه القفزة ، كان يجب أن يكون عناقا كَبحـَه فى حينه . الا أنه

---

(١) يقصد بيتان - المترجم .

وضع أصبعين فوق معصمى وقفز كطائر بنجوين وحيد فوق كتلة من الجليد ، قبل أن يتراجع معطيا لنفسه فسحة تمكنه من ممارسة التحية الرسمية كما يجب أن تكون . وصحت ، «ياحميد» ، وأنا مبتهج قدر ابتهاجه . وتماسكنا فى تحية احتفالية .

كان المكان كله قد تبدل ، مرة اخرى . أعيد دهانه وكسى بالورق ، وأثث بأثاث ثقيل ذى طراز رسمى . وقادنى حميد وهو يحدق فى إعجاب ، من حجرة الى حجرة ، بينما حاولت أنا عقليا أن أعيد بناء مظهره الأصلى من ذكريات غدت الآن باهتة وفى غير موضعها . كان من العسير ، مثلا ، رؤية ميليسا صائحة أو زاعقة . يقف الآن فى نفس المكان الذى كانت تقف فيه ، بوفيه أنيق مزدحم بالقوارير . (كان بورسواردن يقف ، ذات مرة ، مشيرا بيديه من الركن البعيد) وعادت الى ذاكرتى قطع من الأثاث القديم . « هذه الأشياء القديمة لا بد أنها تتجول فى مكان ما » ، هكذا فكرت فى هذا الاقتباس من شاعر المدينة . كان الشىء الوحيد الذى يمكن التعرف عليه هو مقعد النقرس القديم الذى يستخدمه بومبال والذى عاد يظهر بطريقة غامضة فى نفس موضعه تحت النافذة . ربما طار عائدا معه من روما ، انه يشبه بومبال . الحجرة – الصندوق حيث كنت انا وميليسا ..... قد غدت الآن حجرة حميد الخاصة . انه ينام على نفس السرير غير المريح والذى نظرت اليه بشعور يشوبه الانقباض ، محاولا ان امسك بشذا وجو بعد الظهر الطويل لتلك الأيام الساحرة عندما ... الا ان الرجل الضئيل كان يتكلم . يجب ان يعد الغداء . ثم نبش فى احد الأركان ودفع فى يدى بصورة مجعدة لابد أنه سرقتها فى وقت ما من ميليسا . كانت من تلك الصور التى يجرى تصويرها فى الشارع وقد بهتت تماما . كان وجهها يستدير نصف استدارة

بعيدا عنى ، تبتسم – مقسمة انتباهها بين ماأقول ، فى جدية تامة ، ونوافذ الحوانيت المضاءة التى تمر بها . لابد أن هذه اللقطة قد اخذت فيما بعد ظهر شتوى ، حوالى الساعة الرابعة . ماالذى كنت اقوله بهذه الجدية ؟ لم يكن فى وسعى ، فيما يخص حياتى ، ان استعيد الزمان والمكان . ومع ذلك ، فهاهى هناك فى اللونين الأبيض والأسود ، كما يقولون . ربما كانت الكلمات التى أقولها مهمة ذات مغزى – أو ربما كانت بلا معنى ! كانت هنالك كومة من الكتب تحت ذراعى ، وكنت ارتدى المعطف الواقى من المطر ، القذر العتيق ، والذى أعطيته أخيرا لزولتان. كان فى حاجة الى تنظيفه تنظيفا جافا . وشعرى كان فى حاجة الى قصه من الخلف . كان من المستحيل ان يستعيد العقل مثل مابعد الظهر هذا ، والذى اختفى وتلاشى ! وحملقت ، فى دقة وعناية ، فى تفاصيل الظروف التى صاحبت الصورة كما ينحنى امرىء مافوق لوحة مرسومة على الجص بصورة لايرجى علاجها ، يحاول استعادتها كانت ترتدى معطفها التترى المصنوع من جلد عجل البحر ، تحمل حقيبة يد لم ارها البتة فى حوزتها . «ذات مرة فى اغسطس – هل كان اغسطس حقا ؟ » اقتبست بعقلى لنفسى ، مرة أخرى ، من شاعر المدينة .

واستدرت الى الفراش التعس الأشبه بآلة تعذيب ، وأنا أهمس اسمها فى رقة مرة اخرى . واكتشفت فى دهشة وكدر انها قد تلاشت تماما . كانت المياه قد غمرت رأسها . بدا الأمر وكأنها ابدا لم تبعث فىّ الألم والشفقة والتى (كنت أقولها لنفسى دائما) سوف تعيش . ربما وقد تحولت الى اشكال أخرى – تعيش ظافرة الى الأبد ، لقد ابليتها كما يبلى المرء زوجا من الجوارب القديمة . ان مسلك هذا الاختفاء قد ادهشنى وصدمنى . هل يمكن « للحب » ان يبلى هكذا ؟ ميليسا» قلت مرة أخرى ، وأنا اسمع صدى الكلمة المحببة فى الصمت . اسم

عشب عطرى حزين ، اسم حاج الى اليوسيس . هل تَقل هى الآن عن أريج أو شذى ؟ هل كانت مجرد صلة أدبية ، صلة بكتاب أو فهرس كتاب، صلة كالخربشة على حواشى قصيدة من الدرجة الثانية ؟ وهل ذوبها حبى فى هذا النمط الغريب، أم هل كان الأدب فقط ، هو ماحاولت استخلاصه منها ؟ الكلمات . حَمّام الكلمات اللاذع ! وأحسست بالجرم . بل حاولت (بهذا الخداع الدفين للنفس ، والذى هو أمر طبيعى للغاية عند من تتحكم فيهم عواطفهم) أن أفرض عليها عودة الظهور بفعل إرادى ، ان أعيد استدعاء قبلة واحدة من قبلات بعد الظهر تلك ، والتى كانت بالنسبة لى ، ذات مرة ، حصيلة معانى المدينة العديدة . بل حاولت عامدا أن أعصر الدموع من عينىّ ، أن أنيم ذاكرتى مغناطيسيا ، بتكرار ذكر اسمها كالتعويذة . ولم تثمر التجربة شيئا . كان اسمها قد بلى تماما ! كان مثيرا للخجل حقا ألا أكون قادرا على اغداق أضأل قدر من العطاء على هذه التعاسة الغامرة . نعم سمعت صوت بورسواردن اللاذع كقرع جرس بعيد وهو يقول . «إلا أن تعاستنا قد ارسلت الينا كوليمة ، كان علينا ان نعربد فيها ، وان نستمتع بها حتى الثمالة » . كانت ميليسا . فى بساطة ، واحدة من اردية الحب العديدة !

استحممت ، وغيرت ثيابى ، عندما وصل بومبال على عجل لغداء مبكر ، وقد امتلأ بسرور متقطع بسبب حالته العقلية الجديدة العجيبة . كانت فوسكا ، وهى سبب تلك الحالة ، لاجئة متزوجة من ضابط بريطانى . « كيف حدث مثل ذلك التفاهم العاطفى المفاجىء ؟ » . إنه لا يعرف . ووقف لينظر الى وجهه فى المرآة المعلقة . « إننى من آمن باشياء كثيرة عن الحب » .استمر يخاطب صورته فى المرآة بكآبة بينما يمشط لحيته بأصابعه ، « الا أننى لم أؤمن أبدا بشىء كهذا . ولو حدث منذ عام ، أن قلت أنت ما أقوله أنا الآن لقلت لك بوف ، إنها فى بساطة بذاءة ايطالية – نفاية من العصور الوسطى . لقد اعتدت ان أفكر أن كبح الشهوة

غير صحى من الناحية الطبية ، حتى أن ذلك الشيء الملعون يمكن أن يضمر أو يتساقط إن لم يستخدم كثيرا . والآن انظر الى صديقك الشقى - الصديق الذى يفتقد السعادة ! اننى احس بنفسى مقيدا مكمما بوجود ذات فوسكا . اسمع ، لقد جاء كيتس من الصحراء وخرجنا معنا وشربنا حتى ثملنا . اخذنى الى حانة جولفو . كانت فى اعماقى رغبة - نوع من التجريبية - ان اضاجع غانية . لا تضحك . فقط لأرى ماذا حل بمشاعرى . وشربت خمس من كئوس الأرماجناك (١) لأنعشها . وأحسست اننى قد حققت ما أردت نظريا . حسنا قلت لنفسى ، سوف أشرخ هذه العذرية . سوف ازيل بكارة * هذه الصورة الرومانسية مرة والى الأبد ، وإلا أخذ الناس فى الكلام والحديث بأن بومبال العظيم إنما هو خصى . ولكن ماذا حدث ؟ أمسك الذعر بى . كانت مشاعرى صماء عمياء مثل برميل من دم . ان منظر كل هؤلاء الفتيات قد جعلنى اتذكر فوسكا بالتفصيل . كل شيء حتى يداها فى حجرها وهى تحيك . أصابنى البرود كمن وضعت دندرمة فى ياقته . أفرغت مافى جيوبى فوق المائدة وهربت فى سرعة ، وسيل من نداءات القطط يلاحقنى من أصدقائى القدامى . كنت بالطبع أسب . لم يكن ذلك ما تتوقعه فوسكا . كلا ، انها تقول لى . اذهب مباشرة واحصل على فتاة ان كان عليك ان تفعل ذلك . ربما - كانت هذه الحرية بذاتها هى التى تحتفظ بى داخل السـجن ؟ من يدرى ؟ إن هذا لغز تام بالنسبة الىّ . انه لمن الغريب أن هذه الفتاة تجذبنى من شعرى الى سبل الشرف ، هكذا - وهى أماكن غير مألوفـة لى » .

وهنا خبط نفسه برقة فوق صدره فى حركة تأنيب وتبكيت ممزوجة بنوع من الشعور بالصواب المشكوك فيه . وجاء ليجلس مرة أخرى وهو يقول فى كآبة :

---

(١) براندى فرنسى المترجم .

*) بالفرنسية فى الأصل .

« أنت ترى أنها حبلى من زوجها ، ويمنعها احساسها بالشرف من خداع رجل فى الخدمة العاملة ، رجل يمكن أن يموت فى أى وقت ، خاصة أنها تحمل طفله فى أحشائها .

وأكلنا معا لدقائق معدودة ، ثم انفجر ، « ولكن ماذا علىّ أنا أن أفعل بمثل تلك الآراء ؟ » أخبرنى ، لو سمحت ، اننا فقط نتحدث معاً ومع ذلك ففى هذا ما يكفى » . كان يتكلم وفى صوته لمسة احتقار لذاته .

« وماذا عنه ؟ » .

وتنهد بومبال ، « إنه رجل طيب وعطوف للغاية ، له تلك الرقة التى هى سمة قومية ، والتى اعتاد بورسواردن أن يقول عنها ، إنها نوع من الاضطراب العصبى الجبرى ، والذى نتج عن حالة الضجرالتى تثيرها الحياة الانجليزية ، التى تبعث على الانتحار ! إنه أنيق ، مرح يتحدث لغات ثلاثا . ومع ذلك فإنه ليس بالضبط بارداً [1] ، لكنه فاتر [2] - أعنى فى مكان ما من طبيعته الداخلية . إننى لست متأكدا إن كان نموذجيا فى ذلك ام لا . انه يجسد ، على اى حال ، تصورات عن الشرف يمكن أن تكون مفخرة لتروبادور [1] إن هذا لايعنى بالطبع ، اننا نحن الأوربيين نفتقد الشرف ، لكننا لا نشدد على الأشياء بطريقة غير طبيعية . أعنى أن الأنضباط الذاتى يجب أن يكون أكثر من الإذعان لنمط مامن السلوك . اننى أبدو مرتبكا . نعم ، إن افكارى مرتبكة قليلاً فيما يختص بعلاقتهما . أعنى شيئا ما كالتالى : إنه يؤمن حقا فى أعماق خيلاته القومى أن الأجانب غير قادرين على أن يكونوا أوفياء فى الحب . ومع ذلك فهى صادقة وأمينة مع نفسها . إنها لا تقدم على فعل إلا ان كان مواتيا لها بصورة طبيعية ،

---

(١) شاعر يشد الشعر الوجدانى ، ظهر فى القرن ١١ حتى القرن ١٣ فى جنوب فرنسا وشمال ايطاليا - المترجم .

(٢) بالفرنسـية فى الأصل .

دون انفعال زائف بالشكل . إنها تتصرف طبقا لأحاسيسها . إننى أعتقد أنه لو كان يحبها حقا بالمعنى الذى اقصده ، لما ظهر دوما كمجرد متفضل بانقاذها من وضع يصعب احتماله . اننى اعتقد ، أنه فى مكان ما فى داخلها ، رغم أنها لا تعى ذلك ، هنالك احساس بالظلم يتأجج الى حد ما ، انها مخلصة له .... كيف ؟ فى كبرياء الى حد ما ؟ لا أدرى . لكنها تحبه بالفعل بهذا النمط الوحيد الذى يسمح به . إنها فتاة رقيقة المشاعر . لكن ماهو غريب أن حبنا ، الذى لايشك فيه أىّ منا ، والذى تبادلنا الاعتراف به وقبوله - قد تلون بطريقة غريبة بهذه الأوضاع . وإن كان هذا الحب قد جعلنى سعيدا ، إلا أنه جعلنى أيضا غير متيقن من نفسى الى حد ما . إننى أغدو غاضبا ثائرا فى بعض الأحيان . إننى أحس أن حبنا قد بدأ يحيطه الجو الذى يحيط بالتكفير والتوبة . اننى اتساءل إن كان حب فتاة لبقة لطيفة (١) يجب أن يكون هكذا . انه أيضا فارس (١) من الطبقة الوسطى ، عاجز عن ايقاع الألم ، كما هو عاجز عن منح المتعة الجسدية كما يجب القول . ومع ذلك فهو ايضا رقيق يفيض حنانا واستقامة . الا أن هذا هراء فالمرء لا يستطيع أن يحب شرعا دون إحساس بالعدالة ، هل يمكن للمرء أن يفعل ذلك ؟ إنه ، فى مكان ما ، على امتداد علاقتهما ، يخيب ظنها دون أن يعى هذه الحقيقة . كما أعتقد أنها لا تدرك ذلك بأى حال ، بعقلها الواعى . إلا أنهما عندما يكونان معا ، فأنت تحس أنك فى حضرة شىء ما غير مكتمل ، غير متماسك ، مجرد اثنين تلحمهما التقاليد والأخلاق الحميدة . اننى أدرك ما لكلامى

---

(١) بالفرنسية فى الأصل .

من صدى قاس ، لكننى أحاول وصف ماأراه بالضبط . أما خلا ذلك ، فنحن صـــديقان جيدان ، كما أننى ، فى الحـــقيقة أحبه بالفعل . وهو عندما يأتى فى اجـــازة ، فإننا نخرج معا نحن الثلاثة نتعشى ونتحدث فى الســياسة ! أوف ! » .

وأستند الى الخلف فى مقعده ، مرهقا من جراء العرض الذى قدمه . تثاءب فى قوة قبل أن ينظر فى ساعته . استمر مستسلما ، « إننى أعتقد انك سوف تجد كل ذلك غريبا للغاية ، أعنى الرؤى الجديدة للناس ، إلا أن كل شىء هنا يبدو غريبا ، ! ؟ ليزا ، شقيقة بورسواردن ، مثلا - أنت لا تعرفها ؟ إنهاضريرة . يبدو لنا جميعا أن ماونت أوليف يجن بها حبا . لقد جاءت أساسا لتجمع أوراقه ، ولتجد مادة لكتاب يكتب عنه . هذا مايقال ويدعى . لقد اقامت ، على أى حال ، فى السفارة منذ ذلك الحين . انه عندما يكون فى القاهرة ، أداء لأعماله ، يزورها فى نهاية كل اسبوع ! إنه يبدو الآن تعسا ، بصورة ما - ربما اكون ايضا كذلك ؟ » ثم نظر الى المرأة مرة أخرى ، وهز رأسه فى حسم . كان يبدو عليه انه ليس كذلك . « حسنا » ، قال فى تواضع ، « من المحتمل أن أكـون مخطئا » .

دقت الساعة الموضوعة فوق رف المدفأة ، فوقف فى عجلة . قال ، « يجب أن أعود الى المكتب ، فهنالك مؤتمر سينعقد . ماذا عنك ؟ » . أخبرته عن مشروعى الى كرم أبوجيرج . صفر ناظرا الىّ فى حدة . « سوف ترى جوستين ثانية ، إه ؟ » . فكر للحظة ثم هز كتفيه مرتابا ، «إنها معتكفة الآن ، أليست كذلك؟ لقد حدد « ممليك » اقامتها فى المنزل ، لم يرها احد منذ سنين . اننى لاأعرف ماالذى أوقع بنسيم ايضا . لقد تقطعت علاقتهما بماونت اوليف تماما ، وباعتبارى موظفا فإننى يجب أن اتبع موقفه . وهكذا فإننا لا نحاول حتى

التلاقى ، أعنى حتى لو كان مسموحا بذلك . ان كليا تراه فى بعض الأحيان . إننى آسف لنسيم . عندما كان فى المستشفى لم تستطع الحصول على تصريح لزيارته . إن الأمر يبدو اشبه بأرجوحة الملاهى . أليس كذلك ؟ أشبه بما يجرى فى بول جونز . زملاء رقص جدد حتى تتوقف الموسيقى ! إلا أنك سوف تعود ، وتشاركنى هذا المكان ، أليس كذلك ؟ اذن سأخبر حميد . يجب أن أذهب . حظا طيبا» . كان فى نيتى ان انام قيلولة قصيرة قبل أن تأتى السيارة ، إلا أن إرهاقى كان قد بلغ حدا جعلنى أغرق فى نوم ثقيل لحظة أن لمست رأسى الوسادة . ربما كنت أنام طوال يوم لو لم يوقظنى السائق . جلست نصف فاقد الوعى فى السيارة المألوفة لى ، أراقب أراضى البحيرات ، كما أتصورها ، تنمو حولى بأشجار النخيل والسواقى – مصر التى تعيش خارج المدن ، قديمة ، خلوية ، خلف خمار من سراب وضباب . وأخذت تتحرك الآن الذكريات القديمة ، بعضها رقيق يبعث السعادة ، والبعض قاس مثل آثار جراح ، ندوب العواطف القديمة التى يجب علىّ أن أطرحها جانبا فى القريب العاجل . كانت الخطوة الأولى الآنية هى مواجهة جوستين مرة أخرى . هل ستساعدنى أم تعوق مهمتى للتحكم فى تلك « الذخائر الحساسة » الثمينة وتقييمها ، كما يسميها « كولريدج » ؟ كان من الصعب معرفة ذلك . وأخذت أشعر بالقلق والترقب يتسابقان كفرسى رهان مع كل ميل تقطعه السيارة . إنه الماضى !

★★★

- ٢ -

أراض عتيقة ، على حالها ، لم تمس منذ كانت فيما قبل التاريخ - بحيرات فى خلوتها ، بالكاد مستها خطى القرون المتعجلة ، حيث سلالات البجع وإيبس والبلشون الأصيلة المتصلة تبسط أقدارها البطيئة فى عزلة تامة . وقطع من رقع برسيم اخضر فى لون الجوخ تموج بالحيات وسحابات الناموس . مساحة أرض خالية من الطيور المغردة ، ورغم ذلك مليئة بالبوم والهدهد والقاوند الذى يصيد بالنهار ، يتغذى ، يمتلىء باللحم على ضفاف الممرات المائية السمراء النحاسية . قطعان من كلاب نصف وحشية تبحث عن زادها . الجاموس معصوب العينين يدير السواقى فى ظلام ابدى . المقامات والزوايا الصغيرة القائمة فى الأراضى على جانبى الطريق والمبنية من الطين ، وقد فرشت أرضياتها بالقش الطازج حيث يستطيع المسافر التقى الورع أن يجد مكانا للصلاة أثناء ترحاله. مصر ! الأوزة المجنحة تبحر فى سرعة وسط طوفان المياه . وصوت آدمى يغنى فى تلكؤ مقطعا من أغنية . وفرقعة الريح فى الأزرة الشامية تنقر أوراقها الخشنة . والطين السائل تفجره عواصف الأمطار ، فى جو مشحون بالتراب ، فيلقى بالسراب فى كل مكان ، مما يسلب القدرة على الرؤية . كتلة طين تنتفخ الى حجم رجل ، والرجل الى حجم كنيسة . وفلقات كاملة من السماء والأرض تتزحزح ، تتفتح كما ينفتح الغطاء ، أو تميل على جانبها حتى تنقلب رأسا على عقب . قطعان ماشية تسير داخلة خارجة ، من تلك المرايا الملتوية ، تظهر ، تختفى ، تستحثها صرخات مرتعشة صادرة عن ألوف من رعاة غير مرئيين . ملتقى هائل لصور خلوية ريفية من التاريخ المنسى للعالم القديم والتى لاتزال تعيش جنبا الى

جنب مع تلك التى ورثناها . سحابات نمل فضى الأجنحة تطفو لتلتقى ، تتوهج ، فى ضوء الشمس . صدى قعقعة حوافر الخيل على الأرضيات الطينية لهذا العالم المفقود ، تبدو أشبه بنبضات عقل يسبح بين تلك الحجب وأقواس قزح الذائبة .

وهكذا اخيرا فإنك وقد سرت تتبع منحنيات الجسور الخضراء ، تصل الى منزل مبنى بالعرض فوق تقاطع القنوات البنفسجية ، وقد ثبتت بقوة ضلف شبابيكه الخشبية المشققة الباهتة . حجراته معلق على جدرانها تذكارات دراويش ، دروع وتروس ، رماح مخضبة بالدماء ، وطنافس رائعة . الحديقة موحشة ، ليس هنالك من يرعاها . فقط الشخوص الصغيرة تتحرك بأجنحتها السيلوليدية – خيالات هائة تحرس المكان من العين الشريرة . صمت عادات أوقف استعمالها تماما . إلا أن كل ريف مصر يشارك حينئذ فى هذا الاكتئاب النفسى بسبب كونه مهجورا ، مسموحا له أن يبذر البذور ، أن يخبز ويتشقق ، أن يتعفن تحت الشمس النحاسية .

استدرنا اسفل قوس نقرقع فوق حصا الباحة المظلمة . هل ستكون تلك نقطة فراق جديدة ، أو عودة لنقطة البداية ؟

من العسير أن يعرف المرء ذلك .

★★★

- ٣ -

وقفت على أعلى نقطة فى السلم الخارجى تنظر الى اسفل فى الباحة المظلمة ، أشبه بخفير أو حارس ، تمسك فى يدها اليمنى بشمعدان يلقى بدائرة من الضوء الباهت حولها . وقفت ساكنة تماما وكأنها تمثل دورا فى لوحة حية . بدا لى أن النغمة التى نطقت بها اسمى ، من البداية ، كانت مسطحة مترددة عن عمد . ربما يعكس ذلك حالة ما عقلية غريبة فرضتها هى على نفسها ، أو ربما لأنها لم تكن متيقنة أنه أنا . كانت تسائل الظلام . تحاول أن تستخرجنى من داخله مثل ذكرى ما ، عنيدة ومرهقة ، انسابت بعيدا عن المكان . أحسست كما يحس إمرىء استيقظ أخيرا من نوم دام قرونا . أحسست وأنا أسير فى بطء وحذر أصعد السلم الخشبى الذى كان يقرقع ، أن نسمة جديدة من السيطرة على الذات تحوم فوقى . كنت قد بلغت منتصف السلم عندما تكلمت ثانية ، وبحدة فى هذه المرة ، يشوب نغمة صوتها شىء ما يكاد يكون نذيرا . « لقد سمعت الخيل - أخذت على حين غرة . نثرت عطرا على ردائى . اننى كريهة الرائحة يادارلى . عليك أن تسامحنى » .

بدت أنها قد نحلت كثيرا . تقدمت خطوة الى رأس السلم وهى تحمل الشمعدان . وضعت ، بعد ان حملقت فى عينىّ فى قلق ، قبلة على وجنتى اليمنى. كانت باردة برودة النعى ، جافة جفاف الجلد . شممت ، عندما فعلت هى ذاك ، رائحة العطر المراق . كانت تطلق منه ، حقيقة ، موجات نافذة . أوحى شىء ما فى سكون منحاها ، الذى أرغمت نفسها عليه ، بعدم استقرارها داخليا . جالت بعقلى فكرة انها ربما كانت تشرب الخمر . صدمت ، ايضا ، صدمة ضئيلة وأنا أرى أنها قد وضعت بقعة متألقة من الأحمر فوق عظمتى وجنتيها ، بدت حادة فى

مقـابل وجه أبيض بياض الموتى ، عليه كمية وافرة من المسـاحيق . انها ان كانت لاتزال جميلة ، فذاك جمال سلبى هامد لمومياء طليت بطريقة خرقاء حتى تعطى وهـما بالحـياة ، أو صورة لونت بألوان خفيفة بطريقة لامبالية . « يجب الا تنظر فى عينىّ » ، قالت فى حدة بعد ذلك ، وبطريقة آمرة . رأيت أن جفن عينها اليسـرى يتدلى قليلا ، مهددا بتحـويل تعبير وجههـا الى شىء أشبه بمن ينظر شزرا بمؤخرة عينه – كان الشىء الأكثر وضوحا هو ابتسامة الترحيب التى حاولت تبنيها فى هذه اللحظة . « هل تفهم ؟» . وأومأت برأسى . تساءلت ان كان المسـحوق الأحمر قد صمم خصيصـا لجذب الانتباه بعـيدا عن ذلك الجفن المتدلى ؟ « لقد اصـابتنى ضربة » ، قالت هامسـة وكأنها تشـرح الأمر لنفسها . وبدت وهى واقفة ساكنة أمامى ، تحمل الشمعدان ، كأنما تستمع الى صـوت آخر . أخذت يدها ، ووقفنا معا هكذا لحظة طويلة ، يحملق الواحد منا فى الآخر .

« هل تغيرت كثيرا ؟» .

« أبداً » .

« بالقطع تغيرت . لقد تغيرنا جميعاً . كانت تتحدث الآن فى صراخ يفيض بالازدراء ، رَفَعَت يدى ووضعتها على وجنتها . أومأت حائرة . استدارت تشدنى الى الشرفة ، تسير فى خطى متيبسة متعالية . كانت ترتدى ثوبا من التفتاة الداكنة ، يصدر هسيساً عالياً ، عند كل حركة تتحركها . كان ضوء الشموع يقفز ، يتراقص فوق الجدران . ووقفنا أمام باب قاتم ونادت ، « نسيم» فى نغمة حادة صدمتنى . كانت النغمة التى ينادى بها المرء خادما . وظهر نسيم بعد لحظة من حجرة النوم التى تكتنفها الظلال ، مطيعا كجنى .

« دارلى هنا » ، قالتها بطريقة من يقوم بتسليم ربطة من الربطات ، وهى

تضع الشمعدان فوق منضدة واطئة واضطجعت فى سرعة فى مقعد طويل من اغصان مجدولة واضعة يدها فوق عينيها .

كان نسيم قد غير ملابسه ، وارتدى بذة مفصلة بطريقة أكثر ألفة . جاء يومىء برأسه ويبتسم لى بذلك التعبير العاطفى القلق الذى اعتدته منه ، ومع ذلك فقد كان ، مرة أخرى » مختلفا بصورة ما . كان يحيط به جو من يروعه تهديد ما ، يصوب نظرات جانبية وتحتيه نحو شخص جوستين ، يتحدث فى رقة كما يتحدث المرء فى وجود شخص نائم .

هبط الارتباك علينا فجأة ونحن نجلس فى تلك الشرفة الظليلة ، نشعل السجائر . وأمسك بنا الصمت امساكة ترس لا يعمل .

« إن الطفلة فى السرير ، مبتهجة بالقصر كما تدعوه ، وبوعد منى أن أحضر فرسا تمتلكه ، اعتقد أنها سوف تكون سعيدة » .

وفجأة تنهدت جوستين فى عمق دون أن تزيح يدها من فوق عينيها . قالت فى بطء ، « انه يقول أننا لم نتغير » .

ابتلع نسيم ريقه واستمر ، كأن لم يسمع مقاطعتها ، بنفس الصوت الخفيض ، « لقد كانت تريد البقاء مستيقظة حتى تأتى ، إلا أنها كانت متعبة للغاية » .

ومرة أخرى قاطعت المضجعة فى الركن الظليل ، قالت ، « لقد عثَّرت على غطاء رأس ختان ناروز فى الصوان . رأيتها تحاول ارتداءه » . وأطلقت ضحكة قصيرة حادة اشبه بالنباح . ورأيت نسيم يجفل فجأة ويدير وجهه بعيدا .

« لدينا نقص فى الخدم » ، قال فى صوت منخفض ، وفى سرعة ، كأنما ليسد ثقوب الصمت التى صنعتها ملاحظتها الأخيرة .

اتسم الجو الذى يحيط بارتياح واضح تماما ، عندما ظهر « على » ودعانا الى العشاء . تناول الشمعدان وقادنا الى المنزل ، كان لهذا المشهد نكهة الجناز - الخادم فى المقدمة بجلبابه الأبيض وحزامه القرمزى ، يمسك عاليا بالشمعدان حتى ينير طريق جوستين والتى كانت تسير يحيط بها جو من الاستغراق الذهنى، من النأى والبعد ، كنت أتبعها ، ونسيم خلفى عن كثب : هكذا سرنا فى طابور مفرد عبر الطرقات غير المضاءة ، خلال حجرات عالية الأسقف ، وقد غطيت جدرانها بالسجاد المترب ، وأرضياتها بألواح خشب خشنة تزيق تحت أقدامنا . وأخيرا وصلنا الى حجرة منسية ، يمكن القول ، انها كانت فى قصر عبد الحميد الشتوى ، ستائر نوافذها المنقوشة مزينة بخيوط فضية وذهبية ، تطل على حديقة زهور مهجورة . هنا كان ضوء الشموع بظلاله المثيرة نموذجيا كاضافة لما بها من أثاث ، كان فى ذاته لافتا للانتباه . كان يمكن للألوان الذهبية والحمراء والبنفسجية أن تبدو غير محتملة ان رؤيت فى الضوء الكامل ، إلا أنها بدت فى ضوء الشموع رائعة بصورة قاهرة .

جلسنا الى مائدة العشاء ، وتنبهت ، مرة أخرى للتعبير الذى يكاد يكون روعا على وجه نسيم ، بينما يحملق حوله . ربما لم تكن تلك هى الكلمة المناسبة . كان كأنه يتوقع أنفجارا مفاجئا . يتوقع تعنيفا لايمكن التنبوء بمحتواه ينفجر من شفتيها . كان عقليا معدا لرده وصده ، لاتقائه بأدب رقيق . الا ان جوستين تجاهلتنا . كان همها الأول ان تصب كأسا من النبيذ الأحمر ، ترفعه الى الضوء كأنما تتثبت من لونه ، ثم تصوبه نحو كل منا بدوره مثل علم ، وتحتسيه فى دفعة واحدة قبل ان تضع الكأس على المنضدة . ان لمسات المسحوق الأحمر اضفت عليها نظرة مشتعلة ، بالكاد تضاهيها نظرتها نصف الناعسة المخدرة . كانت أصابعها مدهونة بالذهبى المصقول ، وقد وضعت كوعيها فوق المائدة ، وسندت

ذقنها للحظة طالت وهى تتفحصنا فى حدة ، الواحد منا تلو الآخر . تنهدت وكأنها مفعمة بالقرف والاشمئزاز . قالت ، « نعم لقد تغيرنا جميعا » ، ثم استدارت كمن يوجه اتهاما ، ودفعت بأصبعها كالطعنة نحو زوجها وقالت ، « لقد فقد إحدى عينيه » .

وتجاهل نسيم هذا عمدا ، دافعا نحوها بنوع مما على المائدة من طعام ، ليشدها بعيدا عن هذا الموضوع الموجع . تنهدت ثانية وقالت ، « دارلى ، أنت تبدو افضل بكثير، الا ان راحتيك مشققتين متصلبتين . لقد احسست بهما فوق وجنتى » .

«أعتقد من قطع الأخشاب » .

« أه ، هكذا ! إنك تبدو بحالة جيدة ، جيدة جدا .»

(تحدثت بعد اسبوع الى كليا . قالت لها ، « ياالهى . لقد غدا خشنا للغاية . ان القدر الضئيل من الاحساس والشعور الذى كان لديه ، قد غرق فى وحل الفلاح ») .

وسعل نسيم ، فى هذا الصمت فى عصبية ، متحسسا العصابة السوداء فوق عينه . كان من الواضح انه يشمئز من النغمة التى تشوب صوتها ، يرتاب فى ثقل الجو الذى يمكن ان يحس المرء به ، يتنامى تحته فى بطء مثل تموج الأمواج ، ضغط كراهية غدا أحدث العناصر التى استجدت فى حديثها وسلوكها . هل تحولت حقا الى امرأة سليطة ؟ هل غدت مريضة ؟ كان من العسير أن تنبعث من الماضى صورة تلك العشيقة السمراء الساحرة ، والتى كانت كل حركة منها أو إيماءة ، مهما كانت غير سديدة أو أسىء تقديرها ، تطن بروعة كرم فياض متجدد لا ينضب . كانت تقول فى صوت أجش ، « إذن فأنت تعود لتجدنا جميعا

محبوسين فى كرم أبو جيرج ، مثلنا مثل أرقام فى دفتر حسابات . الديون ، يادارلى ، سيئة . ونحن فارين من العدالة . إه ، يانسيم ؟ » .)

لم يكن هناك مايقال رداً على مثل تلك الهجمات المُرة . تناولنا الطعام فى صمت فى ظل خدمة الخادم العربى الهادئة . خاطبنى نسيم مبديا ملاحظة عابرة عاجلة عن موضوع لا علاقة له بشىء ، ملحوظة قصيرة وحيدة المقطع . وأحسسنا ، لتعاستنا ، بالصمت يُنزح من حولنا يفرغ مثل خزان هائل . قريبا سوف نترك هناك . مغروسين مثل صور منحوتة على نصب تذكارى . عاد الخادم ومعه ترموسين ولفة طعام وضعها عند نهاية المنضدة . واشتعل صوت جوستين فى سخرية وهى تقول ، « اذن فانت خارج الليلة مرة أخرى ؟ » .

وأومأ نسيم خجلا ، قال ، « نعم ، فأنا فى الوردية ثانية » . وجلى زوره وهو يتحدث الىّ مضيفا ، « إنها فقط أربع مرات فى الأسبوع . انها تمنحنى شيئا ما أؤديه » . « شىء مايؤديه » ، قالت فى سخرية واضحة . « إن فقده عينه وأصبعه يمنحه شيئا ما يؤديه . قل الحقيقة ياعزيزى قل الحقيقة ياعزيزى ، أنك سوف تفعل اى شىء لتذهب بعيدا عن هذا المنزل » . ثم قالت وهى تستند الى الأمام نحوى ، «ليذهب بعيدا عنى يادارلى . اننى اكاد أدفعه بمشاجراتى الى الجنون . هذا مايقول » . كانت ، وهى فى سوقيتها تلك ، مثيرة للإرباك بصورة بشعة .

أحضر الخادم ملابس عمله وقد ضغطت وكوّيت بعناية . نهض نسيم معتذرا بكلمة وابتسامة . تركنا بمفردنا . صبت جوستين لنفسها كوبا من النبيذ . أثارت دهشتى عندما غمزت بعينها . قالت وهى ترفعه الى شفتيها ، « سوف تكتشف الحقيقة » .

« كم مضى عليكم وأنتم محبوسين هنا ؟ » تساءلت .

«لا تتحدث فى هذا الأمر » .

« ولكن اليس هنالك من سبيل ..... »

« إنه يدبر لهرب جزئى ، لست أنا جزءا منه . اشرب يادارلى ، اشرب يادارلى » .

واحتسيت النبيذ فى صمت ، وظهر نسيم ، مرة اخرى ، بعد وقت قليل ، وقد ارتدى زيه الخاص بالعمل . بدا واضحا أنه على استعداد لنوبته الليلية . ووقفنا جميعا كأننا على اتفاق بذلك . وقادنا الخادم ، مرة أخرى ، عودة الى الشرفة فى موكب كئيب . كان احد الأركان اثناء غيابنا ، قد فرش بالسجاجيد والدواوين ، بينما وضعت فوق المناضد شمعدانات أخرى ومواد تصدر دخانا . كان الليل ساجيا ساكنا ، يكاد يكون فاترا . شعلات الشموع لاتكاد تتحرك . أصوات البحيرة الكبرى تفيض علينا آتية من الظلام الخارجى . قال نسيم فى عجلة ، وداعا . وسمعنا الوقع المتضائل لحوافرالجواد وهى تتلاشى تدريجيا بينما يأخذ الطريق الى مخاضة النهر . ادرت رأسى ، نظرت الى جوستين . كانت ترفع معصميها نحوى ، وعلى وجهها تقطيبة منحوتة ، وقد أبقتهما ملتصقين معا كأنهما مقيدان بأصفاد غير مرئية . ظلت تعرض هذه الأغلال الخيالية للحظة طويلة قبل ان تسقط يديها ثانية فى حجرها .، وفجأة عَبَرت ، فى سرعة الحية ، الى الديوان حيث كنت أرقد ، لتجلس عند قدمى ، وهى تقول ، بينما تفعل ذلك ، وفى صوت مرتعش يبتسم بالندم والاستياء ، « لماذا يادارلى ؟ . أوه ، لماذا ؟ » . بدت وكأنها لا تستجوب القدر أو المصير فقط ، ولكن أفعال الكون ذاتها فى تلك النغمات المثيرة اللاذعة . وكاد يبرق بعض من جمال قديم فى هذا

الشوق ليركبني كالصدى . الا أن هذا العطر الذى تستخدمه ! كان العطر المنثور على مثل هذا القرب قويا متسلطا يكاد يكون مقززا .

ومع ذلك ، تلاشى فجأة مانحسه من توتر . فى النهاية ، قادرين على تبادل الحديث . بدا وكأن هذا الفوران العاطفي قد فجر فقاعة الفتور التى كانت تحيط بنا جميعا هذا المساء . صاحت فى صوت يكاد يكون ظَفْرا ، « أنت ترانى واحدة مختلفة . الا أن الاختلاف يكمن ، مرة أخرى ، فيك أنت ، فيما تتخيله ، فيما تراه ! » . وخشخشت كلماتها مثل زخة تراب القى بها فوق تابوت فارغ . « كيف بك لاتحس بالامتعاض منى ؟ أن تغفر بمثل تلك الخيانة ، مثل هذه البساطة – لماذا – إن هذا موقف يتسم بالتخنث ، الا تكره مصاصة الدماء تلك ؟ ذاك امر غير طبيعى . انك لم تدرك ابدا حاسة الإذلال عندى وأنا غير قادرة على أن امتعك ، امتعك أنت ياعزيزى بكنوزى الداخلية التى جبلت عليها كعشيقة . ومع ذلك ، فاننى فى الحقيقة ، كنت استمتع بخداعك ، يجب ألا أنكر ذلك . لكن كان هنالك ايضا شعور بالأسف ، فقط لتقديم صورة زائفة لحب يرثى له . (ها ! تلك الكلمة مرة أخرى) والذى قوضه الغش والخداع . اننى اعتقد ان هذا ، مرة أخرى ، خيانة لزهو الأنثى الذى لا قرار له : ان ترغب فى أسوأ مافى عالمين ، فى كلمتين – الحب والخداع . ومع ذلك ، فإنه من الغريب الآن وقد عرفت أنت الحقيقة ، اننى غدوت حرة فى أن أقدم لك عواطفى ، ان احس فقط بمزيد من احتقار الذات . هل انا إمرأة بحق لأحس أن الإثم الحقيقى ضد الروح القدس هو عدم الوفاء فى الحب ؟ ولكن اى ادعاء هذا الأشبه بالقمامة – فالحب بطبيعته الخاصة لايسمح بالوفاء » .

وهكذا استمرت ، لاتكاد تضع وجودى فى اعتبارها . تناقش حياتى بعيدا عنى ، تنتقل غى استغراق اعلى واسفل خيوط عنكبوت سخريتها الخاصة ،

تخلق صورا تضرب ، فى الحال ، أعناقها أمام عينىّ . ماالذى تأمل فى اثباته ؟ ثم وضعت رأسها فوق ركبتى لفترة قصيرة وقالت ، « والآن وأنا حرة فى أن أكره أو أحب ، فإنه يبدو من الهزل أن أغضب فقط لقدرتك الجديدة على امتلاك ذاتك . لقد أفلت منى فى مكان ما ، ولكن ماذا علىّ أن أتوقع غير ذلك ؟ » .

كان ذلك حقيقيا ، يتسم بالغرابة ، على نحوما . اذ اننى لدهشتى آحس الآن بالقدرة على جرحها وإيلامها لأول مرة ، أو حتى إخضاعها تماما بما ابديه من لا مبالاة . قلت ، « إننى رغم ذلك ، لا أحس ، حقيقة ، بأى استياء من الماضى . بل على عكس ذلك ، احس بالأمتنان ، اذ أن تجربة ربما كانت عادية ومألوفة (وربما كانت مقززة بالنسبة اليك) ، كانت بالنسـبة لى ، اثراء بـلا حدود ! » استدارت بعيداً . قالت فى صوت أجش ، « إذن ، فكلانا يجب الآن أن يضحك ».

جلسنا معاً نحملق فى الظلام مدة طويلة – انتفضت ، أشعلت سيجارة ، استعادت خيط مونولوجها الداخلى « اجراءات الفحص الطبية ، لجثة مالم ينجز من أشياء ! إننى أتساءل ، ماذا كان فى وسعك أن ترى فى كل ذلك ؟ إننا رغم كل شىء ، نجهل بعضنا البعض تماما . إننا نقدم لبعضنا البعض قصصا خيالية منتقاة ! إننى اعتقد اننا جميعا نراقب بعضنا البعض بنفس القدر الهائل من الجهالة . لقد اعتدت فى لحظات إحساسى بالذنب ، فيما بعد بمدة طويلة ، محاولة تصور أنه فى مقدورنا أن نصبح ، يوما ما ، عشاقا مرة أخرى ، ولكن على أسس جديدة . أية مهزلة ! لقد تصورت نفسى أعوضك ، أكفر عن خداعى وأدفع دينى . لكننى ...... كنت أعرف أنك تفضل دوما صورتك الخيالية الخاصة ، تأطرها الحواس الخمس ، تفضل ذلك عن أى شىء أكثر صدقا . أخبرنى الآن إذن – من منا كان الكذوب الأكبر ؟ لقد خدعتك وخدعت أنت نفسك » .

هذه الملاحظات ، والتى كان يمكن ، فى وقت آخر وفى سياق آخر أن تسحقنى سحقا ، كانت الآن ، وعلى نحو جديد غاية فى الحيوية بالنسبة لى . « مهما كان الطريق شاقا ، فالمرء مجبر فى النهاية على الوصول الى اتفاق مع الحقيقة » ، كتب بورسواردن فى مكان ما ، نعم . لقد اكتشفت ، على غير توقع ، أن الحقيقة تزدهر - الرذاذ البارد لموجة تقرب المرء دوما من التعرف على ذاته ، اننى أرى الآن جوستين الخاصة ، كانت فى الحقيقة خلقاً وهميا ، قام على درع واق باطل من الكلمات والأفعال والإيماءات التى اسىء تأويلها . حقا ليس هنالك من يلام هنا . كان الآثم الحقيقى هو حبى الذى ابتكر صورة يتغذى عليها ، كما لم يكن هنالك أى تساؤل عن عدم الوفاء ، اذ لونت الصورة طبقا لحاجيات الحب الذى اخترعها . العشاق مثل الأطباء ، يلونون دواء كريه المذاق حتى يجعلوا ابتلاعه ايسر على من يسهل خداعه . كلا لم يكن هنالك من وسيلة أخرى . لقد أدركت هذا تماما .

هنالك شىء آخر : اشبه بالاستيعاب التام . لقد رأيت ايضا ان العشاق والمعشوقين ، المراقبون والمراقبين يلقى كل منهم بنطاق حول الآخر (إن القدرة على الفهم تتشكل مثل العناق - والسم يدخل مع العناق » ، كما كتب (بورسواردن) . انهم يستخلصون بعد ذلك خصائص حبهم ، يحكمون عليه من خلال هذا النطاق الضيق بحواشيه الهائله عن المجهول (« انكسار - الضوء») ، ثم يتقدمون ليحولوه الى وجهة نظر معممة لشىء ثابت فى مناقبه وسجاياه ، عالمى فى فعاليته وقوته . كم كان هذا الدرس ذا قيمة لكل من الفن والحياة ! لقد كنت أشهد فقط ، فى كل ماكتبت ، على صحة قوة الصورة التى ابتدعتها أنا لا إراديا ، بتأثير مجرد رؤية جوستين . لم يكن هنالك تساؤل عما هو حقيقى أو باطل . حورية ؟ إلهة ؟ مصاصة دماء ؟ نعم ، لقد كانت كل ذلك معا ، كما لم

تكن أى شيء منها . كانت مثلها مثل كل امرأة ، مثل كل شيء شاء عقل الرجل أن يتخيله (دعونا نعرف «الرجل » بأنه مثل الشاعر ، يتآمر بصورة أبدية على ذاته) . كانت هنالك الى الأبد ، ولم تكن هنالك ابدا . كان هنالك ، فقط تحت كل هذه الأقنعة امرأة أخرى ، هى كل امرأة ، مثل المانيكان الموجودة في حانوت صانع الثياب ، فى انتظار الشاعر الذى يكسوها بالملابس ، وينفخ فيها أنفاس الحياة . وبدأت أتعرف فى رهبة ، وقد فهمت كل ذلك لأول مرة ، على القوة الهائلة الانعكاسية للمرأة - الاستكانة المثمرة التى تستعيد بها ، مثلها فى ذلك مثل القمر، ضوءا سبق استعماله من شمس الذكر . كيف يمكننى ان اكون اى شىء غير كونى ممتنا لمثل تلك المعلومات الحيوية ؟ وماذا تهم الأكاذيب وأعمال الغش والخداع والطيش والرعونة ، إن قورنت بهذه الحقيقة ؟

ومع ذلك ، وبينما هذه المعرفة الجديدة تجبرنى على الإعجاب بها أكثر من أى وقت مضى - باعتبارها رمزا للمرأة ، كما يمكن القول - فقد حرت فى تفسير ذلك العنصر الجديد الذى زحف الىّ : نكهة تقزز من شخصيتها وسجاياها ، العطر ! كثافته التى تثير الغثيان ، والتى جعلتنى اكاد اكون نصف مريض . لمسة الرأس الداكن لركبتى أثارت فىّ مشاعرى اشمئزازا غامضا وأحسست بما يكاد يكون إغراء أن أعانقها مرة أخرى حتى استكشف هذا الشىء الجديد الذى يستبد بها والذى لاتفسير له ، حتى أحس بما يمكن أن يكون أبعد من ذلك ! هل يمكن أن تكون بعض نقاط المعلومات ، التى هى مجرد حقائق اشبه بالرمال التى تنثال فى ساعة العقل الرملية ، لتغير بصورة لارجعة فيها ، صفات الصورة - محولة إياها من شىء كان مرغوبا ذات يوم الى شىء يثير التقزز الآن ؟ نعم ، إنها نفس العملية ، نفس عملية الحب بذاتها ، هكذا قلت لنفسى كان ذلك هو التحول المخيف الذى جاء به الحمام - اللاذع للحقيقة - كما

كان يمكن لبورسواردن ان يقول . كنا لانزال جالسين فى تلك الشرفة بظلالها ، سجناء الذكريات ، لانزال نتحدث : وظلّت هذه النزعات الجديدة للأنفس ، ذلك التضاد لحقائق العقل الجديدة ، دون تغيير .

اخيرا تناولت مصباحا وعباءة مخملية . سرنا معا ، فى تلك الليلة الساكنة حتى بلغنا شجرة نبق * كبيرة ، فروعها محملة بالنذور . هنا وجد شقيق نسيم ميتا . رفعت المصباح عاليا لتنير الشجرة ، وهى تذكر لى أن شجرة النبق هى التى تشكل السياج الدائرى الأكبر من الأشجار التى تحيط بجنة المسلمين . « أما بالنسبة لناروز ، فإن موته يعلق ثقيلا فوق نسيم ، إذ يقول الناس إنه هو بنفسه الذى أمر بذلك – ويقول القبط كذلك أيضا . لقد غدا هذا الموت بمثابة لعنة أسرية حلت به . إن والدته مريضة ، إلا أنها لن تعود أبدا إلى هذا المنزل ، هكذا تقول . كما أنه لايريد عودتها أيضا . إنه يغضب بشدة عندما اتحدث عنها . إنه يقول أنه يتمنى موتها ! وهكذا فإننا محبوسان هنا معاً . إننى أجلس أقرأ طوال الليل – خمن ماذا أقرأ ؟ حزمة كبيرة من رسائل الحب اليها . تركتها خلفها ! خطابات حب ماونت أوليف ! مزيد من الحيرة والارباك ، مزيد من النواحى التى لم تستكشف بعد ! » . رفعت المصباح ونظرت عن كثب فى عينىّ : « إلا أن هذه التعاسة ليست مجرد سأم ونكد ! هنالك أيضا رغبة فى ابتلاع العالم . لقد كنت أجرب العقاقيرأخيرا ، تلك المنومة منها » .

ثم عودة فى صمت الى المنزل الكبير بما فيه من حفيف وخشخشة ، بروائحة المتربة ، « إنه يقول أننا سنهرب ذات يوم ونذهب الى سويسرا . حيث لايـزال لديه هنـالك ، على الأقل ، نقود ، ولكن متى ، متى ؟ ، والآن ها هى

(*) بالعربية فى حروف لاتينية .

الحرب ! لقد قال بورسواردن إن احساسي بالذنب ضامر . إن ذلك ببساطة يعني انني لاأملك القدرة على تقرير الأمور الآن ولا في المستقبل . إنني أحس كأن إرادتي قد انتزعت مني . إلا أن ذلك سوف يزول وينتهي » . وفجأة امسكت في نهم بيدي ، قالت ، « لكن شكرا لله ، فأنت هنا . فقط لنتحدث مما يخفف * عني . إننا نقضي معاً اسابيع كاملة دون أن نتبادل كلمة واحدة » .

جلسنا مرة أخرى ، في الدواوين التي تنقصها دقة الصنع ، في ضوء الشموع . أشعلت سيجارة ذات طرف فضي . أخذت تسحب أنفاسا قصيرة قاطعة ، بينما انساب المونولوج يتمدد عبر الليلة ، يتلوى في الظلام مثل النهر.

« عندما انهار كل شيء في فلسطين ، اكتشفت كل مستودعاتنا وأمسك ، بها ، واستدار اليهود للتو الى نسيم يتهمونه بالخيانة ، لصداقته لماونت اوليف . كنا في وضع مخز بين ممليك واليهود المعادين . وطردني اليهود . حدث هذا عندما رأيت كليا مرة أخرى . كنت في حاجة ملحة للأخبار ، ومع ذلك فإنني لم أستطع أن أثق بها . وجاء نسيم الى الحدود لأخذي . وجدني كامرأة مجنونة . كنت يائسة ! وأعتقد هو أن ذلك يرجع الى فشل مخططاتنا . كان ذلك بالطبع صحيحا ، كان كذلك . الا أنه كان هنالك سبب آخر أكثر عمقا . عندما كنا متآمرين ، مرتبطين بعملنا ، ومايحيق به من مخاطر ، أحسست بحق نحوه بالعاطفة . ولكن أن أكون سجينة المنزل ، مجبرة على أن أقضي معه بمفردي وقتا غبيا ، أن أكون في صحبته .... فذلك أمر أعرف أنه سيقتلني مللا وضجرا . إن دموعي ونحيبي إنما هو أشبه بذلك الذي لإمرأة فرض عليها رغم إرادتها ، أن ترتدي الخمار . إلا أنك لن تفهم ذلك ، فأنت شمالي . كيف يمكنك ذلك ؟ كيف تقدر على حب رجل حبا كاملا ، في وضع واحد ، وحالة نفسية واحدة ، هكذا

(*) بالفرنسية في الأصل .

يمكن القول . أنت ترى ، أنه عندما لايقوم نسيم بمهمة ما ، فإنه لاطعم له البتة ، ليس هنـالك من تماس بينه وبين نفسه عند أية نقطة . ثم أنه لايملك نفسا حقيقية حتى يمتع امرأة ، حتى يستحوذ عليها . وفي كلمة ، فانه شخص مثالى تماما ، يبدو ، عندما تستغرقه فكرة القضاء والقدر ، رائعا حقا . لقد جذبنى جاذبية ممثل مسرحي – جعلني استثير لذاتى . ولكن ، كزميل سجن ، فى الهزيمة – فإنه عرضة للضجر ، للصداع النصفى ، لأفكار مبتذلة تماما مثل الانتحار! وهذا هو السبب فى أننى أنشب ، مابين والحين ، مخالبى فى لحمه ، فى يأس »

« وبورســواردن ؟ » .

« آه ، بورسواردن . انه مرة أخرى شيء مختلف . إننى لاأستطيع أن أفكر فيه دون أن ابتسم . هناك كان فشلي من نسق مختلف تمام الاختلاف . لقد كانت مشاعره نحوى – كيف يمكننى قول ذلك ؟ – تكاد تكون فسقا فى المحارم ، إن شئت القول ، مثل عشق الأخ العزيز الأكبر الفاسد الذى لا يرجى صلاحه . لقد حاولت جاهدة أن أخترق ثقته . إلا أنه كان ذكيا للغاية ، أو ربما محبا لذاته للغاية . لقد كان يحمى نفسه من حبى ، بإثارة ضحكى . ومع ذلك ، فقد حققت معه انجازا ، وإن كان محدودا للغاية ، لمحة من التعذيب بالأمانى الكاذبة من أنه يمكن أن تكون هنالك سبل أخرى للحياة مفتوحة أمامى ، إن استطعت ، فقط ، ان أعثر عليها . إلا أنه كان مخادعا . لقد اعتاد القول ، « ان الفنان الذى تمتطيه امرأة كالسرج ، يشبه كلبا اسبانيوليا (١) فى أذنه قرادة صغيرة ، إنها تسبب له أكلاناً ، تسحب دمه ، وهو لايستطيع الوصول اليها . هل تتفضلى ببعض التلطف وتبلغى سن النضج ، إن سمحت .....؟ » ربما كان

(١) كلب صغير طويل الشعر والأذنين ـ المترجم .

محبوبا تماما لأنه كان بعيد المنال ؟ من العسير قول مثل تلك الأشياء . إن كلمة واحدة هى (الحب) يمكن أن تكون نافعة لعديد من الأنواع المختلفة غاية الاختلاف ، لذات الحيوان . إنه هو أيضا الذى جعلنى اتصالح مع نفسى حول مسألة الاغتصاب كلها . هل تتذكر ؟ كل ذلك الهراء الذى كتبه أرناؤوطى فى «عادات» [١] ، كل علماء النفس هؤلاء ! لقد أنغرزت ملحوظته الوحيدة فىّ مثل الشوكة قال . « من الواضح انك استمتعت بما حدث ، كما يمكن لأى طفل أن يفعل . بل ربما أنت التى أغريته بذلك - لقد أهدرت كل هذا الوقت تصرخين محاولة الوصول الى توافق مع تصور خيالى عن ضرر فُعل بك . حاولى إسقاط هذا الإثم الذى ابتدعتيه . اكدى لنفسك أن الأمر كان ممتعا وبلا معنى أيضا . إن لكل اضطراب عصبى اجراء يمكن اتخاذه » . كان غريبا أن لمثل هذه الكلمات القليلة ، وضحكة مكتومة تهكمية أن تحقق ماعجز الآخرون عن تحقيقه معى . لقد بدأ كل شىء ينقشع فجأة ، يصبح أكثر يسرا وسهولة يتحرك بعيدا ، مثل شحنة تنقل فى سفينة . أحسست بالوهن والمرض مما آثار حيرتى . ثم وضح الأمر فى بطء ، فيما بعد ، خلال فسحة من الوقت . كان الأمر أشبه بإحساس من يتسلل راجعا ، مرة أخرى ، إلى قبضة مشلولة » .

صمتت لحظة قبل أن تستمر ، « أننى مازلت لاأعرف بالضبط كيف كان ينظر الينا . ربما باحتقار - باعتبارنا مختلقى بلايانا الخاصة . من العسير أن يلومه المرء لتمسكه باسراره مثل حلزون بحرى [٢] ، ومع ذلك فإنه نادرا ماكان يحافظ عليها ، اذ كان مايسمى بالزاجر ، يكاد أن يكون لديه أقل مهابة مما لدىّ، شىء اقتلع ودمر كل إحساس به ، وهكذا ، من الناحية الواقعية ، كانت قوته ،

---

(١) بالفرنسية فى الأصل .

(٢) حلزون صدفى بحرى يلتصق بالصخور - المترجم .

بطريقة ما ، هى فى الحقيقة ضعفا هائلا ! أنت صامت . هل آذيتك ؟ آمل ألا أكون قد فعلت ذلك . آمل أن يكون تقديرك لذاتك من القوة بحيث تواجه هذه الحقائق عن علاقتنا القديمة بإننى أود أن استخرجها كلها من صدرى ، حتى أصفى مابيننا - هل فى وسعك أن تفهم ؟ إننى اعترف بكل شىء ، لأزيل ما فى اللوح ، حتى يغدو نظيفا . أنظر ، تلك المرة الأولى ، تلك المرة الأولى بعد ذاك الظهر بذاته ، عندما أتيت اليك - هل تتذكر . لقد أختبرتنى ذات مرة كم كانت تلك المرة ذات شأن . حدث ذلك عندما كنت مريضا تلازم الفراش وقد اصابتك ضربة شمس ، هل تتذكر ؟ حسنا ، كنت قد طُردت لتوى من حجرته بالفندق رغما عنى، كنت فى حالة من الغضب الشديد . كان غريبا ان كل كلمة وجهتها إليك ، كانت فى عقلى موجهة اليه ، الى بورسواردن ! كان هو فى عقلى من أعانقه فى سريرك وأخضعه . ومع ذلك ، كان كل ماأحسسته وفعلته حينذاك إنما هو ، مرة أخرى ، وببعد آخر ، من أجل نسيم حقا . كان فى أعماق قلبى أشبه بكومة نفـاية ، نسيم حقا والخطة . كانت أعمق أعماق حياتى قد ارتبطت بقوة . بهذه المغامرة المجنونة . إضحك الآن يادارلى ! دعنى أراك ضاحكا على سبيل التغيير. أنت تبدو حزينا . ولكن لماذا تحزن ؟ إننا فى قبضة مجال عاطفى ألقى بنا فيه الواحد حول الآخر - انت نفسك قلت ذلك . ربما كانت علتنا الوحيدة هى إننا كنا ننشد حقيقة ما كان فى وسعنا احتمالها ، إذ كنا نرتاح راضين بالقصص الخيالية التى نختلقها عن بعضنا البعض » .

وضحكت فجأة ضحكة ساخرة . سارت الى طرف الشرفة لتلقى فى الظلام بعقب سيجارتها المحترق بلا لهب . عادت لتقف أمامى بوجه حاد ، كأنما تلعب لعبة ما مع أحد الأطفال . ربتت راحتيها معا فى نعومة وهى تترنم بالأسماء، « بورسواردن وليزا ، دارلى وميليسا ، ماونت أوليف وليلى . نسيم وجوستين ، ناروز وكليا .... هنا شمعة تضىء لهم فراشهم ... وهنا ساطور

ليقطع رقابهم . كان لابد للنمط الذى صنعناه أن يثير اهتمام أحد ما ، أم أنه كان مجرد عرض ، لا معنى له ، لصواريخ نارية ملونة ، أفعال بشر أم مجموعة من الدمى يغطيها التراب ، والتى يمكن أن تعلق فى ركن كاتب ما ؟ أعتقد أنك تسأل نفسك هذا السؤال » .

« لماذا ذكرت ناروز ؟ »

« لقد اكتشفت بعد موته بعض الخطابات الى كليا . كانت هنالك فى الصوان، الى جوار طاقية الختان القديمة، باقة زهور شمعية ضخمة ، وشمعة فى ارتفاع رجل . إن القبط ، كما تعرف ، يقدمون مثل هذه الأشياء، عندما يتقدمون بطلب للزواج . إلا أنه لم يملك شجاعة إرسالها أبدا ! كم ضحكت من ذلك ! » .

« أنت ضحكت من ذلك ؟ ».

« نعم ، ضحكت حتى سالت دموعى فوق وجنتىّ . إلا أننى ، فى الحقيقة كنت أضحك من نفسى . منك ، منا جميعا . إن المرء ليقع على مثل تلك الأشياء عند كل انحناءة فى الطريق ، أليس كذلك ؟ نفس الجثة تحت كل أريكة ، ونفس الهيكل العظمى فى كل صوان ؟ ماذا فى وسع المرء أن يفعل غير أن يضحك ؟ »

كان الوقت قد تأخر . أضاءت لى الطريق الى حجرة نوم الضيوف الشاحبة ، حيث وجدت سريرا معدا من أجلى . وضعت الشموع فوق صوان ثياب قديم الطراز . وللحال سقطت نائما . لابد أن الوقت لم يكن يبعد عن الفجر كثيرا ، عندما استيقظت لأجدها واقفة الى جوار الفراش عارية وقد ضمت يديها فى توسل مثل شحاذ عربى ، اشبه بامرأه متسـولة فى الشوارع . وجـفلت . قالت « اننى لا أطلب منك شيئا . لا شىء البتة . فقط أرقد بين ذراعيك عزاء وسلوى . إن رأسى ينفجر الليلة ، والعقاقير لم تجلب لى النوم . اننى لا أود أن أترك تحت رحمة خيالاتى . فقط من أجل العزاء والسلوى يادارلى ، بعض والرتبات والملاطفات ، بعض التحبب ، ذاك هو كل ما أرجوه منك » . أفسحت لها مكانا فى

فتور ، وأنا لاأزال نصف نائم . أخذت تبكى وتنتفض وتتمتم طويلا قبل أن أستطيع تهدئتها . الا أنها نامت أخيرا ورأسها الداكن الى جانبى فوق الوسـادة .رقدت مسـتيقظا فترة طويلة أتذوق ، فى تساؤل وحيرة ، ذلك التقـزز الذي أخذ يجيش في أعماقي يمحو كل مشاعر أخرى . من أين جاء ذلك ؟ إنه العطر ! العطر الذى لا يحتمل ولا يطاق ، ورائحة جسدها . وانسابت عبر عقلى بعض أبيات من شعر بورسواردن .

« أسلمتنى إلى ملاطفات سكرى
وأفواهها مقطوعة مثل فاكهة طرية
يأخـذ المرء منها قضمة واحـدة
يأخذ المرء منها قطعة واحدة
ملء فم من ظلام تنزف فيه دماً » .

صورة حبى التى كانت ، ذات يوم ، رائعة ترقد الآن فى خواء ذراعى ، بلا حول ولا طول ، كمريض فوق منضدة العمليات ، تتنفس فى صعوبة . كان من العبث حتى أن أكرر أسمها الذى كان يحمل ، ذات يوم قدراً كبيراً من السحر المخيف الى حد يبطىء الدم فى عروقى . لقد غدت ، أخيرا ، مجرد امرأة ترقد هنالك ، ملطخة مهلهلة ، مثل طائر ميت فى مزراب وقد تغضنت يداها كالمخالب . كان الأمر وكأن بابا حديديا هائلا قد أوصد فى قلبى ، وإلى الأبد .

انتظرت بالكاد حتى الفجر البطىء ليطلق سراحى . انتظرت بالكاد حتى أذهب .

★ ★ ★

- ٤ -

بينما أسير ، مرة أخرى ، فى شوارع العاصمة الصيفية ، أسير فى ضوء شمس الربيع ، وبحر أزرق يناوش بلا سُحب - نصف نائم ، نصف يقظان - أحسست كما أحس آدم فى أساطير القرون الوسطى : جسد هو مزيج العالم لرجل لحمه من تراب ، عظامه من أحجار ، دماؤه من ماء ، شعره من عشب ، بصره ضوء الشمس ، أنفاسه الريح وأفكاره السحب . كنت خفيفا كأنما بعد مرض طويل أتلف صحتى . وجدت نفسى أطوف ، مرة أخرى ، أطفو فوق مياه مريوط الضحلة ، بعلامات مدها وجزرها القديمة الدالة على ميولها الفطرية ورغباتها وقد تحولت الى شكل جديد فى تاريخ المكان :مدينة قديمة ، بكل أعمالها الوحشية ، كما هى لم تمس ، مستقرة فوق صحراء وبحيرة . أسير وأنا أتذكر أخاديد الشوارع تمتد على كل جانب ، تتفرع مثل أذرع نجم البحر ، تبدأ من محور قبر مؤسسها . وقع أقدام تدوى فى الذاكرة ، مشاهد وأحاديث منسية تقفز نحوى من الجدران ، من مناضد المقاهى ، من الحجرات بنوافذها الموحدة وجدرانها المشققة المقشرة .الأسكندرية أميرة وغانية . المدينة الملوكية والشرج المتطهر . إنها لن تتغير أبدا طالما أستمرت الأجناس تموج هنا كالخمر فى دن من الدنان ، طالما ظلت الشوارع والميادين تنسال . تتدفق بتلك العواطف والمكائد المتضاربة ، بالرغبات العارمة والسكون المفاجىء . حمراء خصبة بالحب البشرى المفروش بعظام المغتربين التى ابيضت . اشجار نخيلها ومآذنها الطويلة تتزاوج

فى السماء . خلية نحل من منازل بيضاء تتاخم تلك الشوارع الضيقة المهجورة الطينية والتى تنهكها ، طوال الليل ، الموسيقى العربية وصرخات فتيات تخلصن فى يسر من أعمال أجسادهن المرهقة (والتى كانت تزعجهن) وقدمن لليل قبلاتهن العاطفية التى لم تفقدها النقود نكهتها . إن حزن وغبطة هذا التوحد الإنسانى ، الذى يخلد نفسه الى الأبد ، إنما هو حلقة متصلة من التجدد والإبادة، يمكنها وحدها بقوتها المدمرة أن تعلم وتعيد الصياغة من جديد . (« إن المرء يمارس الحب فقط ، ليؤكد وحدته » ، قال بورسواردن ، وأضافت جوستين فى مرة أخرى ، مثل مقطع ختامى لأحد الألحان ، « إن أفضل خطابات حب امرأة هى دائما تلك التى تكتبها إلى الرجل الذى تخونه » ، بينما كانت تستدير برأسها المغرق فى القدم من شرفة عالية ، تتسكع فوق مدينة مضادة ، حيث تبدو أوراق الشجر وكأنها قد طليت بعلامات كهربية ، وحيث يتشقلب الحمام كأنما يتساقط من فوق ارفف ....) قرص شهد هائل من الوجوه والايماءات .

« إننا نصبح ما نحلم به » ، قال بلتازار ، وهو لايزال يفتش بين أحجار الرصف الرمادية بحثا عن مفتاح الساعة الذى هو الزمن ، « إننا ننجز فى الحقيقة ، فى الجوهر ، صور الخيال فقط » . المدينة لا تقدم اجابات على مثل تلك الطلبات . إنها تلتف بغير وعى منها حول الأنفس النائمة كما تلتف أناكندة [1] هائلة تلتهم وجبتها . ويسير عالم الإنسان المثير للشفقة وسط تلك اللغات البراقة ، غافل وغير مصدق . يكرر الى مالا نهاية حركاته اليائسة ، النادمة والمعبرة عن الحب . لقد قال الفيلسوف ديموناكس ، « ليس هنالك من يبغى أن يكون شريرا » ، وسمى «كلبى» [2] فيما بعد لما كان يعانيه من آلام –

---

(١) أفعى من فصيلة البوا توجد بجنوب أمريكا – المترجم .
(٢) نسبة الى الفلاسفة الكلبيين – المترجم .

وجاء بورسواردن في جيل آخر ، ليجيب بلسان آخر ، « أن تكون نصف يقظ بين قوم يسيرون وهم نيام لأمر مخيف في البداية ، إلا أن المرء يتعلم ، فيما بعد كيف ينافق ! » .

كان في وسعى أن أحس بجو المدينة يحيط بى ، مرة أخرى ، بجمالياتها الذابلة ، تنشر قرون استشعارها لتمسك بكمى . احسست بقدوم المزيد من صيف وراء صيف ، وكلها تحمل عوامل يأس جديدة ، وانقضاضات « لحراب الزمن» جديدة .

سوف تتعفن حياتى من جديد ، فى مكاتب خانقة بمراوح كهربية فاترة الدوران ، وضوء لمبات متربة بلا أغطية ، معلقة فى سقوف مشققة لشقق مجددة . وفى مقهى الاقطار ، وأنا جالس أمام النعناع[1] الأخضر ، استمع الى البقبقة البرمة من النرجيلات ، كان لدىّ الوقت لأتمعن الصمت الذى يعقب صيحات الباعة الجائلين وقرقعة رقعات النرد . مازالت تمر نفس الأطياف ، ثم تعود تمر فى شارع النبى دانيال . سيارات رجال البنوك الليموزين اللامعة تحمل شحناتها المنتقاة من السيدات المطليات الى موائد البريدج ، الى المعبد اليهودى ، الى قارئى الطالع ، الى المقاهى الرشيقة . كان لكل ذلك ، ذات يوم ، قوة اصابة المرء بالجراح . والآن ؟ شذرات من جوقة موسيقية رباعية تنطلق من مقهى ذى تندات قرمزية تذكرنى بكليا تقول ذات مرة ، « لقد ابتدعت الموسيقى لتؤكد عزلة الانسان » . لكننى ان كنت أسير هنا وأنا يقظ بل وحتى برقة معينة ، فما ذاك إلا لأن المدينة كانت بالنسبة لى شيئا قطفت أنا زهوره ، تعلمت على يديه كيف أعزو معنى معينا للحظ والطالع . تلك الحوائط الباهتة المرقعة المرممة ، وغطاء الجير وقد تشقق فى مليون رقعة بلون المحار الذى يشبه جلود المجذومين الذين يعوون

---

(١) بالفرنسية فى الأصل .

هنا عند طرف الحى العربى ، إنه فى بساطة جلد المكان ذاته ، وقد تقشر وتحمص تحت الشمس .

حتى الحرب ، وصلت والمدينة الى اتفاق . لقد انعشت حقا تجارتها مع زمرات جنود بلا هدف ، يسيرون بهذا الجو المتجهم ليأس رابط الجأش ، والذى يمارس به الانجلو ساكسون مسراتهم ، وكل نسائهم اللائى زالت عنهن كل جاذبية ، فى زى يضفى عليهن جو الكواسر – كأنما فى وسعهن أن يشربن دم الضحايا البريئة وهى لاتزال دافئة . كانت المواخير قد فاضت واطبقت ظافرة على حى من المدينة بكامله ، يحيط بالميدان القديم . ان كانت الحرب قد جاءت بأى شىء ، فهو جو كرنفال نشوان مترنح أكثر من أى شىء آخر ، حتى ضرب الميناء بالقنابل ليلا يمحوه النهار ، ينفض عن الأكتاف كالكوابيس ، لا يُذكر بأكثر من شىء مرهق ينير الضيق ، أما بالنسبة لما بقى ، فلا شىء قد تغير تغيرا جوهريا . لايزال السماسرة على درج نادى محمد على يرتشفون الصحف. والمركبات التى تجرها الخيول العجوزة لاتزال تقوم بجولاتها القصيرة الكسولة . الكورنيش الأبيض لايزال مزدحما بالناس الذين يسعون يحظون بضوء شمس الربيع الواهنة . الشرفات تزدحم بالملابس التيلية المبتلة والفتيات يقرقرن ضحكا السكندريون مازالوا يتحركون داخل تصاوير حياتهم التى يتخيلونها بلون الأصواف الأرجوانية . (الحياة أكثر تعقيدا مما نعتقد ، ومع ذلك هى أكثر بساطة مما يتجاسر أى امرىء على تصورها) . أصوات الفتيات تنطلق أنغاما من الحى العربى ومن المعبد اليهودى ، فى دندنة رنانة تقطعها خشخشة الصلاصل[1] بصورة منتظمة . وفوق أرضية البورصة كانوا كحيوان هائل واحد يعانى الألم ، والذين يبدلون النقود يرتبون عملاتهم مثل الحلوى فوق طاولات

---

(١) آلة موسيقية قديمة تصدر خشخشة كان يستخدمها قدماء المصريين فى عبادتهم لايزيس –المترجم .

كبيرة ذات خانات مربعة والباشوات بطرابيشهم القرمزية الأشبه بأصص الزهور في سيارات فارهة مثل أكلة اللحوم . وقزم يلعب على الماندولين . وخصي ضخم مصاب بجمرة حميدة في حجم البروش يأكل الحلوى . ورجل بلا ساقين يرتكز على ترولي ، يقطر بولاً . ووسط كل تلك العجالة المحتدمة للعقل فكرت فجأة في كليا - في أهداب عينيها الكثيفة والتي تحول كل نظرة من عينيها الرائعتين الى شظايا - وتساءلت في حيرة متى تظهر - إلا أن خطى قدمي الشاردتين قادتني في تلك الأثناء ، مرة أخرى ، الى المدخل الضيق لشارع ليبسيوس ، الى الحجرة التي نخرها السوس ، ومقعد الخيزران الذي يزيق ، حيث ألقى شاعر المدينة العجوز ، ذات مرة ، قصيدة « البداية » . واحسست بالدرج يزيق ثانية تحت نعل حذائي . كان على الباب إشعار بالعربيـــة يقول ، « الهدوء » . وكان المزلاج مفتوحا .

بدا صوت بلتازار ، وهو يسمح لي بالدخول نائيا ، رفيعا ، بصورة غريبة. كان شيش النوافذ مغلقا والحجرة مكفنة في نصف اظلام . كان يرقد في الفراش . صدمتني تماما رؤية شعره وقد أبيض تماما حتى بدا اشبه بنسخة أثرية من ذاته . مضت لحظة أو لحظتان لادرك أنه ليس مصبوغا . ولكن كيف تغير الى هذا الحد ! إن المرء لا يستطيع أن يصرخ في وجه صاحبه قائلا «ياإلهي . كم تقدمت بك السنون » ، ومع ذلك فإن ذلك بالفعل يكاد يكون مافعلته بصورة لا إرادية تماما .

« دارلي ! » ، قال في وهن ، مادا يدين منتفختين ، بالأربطة الملفوفة عليهما ، الى حجم قفاز الملاكمة ، مرحبا « ماذا بالله فعلت بنفسك ؟ » .

سحب تنهيدة كمد طويلة وأومأ نحو المقعد كانت الحجرة في فوضى عارمة. جبل من الكتب والأوراق على الأرض الى جوار النافذة . مبولة لم يفرغها

أحد . طاولة شطرنج وقد رقدت كل قطعها متداخلة .إحدى الصحف . لفة جبن في طبق وتفاحة . حوض الغسيل ملىء بأطباق قذرة ، والى جواره زوج من الأسنان الصناعية البراقة فى كوب معتم ، وعينه المحمومة تطل عليهما ، من حين لآخر ، في ، ارتباك واضطراب . « أنت لم تسمع بأى شىء ؟ . إن هذا ليثير دهشتى ، فالأخبار السيئة ، أخبارالفضائح تنطلق سريعا ، بعيدا ، الى حد أننى اعتقدت أنك لابد قد سمعت بها . إنها قصة طويلة . هل أخبرك بها لا ستثير فيك نظرة المواساة اللبقة التى ينظر بها ماونت أوليف ، وهو يجلس يلعب الشطرنج معى بعد ظهر كل يوم ؟ » .

« ولكن ماذا حدث لديك ..... »

« سوف أعرض لذلك فى حينه . كانت فكرة بسيطة استخرجتها من مخطوطك ، لكن المجرم الحقيقى ، كما أعتقد هما هاتان . هاتان السنتان فى الكوب . ألا يبرقان بطريقة سحرية ؟ إننى متأكد أن السنتين هما اللتان أظهرتا الأمر لى . عندما وجدت أننى أكاد أفقد سنتى ، بدأت اتصرف فجأة مثل امرأة بلغت نقطة تغير فى حياتها . كيف يمكننى أن أشرح لك ، بصورة أخرى ، سقوطى فى الحب وكأنى عدت شابا ؟ » . ألقى بالسؤال كاويا حارقا وهو يضحك ضحكة من أصابه الدوار .

« أولا القابال ، والذى تم الآن تسريحه – لقد سلك الطريق الذى تسلكه كل الكلمات . ظهر معلمو أسرار الدين ، وعلماء اللاهوت وكل التعصب الذى يلاذ به والذى يتكدس حول طائفة تتخذ من الجمود تعويذة . إلا أن الأمر بالنسبة لى ، كان له معنى خاص ، معنى خاطىء غير واع ، إلا أنه رغم كل شىء كان معنى واضحا. فكرت أننى ، فى بطء ، وعلى مراحل ، يجب أن أتحرر من قيد شهوات الجسد . يجب أخيرا أن أفعل ذلك . وأحسست اننى عثرت على الهدوء الفلسفى

الذى يمكن أن يمحو الطبيعة العاطفية ، ويطهر أفعالي . فكرت بالطبع اننى لاأملك مثل ذلك الحكم المسبق فى ذلك الوقت ، حتى أن بحثى عن الحقيقة كان بحثا خالصا تماما . الا أننى كنت استخدم القابال ، دون وعي منى ، للوصول الى هذه النهاية المحدودة الصحيحة – بدلا من جعل القابال يستخدمنى . وكان ذلك أول حساباتى الخاطئة ! اعطنى قليلا من الماء من الابريق هناك .» وشرب كالظامىء عبر لثته الوردية الجديدة ، « ثم وقع ذلك الأمر السخيف . وجدت أننى لابد أن أفقد سنتيّ وقد سبب لى هذا أكثر ما عانيت من اضطراب مخيف . بدا الأمر وكأنه حكم بالموت ، بمثابة تأكيد للشيخوخة ، ببلوغ مرحلة تغدو فيها الحياة ذاتها أبعد منالا . لقد كنت على الدوام شديد الحساسية لما له علاقة بالأفواه ، اكره دوما الأنفاس النتنة ، والألسنة التى يكسوها غطاء ، الا أن الاسنان الصناعية كانت أشد ماأكره ، وحينئذ ، ودون وعى منى ، لابد اننى دفعت بنفسى ، بصورة ما ، نحو هذا الشيء المضحك السخيف ، وكأنه المحاولة اليائسة الأخيرة قبل أن تستقر الشيخوخة فوقى . لا تضحك . لقد وقعت فى الحب وبطريقة لم تحدث لى من قبل ، على الأقل ، منذ كنت فى الثامنة عشرة . «القبلات حادة كشوك القنفذ » ، يقول المثل ، أو كما كان يمكن أن يقول بورسواردن ، « مرة أخرى ، فإن الغدد التناسلية الماكرة ، عبر طوافها خلسة تبحث عن فريسة ، تنصب شباكها لصيد البذور ، ذلك الرعب البيولوجى التليد» ، ولكن ياعزيزى دارلى لم يكن الأمر مزاحا . كنت لاأزال أحتفظ بأسنانى .

إلا أن من وقع عليه اختيارى كان ممثلا يونانيا ، كان أشد مايقع عليه المرء من نوائب . أن يكون أشبه بإله ، أن تكون وسامته كوابل من رماح فضية – ومع ذلك يكون فى بساطة وضيع النفس ، قذرا ، فاسدا ، فارغ الشخصية : ذلك بناجيوتيس! الذى أعرفه . بدا لى أنه ليس هنالك من فارق أياً كان . ولعنت

نفسى وأنا أنظر فى المرآة ، إلا أننى كنت عاجزا عن اى تصرف غير ذلك . وللحقيقة ، كان من الممكن أن أعبر كل ذلك كما مر الكثير ، لو لم يدفعنى الى غيرة عنيفة لا تحتمل ، وانفجارات مفزعة من الاتهامات المضادة . اننى اتذكر أن بورسواردن اعتاد القول ، « آه منكم أيها اليهود ، إنكم تمتلكون موهبة المعاناة ». واعتدت أن أجيب عليه باقتباس عن السلتيين الدمويين : لقد هزوا كل الدول ، ولم يؤسسوا أية دولة . إنهم لم ينشئوا دولة كبرى فى أى مكان أو يطوروا ثقافة متميزة لهم . » كلا ، لم يكن ذلك مجرد تعبير عن حمى - الأقلية : كان هذا نوعا من العاطفة القاتلة التى قرأ المرء عنها ، والتى اشتهرت بها مدينتنا . وغدوت خلال شهور مدمن بلا أمل . كنت أتسكع دوما فى المواخير . حصلت له على عقاقير بناء على روشتات طبية كى يبيعها . أى شىء إلا أن يتركنى . غدوت ضعيفا كامرأة . فضيحة بشعة أو بالأحرى سلسلة من الفضائح جعلت ممارستى لعملى تتضاءل حتى تلاشت الآن . إن أماريل يقوم الآن بالحفاظ على العيادة من باب الشفقة حتى أستطيع أن أنهض من فوق الأرض مستعيدا صحتى . لقد سُحبت عبر أرضية النادى ، وأنا ممسك بمعطفه اتوسل اليه الا يتركنى ! لقد أُوقعت أرضا فى شارع فؤاد ، وضُربت بخيزرانة ضربا شديدا خارج القنصلية الفرنسية ، ووجدت نفسى محاطا بأصدقاء قلقين طويلى الوجوه ، فعلوا كل مافى وسعهم لتفادى وقوع كارثة ، دون جدوى . غدا التعامل معى أمرا عسيرا ! جرى كل هذا - كل هذه الحياة الضارية - وأنا حقيقة استمتع بالحط من قدرى بطريقة غريبة . كنت أجلد بالسوط وأزدرى ، وانحط بى الحال إلى حطام ! بدا وكأنى أبغى إبتلاع العالم ، أنزح مرارة الحب حتى يلتئم . لقد دُفعت الى أقصى ما فى نفسى ، ومع ذلك كنت أنا نفسى الذى يقوم بعملية الدفع تلك ، أم هل كانت سنتاى هما اللتين تفعلان ذلك ؟ . والقى بنظرة غاضبة متجهمة فى

اتجاههما وتتهد ، وهو يحرك رأسه كأنما يعانى كربا داخليا لذكرى تلك الفعال الشريرة .

« ثم بلغ الأمر بالطبع نهايته ، شأنه شأن كل شىء حتى الحياة المفترضة ذاتها ! لم يكن هنالك من فضيلة فيما أعانيه ، فيما أقدمت عليه من صمت أخرس مثل حيوان من حيوانات الحمل ، ابتلى بمرارات لا تطاق ، لا يمكنه الإفصاح عنها بلسانه . كان ذلك فى الوقت الذى تذكرت فيه ملحوظة قرأتها فى مخطوطك عن قبح يدىّ . لماذا لا ابترهما وألقى بهما فى الماء كما أوصيت أنت بذلك فى كثير من الاهتمام ؟ كان هذا هو السؤال الذى ثار فى عقلى . كنت فى ذلك الوقت فاقد الحس بما أتناوله من عقاقير وشراب حتى لم اتخيل اننى سوف أحس بأى شىء . وقمت ، على أى حال ، بالمحاولة ، إلا أنها كانت أشق مما تتصور ، كل ذلك الغضروف ! كنت مثل هؤلاء الأغبياء الذين يقطعون حلوقهم ثم يتوقفون عبر البلعوم . انهم يظلون أحياء على الدوام . الا أننى أتغاضى عن الألم وأفكر فى كاتب آخر ، بترونيوس (الجزء الذى يلعبه الأدب فى حياتنا !) رقدت فى حمام ساخن ، الا أن الدم لم يسل ، أو ربما لم يكن لدى المزيد منه . كان لون النقاط القليلة الغليظة التى أغريتها بالنزول فى قطرات ، فى لون القار . كنت على وشك محاولة وسائل أخرى لتسكين الألم عندما ظهر أماريل ، فى أشد حالاته سوءا وبذاءة وأعادنى الى صوابى بمنحى هدوءاً عميقا مدة عشرين ساعة قام خلالها بهندمة جثتى وكذا حجرتى . ومرضت للغاية ، من الخجل كما أعتقد . كان اساسا من الخجل ، رغم أننى بالطبع ضعفت كثيرا بسبب الأعمال المفرطة السخيفة التى كنت أدفع نحوها . واستسلمت لبيير بالبز الذى خلع سنتىّ وزودنى بهذه المجموعة من القواطع البراقة – إنه فن جديد (*) ! وحاول أماريل بطريقتـــه

(*) بالفرنســـــية فى الأصل .

الخرقاء أن يحللنى – لكن ماذا يقول المرء فى علم تقريبى للغاية ، أفاض فى غير اكتراث فى علم الأجناس البشرية من ناحية وعلم اللاهوت من ناحية أخرى ؟ إن هنالك الكثير مما لا يعرفونه حتى الآن : مثال ذلك أن المرء يركع فى الكنيسة لأن المرء يركع عندما يلج المرأة ، أو أن الختان مشتق من جز شجرة العنب ، والذى بدونه تتحول الشجرة الى أوراق ولا تنتج ثمرا ! إننى لا أملك نمطا فلسفيا استند اليه كما يفعل داكابو . هل تتذكر الشرح الذى قدمه كابوديستريا عن طبيعة الكون ؟ . « العالم ظاهرة بيولوجية لن تصل الى نهاية إلا عندما ينال كل رجل بمفرده كل النساء ، وكل امرأة بمفردها كل الرجال . إن هذه العملية ، كما هو واضح تستغرق بعض الوقت ، وفى تلك الأثناء ليس هنالك من فعل غير معاونة قوى الطبيعة ، بأن نطأ الأعناب بقوة قدر ما نستطيع . أما عما بعد الحياة – فمما تتكون غير الإمتلاء حتى البشم ؟ ولعبة الأطباق فى الجنة – سوف تطير الهوانم (*) اللطيفات عبر شاشات الذاكرة ، انهن لم يعدن مرغوبات ، ولم يعدن راغبات فى أن يكن مرغوبات . كلا الطرفين قد خمد فى النهاية . الا أن ذلك لن يحدث بوضوح دفعة واحدة . الصبر ! أولاً ! حقا ، لقد فكرت كثيرا فى عناية وبطء ، وأنا راقد هنا ، استمع الى تزييق الكرسى الخيزرانى والضوضاء القادمة من الشارع . لقد كان اصدقائى طيبين معى للغاية . إنهم كثيرا مايأتون لزيارتى ومعهم الهدايا والأحاديث التى تصيبنى بالصداع . وكذا بدأت اسبح تدريجيا ، أصعد الى السطح مرة أخرى ، فى بطء لا نهائى . قلت لنفسى ، «الحياة هى السيد . لقد عشنا ضد ما فينا من فطنة وذكاء . إن المعلم الحقيقى هو الجَلَد والاحتمال » . لقد تعلمت شيئا ، ولكن أى ثمن دفعت ! .

(*) بالعربيـة فى حروف لاتينية .

" لو كنت فقط أملك شجاعة التصدى لحبى فى عزم صادق لخدمت أفكار القابل على نحو أفضل .أنت تعتقد أن ذاك أمر متناقض ؟ ربما . اننى بدلا من ذلك تركت حبى يسمم فطنتى وعقلى يتحفظ على حبى . إننى رغم اســتردادى لمكانى واستعدادى لدخول العالم مرة أخرى ، فإن كل شىء فى الطبيعة يبدو وكأنه قد اختفى ! إننى لاأزال استيقظ صارخا ، " لقد ذهب الى الأبد . إن المحبين الصادقين يعيشون من أجل الحب » . وشهق شهقة ناعقة وزحف خارجا من بين الملاءات ، ينظر فى سخرية الى مجموعته الخشبية الطويلة بحثا عن منديل فى صوان الملابس . قال للمرآة ، " ربما كانت أشد الأوهام رقة وفجيعة هى الإيمان بأن أفعالنا يمكن أن تضيف أو تنقص من القدر الكلى للخير والشر فى العالم " . ثم هز رأسه فى اكتئاب وعاد الى الفراش ليضع الوسائد خلف ظهره ويضيف قائلا ، " يتحدث الأب بول البدين البهيمى عن الرضا والقبول ! إن الرضا والقبول بالعالم لا يتأتى إلا من خلال معرفة كاملة بامتدادات الخير والشر غير المحدودة ، أن تعايشها بالفعل ، أن نستكشفها إلى أقصى مداها غير الممنوع ، فى حدود الفهم البشرى المحدود – هذا هو كل الضرورى لقبولها والرضا بها . ولكن أى مهمة تلك ! إن المرء يرقد هنا والزمن يمر ، وهو يتساءل عنه . إن كل أنواع الزمن تتساقط فى ذرات ، فى قطرات عبر ســاعة – رمليــة (الزمن الأزلى) ، زمن الشاعر الفيلسوف ، المرأة الحبلى ، التقويم .... حتى " الزمن مال ونقود " يأتى فى الصورة أيضا . انك لو اعتقدت ان المال ، بالنسبة لمن يؤمن بفرويد ، إنما هو غائط وبراز ، فإن فهمك للزمن لابد أن يكون كذلك ! دارلى لقد جئت فى الوقت المناسب . سوف استرد غدا مكانتى بواسطة اصدقائى . إنها فكرة تمس شفاف القلب . كانت كليا أول من قال بها . لقد كان الخجل من الظهور أمام الناس ، مرة أخرى ، بعد كل تلك الأعمال الشريرة ،

يرزح فوقى ثقيلا . أنك فقط ، فى مثل تلك اللحظات ، يمكنك معرفة من هم أصدقاؤك . غدا ستأتى مجموعة صغيرة لتجدنى مرتديا ثيابى ، ويدىّ مروبطتين بصورة أقل وضوحا ، وسنتىّ الجديدتين فى موضعهما . سوف أضع بالطبع نظارة داكنة . ماونت أوليف ، أماريل ، بومبال وكليا ، كل اثنين منهما فى جانب . سوف نسير بطول شارع فؤاد ثم نتناول القهوة علناً فوق الرصيف امام باسترودى . لقد حجز ماونت أوليف أكبر منضدة غداء فى محمد على وأقترح أن يقدم لى غداء يكفى عشرين شخصا احتفالا ببعثى من الموت . إنها لمحة رائعة من التضامن ، سوف تلجم بالتأكيد الألسنة الحقودة والهازئة . وقد دعانى آل سرقونى الى العشاء فى المساء . اننى بمثل هذا العون الميمون قد استطيع فى المدى الطويل تدارك ثقتى فى نفسى والتى أصابها الضرر، كذا ثقة مرضاى القدامى . أليس هذا عملا لطيفا منهم - وفى إطار تقاليد المدينة ؟ ربما أعيش لابتسم مرة أخرى ، إن لم أعش لأحب - وإبتسامة ثابتة براقة لايمكن أن تصدر إلا عن بيير فقط وهو يحملق نحوى فى ود ومحبة - الصانع الماهر لما صنعته يداه" . ورفع قفازيه الأبيضين مثل بطل يدخل الحلبة ويحيى ، فى عبوس ، جمهور خيالى . ثم ارتمى متراخيا فوق الوسائد ثانية ، وحملق فىّ فى اسى تشوبه الشفقة .

" أين ذهبت كليا ؟ " ، تساءلت .

" لم تذهب إلى أى مكان . لقد كانت هنا ، بعد ظهر الأمس ، تسأل عنك "

" لقد قال نسيم أنها ذهبت إلى مكان ما " .

" ربما ذهبت الى القاهرة فيما بعد الظهر . أين كنت أنت ؟ "

" ذهبت الى الكرم حيث قضيت الليلة " .

وخيم صمت طويل كان ينظر الواحد منا للآخر فى أثنائه . كان من

الواضح أن هنالك اسئلة تدور بخلده ، ولا يرغب ، فى لياقة ، أن يضعنى فى محنة بطرحها ، وشعرت من ناحيتى أن هنالك القليل الذى فى وسعى شرحه . تناولت تفاحة وقضمتها .

« وماذا عن الكتابة ؟ " ، قال بعد صمت طويل .

" لقد توقَّفْت . يبدو أننى غير قادر على مواصلتها أكثر من ذلك في وقتنا هذا . إننى بصورة ما ، لا أستطيع أن أُلائم بين الحقيقة والأوهام الضرورية للفن دون أن تظهر تلك الفجوة – أنت تعرف ذلك ، مثلها مثل شق لا يرتق . كنت أفكر فيها وأنا فى الكرم تواجهنى جوستين مرة أخرى : أفكر كيف أنه رغم الأكاذيب الواقعية التى جاءت فى المخطوط الذى أرسلت لك صورة منه ، فإنه كان ، على نحوما ، حقيقيا بصورة شاعرية – كان معبرا عن الحالة النفسية الجغرافية إن شئت وإلا أن الفنان الذى يعجز عن لحم عناصره معا ، يكون مقصرا فى مكان ما . إننى اسير وراء الأثر الخاطىء " .

" إننى لاأتبين لماذا يحدث ذلك . إن هذا الاكتشاف بالذات يجب ، فى الحقيقة ، أن يحفزك لا أن يثبطك . أقصد ما يختص بتقلب الحقيقة وعدم ثباتها . إذ من الممكن أن يكون لكل حقيقة ألف دافع وباعث ، وكلها صحيحة بنفس القدر ، ولكل حقيقة ألف وجه . وهكذا فإن حقائق كثيرة لها علاقة محدودة بالواقع ، وعليك أنت اقتناصها . إن كل اشكال التعددية تنتظر على مقربة من مرفقك ، فى كل لحظة زمنية . لماذا ، يادارلى ، تروعك هذه المسألة ، وتُحنى كتابتك مثل إمرأة حبلى " .

"على العكس ، لقد أصابتنى فى الوقت الراهن ، على أى حال ، بصدع داخى . والآن ، وقد عدت إلى هنا ، الى الأسكندرية الحقيقية التى استخرجت منها الكثير جدا من لوحاتى ، لا أحس بالحاجة إلى مزيد من الكتابة ، أو الكتابة

التى لا تفى ، بأى حال ، بالمعايير التى أراها تكمن وراء الفن . أنت تتذكر ماكتبه بورسواردن ، " يجب أن تكون الرواية عملا من أعمال الحدس الصادر من الأحشاء ، وليست سجلا دقيقا للعبة الكرة الخفيفة فى مرج الأبرشية " .

" نعم " .

" يجب أن تكون حقا هكذا . إلا أننى مواجه الآن ، مرة أخرى ، بنماذجى التى أخجل من أنى لزقتها دون اتفاق . إننى لو بدأت ثانية ، فسوف يكون ذلك من زاوية أخرى . إلا أن هنالك الكثير الذى لازال أجهله ، والذى أظن أنى لن أعرفه أبدا ، عنكم جميعا . كابوديستريا مثلا ، أين موضعه ؟ "

" يبدو أنك عرفت أنه كان حيا "

" لقد أخبرنى منمجيان بذلك " .

" نعم إنه لغز ليس بهذا القدرمن التعقيد . لقد كان يعمل لحساب نسيم ، وعرض نفسه للظنون بارتكابه زلة خطيرة . كان من الضرورى إبعاده . حدث ذلك، لحسن الحظ فى وقت كان هو فيه مفلسا تماما من الناحية المالية . كانت نقود التأمين أشد الأشياء ضرورة . ودبر نسيم الأمر ، ووفرت أنا الجثة . أنت تعرف أننا نحصل على عدد كبير من الجثث من هذا النوع أو ذاك ، متسولون . هنالك من يهبون أجسادهم أو من يبيعونها فى الواقع مقدما بقدر محدد من المال . إن مدارس الطب تحتاجها . ولم يكن عسيرا أن نحصل على واحدة خاصة بنا . وأن تكون طازجة نسبيا . لقد حاولت أن ألمح لك بالحقيقة ذات مرة إلا أنك لم تلتقط ما كنت أقصده . لقد جرت الأمور على أى حال فى سهولة ويسر . ويعيش داكابو الآن فى طابية ساحلية تم قلبها وتحويلها ، مقسما وقته مابين دراسة السحر الأسود والعمل فى خطط تابعة لنسيم ، لا أدرى عنها شيئا . إننى ، فى الحقيقة

، نادرا مأرى نسيم ، أماجوستين فلا أراها البتة . ورغم أنه يسمح للضيوف برؤيتهما بأمر خاص من الشرطة ، إلا أنهما لم يدعوا أحدا البتة الى الكرم . إن جوستين تتصل بمن تشاء هاتفيا . من وقت لآخر ، من أجل المسامرة ، هذا كل مافي الآمر . لقد منحت امتيازا يا دارلي . لابد أنهما حصلا علي تصريح . إلا أننى سعيد بأن أراك مبتهجا لم تقطع الرجاء والأمل . لقد أحرزت تقدما فى مكان ما ، أليس كذلك ؟ "

" لا أعرف . إلا أننى أقل قلقاً " .

" إلا أنك سوف تكون سعيدا هذه المرة . إنى أحس بذلك . لقد تغير الكثير، لكن الكثير أيضا لايزال على حاله . لقد أخبرنى ماونت أوليف أنه قد رشحك لوظيفة رقابية ، وأنه يحتمل إقامتك مع بومبال ، حتى تأخذ فرصة للنظر فيما حولك قليلا " .

" هنالك لغز آخر . إننى بالكاد أعرف ماونت أوليف . لماذا نصب نفسه فجأة ولى نعمتى ؟ " .

" لا أعرف . ربما كان ذلك بسبب ليزا " .

" شقيقة بورسواردن ؟ " .

" إنهما معا فى المفوضية الصيفية لبضعة أسابيع . إننى أتوقع أن تسمع منه أو منهما معاً " .

كانت هنالك خبطة على الباب ، ودخل خادم ليرتب الشقة . رفع بلتازار نفسه ليعطى أوامره . ووقفت لأنصرف . فقال : « هنالك مشكلة واحدة تشغل بالى . هل أترك شعرى كما هو ؟ إننى أبدو وكأن عمرى مائتان وسبعون عاما . إلا أننى أعتقد عامة أنه من الأفضل تركه كما هو رمزا لعودتى من الموت بباطل

عاقبتنى به التجربة . أه ؟ نعم ، سوف أتركه كما هو . إننى أعتقد يقينا اننى سوف اتركه كما هو " .

" اقترع على ذلك باستخدام العملة " .

" ربما أفعل ذلك . يجب أن أنهض هذا المساء مدة ساعتين وأتدرب على المشى . إن المرء ليحس بالضعف ، على نحو غريب ، لمجرد افتقاده التدريب . إن المرء يفقد ، بعد رقاد اسبوعين ، قوة رجلية . يجب ألا أسقط غدا ، وإلا اعتقد الناس اننى ثمل مرة أخرى . إن ذلك لن يكون مناسبا أبدا . أما بالنسبة اليك ، فعليك أن تجد كليا " .

" سوف أذهب الى الأستديو وأرى إن كانت تعمل هناك "

" إننى سعيد بعودتك " .

" وأنا أيضا كذلك ، وإن كان على نحو غريب " .

وفى الحياة المتألقة المتقلبة فى الطريق العام ، كان من الصعب ألا أحس إحساس مقيم قديم بالمدينة ، يعود من الجانب الآخر ، من القبر لزيارتها . أين يمكننى العثور عليها ؟ .



– ٥ –

لم تكن في مسكنها ، رغم أن صندوق بريدها كان فارغا ، مما يوحى بأنها قد جمعت ، لتوها ، مافيه من رسائل ، وذهبت لقراءتها بينما تحتسى فنجان قهوة بالقشدة ، كما هى عادتها فى الماضى . لم يكن هنالك ، من أحد فى الاستوديو ايضا . كان ملائما لمزاجى أن أحاول تتبعها حتى العثور عليها فى أحد المقاهى المألوفة لنا . أخذت أسير ، قياما بالواجب ، فى شارع فؤاد نحو " بودروت " المقهى الذى يعمل فيه زولتان " والكوكين" ، إلا أنه لم يكن لها من أثر هناك . تذكرنى فى " الكوكين" نادل عجوز كان قد رآها تسير فى شارع فؤاد مبكرا هذا الصباح تحمل محفظة أوراق . تابعت طوافى أتفرس فى واجهات المحلات ، أتفحص الدكاكين الصغيرة التى تبيع الكتب المستعملة ، حتى بلغت الـ " سلكت " عند واجهة البحر ، إلا أنها لم تكن هناك . استدرت أعود الى الشقة حيث وجدت ورقة منها تقول فيها ، أنها سوف تمر علىّ هناك . أثار ذلك ضيقى ، فقد كان يعنى ضرورة قضائى الجزء الأكبر من اليوم بمفردى ، ومع ذلك فقد كان مفيدا لى ، اذ مكننى من زيارة محل منمجيان ، الذى جددت زخرفته ، والاستمتاع بحلاقة شعر رأسى وذقنى ، فيما بعد الزمن الفرعونى (" حمام النطرون " ، كما اعتاد بورسواردن أن يدعوه) ، كما منحنى ذلك وقتا لأقضى حاجياتى .

إلا أننا التقينا مصادفه ، دون تخطيط . ذهبت اشترى بعض الأدوات الكتابية ، واتخذت طريقا مختصرا عبر ميدان " باب الفدان " ، عندما ترنح قلبى

نشوان ، اذ كانت تجلس ، حيث كانت تجلس ميليسا (فى ذلك اليوم الأول) ، تحملق فى فنجان القهوة فى تأمل فكه ساخر ، ويداها تسند ذقنها . نفس الموقع بالضبط ، مكانا وزمانا ، حيث وجدت ميليسا ذات يوم . أخيرا ، استجمعت ، فى صعوبة شديدة ، ما يكفى من الشجاعة لدخول المكان والحديث اليها . منحنى ذلك شعورا غريبا بافتقاد الحقيقة وأنا أكرر هذا الفعل المنسى ، بعد كل ذلك الذى انقطع ، اشبه بفتح مغاليق باب ظل مغلقا متربسا لجيل كامل ، ومع ذلك كانت هى فى الحقيقة كليا وليست ميليسا . كان رأسها الأشقر محنيا فى تركيز طفولى فوق فنجان القهوة . كانت تقوم برج الثمالة مرات ثلاث ، وتفرغها فى الطبق لتفحصها عندما تجف فى خطوط يمكن لقارئى الطالع أن يقرأوها - إنها حركة مألوفة .

" إذن فأنت لم تتغيرى . مازلت تقرأين الطالع " .

" دارلى » ، وقفزت صارخة فى سعادة ، وتعانقنا فى حرارة . كانت هزة داخلية غريبة ، تكاد تكون اشبه بمعرفة جديدة ، عندما أحسست بفمها الضاحك الدافىء فوق فمى وذراعيها فوق كتفى كأن نافذة تحطمت فى مكان ما ، مما سمح للهواء النقى أن يتدفق فى حجرة طال غلقها . ووقفنا هكذا متعانقين ، نبتسم زمنا طويلا ، " لقد أخفتنى ! كنت اوشك على الذهاب الى المسكن لأجدك "

" لقد جعلتنى أطارد ذيلى طوال اليوم " .

" كان لدى عمل لانجزه . الا أنك تغيرت كثيرا ياداراى ! لم تعد تخضع أو تخنع . ونظارتك .... "

" لقد تحطمت مصادفة منذ زمن طويل ، ثم اكتشفت أننى فى الحقيقة فى غير حاجة لها " .

" إننى سعيدة من أجلك . برافو ! أخبرنى ، هل لاحظت تجعيداتى ؟ أخشى أن البعض منها قد بدأ فى الظهور . قل لى هل تغيرت كثيرا ؟ " .

إنها ، بقدر ماأتذكر ، أكثر ، جمالا مما كانت ، أكثر نحافة ، تمتلك إيماءات وتعبيرات جديدة ، توحى بنضج جديد يثير القلق .

" لك ضحكة جديدة " .

" حقا ؟ " .

" نعم إنها أكثر عمقا وموسيقية . يجب علىّ ألا اتملقك . ضحكة عندليب ، إن كان العندليب يضحك .

« لا تجعلنى أراقب نفسى ، إذ اننى أود أن أضحك معك كثيرا . إنك ستحول ضحكتى الى نقيق " .

« كليا ، لماذا لم تحضرى لمقابلتى ؟ "

وجعدت انفها للحظة ، واضعة يدها فوق ذراعى ، أحنت رأسها مرة أخرى تنظر فى بقايا القهوة التى كانت تجف فى سرعة الى خطوط صغيرة حلزونية ومنحنيات أشبه بالكثبان الرملية . قالت متوسلة " أشعل لى سيجارة " .

" لقد قال نسيم انك وليت الأدبار فى اللحظة الأخيرة " .

" نعم لقد فعلت ذلك ياعزيزى " .

" لماذا ؟ " .

" أحسست فجأة أن حضورى ربما كان فى غير الوقت المناسب . ربما عقد الأمر بصورة ما . إن لديك اعتبارات قديمة يجب تسويتها ، حسابات قديمة عليك تصفيتها ، وعلاقات جديدة عليك استكشافها . لقد أحسست أننى بلا قوة لفعل اى شىء معك حتى ... حسنا ، حتى ترى جوستين . لا أدرى لماذا . نعم

هكذا فكرت . لم أكن متيقنة ! أن الدائرة سوف تتغير . أنت مرسل خطابات لعين . لم يكن لدىّ أى وسيلة للحكم على مايدور بخلدك . لقد مضى وقت طويل منذ كتبت الىّ ، أليس كذلك ؟ ثم الطفلة وكل تلك المسائل . إن الناس ، رغم كل شيء ، يلتصقون ، فى بعض الأحيان ، مثل أسطوانة قديمة ، ولا يستطيعون الخروج من الأخدود . كان من الممكن أن يكون ذلك مصيرك مع جوستين . لذا لم يكن من واجبى أن تدخل ، إذ إن وضعى من جهتك ... هل تدرك ما أعنى ؟ كان علىّ أن أترك لك متنفسا . "

" ولنفترض إننى التصقت مثل اسطوانة قديمة ؟ " .

" كلا ، المسألة لم تصبح هكذا " .

" كيف يمكنك معرفة هذا ؟ "

" من وجهك يادارلى . فى وسعى معرفة ذلك فى لمح البصر " .

" إننى لا أدرى البتة كيف يمكننى شرح الأمر ..... "

" لست فى حاجة الى ذلك ، قالت وقد تهلل صوتها فرحا وبهجة ، وابتسمت عيناها البراقتان . " إن لنا قبِل الواحد منا للآخر مطالب أخرى تماما . إننا أحرار فى أن ننسى ! انتم الرجال أغرب المخلوقات . اسمع ، لقد أعددت لهذا اليوم الأول معاً ، كما أعد للوحة ، أشبه باللغز . لقد كنت أسعى كى أعمل كمرشد .... ولكن كلا ، لن أخبرك . فقط دعنى أدفع ثمن هذه القهوة ."

" ماذا كان طالعك فى قاع الفنجان ؟ "

« لقاءات تقع مصادفة » .

" أعتقد أنك تخترعين مثل هذه الأقاويل " .

كان بعد الظهر معتما ، وقد هبط الغسق مبكرا . شعاعات الشمس

القرمزية تتلاعب مع مناظر الشوارع على امتداد واجهة البحر . أخذنا عربة حنطور كانت تقف فى وحشة فى موقف سيارات الأجرة فى محطة الرمل . السائق العجوز ، بوجهه المليء بالندوب ، يسأل فى أمل إن كنا نريد " عـربة حب " أو " عربة عادية " ، وكليا تقرقر ضاحكة . اختارت النوع الأخير باعتباره الأرخص أجراً . قالت ، " لماذا يابنى ، تأخذ إمرأة ، زوجها قوى البنية فى مثل هذا الشىء فى حين أن لديها فراشا فى منزلها لا يكلف شيئا " .

قال العجوز فى استسلام مهيب ، " الله رحيم " .

وهكذا انطلقنا عبر الميدان الأبيض المنحنى بتنداته التى تخفق وترفرف ، والبحر الهادىء يمتد الى يميننا بعيدا حتى الأفق الشاحب . كنا ، فى الماضى ، كثيراً مانأخذ هذا الطريق لزيارة القرصان العجوز فى حجراته الرثة فى شارع التتوييج .

" كليا ، الى اين نحن ذاهبان بحق الشيطان ؟ "

" انتظر وسترى " .

كان فى وسعى أن أرى الرجل العجوز بوضوح للغاية . تساءلت للحظة أن كان شبحه الرث لايزال يهيم فى تلك الحجرات الموحشـــة ، يصفـــر للببغـــاء ، الأخضر ، وينشد ، " صمتا أيها القرد الصغير" (*) أحسست بذراع كليا يضغط ذراعى ونحن ننحرف الى اليسار . ندخل كومة النمل التى يتصاعد منها الدخان فى الحى العربى . الشوارع يختنقها دخـان أكـوام القمامة المحـترقة ، أو اللحـم المطبوخ الغنى بالتوابل ونفحات الخبز المخبوز فى المخابز .

(*) بالفرنسـية فى الأصل .

« لماذا بالله تأخذيننى الى حجرات سكوبى ؟ " ، قلت ، مرة أخرى ، عندما بدأ صوت الحوافر ، كليب – كلوب فوق امتداد الشارع المألوف . لمعت عيناها ببهجة متخابثة وهى تضع شفتيها على اذنى ويهمس ، " الصبر سوف ترى " . كان بالفعل نفس المنزل . عبرنا المدخل الطويل المعتم ، كما كنا نفعل كثيرا فى الماضى . بدا ، فى عمقه ، فى الغسـق ، أشـبه بصورة شمسية باهتة على لوح نحاسى . كان فى وسعى أن أرى الباحة الصغيرة وقد تم توسيعها كثيرا . دعامات حائطية عديدة أزيلت من المنازل المجاورة أو سقطت مما زاد من مساحة المكان مايقرب من مائتى متر مربع . كانت مبعثرة أشبه بآثار مرض الجدرى ، أرض حمراء ليست ملكا لأحد ، مفروشة بالفضلات والنفايات . وفى أحد الأركان انتصب ضريح صغير لا أتذكر أنى لاحظت وجوده من قبل . كان محاطا بشبك حديث من صلب مشغول ضخم قبيح المنظر . كان الضريح يزهو بقبة صغيرة بيضاء وشجرة ذابلة ، وكلاهما أسوأ من أن يُتشح به . تعرفت فيما أمامى على واحد من المقامات (*) العديدة التى تتزين بها مصر . أماكن تغدو مقدسة بموت ناسك أو قديس ، حيث يصبح ملاذ المؤمنين المخلصين للصلاة أو التماس العون بتقديم النذور . وبدا الضريح الصغير ، مثل العديد من أمثاله ، رثا للغاية ، موحشا وكأن وجوده قد أغفل وأهمل وضرب النسيان عليه قرونا . وقفت أنظر حولى . سمعت صوت كليا واضحا ينادى ، " ياعبده !" . كان فى صوتها نغم يوحى بلهو تكبته ، إلا أننى لم استطع ، طوال حياتى ، أن أعرف لماذا . تقدم نحونا رجل يحملق عبر الظلال . " إنه يكاد يكون أعمى . اننى أشك فى أن يتعـرف عليك ." " ولكن من هو ؟ ؟ ، قلت وأنا أحس بالغيـظ من كل هذا اللغز . "

(*) بالعربية فى حروف لاتينية .

إنه عبده سكوبى " . قالت فى ايجاز هامس ، واستدارت بعيدا لتقول ، " عبده : هل لديك مفتاح مقام السكوب [1] ؟ "

حياها تحية من يعرفها وهو يأتي بحركات متقنة من يديه فوق صدره ، أحضر حزمة من المفاتيح الطويلة قائلا فى صوت عميق ، " حالا ياسيدتى " . أخذ يخشخش المفاتيح معا كما يجب أن يفعل خادم الضريح ليخيف الجن الذين يحومون حول الأماكن المقدسة .

"عبده ! " ، صحت فى دهشه هامسة . " لكنه كان شابا " . كان من المستحيل التعرف عليه بهذا التركيب البنيوى المعوج وتلك الحدبة ، بمشيته المطأطئة ، وكأنه يبلغ من العمر قرنا ، وصوته المشروخ . " تعالى " قالت كليا فى عجلة . " الشرح فيما بعد . فقط تعال وأنظر فى الضريح . " وتبعت ذاهلا خطى الخادم . فتح البوابة الصدئة ، بعد صلصلة وجلجلة ، ودقات وطرقات متقنة للغاية ليخيف الجن. قاد الطريق الى الداخل . كان الجو حارا خانقا فى هذا القبر الصغير عديم الهواء . كانت هنالك فتيلة واحدة فى مكان ما فى طاقة اضيئت فأعطت نورا اصفر مرتعشا ، ورقد فى الوسط ، ماافترضت بالضرورة أن يكون قبر القديس . كان مغطى بقماش اخضر عليه رسوم ذهبيه متقنة الصنع .وازاح عبده الغطاء في اجلال وخشوع ، حتى أتفحص وأعاين ، كاشفا عن شيء ما تحته ، أثار دهشتي الى حد أتي صرخت دون إرادة منى . كان مغسلا حديديا مطليا بالزنك له ساق واحدة عليها نقش حفر بارز ، " المغسل التافه ، الكئيب ، لوتون " . كان قد مليء برمل نظيف وقد طليت بكثافة أقدامه الأربع البشعة الأشبه بأقدام التمساح باللون الذى يستخدم ضد الجن ، اللون الأزرق . كان

---

(١) سكوبى كما ينطقها العامة - المترجم .

شيئا يثير دهشة لها جلالها والمرء يتعثر فى تلك الأجواء . وسمعت فى مزيج من المتعة والخوف عبده الذى لم يعد فى الامكان التعرف عليه البتة الآن ، والذى كان خادم هذا الشىء ، يتمتم الصلوات المتعارف عليها باسم السكوب . ويتحسس ، بينما يفعل ذلك النذور التى تتدلى من كل ركن فى الجدار مثل ذؤابات صغيرة بيضاء . كانت تلك ، بالطبع قطعا من قماش انتزعتها النسوة من ملابسها التحتية وعلقتها كتقدمات للقديس الذى يعتقدن أنه يشفى العقم ويجعلهن قادرات على الحمل . ياللشيطان! هنا مغسل سكوبى العجوز ، كما هو واضح ، تتوسل النسوة اليه ليهب الخصوبة لمن بلا اطفال - وبنجاح ، كما يمكن الحكم على ذلك من هذا العدد الكبير من التقدمات .

« السكوب كان رجلا مقدسا » ؟ ، قلت فى لغتى العربية العرجاء ، وأومأت الحزمة البشرية المتعبة المعقوفة برأسها الملفوف فى شال ممزق ، وانحنى الرجل وهو ينق قائلا ، " لقد جاء من أبعد مكان فى سوريا ، هنا وجد راحته ، وأضاء اسمه العدالة . لقد تتلمذ على فعل الخير ! » .

وأحسست كأنى أحلم ، كأنى أكاد اسمع صوت سكوبى وهو يقول ، " نعم ضريح صغير مزدهر ، كما كل الأضرحة . خذ بالك ، إننى لاأسعى الى تكوين ثروة ، اننى اقدم خدمة ! » . وأخذ الضحك يتجمع داخلى ، عندما أحسست بأصابع كليا فوق كوعى . وتبادلنا ضغطات مبتهجة ونحن ننسحب من ذاك الثقب الصغير ردىء التهوية الى الباحة وقد غمرها الغسق ، بينما يعيد عبده فى اجلال وخشوع وضع القماش فوق المغسل ويهتم بالفتيل الزيتى ثم يلحق بنا . وأغلق الشباك الحديدى فى عناية ، مقبلا ماأعطته له كليا من بقشيش ، وهو يردد وافر الشكر والامتنان فى صوت أجش ، ثم سار متثاقلا الى الظلال ، وقد تركنا نجلس فوق كومة من بناء حجرى متداع .

" لم أدخل فى الموضوع مباشرة " ، قالت ، " كنت أخشى أن تأخذ فى الضحك ، وأنا لاأرغب فى إثارة مايكدر عبده " .

" كليا ، إنه مغسل سكوبى ! " .

" أعرف ذلك " .

" كيف ، بحق الشيطان ، حدث هذا " .

وضحكت كليا ضحكتها الناعمة .

" يجب أن تخبرينى " .

" إنها قصة رائعة عجيبة ، لقد كشف عنها بلتازار . إن سكوبى الآن هو (اليعقوب) رسميا . إن هذا ، على الأقل ماهو مسجل بخصوص هذا الضريح فى كتب الكنيسة القبطية . لكنه ، كما سمعت الآن ، هو السكوب حقيقة ! أنت تعرف كيف يطوى النسيان والإهمال مثل تلك المقامات (*) .إنهم يموتون ، وينسى الناس تماما ، عبر الزمن ، من كان القديس الأصلى ، وتدفن الكثبان الرملية الضريح فى بعض الأحيان .الا إنهم يهبون أحياء ثانية . يحدث فجأة ذات يوم أن يشفى هنالك مصاب بالصرع ، أو يوحى الضريح لأمرأة مجنونة بنبوءة ما – وللحال ينهض القديس ويحيا من جديد . حسنا ، لقد كان اليعقوب هنالك عند نهاية الحديقة ، طوال وقت حياة قرصانناالعجوز فى هذا المنزل دون أن يعرف أحد بذلك – غطاه الطوب وأحاطت به الجدران العشوائية – أنت تعرف كيف يبنون هنا بطريقة مجنونة – لقد نُسى تماما . وغدا سكوبى ، فى تلك الأثناء ، وقد مات ، شخصية تتمتع بذكرى عاطفية فى الجوار . بدأت الحكايات تدور

(*) بالعربية فى حروف لاتينية .

حول مواهبة العظيمة . كان فطنا ذكيا فى إعداد المشروبات السحرية (الويسكى الوهمى ؟) . وبدأ يزهر حوله إعجاب يقارب العبـادة . قالوا إنه كان يستحضـر الأرواح لمعرفة المستقبل . وأقسم المقامرون باسمه . ان عبارة « بصق السكوب فوق ورقة اللعب هذه » ، غدت مثالا يتردد فى الحى . قالوا عنه ايضا إنه كان قادرا على تغيير نفسه الى إمرأة متى أراد ! وأنه بنومه مع الرجال العاجزين جنسيا كان يجدد لهم قواهم . كما أنه قادر أيضا على أن يحيل العاقر الى حبلى ، حتى أن بعض النسوة أطلقن اسمه على ابنائهن . حسنا ، لقد لحق بالفعل ، فى زمن قصير ، بكتاب أقاصيص قديسى الاسكندرية ، لكن لم يكن له بالطبع ضريح حقيقى – اذ ان كل امرىء يعرف بنصف عقله ان الأب بول قد سرق جسده ولفه فى علم ودفنه فى مقابر الكاثوليك . إنهم يعرفون ، فالكثيـرون منهم كانوا هناك أثناء القداس واستمتعوا كثيرا بالموسيقى البشعة لفرقة الشرطة ، والتى أعتقد أن سكوبى كان عضوا بها ذات يوم . إننى كثيرا ما اتساءل إن كان يعرف اللعب على أى آلة ، وأن كان ذلك قد حدث ، فأى آلة . الترمبون [1] المنزلق ؟ إنه ، على أى حال ، فى ذلك الوقت ،الذى يمكن القول أن قدسيته كانت فى انتظار اشارة فقط ، دلالة ، تأكيد ، سقط ذلك الحائط رغما عنه وكشف عن اليعقوب (ربما فى غضب وأنفه) . حسنا ، إلا أنه لم يكن هنالك قبر فى الضريح . حتى الكنيسة القبطية ، والتى كانت قد قبلت أخيرا وعلى مضض ، أن يوضع اليعقوب فى كتبها لم تكن تعرف عنه شيئا غير أنه قدم من سوريا . لم يكونوا حتى متأكـدين إن كان مسلما أم لا ! إن لاســمه ، بالنســبة لى ، رنينـا يهوديا . أنهم ، على أى حال ، سـألوا سـكان الحى القدامى بجدية ، واعتـرفوا

---

(١) آلة موسيقية نحاسية كبيرة – المترجم .

باســمه ، على الأقل ، ولكن لاشىء آخر . وهكذا وجد الجيران أنفسـهم ، ذات يوم ، ولديهم ضريح فارغ خالص لسكوبى . لابد كان له وجود محلى يضارع قوة اسمه . واقيم احتفـال عفوى اسـتودع فيه المغسـل الذى كان مسـئولا عن عدد كبير من الميتات (الله أكبر) فى وقار وقدسية بعد ملئه بعناية برمال نهر الأردن المقدسة . لم يستطع الأقباط التسليم رسميا بالسكوب وأصروا على التمسك بـ يعقوب لأغراض رسمية ، إلا أن السكوب ظل هو الاسم الذى تمسك به المؤمنون . كان يمكن للأمر أن يصبح ورطة ما ، إلا أن رجال الاكليروس وهم دبلوماسيون بارعون ، غضوا الطرف عن تجسد السكوب مرة ثانية ، وتصرفوا كأنهم يعتقدون أنه اليعقوب حقيقة ، لكن التغيير جاء بسبب النطق المحلى . وهكذا أنقذ ماء وجه الجميع .

لقد قاموا فى الحقيقة بتسجيل تاريخ ميلاد سكوبى رسميا - وهنا يظهر ذلك التسامح الرائع الذى لا يوجد فى أى مكان آخر - وذلك كما أعتقد لأنهم لم يكونوا يعرفونه تاريخ ميلاد اليعقوب . هل تعرف أنه يقام على شرفه مـولدَ (*) سنوى ، يوم عيد سانت جورج ؟ لابد أن عبده تذكر تاريخ ميلاده ، حيث كان سكوبى يعلق فى هذا اليوم ، فى كل ركن من أركان فراشه ، خيطا به أعلام ملونة لكل الأمم ، كان يستعيرها من بائع الصحف . كان معتادا أن يثمل ، كما أخبرتنى أنت ذات مرة ، ويغنى أهازيج البحارة ، وينشد « المنفضة الحمراء القديمة » ، حتى تسيل دموعه ! » .

" أى خلود رائع يستمتع به " .

" أى سعادة تلك التى لابد أن تغمر القرصان العجوز " .

" أى سعادة ! أن يكون الولى الحامى لحيِّه ! أوه دارلى ، كنت أعرف أنك

(*) عربية بحروف لاتينية .

ستستمتع بذلك . إنني كثيرا ماآتى الى هنا ، فى مثل هذا الوقت من الغسق ، وأجلس فوق أحد الاحجار وأضحك من أعماقى ، فرحة واتبهاجا للرجل العجوز "

وهكذا جلسنا معا وقتا طويلا ، بينما الظلال تنمو حول الضريح ، نضحك ونتحدث فى هدوء ، كما يجب أن يفعل الناس عند ضريح قديس ! نحيى ، ذكرى القرصان العجوز بعينه الزجاجية ، والذى لايزال طيفه يتجول فى تلك الحجرات الرثة فى الطابق التالى . كانت انوار شارع التتويج تتلألأ غامضة . لم تكن تضوى بتألقها القديم المعتاد – ولكن بصورة مظلمة – اذ كان حى الميناء كله قد خضع لاطفاء الأنوار خشية الغارات الجوية ، وكان أحد قطاعاته يشتمل على الشارع الشهير . وأصابتنى الحيرة . قلت فجأة ، " وعبده ، ماذا عنه ؟ " .

" نعم ، لقد وعدت أن أخبرك ، لقد أسس له سكوبى ، كما تتذكر ، دكان حلاق . حسنا ، لقد أنذره لأنه لم يكن يحافظ على أمواسه نظيفه ، مما تسبب عنه نشره لمرض الزهرى . الا أنه لم يلتفت إلى تلك التحذيرات ، ربما لأنه كان يعتقد ان سكوبى لا يمكن أن يبلغ عنه رسميا . إلا أن الرجل العجوز فعلها ، وكانت النتائج رهيبة . لقد ضرب عبده فى قسم الشرطة حتى كاد يموت ، وفقد إحدى عينيه . وامضى اماريل قرابة العام يحاول أن يرممه ويهندمه . ثم أصيب ، فوق كل ذلك ، بمرض أشبه بمرض السل ، دمر كل قواه ، وكان عليه أن يترك دكانه ، ذلك الرجل المسكين . الا اننى لست متيقنة إن كان هو الرجل غير المناسب لحماية مزار سيده . "

" السكوب ! ياالعبده المسكين !" .

" إلا أنه يجد عزاءه الآن فى الدين . انه يقوم بعمليات وعظ خفيفة كما يتلو من السور ما تقتضيه وظيفته . هل تعرف أننى أعتقد أنه قد نسى سكوبى الحقيقى . لقد سألته ذات مرة إن كان يتذكر العجوز اللطيف الذى كان يسكن

الطابق العلوى ، إلا أنه نظر الىّ نظرة غائمة ، وتمتم شيئا ما ، وكأنه يحاول الوصول بذاكرته الى الوراء من أجل شيء أنأى من أن يمسك به . لقد اختفى سكوبى ، كما اختفى يعقوب تماما ، وأخذ السكوب مكانه " .

" إننى أحس كما كان يجيب أن يحس أحد الحواريين - أقصد أن يكون مولدك يوم مولد أحد القديسين ، فتصبحى اسطورة . فكرى ، إننا نعرف بالفعل السكوب الحقيقى ! لقد سمعنا صوته ..... "

وفرحت ، اذ بدأت كليا تقلد الرجل العجوز بطريقة تثير الإعجاب حقا ، تحاكى سلوكه المتناثر المتقطع عند حديثه عن الحياة ، كانت تكرر الكلمات من الذاكرة .

" نعم ، خذ بالك ، كان الطرب يستخفنى ، الى حد ما ، فى يوم عيد سانت جورج ، من أجل انجلترا ومن أجلى أيضا . كنت أتناول دوما رشفة أو اثنتين من «الحمراء الخجولة » ، كما كان يقول توبى ، ويمكن أن تكون من « ذات الفقاقيع » ، إن جاءت فى طريقى . لكننى ، باركك الله ، لست ممن توصلهم العربات التى تجرها الخيل - إننى دائما باق فوق مسمارىّ . إن الكأس هو الذى يبعث البهجة، ولا يسك .. يسك يسكرنى ، انها واحدة اخرى من عبارات توبى ، كان يفيض بالصور الأدبية . كان يمكن أن يكون كذلك - لماذا ؟ لأنه لم يكن يظهر البتة دون كتاب تحت ابطه . كان يُعتبر ، فى البحرية غريبا للغاية . وكثيرا ما كان لديه صفوف منها . « ماذا لديك هناك ؟ » ، هكذا اعتادوا أن يصيحوا فيه . واعتاد توبى، الذى كان يمكن أن يكون وقحا فى بعض الأحيان ، أن يغيظهم ويجيب فى الحال ، « ماذا تعتقدون أيها المختالين ؟ إننى بالطبع متزوج من الأسطر والكلمات » ، الا أنه كان هنالك دوما كتاب ثقيل ، يصيب رأسى بالدوار رغم أنى أحب القراءة . كان فى أحد الأعوام ، « مسرحيات سترينج باج » ، وهو مؤلف سويدى كما فهمت . وكان فى عام آخر « فروست جويتر » . كان توبى

يقول أن ذلك تعليم حر . لم يكن تعليمى يرقى الى مستواه . مدرسة الحياة ، كما يمكن أن تقول . لقد قُتل ابى وأمى مبكرا ، وتُركنا نحن أيتاما ثلاثة صغارا للتلف والهلاك . كانا يعدوننا لعالى الأقدار، كان أبى يعد واحدا منا للكنيسة ، وواحد للجيش ، وواحد للبحرية . ودهس القطار الخاص لأمير ريجنت شقيقىّ قرب سيد كوب ، بعد وفاة والدىّ بفترة قصيرة . ونشرت كل الصحف الحادثة ، وأرسل الأمير اكليلا من الزهور ، لكننى تركت بمفردى تماما . وكان علىّ أن أشق طريقى دون الاعتماد على نفوذ احد ، والا كنت الآن ، كما كنت أتوقع ، ادميرالا .."

كان وفاؤها للعطاء أمينا بصورة مطلقة . وخطا الرجل العجوز الضئيل من قبره مباشرة ، وأخذ يمشى مشيته غير المتوازنة فى حذر أمامنا . كان يعبث مرة أخرى بتلسكوبه فوق حامل الكعكة ، ويفتح انجيله ، الذى يكاد يفنى ، ويغلقه ، أو يركع على ركبته وهى تزيق ، لينفخ النار بمنفاخ صغير للغاية . يوم عيد ميلاده ! إننى أتذكر العثور عليه فى أحد أمسيات عيد ميلاده وهو فى أسوأ حال رغبة فى البراندى ، إلا أنه يرقص عاريا تماما على موسيقى من صنعه مستخدما مشطا وورقة .

عندما استعدت ذكرى هذا الاحتفال بعيد قديسه ، بدأت أقلده لكليا حتى اسمع ثانية هذه الضحكة المثيرة الجديدة التى اكتسبتها ، " أوه ، أنه أنت ياداراى ! لقد فاجأتنى تماما بطرقاتك على الباب . أدخل . لقد كنت أرقص رقصة ما ، حتى أتذكر الأيام الخوالى ، إنه عيد ميلادى . نعم ، إننى دوما أمعن النظر قليلا فى الماضى ، بهذه المناسبة . لقد كنت فى شبابى غندورا حقيقيا ، اننى لاأبالى الاعتراف بذلك . كنت فى شبابى بارعا بحق فى « الفيلوتا » . هل تريد مشاهدتى ؟ فقط افترض أننى فى باريس . إجلس على المقعد هناك وراقب. الآن تقدموا ليأخذ كل رفيقته ، هزوا الأكتاف ، انحنوا ، تراجعوا ! تبدو الرقصة سهلة ، لكنها ليست كذلك . إن النعومة خادعة . كان فى وسعى يا بنى ،

فى وقت من الأوقات ، أن أرقص كل الرقصات ، الفرسان حملة الرماح ، الاسكتلنديون ، حلقة القوقازيين . أنت لم تر نصف السلسة الانجليزية [١] ، كما أضمن ؟ كانت كما اعتقد قبل زمانك . خذ بالك ، لقد احببت الرقص وظللت محافظا على ذلك حتى يومنا . كنت أنهض فى سرعة الهوتشى - كوتشى هل رأيت ذلك أبدا ؟ نعم ، إن الهاتيش تمارس كما فى الفندق . بعض الحركات الصغيرة الجذابة الفاتنة ، والتى يطلقون عليها إغراءات شرقية . إنها أشبه بالتموجات ، انك ترفع خمارا وراء الآخر حتى تتكشف جميعا . إن الاثارة تفوق الحد ، عليك أن تهتز وأنت تنساب . هل تحب رؤية ذلك ؟ . " هنا ! اتخذ وضع إغراء شرقى لا يعقل ابدا ، وأخذ يدور فى بطء يرجرج مؤخرته ، ويدمدم لحنا مناسبا ، يعكس بأمانة تامة قصور وهبوط الربع نغم العربى . أخذ يدور ويدور في الحجرة حتى بدأ يحس بالدوار ، فارتمى متراخيا منتصرا فوق السرير يضحك ضحكة مكتومة ويومىء برأسه راضيا عما فعل ، مهنئا ذاته ، ثم تناول جرعة كبيرة من العرقى ، التى كانت صناعته ايضا واحدا من أسراره . لابد أنه وجد وصفته فى صفحات كتاب جيب " بوستلثويت " ، والذى كتب خصيصا لمن يرتحلون فى بلاد أجنبية . كتاب كان يحتفظ به جيدا فى حافظة ملابسه ، والذى كان يقسم به قسمه الأعظم . كان يحتوى ، كما يقول ، على كل ما يجب أن يعرفه إنسان ، وضعه مثل وضع روبنسون كروزو - حتى كيفية اشعال النار بحك عصوين معا . كان منجما رائعا من المعلومات (" كى تصنع عرقى بومباى بنجاح ، أذب ثلثى درهم من زهور جاوه فى ربع جالون من الروم الجيد . إن هذا سيضفى على المشروب عبير العرقى ") . كان ذلك نموذجا لما يحتويه . "

(١) بالفرنسية فى الأصل .

نعم :، هكذا يضيف فى وقار ، " لا يمكن لأحد أن يتفوق على العجوز بوستلثويت . إن به شيئا لكل العقول وكل الحالات . يمكننى القول ، أنه كان عبقريا . "

مرة واحدة فقط ، فشل بوستلثويت فى الارتقاء الى سمعته . كانت تلك المرة عندما قال توبى أنه يمكن جمع ثروة من الذباب الأسبانى ، إن استطاع سكوبى الحصول على كمية كبيرة منه لتصديره . " إلا أن القاتل لم يوضح ماكنهه أو كيف يكون . كانت تلك هى المرة الوحيدة التى خذلنى فيها بوستلثويت . هل تعرف ماذا يقول عنه تحت عنوان الذباب الهندى ؟ لقد كان تذكر هذه النبذة غامضا للغاية وأنا أعيدها على مسامع توبى عندما جاء فيما بعد . إن بوستل العجوز يقول ، » إن استخدام الذباب الهندى من الداخل مهيج ومدر للبول ، وأن استخدامه من الخارج يسبب التشنج واحمرار الجلد . والآن ، ماذا يقصد بذلك ، بحق الشيطان ، اه ؟ وكيف يمكن أن يتسق ذلك وفكرة توبى عن تجارة مزدهرة من مثل تلك الاشياء ؟ لا بد أن تكون نوعا من الديدان . لقد سألت عبده ، إلا أننى لم أعرف المسمى العربى المرادف " .

أما وقد انتعش بهذا الفاصل ، فإنه يتقدم مرة أخرى الى المرآة ليتأمل فى اعجاب هيكله المتجعد الأشبه بسلحفاة عجوز . وغشت فكرة مفاجئة ملامحه بالقتامة . أشار الى جزء من أعضائه المتغضنة وقال ، " ذلك هو الجزء الذى يصفه بوستلثويت بأنه النسيج الوحيد الذى له " له خاصية الانتصاب " . إننى اتساءل دوما لماذا هذا الجزء وحده ولا غيره . إن لغة رجال الطب هؤلاء ، تبدو فى بعض الأحيان كالاحاجى والألغاز . حقا إنه مسمار من نسيج له خاصية الانتصاب . فكر أيضا فى كل المتاعب التى يثيرها . اسألنى ، فإنك لو رأيت مارأيته أنا ، فإنه ما كان فى وسعك أن تظفر بنصف الطاقة المنفعله التى ظفرت أنا بها اليوم" .

وهكذا أطال القديس احتفالات عيد ميلاده ، يرتدى منامات ، ينغمس فى دور غنائى قصير يتضمن الكثير مما هو قديم أثير لديه ، يغنى قصيدة قصيرة ، لم يكن يشدو بها إلا فى أعياد ميلاده ، كانت تدعى " ربان السفينة القاسى القاسى ، وهنالك لازمة موسيقية تنتهى بـ :

هكذا كان نبتا سماويا عجوزا ، توم ، توم ،
هكذا كان قرص لحم عتيق ، توم ، توم ،
هكذا كان عجوزا شكسا ،

والآن وقد أرهق ساقيه بالرقص وصوته الشادى بالأغنية ، بقيت أحاج قليلة قصيرة كان يطرحها على السقف وذراعاه خلف رأسه .

" أين تناول جلاد الملك شارل عشاءه ، وماذا ، طلب من طعام ؟ "

" لا أعرف " .

" هل تستسلم ؟ "

" نعم ".

" حسنا ، لقد تناول شريحة لحم فوق رأس الملك " .

قوقات مبتهجة وضحكات مكتومة .

" متى يمكن لأملاك رجل نبيل المحتد أن توصف بأنها أشبه بالريش ؟ "

" لاأعرف "

" هل تستسلم ؟ "

" نعم "

" عندما تُوقَف كل أملاكه وعقاراته (مثل ذيل دجاجة - هل ترى ؟) .

وتلاشى الصوت تدريجيا ، توقفت الساعة ، أغلقت العينان : تمددت الضحكات مكتومة مسترخية الى نعاس ، هنا نام القديس اخيرا ، مفتوح الفم ، فى يوم عيد سانت جورج .

عدنا يتأبط كل منا ذراع الآخر ، عبر البوابة الظليلة ، ونحن نضحك ضحكة إشفاق تستحقها صورة الرجل العجوز - ضحكة كانت على نحوما تعيد طلاء الأيقونة طلاء خادعا ، تعيد ملأ المصابيح بالوقود حول الضريح . بالكاد كان لوقع خطانا صدى فوق أرضية الشارع بتربتها المدكوكة . الإظلام الجزئى للمنطقة قطع الضوء الكهربى الذى كانت تتلألأ فى نوره ، فى الأحوال العاديـــة، وقد استبدل الآن بمصابيح زيتية ترفرف شاحبة فى كل مكان ، حتى أننا كنا نسير فى غابة مظلمة فى ظل ضوء متوهج دافىء ، جعل الأصوات والنشاطات فى المنازل حولنا أكثر غموضا من أى وقت مضى . وهبّت ، فى نهاية الشارع ، حيث كانت تقف عربة الحنطور الكسيحة المترنحة فى أنتظارنا ، انفاس بحر الليل الباردة المثيرة والتى سوف تتغلغل بالتدريج فى المدينة ، تبدد رطوبة البحيرة الخانقة .

" والآن ، يجب ، ياكليا ، أن أدعوك للعشاء ، احتفالا بضحكتك الجديدة !"

كلا . لم أنته بعد مما أعددت . هنالك لوحة أخرى ، من نوع مختلف ، أود منك أن تراها . إننى وددت ، يادارلى ، كما ترى ، أن أعيد تركيب المدينة ، بصورة ما ، حتى يمكنك أن تعود الى اللوحة من زاوية أخرى ، وتحس أنك فى بيتك تماما - رغم أن هذه الكلمة بعيدة عن أن تكون مناسبة لمدينة من المنفيين ، أليس كذلك ؟ على أى حال ..... " . ومالت الى الأمام (فأحسست بأنفاسها فوق وجنتى) ، وقالت للسائق ، " خذنا الى الأوبرج بلو ! ."

" لمزيد من الأسرار " .

" كلا . سوف تظهر الليلة ، سميرة العفيفة على الملأ لأول مرة . إن هذا الأمر بالنسبة لى أقرب الى أن يكون افتتاحا لمعرض صور - انت تعرف ، ام لا تعرف ، أننى وأماريل مبدعا انفها المحبب ؟ لقد كانت مغامرة هائلة : خلال

شهور طويلة . وكانت هى صبورة شجاعة ، تحت الضمادات والغرز والتطعيم . والآن اكتملت العملية . لقد تزوجا بالأمس ، ولسوف تكون الأسكندرية كلها الليلة هناك لتراها . يجب ألا تغيب عن هذا الحفل اليس كذلك ؟ إنها تجسد شيئا نادرا للغاية فى هذه المدينة ، ولسوف تقدره أنت حق قدره ، باعتبارك دارسا متحمسا لهذا الموضوع . إنه اعلان للحب الرومانسى بحروف كبيرة . لقد شاركت فى هذا الأمر مشاركة هائلة ، دعنى أحس بالزهو قليلا . لقد كنت قهرمانة حينا ، وممرضة حينا ، وفنانة حينا . كان كل ذلك من أجل أماريل الطيب . ان سميرة ، كما ترى ، ليست ذكية تماما . وكان علىّ أن اقضى الساعات معها كى أعدها لهذا العالم ، كذلك لصقل قدراتها على القراءة والكتابة، أى فى ايجاز محاولة تعليمها قليلا . ومن الغريب أن أماريل لم ينظر الى هذه الفجوة الهائلة بين تعليمهما المتفاوت كقضية . انه يحبها أكثر الحب بسبب ذلك . انه يقول ، «أنا أعلم أنها أقرب إلى أن تكون ساذجة ، وذلك مايجعلها رقيقــة للغاية » .

" إن هذا هو أنقى خلاصة للمنطق الرومانسى ، كلا ؟ لقد أقدم على ابتداعات واختراعات شتى من أجل إعادة تأهيلها . لقد اعتقدت إنه من الخطورة بمكان أن تلعب ، على نحو ما ، لعبة بيجماليون ، الا أننى بدأت أدرك الآن فقط مدى قوة التصور . هل تعرف مثلا ، ماذا استنبط لها ، من أجل أن تكون لها مهنة ، مهارة خاصة بها ؟ إن مافعله يكشف عن ذكاء متألق . كانت محدودة العقل جدا لا تستطيع القيام بعمل متخصص للغاية ، لذا قام بتدريبها ، بمعاونتى ، كى تكون جراحة دُمى . كانت هدية عرسه لها غرفة عمليات جراحية لدُمى الأطفال ، والتى غدت مألوفة لها تماما رغم أنها لن تفتتح رسميا إلا بعد عودتهما من شهر العسل . إن سميرة قد أمسكت حقا بهذه الوظيفة الجديدة بكلتا يديها . لقد قضينا الشهور نقطع الدُمى معاً ونرممها إعدادا لذلك ! ما كان من الممكن لدارس

طب آن يجتهد أكثر مما اجتهدت . يقول أماريل ، « إنها الطريقة الوحيدة للإمساك حقا بأمرأة غبية ، أنت تهيم بحبها . امنحها شيئا لتؤديه على مسئولياتها » .

ترنحت بنا العربة على امتداد الكورنيش عودة الى المنطقة المضاءة من المدينة ، حيث بدأت المصابيح الزرقاء تحملق فينا واحدا بعد الآخر ونحن نتحدث فى العربة . فجأة بدا أن الماضى والحاضر قد اتحدا مرة أخرى ، دون أية فواصل أو تقسيمات ، وأن كل ذكرياتى وانطباعاتى قد فرضت على نفسها غطاء واحدا متكاملا كانت المدينة المضيئة هى دوما التعبير المجازى عنه ، مدينة من حرموا الميراثِ - مدينة تحاول الليلة أن تنشر فى رقة الجناحين المنشوريين اللزجين لفراشة حديثة الولادة . الحب الرومانسى ! لقد اعتاد بورسواردن دعوته بـ « الشيطان الماجن » .

لم يتغير الأوبرج البته . ظل كما كان جزءا من متاع أحلامى ، وهنا (كوجوه فى حلم) كان السكندريون أنفسهم يجلسون الى مناضد تزينها الزهور، بينما فرقة موسيقية تقطع فى رقة ماهم فيه من تكاسل فى ظل تلك الألوان الزرقاء . واعادت صرخات الترحيب مافى المدينة القديمة من اشكال كرم تلاشى. اثينا تراشا بحلقها الفضى فى أذنيها تطن مع بيير باليز الذى يتعاطى الأفيون. اذ يجعل " العظام تزهر " ، آل سيرفونى الأجلاء وبنات آل مارتينتجو الحاذقات وطفحهم الجلدى ، كان الجميع هناك . الجميع دون نسيم وجوستين ، حتى بومبال الطيب كان هنالك فى لباس المساء الكامل وقد تم كيه وتنشيته جيدا ليضفى عليه جو أثر تذكارى بارز تم اعداده خصيصا لقبر فرانسوا الأول ، وكانت فوسكا معه ، دافئة سمراء . لم أكن قد رأيتها من قبل .

جلسا وقد تماست أصابعهما فى نشوة غريبة . كان بومبال يجثم

منتصبا تماما ، متنبها كأرنب ، وهو يحملق فى عينيها - عينى ربة المنزل الوسيمة الشابة . كان يبدو مضحكا . (" إنها تدعوه جورج - جاستون ، وهو اسم يبهجه لسبب ما ، " قالت كليا) .

أخذنا طريقنا ، ننتقل فى بطء ، من مائدة الى اخرى نحيى أصدقاءنا القدامى كما كنا نفعل فى الماضى حتى بلغنا المائدة الصغيرة الركنية ، بما عليها من بطاقة حجز سليوليدية قرمزية ، تحمل اسم كليا ، ولدهشتى برز النادل ، زولتان فجأة أمامى ، من لا شىء ، ليهز يدى فى دفء ، انه الآن " الميتردوتيل " المتألق فى أكمل عدة وقد قص شعره ومشطه . كان يبدو ايضا منغمسا تماما فى سر ما ، اذ اشار همسا لكليا ، ان كل شىء قد أعد فى سرية تامة ، بل لقد ذهب بعيدا فغمز بعينه . " إن أنسلم ، يراقب فى الخارج ، سوف يعطى اشارة بمجرد أن يرى عربة دكتور أماريل ، وحينئذ تبدأ الموسيقى عزفها - لقد طلبت مدام تراشا عزف « الدانوب الأزرق » العتيق " . وصفق راحتيه معاً فى نشوة ، وابتلع ريقه مثل ضفدع صاحت كليا ، " يالفكرة اثينا الرائعة ، برافو . " كانت إيماءة عاطفية بحق . فقد كان أماريل افضل راقص فالس ، من فيينا ، فى الاسكندرية . ورغم انه لم يكن مغرورا ، الا أنه كان يبتهج دائما ، بطريقة غير معقولة ، بمهارته كراقص . إنها لابد أن تدخل المسرة الى نفسه .

لم يطل انتظارنا . التوقع والإثارة لم يكن أمامها مايكفى من وقت لإثارة الملل . توقفت الفرقة التى كانت تؤدى أنغاما ناعمة ، بينما أذنها منتصبة ، كما يمكن القول ، لسماع صوت السيارة . ظهر " أنسلم" عند ركن الممر يلوح بفوطة مائدة . إنهما قادمان ! أطلق الموسيقيون انغاما متتالية طويلة مرتعشة ، لابد أن يأتى ختامها عادة فى نغم غجرى . ما أن ظهرت سميرة الجميلة بين اشجار النخيل ، حتى أخذوا يعزفون موسيقى الفالس ناعمة رصينة ، موسيقى «الدانوب

الأزرق ». فجأة تأثرت تماما وأنا أرى الطريقة الخجولة التى ترددت بها سميرة عند عتبة حجرة الرقص المزدحمة ، اذ رغم روعة ردائها فإن العيون التى كانت ترقبها ، تثير الرعب فى قلبها ، قد أفقدتها تحكمها فى ذاتها . رفرفت فى حيرة ناعمة ذكرتنى بالطريقة التى تتدلى بها مقدمة قارب مبحر عندما تحل حباله ، ويهتز شراع ساريته - كأنما تتأمل ، تفكر فى بطء للحظة طويلة قبل أن تستدير وهى تتنهد تنهيدة تكاد تكون مسموعة تستقبل الانفاس فوق وجنتها . الا أنه فى تلك اللحظة من التردد والحيرة الفاتنة الساحرة جاء أماريل خلفها وأخذ ذراعها ، وبدا هو ذاته ، كما اعتقدت ، يكاد يكون شاحبا عصبيا رغم التأنق الشديد المألوف لملبسه . بدا ، وقد امسك به هكذا فى لحظة تكاد تكون زعرا ، شابا بصورة غريبة . تنبه الى موسيقى الفالس ، فتمتم لها بشىء ما ، وشفتاه ترتعشان . قادها ، فى نفس الوقت ، فى وقار بين ، المناضد حتى طرف باحة الرقص حيث استدارا ليبدأ الرقص فى حركة بطيئة متقنة . إنثالت الثقة فى كلاهما عند أول حركة كاملة لرقصة الفالس ، كان فى وسع المرء أن يرى ذلك ، صارا هادئين ساكنين مثل أوراق الشجر . أغلقت سميرة عينيها بينما استعاد أماريل مرحه المعتاد ، وابتسامته الواثقة . تفجر التصفيق حولهما من كل مكان، من كل ركن فى غرفة الرقص ، حتى النُدل بدوا متأثرين ، وتلمس زولتان متديله ، فقد كان أماريل حبوبا للغاية .

بدت كليا ايضا وقد هزتها العاطفة هزا شديدا . قالت " اوه ، دعنا نأخذ ، فى سرعة . شرابا . هنالك ثقل هائل فى حلقى ، وإن حدث وبكيت ، فسوف تفسد زينتى " . انطلقت مدفعية زجاجات الشمبانيا وهى تُفتح الآن من كل الأركان . امتلأت باحة الرقص براقصى الفالس ، وألوان الضوء المتغيرة - الآن زرقاء ، الآن حمراء الآن خضراء . رأيت وجه كليا المبتسم فوق حافة كأس

الشمبانيا الذى تحتسيه وعليه تعبير فرحة عابثة ، وهى تلتفت نحوى . " هل يضايقك إن أنا ثملت الليلة قليلا احتفالا بأنفها الناجح ؟ أعتقد أنه فى وسعنا الشرب دون تحفظ، فإنهما لن يترك الواحد منهما الآخر أبدا ، إنهما ثملان بالحب الفروسي الذى يقرأ المرء عنه فى اساطير الملك آرثر وحاشيته – الفارس والسيدة التى أنقذها . وفى القريب العاجل سوف يكون هنالك أطفال يحملون جميعا أنفى الظريفة اللطيفة " .

" لا يمكن أن تكونى على يقين من هذا

" دعنى أعتقد بذلك

" دعينا نرقص قليلا

لحقنا بحشد الراقصين فى الدائرة الكبيرة التى كانت تتأجج بالضوء المنشورى الدوار ، نسمع دقات الطبل الناعمة تتخلل دماغنا ، تنتقل الى ايقاعات بطيئة رصينة ، أشبه بأكاليل زهور كبيرة من أعشاب بحر ملونة ، تتمايل فى بركة ضحلة ، مرة مع الراقصين ، ومرة كل مع الآخر .

لم نمكث الى وقت متأخر . ما أن خرجنا الى الهواء البارد الرطب حتى ارتعشت كليا وسقطت نحوى ممسكة بذراعى .

" ماذا بك ؟ "

" أحسست بالإغماء فجأة . وقد انتهى ذلك الإحساس " .

عدنا الى المدينة عبر واجهة البحر الخالية من الرياح يخدرنا وقع حوافر الجواد فوق الحصباء ، وخشخشة عدته ورائحة التبن وأنغام الموسيقى الخابية وهى تنساب من غرفة الرقص ، تتلاشى بعيدا بين النجوم . دفعنا أجر العربة عند فندق سيسيل . قطعنا الشارع المهجور المتعرج إلى مسكنها وقد تأبط كل

منا ذراع الآخر ، نسمع خطانا البطيئة وقد ضخمها الصمت . كانت هنالك مجموعة قليلة من الروايات ، في واجهة إحدى المكتباب ، وكانت إحداها لبورسواردن . وقفنا لحظة نحملق في المتجر المظلم، ثم عاودنا سيرنا على مهل الى مسكنها . قالت . " سوف تدخل لحظة ؟

كان جو الاحتفال ، هنا أيضا ، واضحا ، يتجلى في الزهور ومنضدة العشاء الصغيرة التي انتصب عليها دلو الشمبانيا . " لم أكن أعرف إننا سنبقى حتى العشاء في الأوبرج فأعددت ما أطعمك به هنا ، إن لزم الأمر ، " قالت كليا، وهي تغمس أصابعها في الماء المثلج . تنهدت في ارتياح . " يمكننا ، على الأقل ، أن نشرب معاً قبل النوم

لم يكن هنا ، على الأقل ، أي شيء يمكن أن يُفقد الذاكرة احساسها بالزمان والمكان أو يشوهها . كان كل شيء كما أتذكره تماما . لقد عدت الج الغرفة اللطيفة ثانية ، كما يلج المرء لوحة اثيرة لديه . هنا كل شيء كما كان ، أرفف الكتب المزدحمة . لوحات الرسم الثقيلة ، البيان الصغير ، مضارب التنس وسيوف لعبة الشيش في الركن ، وانتصب على المكتب ، بالإضافة الى الخطابات المختلطة بغير نظام ، والرسومات والفواتير ، الشمعدان الذي كانت تشعله الآن ، وحزمة من لوحات زيتية تقف الى جوار الحائط . ودرت مرة أو أثنتين ، أحملق فيها في فضول .

" ياإلهي ياكليا ، لقد نحوت منحى تجريديا

" اعرف ذلك ! إن بلتازار يكرهها . لكنها مجرد مرحلة كما أتوقع ، ولذا لا تنظر اليها باعتبارهانهائية أو لا رجعة فيها . إنها طريقة مختلفة يعبيء المرء فيها مشاعره في الرسم . هل تشمئز منها ؟

" كلا ، إنها تبدو أقوى كما أعتقد

هوم ، إن ضوء الشموع يضفي عليها توزيعا كاذبا للضوء والظلال

ربما

تعال أجلس ، لقد صببت لك شرابا

جلسنا ، كأنما هنالك اتفاق مشترك ، نواجه الواحد منا الآخر ، فوق السجادة ، كما كنا نفعل ، في الغالب ، فيما مضى . جلسنا القرفصاء مثل خياطي الثياب الأرمن " كما قالت ذات مرة . تبادلنا الانخاب في الضوء الوردي للشموع القرمزية التي انتصبت لاتطرف في الهواء الساكن ، تحدد بأشعتها الطيفية فم كليا المبتسم وملامحها الصريحة الصادقة . أخيرا ، هنا أيضا ، فوق تلك البقعة التي لا تنسى ، فوق السجادة الباهتة ، احتضنا بعضنا البعض بـ - كيف يمكن قول ذلك ؟ بهدوء باسم جليل ، كأن كأس اللغة قد فاض في صمت، في تلك القبلات البليغة التي حلت محل الكلمات ، أشبه بما يجازي به الصمت ذاته من عطايا ، يكمل الفكر والإيماء . كان الوضع أشبه بتكوينات سحابية ناعمة تنساب قطرات من براءة رواية وطهرها ، الألم الحقيقي لإنتفاء الشهوة . وأدركت أن خطاي قد قادتني ، تعود بي ثانية ، أتذكر ليلة مضت منذ زمن طويل ، عندما رقدنا بلا أحلام كل منا بين ذراعي الآخر ، خلف الباب المغلق الذي رفض أن يسمح لي بالدخول اليها . قادتني ، مرة أخرى ، الى تلك النقطة من الزمن ، الى تلك العتبة ، التي كان ظل كليا يتحرك خلفها مبتسما ، لا يحسب للعواقب حسابا كما زهرة ، قادتني بعد التفاف متعرج مجدب في تيه خيالاتي . لم أكن أعرف حينئذ كيف يمكنني العثور على مفتاح ذلك الباب . والآن تفتح الباب طوعا في بطء ، بينما الباب الآخر ، الذي قدم لي المزيد ذات يوم مع جوستين ، قد أغلق الى غير رجعة . الم يقل بورسواردن شيئا ما عن " الرسوم المنزلقة " ؟ إلا أنه كان يتحدث عن الكتب لاعن القلب البشري . لم يكن يعكس وجهها الآن أي فكر أو

سابق تدبير ، لكن فقط ، نوعا من التخابث الرائع الذى أمسك بعينيها البديعتين ، معبرا عن نفسه فى الطريقة الثابتة الحانية وهى تشد ذراعى داخل كمها لتقدم نفسها لاحضانى ، بإيماءة امرأة تتدله حبا ، تقدم جسدها الى عباءة ثمينة لا تقدر بمال . أو أن تمسك بيدى وتضعها فوق قلبها وتهمس ، " تحسس ! لقد توقف عن الخفقان ! " وهكذا تباطأنا وأطلنا ، حتى أننا ظللنا مثل شخوص ذاهلة فى لوحة زيتية منسية ، نستطعم ، دون عجلة ، نكهة السعادة التى تُمنح لهؤلاء الذين يمتعون بعضهم البعض دون تحفظ أو ازدراء للذات ، دون أردية أنانية مسبقة ، دون الحدود المصطنعة للحب البشرى : إلا أن جو الليلة المظلم فى الخارج ، امتلأ بصوت شبحى متضخم ، مثله مثل خفقات أجنحة هائجة لطائر من زمان ماقبل التاريخ ، ليبتلع الحجرة كلها والشموع والشخوص . وإرتعشت للعواء الأول البشع لصفارات الإنذار ، إلا أنها لم تتحرك . وماجت المدينة بالحياة حولنا، كأنها عش نمل . أخذت تلك الشوارع التى كانت غاية فى الظلمة والسكون ، تردد الآن صدى وقع الأقدام والناس وهى فى طريقها الى مخابىء الغارات الجوية . أصوات أشبه بلفحة أوراق خريف تدور فى دوامة صنعتها الرياح ، وارتفعت إلى نافذة الحجرة الصامتة الصغيرة شذرات من أحاديث نائمة، صرخات وضحكات . امتلأ الشارع فجأة كما يمتلىء مجرى نهر جاف عندما تسقط أمطار الربيع .

" كليا ، يجب أن تلجأى الى المخبأ "

إلا أنها ضغطت نفسها أكثر قربا ، هازة رأسها كامرىء خدره النوم ، أو ربما من الانفجار الناعم للقبلات التى تنبثق مثل فقاقيع الأوكسجين فى دم مريض . وهزهزتها فى رقة فهمست ، " إننى شديدة الحساسية للغاية من أن أموت مع جمع من الناس فى مخبأ اشبه بحجر جرذان عجوزة . دعنا نذهب معا إلى الفراش ونتجاهل حقيقة العالم الفظة

وهكذا غدت المضاجعة نفسها نوعا من تحدى الإعصار الذى يجرى فى الخارج ، والذى يطرق ويسحق مثل عاصفة رعدية من المدافع والصفارات ، تأجج السماوات الشاحبة للمدينة بروعة ومضات صواعقها . غدت القبلات ذاتها مشحونة بتأكيدات مقصودة يمكن أن تصدر فقط عن الآدراك المسبق بالموت وحضوره . كان يمكن ، حينئذ ، أن يكون موت المرء ، فى أية لحظة ، أمرا طيبا ، فقد تماسكت أيدى الحب والموت فى مكان ما . كان رقادها هنالك فى حنية ذراعى مثل طائر برى أرهقته نضالاته مع شرك من غصون ، حيث العالم كله أشبه بليلة صيف عادية من السلام ، تعبيرا عن اعتزازها بذاتها أيضا . وتذكرت وأنا أرقد يقظا الى جوارها ، استمع إلى الضوضاء الجهنمية لطلقات المدافع وأرى طعنات الضوء وقفزاته خلف الستائر ، كيف أنها ذكرتنى ذات مرة ، فى الماضى البعيد ، بالقيود التى يثيرها الحب فينا : قالت شيئا ما عن أن قدرته فى كل نفس مقيدة الى حدود حصة الجندى فى الميدان ، مضيفة فى وقار ، " إن الحب الذى تكنه لميليسا ، هو ذات الحب الذى يحاول أن يعبر عن نفسه عبر جوستين " . هل لى تمديدا لهذه الفكرة ، أن أجد ذلك حقيقيا أيضا مع كليا ؟ لم أرحب بالتفكير هكذا - فتلك الاحضان الطوعية العذبة الغضة كانت فطرية طاهرة مثلها مثل إبداع ما ، وليست مثل نسخات رديئة الرسم لأفعال ماضية - كانت هنالك تلك الفلتات المرتجلة للقلب ذاته - أو هكذا قلت لنفسى ، وأنا أرقد هنالك ، محاولا أن أقبض بشدة من جديد على عناصر المشاعر التى نسجتها ذات يوم حول تلك الوجوه الأخرى . نعم ، الفلتات التى تهبط على الحقيقة ذاتها ، والمجردة ، لمرة واحدة على الأقل ، من نبضات الارادة الُمرة .

لقد ابحرنا كلية فى تلك المياه الهادئة دون تدبير سابق . تزاحمت كل الأشرعة ، ولأو ل مرة يكون احساسى طبيعيا بوجودى حيث كنت ، انجرف الى

النوم وجسدها الهادىء يرقد الى جوارى . إن كل رشق المدافع بتموجاته الطويلة، والذى يهز الدور هكذا ، بل وحتى وابل الشظايا الذى يكنس الشوارع ، لم يستطع أن يثير قلق الصمت الحالم الذى كنا نجنيه معا . أوقدت ، عندما استيقظنا لنجد كل شيء صامتا ، شمعة واحدة . ورقدنا فى ظل ضوئها المرتعش ، ينظر الواحد منا للآخر ونتحدث همسا .

" اننى دوما رديئة فى المرة الأولى ، لماذا يحدث هذا الأمر هكذا ؟ "

" وأنا كذلك " .

" هل أنت خائف منى ؟ "

" كلا ، ولامن نفسى "

" هل تصورت حدوث ذلك أبدا ؟ "

"كان على كلانا أن يفعلها ، وإلا ماكانت تحدث " .

" صمتا ! اسمع " .

كان المطر يتساقط فى ستائر ، كما يفعل فى الغالب قبل فجر الأسكندرية، يثير قشعريرة الهواء ، يغسل أوراق النخيل التى تطقطق متيبسة فى حدائق البلدية ، يغسل الحواجز الحديدية للبنوك والأرصفة . وتفوح الشوارع المتربة فى المدينة العربية برائحة تشبه رائحة مقبرة حديثة الحفر . وباعة الورد لابد قد أخرجوا ماليديهم من زهور حفاظا على نضارتها . اننى اتذكر نداءهم . " القرنفل ، طيب الرائحة كأنفاس فتاة ! . " وانسابت من الميناء روائح القار والأسماك والشباك المليئة عبر الشوارع المهجورة ، لتلتقى بتجمعات هواء الصحراء عديمة الرائحة ، والتى يمكن فيما بعد ، مع أول شعاع ضوء للشمس ، أن تدخل المدينة من الشرق ، تجفف واجهات بيوتها الرطبة " . وفى مكان ما ،

ولفترة قصيرة ، كانت لوعة الماندولين الناعسة تنخس صوت المطر الخافت ، تنقش فوقه جوا محدودا يشوبه التأمل والكآبة . وخشيت دخول فكرة أو هاجس يقحم نفسه وسط تلك اللحظات من السلم الباسم ، أن يثبطها ، أن يحيلها الى أدوات للحزن . فكرت أيضا فى الرحلة الطويلة التى قطعناها من هذا الفراش بذاته ، منذ رقدنا هنا معا آخر مرة ، يأسرنا ثانية مجال جاذبية المدينة . دورة جديدة تتفتح بما تعد به مثل تلك القبلات وربتات التحبب التى تبعث الدوار ، والتى فى وسعنا الآن تبادلها – الى اين يمكن أن تحملنا ؟ فكرت فى بضع كلمات لأرناؤوطى ، كتبت عن إمرأة أخرى ، وفى سياق آخر ، " أنت تقول لنفسك أن تلك التى بين ذراعيك إمرأة . لكنك وأنت تراقبها نائمة ، سوف ترى نموها الكلى فى ذات اللحظة ، تفتح خلاياها الذى لا يخطىء . إنها تتجمع ، تنظم نفسها فى ذلك الوجه المحبوب والذى سوف يظل دوما غامضا والى الأبد – تكرر الى مالا نهاية تلك الحدبة الطرية للأنف البشرية ، وأذن استعيرت من صدفة حلزون بحرى ، وحاجب عينى تراه وقد تشكل على منوال السراخس ، أو شفتان إبتدعتا من محارة ذات مصراعين وقد اتحدا فى نومها . إن كل هذه العملية عملية إنسانية ، تحمل اسما يخترق قلبك ، وتقدم لك حلما مجنونا عن الخلود الذى يدحضه الزمن مع كل نفس يدخل الإنسان . ماذا لو كانت الشخصية البشرية وهما ؟ وماذا لو كانت تحل محل كل خلية فى أجسادنا ، كما يخبرنا علم الأحياء ، خلية أخرى كل سبعة أعوام ؟ المسألة على أكثر تقدير ، أننى أمسك بين ذراعىّ شيئا ما أشبه بينبوع من لحم ، دائم اللهو والتلاعب ، وفى عقلى أنا قوس قزح من تراب وسمعت صوت بورسواردن الحاد ، يجيء كالصدى من الطرف الآخر للبوصلة ، قائلا ، " ليس هنالك من شخص آخر ، هنالك ذات المرء فقط وهو يواجه الى الأبد مشكلة اكتشاف نفسه

وانجرفت مرة أخرى الى النوم ، وعندما استيقظت مجفلا كان الفراش خاليا ، والشمعة ذابت وانطفأت . كانت تقف عند الستائر وقد أزاحتها لتراقب ظهور الفجر فوق الاسطح المختلطة للمدينة العربية ، عارية ونحيلة مثل زنبقة عيد الفصح . وتلقفت مع مشرق شمس الربيع ، بنداه الكثيف المرسوم فى خطوط فوق الصمت الذى يغلف المدينة كلها قبل أن توقظها الطيور ، الصوت العذب للمؤذن الأعمى من الجامع ينشد العبد (*) صوت معلق كشعرة فى اجواء الأسكندرية العليا بنخيلها البارد . " أسبح بكمال الخالق ، الموجود إلى الأبد ، الإله الكامل ، المبتغى ، الواحد ، الأسمى ، كمال الخالق الواحد الأحد " ..... وأدارت الصلاة العظمى نفسها فى لفات متألقة عبر المدينة ، بينما أراقب وقار وحدة عاطفتها وهى تدير رأسها من حيث كانت تقف لتشاهد الشمس المتسلقة تلمس بالضوء المنائر واشجار النخيل : مستغرقة ومستيقظة . وشممت ، وأنا استمع ، رائحة شعرها الدافئة الى جوارى فوق الوسادة . وتملكتنى فرحة بحرية جديدة اشبه بجرعة مما كان القابال يقول عنها ذات يوم ، " ينبوع كل ماهو موجود . وناديت " كليا " ، فى رقة ، إلا أنها لم تتنبه الىّ ، وهكذا نمت مرة أخرى . كنت أعرف أن كليا سوف تشاطرنى كل شىء ، دون أن تحتجز شيئا - ولاحتى نظرة الرفقة التى تحتفظ بها النساء لمراياهن فقط .

★ ★ ★

(*) بالعربية بحروف لاتينية .

الكتاب الثانى

- ١ -

استدعتنى المدينة ثانية – نفس المدينة التى غدت الآن أقل صرامة وأقل إثارة للرعب ، على نحو ما ، عما كانت عليه فى الماضى ، وذلك بسبب بعض الإحلالات الزمنية الجديدة . كانت بعض أجزاء النسيج القديم قد بليت ، إلا أن أجزاء أخرى تجددت . كان لدى ، فى الأسابيع القليلة الأولى لعملى فى وظيفتى الجديدة، ما يكفى من الوقت كى أمارس كلاً من إحساسى بالألفة والاغتراب ، أن أقيس الاستقرار فى مواجهة التغيير والماضى فى مواجهة الحاضر . وإن كان مجتمع أصدقائى قد ظل نسبيا كما كان ، فإن مؤثرات جديدة قد دخلت ، رياح جديدة قد هبت . لقد بدأنا جميعا ، مثلنا مثل تلك الشخوص الموجودة فوق الأقراص الدوارة فى متاجر تجار المجوهرات ، ندير وجوها جديدة نحو بعضنا البعض . إن الظروف قد ساعدت أيضا على توفير لحن جديد يصاحب اللحن القديم . كان من الواضح أن الجزء الذى لم يتغير من المدينة قد دخل الآن تحت مظلة الحرب . لقد جئت لأراها كما يجب دوما أن تكون – ميناء بحريا صغيرا رثا، بنى فوق شعاب رملية ، جدول مياه راكدة بلا روح ، يشرف على الموت . إن هذا العامل المجهول ، " الحرب " ، قد منحها ، حقيقة نوعا خادعا من القيمة العصرية ، إلا أن هذا ينتمى إلى العالم الخفى للاستراتيجيات والجيوش ، وليس إلينا نحن قاطنى المدينة . لقد تضخم سكانها بآلاف عدة من اللاجئين الذين يرتدون زيا خاصا ، جذبتهم تلك الليالى الطويلة المشحونة بالكرب . والألم

الكئيب ، والتى كانت خطرة نسبيا ، حيث قصر العدو عملياته بدقة على منطقة الميناء . كانت منطقة صغيرة فقط من الحى العربى هى التى وقعت تحت النيران مباشرة ، وظل الجزء العلوى من المدينة دون مساس نسبيا ، إلا من خطأ فى التحكم تحكمه المصادفة . كلا ، كان الميناء فقط هو الذى يخمشه العدو ويخمشه مثل كلب اشتعل بالجرب . كان رجال البنوك يصرفون أعمالهم ، خلال النهار ، على بعد ميل من الميناء كأنهم يتمتعون بمناعة نيويورك . كان اقتحام عالمهم أمرا نادرا وعرضيا . كانت رؤية واجهة متجر جرى نسفها تبدو كمفاجأة مؤلمة ، كذا رؤية منزل آهل بالسكان وقد تفجر داخله الى خارجه ، وكل ملابس سكانه تتدلى قلائد من الاشجار المجاورة . لم يكن هذا جزءا مما هو متوقع للاشياء باعتباره أمرا طبيعيا . كان له وقع الصدمة التى تحدث فقط وبصورة نادرة عند وقوع حوادث الشوارع المفزعة .

كيف تغيرت الأمور ؟ لم يكن ذلك هو الخطر حينذاك ، لكن كانت هنالك خاصية أخرى أيسر تحليلا هى التى جعلت فكرة الحرب أكثر تميزا ، إنه الإحساس بتغير ما فى الكثافة النوعية للأشياء . كان الأمر وكأن الأوكسجين المحتوى فى الهواء الذى نتنفسه يتناقص باضطراد ، يوما بعد يوم وبطريقة غير مرئية . وجاءت جنبا الى جنب مع هذا الإحساس ، بتسمم الدم الذى لا تفسير له ، بتسمم الدم ، ضغوط أخرى مادية خالصة تسببت فيها الأعداد المتغيرة الهائلة من الجنود ، وقد أطلق الموت المزدهر فيهم العواطف والفجور المدفونة فى كل قطيع . إن مرحهم العنيف إنما هو محاولة مستميتة لمجاراة ثقل الأزمة التى وضعوا فيها . كانت ثوراتهم الهائجة التى تتفجر عن ضغينة مستترة وضجر وسأم ترهق المدينة وتتلفها ، فى بعض الأحيان ، حتى يشحن الجو بروح الكرنفال المجنونة . الباحثون عن المتعة الحزينة البطولية ، يثيرون الاضطراب والتمزق فى كل التآلف

والتوافق القديم ، الذى كانت تقوم عليه العلاقات الشخصية ، ينهكون ويرهقون الصلات التى تربطنا ببعضنا البعض . كنت أفكر فى كليا ومايثير اشمئزازها من الحرب وكل ماكانت تناصره . كانت تخاف ، كما أعتقد ، أن تسمم هذه الحرب العالمية المنتشرة حولها ، وحقيقتها الفظة المغموسة فى الدماء ، قبلاتنا وتلوثها ، ذات يوم . " إنه من الصعوبة بمكان أن يحتفظ المرء برأسه ، ان يتفادى هذا الاندفاع الجنسى الغريب للدم الى الرأس ، والذى يجىء مع الحرب ، يستثير النساء بما يتجاوز قدرتهن على الاحتمال ؟ لم أكن أتصور أن رائحة الموت يمكن أن تستثيرهن هكذا ! ، دارلى ، اننى لاأود أن أكون جزءا من هذه الخلاعة العقلية المريضة ، ذلك الفيض من المواخير ، وكل هؤلاء الرجال البؤساء يتزاحمون هنا . لقد غدت الأسكندرية ملجأ هائلا للأيتام . كل إمرىء يغتصب الفرصة الأخيرة فى حياته . أنت لم يمض عليك طويل وقت هنا حتى تحس بهذا الإنهاك ، الذى يفقد المرء معرفته بوجهته . لقد كانت المدينة دوما محافظة ، تمارس متعها بطريقة تتمسك بالسير على الوقع القديم ، حتى فى مسألة السرر المؤجرة : إلا أنها لم تمارسها أبدا مستندة الى حائط أو شجرة أو سيارة نقل ! الآن تبدو المدينة ، فى بعض الأحيان ، أشبه بمبوله عامة كبيرة . انك تتعثر فى أجساد السكارى وأنت عائد الى منزلك ليلا . إننى أعتقد أن الظلمة قد سُلبت منها حتى القدرة على تحقيق الشهوة فكان الشراب هو العوض عن هذه الخسارة ! إلا أنه ليس لى مكان فى كل هذا . إننى لا أستطيع أن أرى هؤلاء الجنود كما يراهم بومبال . إنه يتأملهم منتشيا كطفل – وكأنهم جنود من رصاص لامع – إنه يرى فيهم الأمل الوحيد لتحرير فرنسا . إننى أحس فقط بالخجل من أجلهم ، كما يحس المرء وهو يرى اصدقاءه فى لباس المجرمين . اننى احس ، إن استبعدنا الخجل والإشفاق ، إننى أدير وجهى بعيدا . أوه دارلى ، إن الأمر لايبدو مقبولا تماما من

الناحية العقلية ، فأنا أدرك أننى أوقع بهم ظلما غريبا . من المحتمل أن يكون ذلك مجرد أنانية ، لذا فإننى أفرض على نفسى تقديم الشاى لهم فى المقاصف المختلفة ، ألف لهم الضمادات ، انظم الحفلات الموسيقية . الا أننى أحس فى أعماقى أننى اتضاءل كل يوم . لقد آمنت دوما ، رغم ذلك ، أن حب البشر يمكن أن يزدهر بقوة أكبر ، إن انبثق من نكبة مشتركة . ليس هذا صحيحا . إننى أخشى الآن أن تبدأ أنت أيضا فى التقليل من حبك لى ، بسبب هذا الفكر الذى يتسم بالسخف ، هذه المشاعر المنفعلة التى تثير النفور . أن نجلس هنا ، أنا وأنت فقط ، فى ضوء شمعة ، يكاد يكون معجزة فى هذا العالم . ليس فى مقدورك أن تلومنى لمحاولتى ادخار هذه اللحظة وحمايتها فى مواجهة العالم الخارجى الذى يقتحم حياتنا . هل فى مقدورك أن تفعل ذلك ؟ وللغرابة ، فإن أكثر ما أكرهه فى كل ما يجرى ، هو الإفراط فى رقة العاطفة والتى يصدر العنف عنها فى النهاية ! "

فهمت ما كانت تعنيه ، وماكانت تخافه ، ومع ذلك ، ففى أعمق أعماق أنانيتى الداخلية كنت سعيدا بهذه الضغوط الخارجية ، اذ إنها حددت معالم عالمنا بدقة ، دفعتنا معا أقرب وأقرب ، عزلتنا ! كان علىّ أن أقبل ، فى الزمن الماضى ، بأن يشاركنى فى كليا مضيف آخر من الأصدقاء والمعجبين ، أما الآن ، فلا .

ومن الغريب أيضا ، أن بعض تلك العوامل حولنا ، والتى تدخلنا فى شباك نضالاتها المميته ، قد منحت عاطفتنا الجديدة أداء لا يقوم على اليأس ، لكنه يقوم ، على أى حال ، وبالتأكيد أيضا ، على إحساس بالوقتية فقط وعدم الدوام . كان من نفس طراز ذلك الهياج التناسلى للجيوش المختلفة والذى يتسم بالخلاعة والتهتك الكئيب ، وإن كان مختلفا فى النوع . كان من المستحيل تماما

إنكار حقيقة أن الموت ، على وجه التحديد (والذى ليس فى القرب منا ، وإن كان فى الجو حولنا) يشحذ القبلات ويضيف توقدا يتجاوز القدرة على الاحتمال لكل ابتسامة وضمة يد . لم أكن جنديا ، ورغم ذلك فإن علامة الاستفهام القاتمة كانت تحوم فوق أفكارنا ، إذ إن الموضوعات التى تشغل القلب كانت متأثرة بشىء ما ، نحن جميعا جزء منه ، مهما كان ذلك على مضض : إنه عالم بأكمله . إن الحرب مالم تكن تعنى طريقة للموت ، فإنها تعنى طريقة للشيخوخة ، لتذوق الابتذال البشرى ولتَعلُّم مواجهة التعبير فى شجاعة . لا أحد يستطيع التكهن بما يرقد خلف الباب المغلق لكل قبلة . كنا نجلس فى تلك الأمسيات الهادئة الطويلة ، قبل أن يبدأ القصف بالقنابل ، فوق السجادة المربعة الصغيرة ، ، فى ظل ضوء الشموع ، نناقش تلك القضايا ، نقاطع صمتنا بالأحضان ، والتى كانت هى الإجابة الوحيدة غير الوافية التى يمكن أن نقدمها لما عليه البشرية من وضع . كنا ونحن نرقد كل فى حضن الآخر ، خلال تلك الليالى الطويلة بنومها المتقطع ، تحطمها صفارات الإنذار ، لا نتحدث عن الحب أبدا (كأنما باتفاق سابق) ، ربما كان نطق الكلمة اعترافا منا بنوع من الحالات الأكثر ندرة وإن كانت أقل كمالاً من تلك الحالة التى تأخذ الآن بالبابنا ، تكمل تماما هذه العلاقة التى حدثت دون تدبير سابق . هنالك ، فى مكان ما ، فى كتاب " عادات " [١] تنديد عاطفى بهذه الكلمة . اننى لا أستطيع تذكر على لسان من وضع هذا القول ، ربما على لسان جوستين : " يمكن تعريفه كنمو سرطانى مجهول الأصل ، اتخذ موضعه فى أى مكان دون معرفة من أصيب به أو رغبته . كم حاولت أنت عبثا أن تحب الشخص « الصحيح » ، حتى بعد معرفة قلبك أنه قد عثر عليه بعد طول بحث ؟

(١) بالفرنسية فى الأصل .

كلا ، إن هدب عينى ، عطر ، مشية كالطيف ، حبة كرز فوق الرقبة ، رائحة اللوز فى الأنفاس – إنما تشكل كلها العناصر المتواطئة التى تبحث الروح عنها لتخطط لسقوطك وهزيمتك " .

إننى عندما أفكر فى تلك المقاطع ، وهى كثيرة فى ذلك الكتاب ، بما تحتويه من فراسة وحشية ، استدير الى كليا النائمة ، أتأمل المنظر الجانبـى الهـادىء لوجهها حتى ..... حتى استوعبها ، أنهلها كلها ، دون أن أريق منها قطـرة واحدة – أن أمزج نبضات قلبى بنبضاتها . " إننا إن أردنا أن نكون قريبين بأية وسيلة ، فإننا سنظل بعيدين تماما عن بعضنا البعض " ، هكذا كتب الأرناؤوطى. بدا أن هذا ليس صحيحا بعد بالنسبة لظروفنا . أم هل كنت ، فى بساطة ، أخـدع نفسـى مرة أخـرى ، أحـرف الحقيقة بما ورثته رؤياى من فوضـى واضطراب ؟ إننى ، وياللغرابة الشديدة ، لم أعد أعرف الآن أو أبالى . أوقفت عقلى عن البحث والتدقيق ، تعلمت أن آخذها كما آخذ جرعة صافية من نبع ماء .

" هل كنت تراقبنى وأنا نائمة ؟ "

" نعم "

" هذا ظلم ! ولكن فيم كنت تفكر ؟ "

" أشياء كثيرة " .

" من الظلم أن تراقب إمرأة نائمة ، فى حالة من اللاوعى " .

" لقد غيرت عيناك لونهما مرة أخرى . هل تدخنين ؟ " .

(فم تلطخ أحمر شفاهه قليلا تحت القبلات ، الشولتان الصغيرتان اللتان تكادان تكونا نتوءين ، متأهبتين للتحول إلى غمازتين ، عندما تأخذ البسمات الكسولة طريقها الى السطح . إنها تتمطى ، تضع ذراعيها تحت رأسها ، تدفع الى الخلف بقمة شعرها الأشقر الذى يمسك ببريق ضوء الشمعة . لم تكن تمتلك

فى الماضى هذا السلطان على جمالها . لقد اصبحت تمتلك إيماءات جديدة وحركات جديدة ، واهنة ضعيفة ، لكنها كافية للتعبيـر عن هذا النضـج الجـديد .حسية صافية لا يشتتها التردد، أو ماتلقيه على نفسها من أسئلة . تحولت الأوزة السانجة القديمة إلى هذه الشخصية اللطيفة ، المؤثرة حقا ، المنسجمة الروح والجسد تماما . كيف حدث هذا ؟)

أنا : كيف استطعت بحق الشيطان الحصول على كتاب بورسواردن المبتذل ذاك ؟ لقد أخذته اليوم معى إلى مكتبى " .

هى : ليزا . لقد طلبت منها شيئا يذكرنى به . إنه أمر سخيف ، كأنما يمكن للمرء أن ينسى هذا الوحش . إنه فى كل مكان . هل أفزعتك مذكراته ؟ " .

أنا : " نعم . لقد بدا الأمر وكأنه قد ظهر الى جوارى . إن أول ما وقعت عليه كان وصفا لرئيسى الجديد ، ماسكيلين بالاسم . يبدو أن بورسواردن قد عمل معه ذات يوم . هل أقرؤها لك ؟ ".

هى : " إننى أعرفها ".

(كان مثل الغالبية من مواطنىّ يحمل شعارا يدويا كبيرا مزخرفا يتدلى على مقدمة عقله ، يقول ، لا إقلاق مهما كان السبب » ، كان يُضبط ، فى وقت ما فى الماضى البعيد ، مثل ساعة من كوارتز . سوف يواصل طريقه ثابتا لا يتردد «مثل آلة ضبط الزمن . لا تجعل غليونه يثير فزعك ، فالمقصود به إعطاء جو من يحكم بالعدل والحق . الرجل الأبيض يدخن نفخات فى نفخات ، الرجل الأبيض يمعن التفكير فى نفخات . والحقيقة أن الرجل الأبيض نائم فى عمق فى عمق تحت شعارات المكتب ، الغليون ، الأنف ، المنديل المنشى حديثا والبارز من كُم قميصه ") .

هى : " هل قرأتها لماسكلين ؟ "

أنا : " بالطبع كلا " .

هى : " هنالك فيها : عنا جميعا ، أشياء جارحة . ربما كان ذلك هو سبب استحسانى لها ! كان فى وسعى أن اسمع صوت الوحش وهو ينطقها . انتى اعتقد اننى الوحيدة . كما تعرف ياعزيزى ، التى أحبت بورسواردن العجوز لذاته ، بينما كان حيا . كنت أعرف ما يقصد . إننى أقول > أننى أحببته لذاته ، لأنه تحديدا لم يكن له ذات . بالطبع كان فى وسعه أن يكون متعبا ، صعبا ، قاسيا – مثله فى ذلك مثل أى شخص آخر . ألا أنه تَمَثّل شيئا ما – قبضة من شيء ما . ذلك هو السبب فى أن عمله سوف يبقى حيا ، يمضى قدماً ، يبعث ضوءا ، هذا ما يمكن قوله . أشعل لى سيجارة . لقد نحت لنفسه موطن قدم فى جرف الجبل ، أعلى قليلا مما كنت أجرؤ على الذهاب اليه – النقطة التى ينظر المرء منها الى القمة لأنه يخاف النظر الى اسفل ! لقد قلت لى أن جوستين قالت شيئا كهذا . أعتقد أنها قد توصلت الى نفس الشيء بطريقة ما – إلا أننى أظن أنها كانت ممتنة له ، مثلها مثل حيوان أخرج له سيده شوكة من كفه . لقد كانت فراسته أنثوية للغاية ، وأشد حدة من فراستها – أنت تعرف أن النساء يحببن بالغريزة ، ذلك الرجل الذى يتمتع بكثير من الأنوثة . إنهن يظنن بأن هنالك فقط ، يوجد المحب الذى فى استطاعته أن يحقق هويته معهن لـ ... يخلصهن من مجرد كونهن نسوة ، وسيط كيميائى ، مَسّن أمواس ، مَسّن زيت . إن كثرتهن تحب لعب دور أداة اللذة (*) ! » .

أنا : « لماذا تضحكين فجأة هكذا ؟ » .

(*) بالفرنسية فى الأصل .

" كنت أتذكر كيف تصرفت بطريقة حمقاء مع بورسواردن . اننى أعتقد بضرورة أن أخجل مما فعلت ! سوف ترى ماذا كتب عنى فى مفكرته . إنه يدعـــونى بالأوزة الهـــانوفرية الريانة ، الفتاة الوحـــيدة الجـــميلة بحق . إننى لا أستطيع تذكر ماالذى سيطر علىّ ، غير أنى كنت قلقة على ممارستى لفن الرسم بالزيت ، لقد نضب منى . لم أعد اســتطيع التقدم بصــورة ما ، أصبــح قمــاش الرسم يصيبنى بالصداع . وأخيرا قررت أن مسألة عذريتى ، التى تعصف بى ، هى السبب الجذرى لهذه المشكلة . أنت تعلم أنها مسألة رهيبة أن تكون الفتاة عذراء - إنها أشــبه بــعدم دخـول المرء إحـــدى الكـــليات أو حصــوله على البكـــالوريوس ، أنت تتوق إلى التخلص منها ، ومع ذلك ... وفى نفس الوقت ، يجب أن تكون تلك التجربة مع شخص تهتم أنت به ، وإلا فإنها سوف تكون بلا قيمة لك فى داخلك . حسنا ، هنا توقفت . وقررت بضربة من تلك الضربات الخيالية المتميزة والتى كانت تؤكد ، فى الماضى ، غبائى لكل امرىء - خمن ماذا قررت ؟ أن أقدم نفسى جادة الى الفنان الوحيد الذى كنت أعرف اننى استطيع الثقة به ، حتى يخلصنى من شقائى . فكرت أن بورسواردن سوف يدرك حالتى وبعض التقدير لمشاعرى . إننى أحس البهجة وأنا أتذكر ارتدائى حلة ثقيلة للغاية من قماش التويد وحذاء مسطحا ونظارات داكنة . كنت وجلة خجولة ، كما ترى ، وإن كنت أيضا مستميتة بنفس القدر . وأخذت أسير جيئة وذهابا ، فى ممر الفندق خارج حجرته ، فى يأس وتوجس ، والنظارة القاتمة مشدودة إلى أنفى . كان هنالك فى الداخل . كان فى وسعى أن أسمعه يصفر كما يفعل دائما عندما يرسم بالألوان المائية ، صفارة بلا نغم ، تثير الجنون . وأخيرا اقتحمت عليه الحجرة مثلما يفعل رجل الإطفاء منقضا على بناية تحترق . مما أثار فزعه . قلت وشفتاى ترتعشان : " لقد جئت أســألك أن تزيل بكـارتى (*)

(*) بالفرنسية فى الأصل .

أرجوك ، إننى لن استطيع التقدم فى عملى ، أكثر من ذلك ، مالم تفعلها " .

قلتها بالفرنسية . فقد كانت فى الانجليزية ذات جرس قذر . وجفل . كل أنواع العواطف المتصارعة مرقت عبر وجهه مدة ثانية . ثم ، وقد انفجرت دموعى جلست فجأة فوق مقعد . القى برأسه الى الوراء وأخذ يزأر ضاحكا حتى سالت دموعه على وجنتيه ، بينما جلست أنا هنالك بنظارتى القاتمة التقط انفاسى .

اخيرا انهار مرهقا فوق سريره ، ورقد يحملق فى السقف . ثم نهض ، وضع ذراعيه على كتفىّ ، أزاح نظارتى ، قبلنى ، أعادها ثانية ، وضع راحتيه على ردفيه وأخذ يضحك ثانية ، قال ، " عزيزتى كليا ، إنه حلم أى إنسان أن يأخذك الى الفراش ، وإنى لأعترف أننى قد سمحت كثيرا لهذه الفكرة بالتواجد فى ركن من عقلى أتساءل حولها ولكن .. يا أعز ملاك ، لقد أفسدت كل شىء . ليست هذه هى طريقة التمتع بك ، كما أنها ليست الطريقة التى تمتعين نفسك بها . اغفرى لى ضحكاتى ! لقد أفسدت حلمى بطريقة فعالة . إن تقديم نفسك الىّ بهذه الطريقة ، دون أن تكونى راغبة فىّ ، إنما هو إهانة لاعتزازى بذكورتى ، حتى أننى لا أستطيع ، فى بساطة ، الإذعان لمطلبك . إن اختيارك لى ، دون غيرى ، انما هو تكريم لى ، كما اعتقد - الا أن اعتزازى بذاتى أكبر من ذلك ! ان مطلبك ، إنما هو فى الحقيقة أشبه بدلو أفرغ فوق رأسى ! سوف اعتز دوما بهذا التكريم . وأسف على الرفض ، ولكن ... لو أنك تخيرت طريقة أخرى لفعلها ، لأسعدنى قيامى بها سعادة فائقة ! لماذا كان عليك أن تدعينى أرى أنك لا تهتمين بى حق الاهتمام ؟ (*)

" مخط فى وقار فى ركن الملاءة . أخذ نظارتى ، وضعها على انفه ليرى نفسه فى المرآة . عاد يحملق فىّ حتى فاضت التمثيلية الهزلية مرة أخرى ، وأخذنا نضحك نحن الاثنين . واحسست بشعور فظيع بالراحة . وافق ، عندما أخذت

(*) بالفرنسية فى الأصل .

أصلح زينتى التى تلفت فى المرآة ، على أن أخذه الى العشاء لنناقش مشكلة الرسم بالزيت فى أمانة رائعة كريمة . استمع المسكين فى صبر لما قلته من هـراء ! قال : « فى وسعى أن أخبرك فقط بما أعرف ، وهو ليس بالكثير . أولا يجـب أن تعرفي وتفهمـى ، ذهنيـا وفكـريا ، ماالـذى تودين فعله - ثم عليك أن تمارسى قليلا من المشى - وأنت نائمة لتصلى اليه . إن العقبة الأساسية هى المرء ذاته . إننى أؤمن أن الفنانين يتكونون من الاعتداد والاعتزاز ، البلادة والتنبلة والاعجاب ، بالذات . ان عوائق العمل إنما تتأتى من تضخم الأنا على واحدة من تلك الجبهات أو عليها كلها . أنت تفزعين قليلا لما تتخيلينه من أهمية لما تقومين به من أعمال ! إنها عبادة المرآة . إن الحل الذى أراه هو أن تضعى كمّادة فوق تلك الأجزاء الملتهبة - أن تقولى للأنا الخاصة بك ، اذهبى الى الجحيم ، ولا تكونى مصدر شقاء ، لما يجب أن يكون ، اساسا ، مصدر مرح وفرح » . قال . فى ذلك المسـاء أشياء أخرى كثيرة ، إلا أننى نسـيت البقية . الا أن مجرد الحديث اليه كان شيئا مثيرا للضحك ، مجرد أن يتحدث اليك ، أوضـح الطريق أمامى ثانية . وبدأت العمل ، مرة أخرى ، فى صبيحة اليوم التالى ، صافية مثل ناقوس . ربما كان ، بطريقة ما تثير الضحك ، قد نزع بكارتى (*) وأسفت أننى لم أكن مستطيعة مكافأته بما يستحق ، لكننى أدركت أنه كان على صواب . كان علىّ أن أنتظر عودة المد . ولم يحدث ذلك إلا مؤخرا ، وأنا فى سوريا ، فيما بعد . كان فيه ، عندما جاء ، شىء مر وحاسم . وارتكبت نفس الأخطاء المعتادة التى يرتكبها المرء لإنعدام الخبرة ، والتى عليه أن يدفع بسببها. هل أخبرك بما حدث ؟ " .

- أنا : " إن أردت أنت ذلك فقط " .

(*) بالفرنسية فى الأصل .

هى : " لقد وجدت نفسى فجأة ، وبلا أمل ، قد ارتبطت بشخص كنت قد اعجبت به منذ سنوات عدة مضت ، الا اننى لم أتصوره أبدا فى مقام المحب . لقد القت بنا المصادفة معاً لشهور قليلة قصيرة . إننى لا أعتقد أن أيا منا قد تنبأ بهذه الصاعقة (*) .

أمسكت النار بكلانا ، وكأن كأسا خفية مشتعلة كانت تصلينا بنارها ، فى مكان ما هناك ، دون أن نعى ذلك . كان غريبا أن تكون تجربة جارحة هكذا ، تجربة جيدة أيضا هكذا ، ايجابية الخصوبة هكذا . كنت ، كما أعتقد ، اتلهف ، الى حد ما ، كى أُجرح – والا ماكنت فعلت الأخطاء التى فعلتها . كان شخصا مرتبطا بالفعل بأخرى . وهكذا لم يكن هنالك البته ، منذ البداية ، ادعاء أو دوام لارتباطنا . ومع ذلك (وهنا يجيء غبائى المشهود مرة أخرى) فقد رغبت فى أن أحصل على طفل منه . إن التفكير للحظة فقط كان كفيلا بأن يوضح لى استحالة هذا الأمر ، الا أن التفكير للحظة ، ذاك ، جاء فقط بعد أن غدوت حبلى بالفعل . واعتقدت اننى لن أبالى ، إن كان لابد أن يذهب بعيدا ، وتزوج من واحدة أخرى ، فأنا على الأقل ، أحمل طفله ، بين جنباتى ! الا أننى ما أن اعترفت بذلك ، وفى ذات اللحظة التى خرجت فيها الكلمات من شفتى – استيقظت فجأة وقد أدركت أن ذلك سوف يخلق بينى وبينه رباطاً أبدياً ليس لىّ الحق فيه . وحتى أضع الأمر جليا واضحا ، فقد كان ذلك يعنى حصولى منه على مزية ، أخلق له مسئولية ، لابد أن تعيقه وتقيده خلال زواجه . هبطت علىّ الفكرة فى لمح البصر ، فأبتلعت لسانى . كان حسن حظى كبيرا فلم يسمع كلماتى . كان يرقد هكذا مثلك الآن ، نصف نائم ، ولم تلتقط أذناه همسى . قال ، " ماذا قلت ؟ " . واستبدلت ما قلت بشىء آخر ، جاء عفو الخاطر . وغادر سوريا بعد شهر من ذلك . كان يوما مشمسا مشحونا بطنين النحل ، وأدركت أنه يجب علىّ أن أتخلص من الطفل . لقد اسفت لذلك أسفا مريرا ، إلا أنه ، على مايبدو ، لم يكن هنالك من

وسيلة شريفة أخرى لمعالجة الأمر . سوف تعتقد ، على الأرجح ، أننى كنت مخطئة ، لكننى سعيدة إذ اتخذت هذا السبيل ، حيث كان من الممكن أن يخلد شئ ليس له حق الوجود خارج هذه الشهور الذهبية القليلة . إننى ، بغض النظر عن ذلك ، ليس لدى ما آسف عليه . لقد نموت نمواً لا حد له بسبب هذه التجربة . لقد أُفعمت بالامتنان ومانلت كذلك . وإن كنت أنا الآن سخية فى مضاجعتى ، فما ذاك إلا لأنى أرد ما علىّ من دين . وأحيل حبا قديما اقترضته ، فيما مضى ، إلى حب جديد .

دخلت أحد المستوصفات لأنهى هذا الأمر . وفيما بعد نادانى الرجل العجوز الحنون طبيب التخدير الى بالوعة قذرة ليرينى القزم الصغير الشاحب بأظفاره وأعضائه الدقيقة ، وبكيت فى مرارة . بدا مثل صفار بيض وقد سحق سحقا . وقلّبه العجوز فى فضول ، بشىء أشبه بسكين الصيدلى - كما يمكن للمرء أن يُقلّب شريحة رقيقة من لحم الخنزير المقدد فى مقلاة . وعجزت عن مجاراة فضوله العلمى المجرد . اتبسم وقال ، « لقد انتهى الأمر . لابد أنك تحسين بالراحة ! » كان ذلك حقيقيا ، إذ رغم حزنى ، كان هنالك ارتياح حقيقى بالفعل لأنى فعلت ماكنت أراه صوابا . كان هنالك ، كذلك شعور بالضياع . أحس قلبى وكأنه عش عصفور الجنة وقد سطا عليه من سرقه .

وهكذا عدت مرة أخرى إلى الجبال ، الى نفس الحامل وقماش الرسم الأبيض . كان الأمر مثيرا للضحك ، إذ أدركت بدقة أن أكثر ماجرحنى كامرأة ، هو أكثر ما أنعشنى كفنانة . إلا أننى أفتقدته بالطبع لزمن طويل : مجرد كائن مادى يفرض صلته دون ادراكى ، مثل قطعة من ورق السجائر على الشفة . إن جذبها موجع ، يسلخ أجزاء من الجلد ! تؤلم أو لا تؤلم ، أمر تعلمت احتماله ، بل وحتى التعلق به . اذ مكننى من الوصول الى تفاهم مع تخيل آخر ، أو بالأحرى رؤية العلاقة بين الجسد والروح على نحو جديد - حيث أن بنية الجسد ليست إلا

السطح الخارجى ، الخطوط المحيطة بالروح ، جزؤها الصلب . إذ عبر الشم والمذاق والملمس نفهم بعضنا البعض ، نشعل عقل بعضنا البعض . التعريف تنقله رائحة الجسد بعد رعشة الجماع ، النَفس ، مذاق اللسان - رغم أن المرء «يعرف» كل تلك الأشياء بطريقة بدائية ، هنا كان يوجد رجل عادى تماما دون مواهب استثنائية ، إلا أنه كان بالنسبة لى حسناً جداً ، فى مجاله ومحيطه ، هكذا يمكن القول . كان يفوح بشذا الأشياء الطبيعية الجيدة : مثل الخبز حديث النضج ، البن المحمص ، البارود وخشب الصندل . إننى افتقده ، عند تناول هذا المجال من الحديث ، كما أفتقد وجبة لم أشبع منها - إننى أعرف أن لقولى هذا جرسا سوقيا !

إن بارا سـلسيوس يقول إن الأفكار إنما هى أفعال . وأنا أعتقد أن الجنس ، منها كلها ، هو أكثر الأفعال أهمية ، أكثر فعل تكشف فيه أرواحنا عن ذواتها ، ومع ذلك فإن المرء يحس به كنوع من التعبير الشعرى ، العقلى ، الفكرى ، على نحو آخر أخرق ، يشكل نفسه فى قبلات وعناق . الحب الجنسى معرفة فى مجالى علم اشتقاق اللغة والحقيقة المجردة . « لقد عرفها » ، هكذا يقول الانجيل! الجنس هو الرابطة أو الإقتران الذى يوجد مجرد نهايات المعرفة عند الذكر والأنثى - سحابة من المجهول ! عندما تسير الثقافة نحو الأسوأ فى مجال الجنس ، فإن المعرفة كلها تثبط وتعوق ، نحن النساء نعرف ذلك . لقد حدث ذلك عندما كتبت اليك إن كان فى وسعى الحضور لزيارتك فى جزيرتك . كم أنا ممتنة لك انك لم تجب على رسـالتى . كان تصـرفا خاطـئا منى فى ذلك الوقـت . لقد أنقـذنى صـمتك ! آه ، إغفر لى ، ياعزيزى ، إن أنا أثقلت عليك بتساؤلاتى ، إذ أرى أنك تبدو تاعسا على نحو ما ! إلا أن الثرثرة معك ، فيما بين مضاجعة وأخرى ، متعة غامرة ! إنها بدعة استحدثتها . ففيما عداك ، ليس هنالك غير بلتازار العزيز - والذى يُجرى بالمناسبة ، إعادة تأهيله فى خطى سريعة . لكنه

أخبرك ؟ لقد غرق فى الدعوات منذ مأدبة ماونت أوليف ، ويبدو أنه سيواجه صعوبة محدودة حتى يعيد عيادته الى العمل ثانية » .

أنا : « لكنه بعيد عن التوافق مع - سنتيه » .

هى : « أعلم ذلك . إنه لايزال مهزوزا وعصبيا - وكان يجب ألا يكون كذلك . إلا أن كل شىء يسير إلى الأمام بثبات ، وفى اعتقادى أنه لن يسقط » .

أنا : « ولكن ماذا عن شقيقة بورسواردن هذه ؟ » .

هى : « ليزا ! أعتقد أنك ستعجب بها ، وإن كنت لا أستطيع القول أنك ستحبها . إنها رائعة ، وربما كانت ، فى الحقيقة ، مخيفة بعض الشىء .إن العمى لا يبدو مصدر عجز لها ، إنه أقرب إلى أن يضفى عليها تعبير يقظة مضاعفة . إنها تستمع الى المرء ، وكأنها تستمع الى موسيقى ، إنه تركيز يثير فى المرء ، على الفور ، إحساسا بتفاهة غالبية ماينطق به . إنها مختلفة عنه ، وإن كانت جميلة للغاية ، رغم شحوبها شحوب الموت . حركاتها سريعة وواثقة بصورة مطلقة ، خلافا لغالبية المصابين بالعمى . إننى لم أرها البتة تخطىء فى مقبض باب أو تتعثر فى حصيرة أو تتوقف لتحدد اتجاهها فى مكان غريب عنها . إن كل الأخطاء الصغيرة التى يقع فيها فاقد البصر ، مثل الحديث الى مقعد خلا لتوه ممن كان يشغله ، غير موجودة . إن المرء ليتساءل ، أحيانا ، إن كانت عمياء حقا . لقد جاءت الى هنا لتجمع إنتاجه ، ولتحصل على مادة عنه من أجل سيرته الشخصية » .

أنا : « لقد ألمح بلتازار إلى سر ما » .

هى : هنالك شك ما أن دافيد ماونت أوليف يحبها بلا أمل . لقد بدأ الأمر فى

لندن كما أخبر هو بلتازار . إنه بالتأكيد ارتباط غير عادى ، يقدم عليه شخص سليم تماما ، ومن الواضح أنه يعود على كليهما بقدر كبير من الألم . إننى كثيرا ما اتخيلهما ، والثلج يسقط فى لندن ، وقد وجدا نفسيهما ، وجها لوجه ، مع « الشيطان الهازل » ! يالدافيد المسكين ! ومع ذلك ، لماذا أنطق مثل تلك العبارة المتعطفة ؟ يالدافيد المحظوظ ! إن فى وسعى اخبارك بالقليل الذى يقوم على نتفة من حديث لبلتازار ، فجأة ، وفى سيارة أجرة تترنح ، تسرع بعيدا نحو الضواحى ، أدارت وجهها نحوه وقالت أنه قد قيل لها أن عليها توقع قدومه منذ سنوات عديدة مضت ، وأنها لحظة أن سمعت صوته ، عرفت أنه الغريب النبيل الأسمر الذى قالت به النبوءة . إنه لن يتركها أبدا . وطلبت منه ، فقط ، إذننا بالتيقن من ذلك ، ضاغطة أصابعها الباردة على وجهه تتحسسه كله ، قبل أن تغرق ثانية فى الوسائد الباردة وهى تتنهد ! نعم ، كان هو بالفعل . لا بد أنه كان غريبا ، أن يحس المرء أصابع فتاة عمياء تضغط ملامحه بلمسة نحات . وقال دافيد أنه أحس برعشة تسرى عبره ، وأن كل الدم قد غادر وجهه ، واصطكت أسنانه ! فأمسك بها معا ، وهو يئن انينا عاليا . وهكذا جلسا هنالك ، يدا فى يد ، يرتعشان بينما ضوء الجليد المحيط بهما يتحرك فى سرعة على النوافذ . ووضعت ، فيما بعد ، أصبعه فوق الخط الدقيق فى يدها والذى ينبىء عن حياة مختلفة ، وعن بزوغ تلك الشخصية غير المتوقعة لتسيطر عليها ! إن بلتازار ، مثلك أنت ، يشكك فى مثل تلك النبوءات ، ولا يستطيع تفادى تعليقا عليها فيه تورية تهكمية فكهة وهو يستعيد القصة . إلا أن الافتتان قد دام ، كما يبدو ، حتى الآن . ولذا فإنك ، وأنت المتشكك ، ربما ستستسلم بإرجاع شىء ما إلى قوة النبوءة !

حسنا : بموت أخيها جاءت الى هنا . أخذت فى فرز أوراق ومخطوطات ، كما عقدت بالمثل لقاءات مع هؤلاء الذين كانوا يعرفونه . لقد جاءت الى هنا مرة أو

اثنتين كى تتحدث معى . لم تكن المسألة برمتها ، بالنسبة لى ، سهلة ، رغم أننى أخبرتها بكل ما استطعت أن أتذكره عنه . إلا أننى اعتقد ان السؤال الذى كان يشغل بالها حقا ، هو ذلك الذى لم تنطقه بالفعل . إنه تحديدا هل كنت فى أى وقت من الأوقات عشيقة بورسواردن ؟ إننى أعتقد ، كلا ، إننى واثقة إنها إعتبرتنى كاذبة ، إذ إن ماقلته لها كان غير منطقىّ أبدا . ربما ، فى الحقيقة ، بسبب الغموض الذى أوحى بأن لدىّ شيئا أداريه . إن قناع - الموت الأصلى ، المصنوع من الجص ، والذى بينت لبلتازار كيف يصنعه ، لايزال لدىّ فى المرسم، لقد حملته الى صدرها للحظة كأنما لترضعه ، وقد اكتسى وجهها بتعبير ألم ممض . بدت عيناها الكفيفتان وقد اتسعتا أكثر فأكثر حتى غمرتا الوجه كله ، وتحولتا الى كهف من الاستفهام والتساؤل . أحسست بضيق مرعب وحزن عندما لاحظت ، فجأة أن نتفا صغيرة ، قليلة ، من شاربه تلتصق بالجص . وعندما حاولت أن تضم القناع وتطابقه مع قسماتها هى ، أمسكت بيدها تقريبا خشية أن تحس بها . إنه لأمر سخيف ! إلا أن سلوكها أفزعنى وأثار كدرى . أحاطت بىّ اسئلتها . كان هنالك شىء ما يثير الخجل ، بصورة غير قاطعة ، حول هذه اللقاءات . كنت أعتذر طوال الوقت عقليا لبورسواردن ، لأننى لم أقدم عرضا أفضل . إن على المرء رغم كل شىء ، أن يكون قادرا على استخراج شىء ما معقول يقوله عن رجل عظيم عرفه تماما خلال فترة حياته . وليس مثل أماريل المسكين الذى استشاط غضبا عندما رأى قناع موت بورسواردن يرقد قريبا من ذلك الذى لكيتس وبلاك فى معرض الصور الوطنى . كان ذلك كل مافى وسعه فعله ، هكذا قال ، ليمنع نفسه من لطمه بيده . إنه بدلا من ذلك سب الشىء قائلا: « لماذا لم تخبرنى أنك كنت رجلا عظيما مر عبر حياتى ؟ أحس أننى قد غبنت لأنى لم ألاحظ وجودك مثل طفل نسى أحدهم أن يخبره بمرور فخامة العمدة فى عربته ، فضاع منه الحدث » . لم يكن لدى مثل هذا العذر ، ومع ذلك فما الذى

كان فى وسعى أن أجده لأقوله ؟ إننى اعتقد ، كما ترى ، أن هنالك عاملا أساسيا فى كل هذا ، إن ليزا تفتقد الإحساس بالفكاهة والمزاح ، إذ عندما قلت إننى ما أن أفكر فى بورسواردن حتى أجد نفسى ابتسم تلقائيا ، بدت عليها تقطيبة حائرة متساءلة ولا غير . من المحتمل أنهما لم يضحكا البتة معا ، هكذا قلت لنفسى ، ومع ذلك فإن تماثلهم الوحيد الحقيقى كان فى الصحة البدنية ، فى اصطفاف الأسنان ومقطع الفم . إنها ، عندما تكون متعبة ، تضع على وجهها تعبير البراءة الذى ينبىء عن سرعة الخاطر . إلا أننى أتوقع رؤيتك لها ، وأخبارها بما تعرف وبما فى وسعك أن تتذكر . ليس الأمر سهلا ، أن تواجه هاتين العينين الكفيفتين ، وأن تعرف من أين تبدأ !

أما عن جوستين ، فقد كانت محظوظة ، إنها قادرة حتى الآن على الإفلات من ليزا . إننى أعتقد أن القطيعة مابين ماونت أوليف ونسيم قد قدمت عذرا كافيا وفعالا ، أو ربما أقنعها دافيد بأن أى إتصال بها قد يعرضه للخطر ، من الناحية الرسمية. اننى لاأعرف . إلا أننى استطيع تأكيد أنها لم تر جوستين ربما سيكون عليك أن تمدها بصورة ما ، اذ إن المراجع الوحيدة فى مذكرات بورسواردن قاسية ولامبالية . هل لم تبلغ بعد تلك الفقرات فى كتابه المبتذل؟ كلا . سوف تبلغها . إننى أخشى أن أحدا منا لم يفلت منه ! أما عن أى سر حقيقى له أعماقه البالغة ، فإننى أعتقد بخطأ بلتازار . إننى أعتقد أن المشكلة الأساسية التى تحيط بهما ، هى فى بساطة تأثير كونها عمياء كليه . إننى فى الحقيقة متيقنة من الدليل الذى رأته عيناى ، خلال تلسكوب نسيم القديم .... نعم نفس التلسكوب ! كان من المعتاد وجوده فى القصر الصيفى ، هل تتذكر ذلك ؟ عندما بدأ المصريون تجريد نسيم من ممتلكاته ،انشغلت الاسكندرية كلها فى الدفاع عن عزيزها - اشترينا جميعا اشياء منه ، وقد انتوينا الحفاظ بها حتى ينتهى كل

شيء . ابتاع آل سيرفوني حصته العربية ، وجانزو السيارة التي عاد فباعها الى بومبال ، وبيير بالبز التلسكوب . ولما لم يكن لديه مكان يضعه فيه فإن ماونت أوليف سمح له بأن يضعـــه في شرفة المفوضية الصيفية . إنها موقع مثــالي . إن في وسع المرء ، أن يمســـح من خلاله ، الميناء والجزء الأكبر من المدينة ، كما أنه في وسع الضيوف ، وقت العشاء ، أن يحملقوا في النجوم حملقة خفيفة . حسنا ، لقد ذهبت إلى هنالك فيما بعد ظهر ذات يوم حيث أُخبرت أن كلاهما قد خرج للنزهة ، والتي كانت ، بالمناسبة ، عادة يومية لهما طوال الشتاء . كانا يقصدان الكورنيش بالسيارة ، ثم يسيران ، مدة نصف ساعة ، أمام واجهة " ستانلي باي " ، وذراع كل منهما في ذراع الآخر . أخذت أعبث بالتلســكوب ، إذ كان لدي ما يكفي من الوقت لقتلــه . كان اليوم عاصفا ، ومياه البحر عالية ، والأعلام السوداء مرفوعة تنذر من خطر الاستحمام . كان هنالك عدد قليل من السيارات عنـد تلك النهاية من المدينة ، ويكاد ألا يوجد هنالك من سائر على قدميه . سرعان . ما رأيت سيارة السفارة تستدير عنـد الزاوية وتقف أمام واجهة البحر . وهبطت ليزا ودافيد منها ، وأخذا يسيران بعيدا نحو نهاية الشاطيء . كانت رؤيتهما بهذا الوضـوح أمرا مدهشا . كان لدي إحساس بقدرتي على لمسهما إن مددت يدي . كانا يتجادلان في حدة ، وقد ارتسم على وجهها تعبير حزن وألم . رفعت من قوة التكبير ، وأصابتني صدمة إذ اكتشفت أنه في وسعي أن أقرأ بدقة مابينهما من حديث عبر حركة شفاههما ! كان أمرا مخيفا ، مخيفا حقا ، إلى حد ما . لم استطع « سماعه » ، إذ كان وجهه مستديرا ، الى جانب ، نصف استدارة ، إلا أن ليزا كانت تنظر في تلسكوبي وكأنها صورة عملاقة على شاشة السينما . كانت الريح تُطَيِّر شعرها الأسود الى الخلف مثل الشوشة عند فوديها ، وبدت بعينيها الكفيفتين أشبه بتمثال يوناني قديم يعود

إلى الحياة . كانت تصرخ من خلال دموعها ، " كلا ، لا يمكن أن تكون لديك سفيرة ضريرة " . كانت تدير رأسها من جانب إلى آخر وكأنها تحاول العثور على مخرج من هذه الحقيقة المخيفة - والتي يجـ ب الاعتراف بأنها ما كانت تخطر ببالي حتى قيلت الكلمات . وأمسك بها دافيد من كتفيها . كان يقول شيئا ما بطريقة جـادة تماما ، إلا أنها لـم تكن تلتفت لما يقول . حررت نفسها فى حركة مفاجئة ، وعبرت فى قفزة واحدة مثل الوعل الحاجز غير المرتفع لتهبط فوق الرمال . وأخذت تجرى نحو البحر ، ودافيد يصرخ شيئا ما . وقف مدة ثانية يشير نحو قمة الدرج الحجرى الذى يقود الى الشاطىء أستطعت أن أراه الآن فى صورة واضحة ، فى تلك الحلة السمراء البيضاء ، جميلة التفصيل ، فى لون الفلفل والملح ، ووردة فى عروة الزر ، والصديرى البنى القديم الذى يحبه بأزراره المصنوعة من خليط النحاس والقصدير والتوتيا . بدا شخصا عاجزا محنقا بصورة غريبة ، كان شاربه يتطاير من الريح بينما وقف هناك . انطلقت تجرى فى سرعة كبيرة إلى الماء مباشرة ، فتناثر حولها ، وإقتم لون جونلتها حتى الفخذين ، وتعطل اندفاعها . توقفت فى حيرة مفاجئة واستدارت إلى الخلف ، بينما اندفع هو خلفها ممسكا بها من كتفيها ، يحتضنها ، ووقفا للحظة . كان المنظر غريبا للغاية والأمواج تلطم أرجلهما ، ثم عاد بها الى الشاطىء وعلى وجهه نظرة امتنان وفرحة غريبة ، وكأنه ، فى بساطة ، كان مبتهجا بهذه الحركة الغريبة منها . راقبتهما وهما يعودان الى السيارة فى عجلة . كان السائق القلق واقفا على الطريق وغطاء رأسه فى يده . كان من الواضح أنه يحس بالراحة لعدم استدعائه كى يقوم بأى عمل يتطلبه إنقاذ الحياة . وحينئذ قلت لنفسى : "سفيرة عمياء " ؟ ولماذا لا ؟ إذن لو كان دافيد معتدل المزاج ، فربما كان يفكر بينه وبين نفسه بأنه " الاصالة وحدها يمكن أن تساعد مستقبلى ، أكثر

مما تعوقه ، وذلك بخلق تعاطف مصنوع ، يحل محل الإعجاب المشوب بالاحترام، والذى استطيع الادعاء فقط ، بأن الفضل فيه إنما يرجع الى مكانتى ! » . ولكن، حتى تدخل مثل تلك الأفكار فى عقله ، فلا بد أن يكون سليم الطوية تماما .

« ومع ذلك ، فإنهما ما أن عادا من البحر مبللين بالمياه ، حتى بدا جذلا بصورة غريبة ، " لقد وقعت لنا حادثة صغيرة " . صاح فى سعادة وهو ينسحب معها ليستبدلا ملابسهما . وبالطبع لم تكن هنالك أية إشارة الى تلك الفلته ، مرة أخرى ، خلال ذلك المساء . وقد سألنى فيما بعد إن كنت أقوم برسم صورة لليزا ، وقد وافقت على ذلك . لم أدر بالضبط لماذا شعرت بالتوجس من هذا الموضوع . ماكان فى وسعى أن أرفض ، ومع ذلك وجدت الكثير من الأساليب لتعطيل هذا الموضوع والعمل على إرجائه الى مالا نهاية إن استطعت . كان غريبا أن أشعر بما شعرت لاسيما أنها سوف تكون موضوعا رائعا ، حتى إن اقتضى الأمر جلسات وأوضاع عدة ، إذ ربما كنا نتعرف على بعضنا البعض اكثر من ذلك ، كما أخفف التوتر الذى احسه في وجودها . كنت ، بالإضافة الى ذلك ، أود حقا القيام بهذا العمل من أجله ، فقد كان دوما صديقا طيبا . لكن هنالك .. فضولى فى أن أعرف ماذا سوف تسألك عن أخيها ، وفضولى فى أن أرى ماالذى سوف تجده لتقوله عنه » .

أنا : «إنه يبدو وقد تغير شكله سريعا عند كل انحناءة فى الطريق ، حتى أن المرء يكاد يجبر على مراجعة كل فكرة عنه بمجرد صياغتها . لقد بدأت أتساءل غن حق المرء فى الحكم بهذه الطريقة على أناس غير معروفين » .

هى : " إننى أعتقد ، ياعزيزى ، أنك مصاب بهوس الدقة ونفاد الصـــبر ، ارتباطا بمعرفة جزئية . وفى ذلك .... ظلم للمعرفة ذاتها ، كيف يمكن أن يكون هذا ، أى شىء ، غير التصور ؟ إننى لا أفترض أن يحمل الواقع البتة

أى تشابه مع الحقيقة البشرية مثل السكوب ويعقوب . إننى أحب أن ترضينى الرمزية الشعرية بما تمثله ، شكل الطبيعة ذاتها كما كانت . ربما كان هذا ما حاول بورسواردن أن ينقله فى تلك الهجمات الغاضبة عليك - هل بلغت فى قراءتك الفقرات المعنونة بـ "أحاديثى الصامتة مع أخى الحمار " ؟ .

أنا : " لم أبلغها بعد " .

هى : « لا تدعها تصيبك كثيرا بالجراح . يجب أن تبرىء الوحش بضحكة دمثة . لقد كان ، على أى حال ، واحدا منا ، واحدا من القبيلة . إن الحجم النسبى للكمال لا يهم : كما كان يقول هو نفسه ، « ليس هنالك ما يكفى من الثقة والبر والرقة لإمداد هذا العالم بشعاع أمل واحد - ومع ذلك ، فلطالما جلجلت هذه الصرخة الحزينة فوق العالم ، آلام ميلاد فنان - فإنه لا يمكن فقدان كل شىء ! إن هذه الزقزقة الحزينة الصغيرة للولادة من جديد إنما تدل على أن كل شىء مازال معلقــا فى الميـزان . انتبه الـى ماأقـول أيها القارىء : فالفنـان هو أنت . كلنا - هذا التمثال الذى يجب أن يخلص نفسه من كتلة الرخام التى كانت تأويه ليبدأ الحياة ، ولكن متى ؟ متى ؟ » . وفى مكان آخر يقول ، « الدين ، فى بساطة ، إنما هو فن جُرد من كل معرفة » - فكرة خاصة مميزة . كانت تلك هى النقطة المحورية فى خلافه مع بلتازار والقابال . لقد قلب بورسواردن الوضع المحورى كله رأسا على عقب " .

أنا " ليلائم أغراضه الخاصة " .

هى : " كلا ، ليلائم احتياجاته الخالدة . لم يكن هنالك غش فى كل ذلك . إذ لو أنك ولدت فى قبيلة الفنانين ، فإن محاولتك التصرف كقسيس إنما هى إهدار للوقت . يجب أن تكون أمينا لزاوية رؤيتك الخاصة ، وأن تعرف فى ذات الوقت ماالذى تنحاز اليه . هنالك نوع من الكمال يمكن تحقيقه إذا تطابقت ذات المرء

وقدراته – على كل المستويات . إن هذا ، كما أتخيل ، يجب تحقيقه بكل جهد وبكل تخيل أيضا . لقد اعجبت ، أنا نفسى ، على الدوام بسكوبى العجوز كمثال ناجح تماما لهذا الانجاز على طريقته الخاصه ، إننى اعتقد ، أنه هو ذاته . كان ناجحا تماماً .

أنا : " نعم ، أعتقد ذلك . لقد كنت أفكر فيه اليوم . لقد برز اسمه فى المكتبة، على غير توقع مرتبطا بموضوع ما . كليا ، حاكية مرة أخرى . إنك تفعلين ذلك باتقان تام ، حتى أن الإعجاب يلجمنى » .

هى : « لكنك تعرف كل حكايـاتـه » .

أنا : " هراء إنها لا تنتهى " .

هى : " أود لو استطيع محاكاة نظرته ! تلك القبيحة التى تشبه بومة مريعة . حركة العين الزجاجية ! لكن إغلق عينيك واستمع الى قصة سقوط توبى ، واحدة من سقطاته الكثيرة . هل أنت مستعد لذلك ؟ "

أنا : " نعم " .

هى : " لقد أخبرنى بها أثناء حفل عشاء قبل ذهابى الى سوريا مباشرة . قال أنه حصل على بعض النقود وأصر على اصطحابى الى لوتتشيا بطريقة احتفالية ، حيث تناولنا عشاء من السرطان البحرى ونبيذ المائدة الأحمر [1] . بدا الأمر هكذا ، فى نبرة منخفضة ، نبرة من يأتمن آخر على سر من الاسرار . « إن الأمر الذى ارتبط بتوبى ، وكان يميزه هو الجرأة الفائقة ، وهى ثمرة سلالته الخالية من كل عيب ! لقد أخبرتك أن أباه كان عضـوا فى البرلمان ؟ كـــلا ؟ ذلك

---

(١) كيانتى – المترجم .

شيء غريب ، إذ أعتقد أنني ذكرت ذلك عرضا . نعم يمكنك القول أنه كان ذا منزلة عالية للغاية .إلا أن توبي لم يتباه بذلك أبدا . إنه في الحقيقة ، وذلك يوضح لك طبيعته ، قد طلب مني أن أكون حصيفا أحسن التقدير في التعامل مع هذا الأمـر ، وألا أذكره لزملائه البحارة . لم يكن يرغب في نيل أي خطوة من وراء ذلك، هكذا قال . لم يكن يود أن يتذلل له أحد ، لا لشيء إلا لأن والده كان عضوا في البرلمان . كان يود أن يخوض الحياة متخفيا ، كما قال ، وأن يشق طريقه بالعمل الشاق . خذ بالك ، كان يكاد أن يكون في متاعب متصلة مع قيادة السفينة . كان ذلك بسبب معتقداته الدينية ، أكثر من أي شيء آخر ، كما أعتقد . كان ذوقه يتسم بالخشونة فيما يختص بالملبس ، هذا التوبي العجوز . كان واضحا نشطا ، وكان المستقبل الوحيد الذي يبتغيه هو أن يكون طيارا . إلا أنه ، بصورة ما ، لم يستطع أن يصبح هكذا . قالوا أنه يشرب الخمر كثيرا جدا لكنه قال إن سـبب ذلك ، إنما يرجع الى أن شـعوره بالفرض الديني يدفعـه نحـو المزيد ، وأنهـم إن عينوه ، فإن كل شيء سيصبح على مايرام ، كما قال . سوف يكف عن الشراب فورا . لقد أخبرني بذلك مرات عديدة عندما كان على طريق سفر يوكوهاما . كان كلما ثمل ، يحاول دوما إقامة الشعائر الدينية في عنبر رقـم ١ بالسفينة – واشتكاه الناس بالطبع ، فأحضر الكابتن في «جوا » قسيسا الى ظهر السفينة لمجادلته واقناعه ولكن دون جدوى . « سكيرفي » ، هكذا اعتاد القول لي " سكيرفي ، سوف أموت شهيد فروضي الدينية ، ذلك هو الأمر . ليس هناك من شيء في الحياة مثل الإصرار ، وكان توبي يمتلك الكثير منه . لم أفاجأ البتة ذات يوم ، بعد العديد من السنوات ، وأنا أراه قادما الى الشاطيء وقد تم تعيينه .

أما كيف حشر نفسه فى الكنيسة ، فإنه لم يفصح عن ذلك ابدا . إلا أن أحد زملائه قال أنه استطاع التوصل الى قسيس كاثوليكى فاسد ، الى حد ما ، فعينه خلسة فى هونج كونج . وما أن توقع الأوراق وتختم وتلف حتى لا يستطيع أحد فعل اى شىء ، ويصبح على الكنيسة أن تضفى على هذا التلوث وعلى كل شىء مظهرا طيبا . وغدا ، بعد ذلك ، رعبا مقدسا ، يقيم الشعائر الدينية فى كل مكان ، ويوزع بطاقات السجائر التى تحمل صور القديسين . وضاقت به السفينة التى كان يعمل عليها ، فأعطوه حسابه وصرفوه . لقد ادعوا عليه ، كما قيل ، أنه رئى يحمل حقيبة يد نسائية ! وأنكر توبى ذلك قائلا أنها كانت شيئا دينيا ، حلة القداس أو شىء ما التبس عليهم كحقيبة . ثم ظهر ، على أى حال ، فوق سفينة ركاب تالية تحمل حجاجا . قال أنه قد حقق ذاته أخيرا . إنه يقيم الشعائر الدينية طوال الوقت فى ردهة الاستراحة (أ) . ولا أحد يعيق كلمـة الرب . إلا اننى لاحظت ، فى انزعاج ، أنه كان يشرب الخمر بكثافة اكثر من ذى قبل ، وأنه يضحك ضحكة غريبة مشروخة ، لم يكن هو توبى العجـوز . ولم أدهش لسماعى بوقوعه فى المتاعب مرة أخرى كان من الواضح ، وجود شك فى أنه يشرب أثناء تأدية واجباته . وأنه قد أشار بطريقة فظة الى ماضى أحد الكهنة وكشف ذلك عن ذكائه الرائع ، إذ إنه عندما قُدم الى مجلس عسكرى ، كان يمسك بناصية الاجابة المعدة المتقنة . إننى لا أعرف كيف يجرون مجالس عسكرية فى الكنيسة ، لكننى أعتقد أن سفينة الحجاج تلك كانت مليئة بالقساوسة ، أو شىء من هذا القبيل . وأنهم أقاموها فى ردهة الاستقبال (أ) مستخدمين منضدة على شكل جلد الطبلة . إلا أن توبى ، بجرأته كان ثابتا فى مواجهتهم . ليس هنالك مثل إصالة المنبت لتكون حاضر البديهة . كان دفاعه ، إنه إن كان قد سمعه أحدهم وهو يتنفس فى تثاقل أثناء القداس ، فإن مرجع ذلك الى داء الربو المصاب به .

ثانيا ، أنه لم يذكر البتة ماضى أى شخص ما . لقد تحدث عن كلب أحد القساوسة من نوع الترير ! أليس مافعل باهرا ؟ كان ذلك أكثر ماقام به توبى العجوز من أعمال حاذقة ، رغم أننى لم أعرفه البتة عاجزا عن الإجابة الذكية . حسنا لقد ذهل القساوسة حتى أنهم أطلقوا سراحه محذرين له ، على أن يردد " السلام لك يامريم " ، الف مرة ككفارة عما فعل . كان ذلك أمرا سهلا للغاية بالنسبة لتوبى ، لا يثير له فى الحقيقة أية متاعب البتة . كان قد اشترى عجلة دعاء صينية صغيرة ، ضبطها له " بدجى " لتردد" السلام لك يامريم " . كانت آلة صغيرة بسيطة ، تم مواءمتها بطريقة ذكية متآلفة ، بحيث تعمل فى أى وقت تبتغيه . كانت تقدم فى دورتها الواحدة « السلام لك يامريم " مرة أو خمسين حبة من حبات المسبحة . إنها تبسط الصلاة ، كما قال . كان فى وسع المرء فى الحقيقة ، أن يستمر فى الصلاة دون تفكير، ووشى أحدهم به فيما بعد ، فصادرها الرئيس . ووجه الى توبى المسكين تحذيرا آخر .إلا أنه فى تلك الأيام ، كان يتعامل مع كل شىء بتطويح رأسه والضحك هازئا . كان كما ترين يسعى نحو السقوط . كان يتغلب على نفسه ، الى حد ما .

لم استطع ملاحظة ماحل به من تغيير ، فقد كان يمر من هنا اسبوعيا تقريبا ومعه هؤلاء الحجاج الذين يطرفون بأعينهم . أعتقد أنهم كانوا إيطاليين يزورون الأماكن المقدسة . كانوا يذهبون جيئة وذهابا ومعهم توبى . إلا أنه كان قد تغير . كان الآن يواجه المتاعب على الدوام ، وبدا أنه قد القى بعيدا بكل ما يمكن أن يكبحه . لقد أصبح هوائيا تماما ، زارنى ذات مرة وقد ارتدى ملابس كاردينال وبيريها أحمر ، وفى يده شىء أشبه بغطاء المصباح . قلت له لاهثا ، " فاسق ! فاسق ! . أنت لست نصف أرجوانى ياتوبى ! " . وقد وبخ فيما بعد بعنف لارتدائه زيا اعلى من رتبته . كان فى وسعى أن أرى المسألة وقد غدت مسألة وقت

فقط ، ويسقط من البالون ، هكذا يمكن القول . وفعلت كل مافى وسعى كصديق قديم لمناقشته ، إلا أننى ، بصورة ما ، لم أستطع أن أبصره بالأمر . حاولت أن أعود به الى شرب البيرة إلا أنه لم يتحمس لذلك على الإطلاق . لم يعد يرضى توبى غير ماء النار . وكان علىّ فى أحد المرات أن أستعين بالشرطة لحمله الى ظهر السفينة . كان يرتدى حلة أسقف. أعتقد أنهم يطلقون عليها لفظا خاصا . حاول أن يلعن المدينة من ظهر القارب (أ) . كان يلوح فى صورة نصف دائرة أو شيء من هذا القبيل وكان آخر مارأيته منه ، كمية من الأساقفه الحقيقيين يحاولون كبح جماحه ، كان الجميع يرتدون اللون الأرجوانى مثل ذلك الذى كان قد استعاره . ياألهى ، كيف استطاع هؤلاء الإيطاليون أن يتصرفوا على هذا النحو. ثم جاء السقوط والانهيار . قبضوا عليه بتهمة تجرع نبيذ الأسرار المقدسة بشراهة . أنت تعرفين أنه كان عليه خاتم البابا ، ألا تعرفين ذلك ؟ أنت تشترينه من عند كورنفورد ، باعة التجزئة الكنائسيين مختوما ومباركا . كان توبى قد حطم الخاتم . وكان فى ذلك نهايته . إننى لا أدرى إن كانوا قد حرموه من عضوية الكنيسة أو ماذا ، لكنه حذف ، على أى حال ، من السجل كما يقتضى الأمر .

عندما رأيته فى المرة التالية كان شبحا ، وقد ارتدى رداء بحار عادى ، كان لايزال يشرب ثقيلا ، ولكن بطريقة .مختلفة . قال " سكيرفى " أننى أشرب الآن ، فى بساطة ، لأكفر عن آثامى . إننى أشرب كعقوبة وليس كمتعة " لقد جعلته المأساة بكاملها كئيبا للغاية وقلقا . تحدث عن الانطلاق إلى اليابان لتصبح شخصيتة دينية هنالك . إن الشيء الذى منعه من ذلك ، هو ضرورة أن يحلق رأسه، وماكان فى مقدوره أن ينفصل عن شعره الذى كان طويلا ، ومحل إعجاب أصدقائه . قال بعد أن ناقش الفكرة ، " كلا ياسكيرفى العجوز ، ليس فى وسعى

أن أصبح أصلع مثل بيضة ، بعد كل الذى مررت به . إن ذلك سوف يضفى علىّ مظهر تشرد غريب ، وأنا فى ذلك العمر . كما أننى عندما كنت صبيا صغيرا ، أصبت ذات مرة بالقوباه وفقدت تاجى الذى كنت أتباهى به . لقد استغرق الأمر أعواما لينمو مرة ثانية ، والآن فإننى لا أستطيع احتمال الافتراق عنه ، لأى سبب كان . كنت أرى ورطته تماما ، إلا أننى لم أستطع تبين أى مخرج له منها .

سوف يظل توبى العجوز ، على الدوام ، غير قادر على التلاؤم مع ما يحيط به ، يسبح ضد التيار . خذ بالك ، كانت تلك علامة على إصالته ، وعاش لفترة قصيرة يبتز كل الأساقفة الذين كانوا يعترفون بين يديه عندما كان فى الخدمة . حصل على إجازة مجانية مرتين فى ايطاليا، بعد فصله المبكر من الخدمة الدينية . إلا أن متاعب أخرى اعترضت طريقه ، وابحر الى الشرق الأقصى حيث عمل فى دور ضيافة البحارة ، وقت أن يكون على الشاطىء ، متحدثا الى كل شخص بأنه سوف يحقق ثروة بتهريبه الماس . كنت نادرا ما أراه فى ذلك الوقت ، ربما مرة كل ثلاث سنوات . لم يراسلنى البتة ، إلا أننى ما كنت أنسى أبدا توبى العجوز . كان دوما ذلك الإنسان المهذب ، رغم مصائبه الصغيرة . إنه يتوقع ، عند موت أبيه ، حصوله على بضع مئات سنويا لحسابه ، وحينئذ سوف نعمل معا مع بدجى ، ونضع تجارة المراحيض الأرضية على أسس اقتصادية حقيقية . إن بدجى العجوز لايستطيع العناية بالدفاتر والملفات . تلك وظيفة أستطيع القيام بها لخبرتى فى أعمال الشرطة " أو على الأقل هذا ما كان يقول به دوما توبى العجوز . إننى أتساءل أين هو الآن ؟ " .

انتهى الحكى . همد الضحك فجأة . ارتسم على وجه كليا تعبير جديد ، لا أتذكر البتة أنى قد رأيته من قبل . شىء ما ، بين الشك والإدراك ، تلاعب على فمها كالظلال . أضافت فى طبيعية متعمدة منهكة ، بصورة ما ، " لقد أخبرنى ،

رغم كل شيء ، بطالعى . أعرف أنك سوف تضحك . قال أنه يستطيع فعل ذلك مع أناس بعينهم ، وفى أوقات بعينها . هل تصدقنى إن قلت لك أنه قد وصف واقعة سوريا بأمانة وإخلاص تامين ، وبالتفصيل " . ادارت وجهها نحو الحائط فى حركة مباغته ، ورأيت لدهشتى شفتيها ترتعشان . وضعت يدى فوق كتفها الدافىء وقلت فى رقة شديدة ، "كليا" . صرخت فجأة ، " ماهذا ؟ دعنى لحالى . ألا ترى أنى أرغب فى النوم ؟ " .

★ ★ ★

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- ٢ -

أحاديثي مع أخي الحمار
(اقتباسات من مذكرات بورسواردن)

إننا نعود إليها ، مرة بعد أخرى ، مكرهين بصورة مخيفة - كلسان فى فراغ أحد الأسنان - تلك هى مسألة الكتابة ! هل يستطيع الكُتّاب أن يتحدثوا فى لا شيء غير المهنة ؟ كلا ، إلا اننى كنت اقع مع العجوز دارلى فى قبضة نوع من الدوار التشنجى . كنت أجد نفسى عاجزا عن الكلام معه البته ، رغم ان كل شيء مشترك بيننا . اعنى اننى كنت أتكلم بلا حدود : عاطفيا . هيستيريا ، دون أن أنطق كلمة واحدة فى صوت مرتفع . ليس هنالك من سبيل لأدخال اسفين بين أفكاره التى كانت ، كما أؤمن ، أفكارا متآملة مرتبة ، إنها الجوهر الحقيقى " للصمت " . رجلان يجلسان على مقاعد البار يقضمان العالم فى تأمل ، كأنما يقضمان عوداً من قصب السكر ! أحدهما يتحدث فى صوت خفيض رخيم يستخدم لغة تتسم باللباقة والفراسة ، والآخر يتململ على إليتين خائرتين ، يصرخ ، على استحياء ، داخل عقله ، لا يجيب إلا بالنفى أو الإيجاب ، وبطريقة عرضية ، على تلك الآراء الصريحة غاية الصراحة ، والتى هى فى غالبيتها ، وبما لايقبل الجدل ، حقيقية وقيمة ! ربما يصلح هذا نواة لقصة قصيرة ؟ ("ولكن ياأخى الحمار ، هنالك بُعد كامل مفتقد فيما تقول . إذ كيف يمكن للمرء نقل هذا فى إنجليزية أوكسفورد ؟ ") لايزال الرجل الجالس على مقعد البار المرتفع يواصل ، فى كآبة التائب الحزين ، عرضه مشكلة الفعل الخلاق - إنه يطلق ،

مابين الحين والحين ، بنظرة جانبية خجلة نحو معذبة - إذ غدوت أنا ، وبطـريقة ما غريبة ، معذبه بالفعل ، وإلا ماكان يتوجه اليّ دوما ، مصوبا طرف سيفه الى شقوق اعتدادى بذاتى ، أو الى المكان الذى يعتقد أننى أحتفظ فيه بقلبى . كلا إننا سنكتفى بموضوعات نقاش أكثر بساطة ، كحال الجو مثلا . كان يرى فىّ لغزا ، شيئا ما يسعى جاهدا للتعرف على ما فى الأعماق . ("لكننى ، ياأخى الحمار ، واضحا وضوح جرس رنان ، المشكلة قد تكون هنا أو هناك أو أنها ليست فى أى مكان ! ") . كنت أحس أحيانا ، وهو يتحدث هكذا ، بدافع مفاجىء يستحثنى أن أقفز فوق ظهره ، أمتطيه بطريقة مجنونة ، صاعدا هابطا شارع فؤاد ، أضربه ضربات متتالية " بدائرة معارف " وأنا أصـرخ " أفق أيها الأبلـه، دعنى أمسك بك من أذنيك ، أذنى الحمار ، الطويلتين الناعمتين ، وأدفع بك عَدْوا عبر معرض التماثيل الشمعية لأدبنا ، بين فرقعة " صندوق الخيالات الوهمية » ، والتى تناولت كل منها لقطة سريعة ، أحادية اللون ، لما يسمى بالواقع إننا معا سوف نراوغ الغضب والجنون ، ليحتفى بنا لتصويرنا المشهد الإنجليزى، مشهد الحياة الإنجليزية التى تتحرك نحو الإيقاع الجليل لجثة يجرى تشريحها لفحصها ، هل تسمعنى ياأخى الحمار ؟ " .

إنه لا يسمع ، ولن يسمع . إن صوته يصلنى من بعيد ، كأنما من فوق فالق أرضى « هالو . هل تسمعنى ؟ » . صرخت وأنا أهز جهاز الاستقبال . سمعت صوته واهنا أمام شلالات نياجرا المزمجرة . « ماهذا ؟ هل قلت أنك تود أن تسهم فى الأدب الإنجليزى ؟ ماذا ، أن تضع بضعة فروع من البقدونس فوق سمكة الترس الميتة تلك ؟ أن تضرب مثابرا منخارى هذه الجثة ؟ هل عبأت أدواتك ، ياأخى الحمار ؟ هل أعددت نفسك لإبطال كل ماتدربت عليه مبكرا ؟ هل تستطيع التسلق مثل قطة لصة استرخت عضلاتها القابضة ؟ ولكن ماالذى ستقوله حينئذ لمن كانت حياتهم المثيرة للعواطف هى تلك التى لأناس فى خان سويسرى ؟

سوف أخبرك أنا . سوف أقولها أنا وأُعفى كل الفنانين من المشقة . إنها كلمة تتسم بالبساطة .الأبيض النبيل (١) . قلها فى صوت خفيض جميل النغم ، قلها فى تنهيدة ملساء ! إن السر كله هنالك ، فى كلمة تنمو فوق الثلج ! وعليك حينئذ ، وقد حللت مشكلة الغابات والوسائل ، أن تواجه مجرد صعوبة أخرى - إذ لو حدث وكان على العمل الفنى أن يعبر القناة ، فهو لابد أن يعاد عند « دوفر » ، باعتبار أنه لا يرتدى الملابس اللائقة ! الأمر ليس سهلا ياأخى الحمار . (ربما كانت دعوة الفرنسيين إلى مرستان ثقافى أكثر حكمة من ذلك) . إلا أنك ، كما أرى ، غير ملتفت الىّ . أنك تواصل بنفس اللهجة دون أن تتلعثم ، وصف المشهد الأدبى الذى لخصه ذات مرة ، وإلى الأبد ، الشاعر «جراى » فى ذلك السطر، «خوار القطيع يهب كالريح فوق المرج » ! هنا لا أستطيع أن أنكر حقيقة ما تقول . إنه قاطع مقنع ، إنه عالم بمستقبل الأمور ، إنه مدروس بعناية ، إلا أننى اتخذت احتياطاتى الخاصة قبل أمة لها عقلية حيزبون . إن كل واحد من كتبى يحمل لفافة بنفسجية كتب عليها : « لا يفتح بمعرفة النسوة العجائز لأى من الجنسين » (العزيز د . هـ . ل . المخطىء ، المصيب ، العظيم ، لعل روحه تهب كالنسمة علينا جميعا !) » .

إنه يضع كأسه فى قرقعة ماء ، يجرى أصابعه فى شعره بينما يتنهد . الشفقه ليست عذرا أو مبررا ، هكذا أقول لنفسى . الطيبة الخالية من الغرض لاتحل حياة الفنان من مطالبها الأساسية . هنالك ، كما ترى ، ياأخى الحمار ، حياتى ، ثم حياة حياتى . يجب إن تكون الواحدة منهما للأخرى مثل الفاكهة وقشرتها . أنا لست قاسيا ، وذلك فى بساطة لأننى لا أتساهل أو أتغاضى.

(١) نباتُ صغير عشبى ، زغبى صوفى ، أبيض ينمو فى جبال الألب - المترجم .

« كم أنت محظوظ، إن لم يكن مأرب لك من الكتــابة» يقول دارلى ، وفى نبرة صوته لمسة يأس شجى . « إننى أغبطك » إلا أنه لم يكن يغبطنى ، حقيقة لم يكن يغبطنى البتة . أخى الحمار سوف أُخبرك بقصة قصيرة . وصل فريق من علماء وصف الإنسان الصينيين إلى أوربا لدراسة عاداتنا ومعتقداتنا . مات الجميع خلال اسابيع ثلاثة ، ماتوا من ضحك لايمكن التحكم فيه . دفنوا بكل مظاهر التكريم العسكرية . ماذا تستنبط من ذلك ؟ لقد حولنا الأفكار الى شكل من أشكال السياحة مدفوعة الثمن .

دارلى يتحدث ، وعينه مائلة تنظر الى حافة كأس الجن . أجيب فى صمت بلا كلمات . شعورى بالزهو بما أنطق يصيبنى فى الحقيقة بالصمم . الكلمات تدوى فى جمجمتى أشبه بجلجلة تجشؤات « زارا ثوسترا » ، أشبه بالريح تصفر عبر لحية « مونتاين » كنت أمسك به ، أحيانا من كتفيه فى عقلى وأصرخ ، (هل على الأدب أن يكون دليل طريق أم عقارا مهدئا يستجلب النوم ؟ عليك أن تقرر ! عليك أن تقرر ! » .

وهو لايلتفت الىّ ، لا يسمعنى . لقد جاء لتوه من المكتبة ، أو من المطعم ، أو من حفلة موسيقية لباخ (المرق لايزال يسيل على ذقنه) . لقد صففنا أحذيتنا أسفل البار فوق القضيب النحاسى المصقول ، وقد بدأ المساء يتثاءب حولنا مثيرا للضجر وأعدا بفتيات يغوص المرء فيهن . والأخ الحمار ، هنا ، يحاضر عن الكتاب الذى يكتبه ، والذى ألقى به من فوقه ، مرة بعد أخرى ، كما يُلقى بالمرء من فوق حصان . لم يكن الفن حقيقة هو ما نناقشه ، كنا نناقش ذواتنا . هل ترضى دوما بالصلصة القديمة المعلبة للرواية المُعانة ؟ أو أيس كريم القصائد الشعرية المبتذلة التى تعلن عن نفسها لتنام فى ثلاجة العقل ؟ إن كان فى الإمكان تبنى عروض شعرية أكثر جرأة ، وايقاع أكثر سرعة فربما نستطيع أن نتنفس

جميعا بطريقة أكثر حرية ! هل ستظل كُتب دارلى المسكين دوما ، هى ذلك الوصف المدقق لحالات الروح البشرية الأشبه بالعجة ؟ (إن الفن يقع عند النقطة التى يُكرَم فيها الشكل بروح يقظة ناهضة) .

" هذه المرة على حسابى " .

" كلا أيها العجوز ، أنها على حسابى أنا " .

" كلا ، كلا ، إننى مُصر على ذلك " .

" كلا ، إنها نوبتى " .

لقد منحتنى هذه المماحكة الودودة ، ذلك الجزء من الثانية الذى أحتاج اليه ، لأدون فيه فى سرعة وإيجاز ، أبرز نقاط صورتى ، فوق طرف كُم قميص يكاد يكون ممزقا . أعتقد أنها تغطى الأمر كله فى بلاغة محببة . الفقرة الأولى ، " إننى مثلى مثل كل البدناء أميل إلى أن أكون بَطَل نفسى ." الفقرة الثانية ، " إننى مثلى مثل كل الشبان أنزع الى أن أكون عبقريا ، إلا أن ضحكات رحيمة تتداخل فى هذا النزوع " . الفقرة الثالثة ، " لقد أملت على الدوام أنه أحقق ماتراه عين الفيل " . الفقرة الرابعة ، " لقد أدركت أنه حتى يغدو المرء فنانا فإنه يتوجب عليه اسقاط كل عُقد الأنانية والتى قادت الى اختيار التعبير عن الذات باعتباره الوسيلة الوحيدة للنمو . ولما كان ذلك الأمر مستحيلا فقد أطلقت عليه « المزحة الكاملة » ! .

إن دارلى يتحدث عن خيبات الأمل ! إلا أن التخلص من الوهم ، ياأخى ، هو لب اللعبة هل تتذكر ، أى آمال كبار غزونا بها لندن ، فى تلك الأيام القديمة الميتة، قادمين من الأقاليم وقد امتلأت حقائبنا بمخطوطاتنا حتى الانتفاخ ؟ أى عاطفة حملقنا بها فى كوبرى وستمينستر ، ننشد قصيدة وردزورث اللامبالية ونتساءل إن كانت قد كبرت ابنته وغدت أقل جمالا بسبب أصلها الفرنسى . كانت العاصمة كلها تبدو وكأنها تنتفض من دلائل موهبتنا ، مهارتنا وفراستنا . كنا

نتساءل ونحن نسير فى المتنزه ، عمن يكون كل هؤلاء الرجال طوال القامة بملامحهم التى تشبه الصقر وقد حطوا فى الشرفات والأماكن المرتفعة يمسحون المدينة بمناظير مزدوجة . ماالذى يبحثون عنه بهذه الجدية . وأوقفنا شرطيا ، سألناه ونحن واجفين . قال فى رقة ، " انهم الناشرون " . ناشرون ؟! توقفت قلوبنا عن الخفقان . « إنهم يبحثون عن موهبة جديدة » . ياإلهى ، إننا نحن من كانوا ينتظرون وعنهم يبحثون ! وخفض الشرطى الرحيم صوته ليقول لنا ، باعتبارنا موضع ثقته ، فى نبرات جوفاء وقورة ، « إنهم فى انتظار ميلاد "الترولوب الجديد ! » . هل تتذكر ، كم أحسسنا بثقل حقائبنا عندما سمعنا تلك الكلمات ؟ كيف أبطأت دماؤنا ، وتلكأت خطانا ؟ لقد تركنا نفكر ، أيها الأخ الحمار ، فى خجل وحياء فى نوع من التنوير مثل ذلك الذى حلم به "ريمبود " – قصيدة شعر تثير الضجر لكثرة مابها من تأنيب ، إنها لا تحمل حكمة ولاتقدم تفسيرا ، لكنها ملوثة ناقلة للعدوى – إنها لا تتسم فى بساطةبفراسة عقلانية ، أعنى أنها ترتدى شيئا شبه شفاف كالميكا ! لقد جئنا الى المتجر الخطأ ، فى وقت التغيير الخطأ ! لقد أصابتنا رعشة ونحن نرى الضباب يهبط فى ميدان ترافالجار ، يلف حولنا زوائده الايكتوبلازمية ! كان هنالك فى الانتظار مليون كاتب أخلاقى من أكلة الفطائر . إنهم ليسوا فى انتظارنا ، ياأخى الحمار ، إنهم فى انتظار الترولوب المقدام المثير للضجر (إن لم تكن راضيا عن أسلوبك فابحث عن المكشطة) والآن ، هل يثير دهشتك ، إن أنا ضحكت قليلا بعيدا عن الموضوع ؟ هل تسأل نفسك ماالذى أحالنى إلى حكيم صغير فطرى خجول ؟ .

متنكرا فى زى صانع للسلام ، ماذا يمكن أن يكون ؟

أنا لست إلا صياد ذوات الريش ، شـــارب جرعات من خمـر ، آكل للضفـــادع

نحن الذين رغم كل شىء ، مجرد صناع بؤساء ، نعمل معا من أجل روح

أمتنا ، ماالذى علينا توقعه ، من جمهور يستنكر التدخل ، غير الرفض الطبيعى التلقائى ؟ إن هذا ايضا صائب تماما . ليس هنالك من غبى فى هذا الأمر ، فأنا ايضا أرفض التدخل ، أيها الأخ الحمار ، مثلك تماما . كلا ، ليس الأمر أنك قد ظُلِمت ، المسألة هى أنك كنت سىء الحظ . إننى سوف أقدم لك السبب الأول من العشرة آلاف سبب لعدم رواج كتبى ، إذ إنه يتضمن كل الأسباب الأخرى . إن وجهة نظر ثقافية متشددة عن الفن لابد أن تتضمن شيئا يدعم الأخلاق ويتملق الوطنية ، ولا شىء آخر غير ذلك . أراك ترفع حاجبيك . إنك أيضا ، ياأخى الحمار ، تعرف ما يكمن فى هذا الرأى من مجافاة أساسية للحقيقة . إن ذلك ، على أى حال ، يفسر كل شىء . فالثقافة المتشددة لا تعرف معنى الفن – إذن كيف يمكن توقع اهتمامها به ؟ « إننى أترك الدين للأساقفة – فهنالك يمكنه أن يضير أكثر !) .

لا ساق كسرت ولا عين عشى إبصارها
ولا بعضا من سلالة أصابه التشوه
ولا حتى أن يصبح المرء نصف إنسان
ولا شىء مثلما يكون العقل الباطن بهواجسه
أنا مقيد الى عجلة من الصبر
والزمن هو هذا العدم داخل الدائرة

إننا نصنف بالتدريج دواوين بلايانا ، قواميس أفعالنا واسماءنا ، صلاتنا وصفاتنا المشتقة من الأفعال ، ذلك الشرطى الذى كان دليلنا فى غسق لندن ، هو أول من همس بالرسالة لنا . ذلك الرجل الذى يتسم بحنو الأبوة قد وضع الحقيقة فى كلمات قليلة وهانحن الاثنين ، هنا فى بلد غريب مشيد من بلورة لُوِنت

م ١١ (كليا)

وزركشت بذلك الافراز الشحمى مابين القضيب والقلفة ، والتى إن وصفنا " عاداتها " ، فسوف ينظر الى هذا الوصف باعتباره نزوات عقولنا المختلة . أمامنا ، أيها الأخ الحمار ، أشق الدروس جميعا لنتعلمه - ذلك أن الحقيقة لا يمكن فرضها ، لكن يجب السماح لها بأن تدافع عن نفسها ! هل تسمعنى . إن خط الاتصال قد اصابه الخلل مرة أخرى . لقد ذهب صوتك بعيدا .

إننى اسمع اندفاع المياه !
كن كئيبا أيها الشاب ودع ذلك المِرح الفرِح
مَجِد فينوس إن استطعت مرتين كل ليلة
كل الأشياء التى على حد سواء عليك ألا ترفضها
حتى تدق أجراس بقر التأمل الانجليزى البطيئة الحزينة
إن انعدام حقيقة الفن قد أوضح الأمر تماما
وإن لم يكن الأمر كذلك ، فمن هو الشيطان إذن ؟

رأيت وأنا أكتب فى حجرتى فى الليلة الماضية ، نملة فوق المنضدة . مرت عابرة قرب المحبرة ، رأيتها تتردد أمام بياض فرخ ورق كنت قد كتبت عليه كلمة « الحب » . تعثر قلمى ، استدارت النملة ، ذابت شمعتى فجأة وانطفأت . رفرفت خلف مقلتى درجات واضحة متتالية من ضوء أصفر . كنت أود أن أبدأ جملة بالكلمات : المجادلون دفاعا عن الحب " - إلا أن الفكرة ذابت مع الشمعة ! وواتتنى فيما بعد فكرة ، واتتنى مباشرة قبل أن اسقط نائما ، فكتبت بالقلم الرصاص على الجدار فوق سريرى تلك الكلمات : " ماالعمل إن لم يكن فى وسع المرء أن يشارك أراء الغير حول الحب ؟ » . وسمعت زفرتى الساخطة وأنا أسقط نائما . استيقظت فى الصباح رائقا مثل زائدة مثقوبة . كتبت فوق المرآة بأصبع الحلاقة عبارة تأبينى على قبرى :

« لم أعرف البتة أى جانب قد داهن فنى » .

تلك هى آخر كلمات نطق بها بورسواردن المسكين .

أما المجادلون دفاعا عن الحب ، فقد سعدت باختفائهم . لابد أنهم كانوا سيقودونني دون مقاومة نحو الجنس – ذلك الدَين الردىء الذى يعلق فوق ضمائر مواطنينا . الحذلقة . الجوهر الحقيقى لحذلقة هذا العالم المضطرب ، والميدان الوحيد الصحيح ، أيها الأخ الحمار ، لنشر مواهبنا . إلا أن كلمة واحد حقيقية وأمينة دون تشدد فى هذا المضمار سوف تقود فى الحال الى واحدة من أفعال الهمهمة والصهيل التى يختص بها مثقفونا . إن الجنس بالنسبة إليهم ، أشبه بالاندفاع بحثا عن الذهب ، أو التراجع عن موسكو . وماذا هو بالنسبة لنا ؟ كلا ، إلا أننى سأقوم بشرح ماأعنى ، إن غدونا جادين للحظة . (كوكو ، كوكو (١) ، تغريد مرح ، يصيب بالكدر من له أذن من جلد الجنزير) . إن ماأعنيه أكثر مما يفكرون فيه . (الشخص الخنثى الغريب الحزين فى غسق لندن – الحارس الذى ينتظر فى شارع إيبورى ظهور الرجل المهذب حامل اللقب) . كلا، إنها منطقة بحث أخرى لايمكن بلوغها دون اختيار هذه الأرض الغامضة للأرواح الناقصة . إن موضوعنا ، أيها الأخ الحمار واحد . إنه ، دائما ، وبطريقة لايمكن تجنبها نفس الموضوع – إننى أتهجى الكلمة لك : الـ . ح ب ، . حرفان ، كل منهما مجلد بذاته ! إنها نقطة ضعف الروح (*) البشرية . إنها فى ذات موقع الحقيقة الأساسية السرطانية ! كيف ذلك وقد دمجها اليونانيون مثلما دمجت فتحة التبرز والإنجاب عند الطيور والزواحف ؟ إنها لغز مكتمل يمسك اليهود بمفتاحه ، مالم تكن معرفتى بالتاريخ خاطئة . إن هذا الجنس الموهوب

(*) نداء طائر الكوكو – المترجم .

(*) بالفرنسية فى الأصل .

المتعب ، والذى لم يعرف الفن أبدا ، قد استنزف عمليته الابداعية كلية فى إقامة نظم أخلاقية فرضها علينا جميعا ، وهى نظم لَقّحت ، بالمعنى الحرفى للكلمة ، النفس الأوربية الغربية بكل آماد الأفكار القائمة علي « العرق والسلالة » ، والمحتوى الجنسى الكامن فى التقدم العرقى تقدما ناجحا ! إننى اسمع بلتازار يدمدم ويزمجر ويضرب بذيله . ولكن بحق الشيطان من أين جاءت كل تلك الأوهام عن مجارى الدم النقية الخالصة ؟ هل أنا مخطىء إن عدت الى المحظورات المخيفة المكتوبة فى سفر اللاويين فى التوراة ، حتى أبّين الغضب الذى يتسم بالهوس والاحباط للأخوة بليموث وجمهرة أخرى من المتعصبين المكتئبين ؟ لقد زنقت الشريعة الموسوية خصياتنا لقرون ، ومن ثم كان شحوب فتياتنا الصغيرات وأولادنا ونظرتهم المشذبة . ومن ثم شاعت وقاحة البالغين المتكلفة ، أن تديم المراهقة إلى الأبد . تكلم ياأخى الحمار ! هل تحتاجنى ؟ إن كنت أنا مخطئا فما عليك ألا أن تقول ذلك ! أما فيما يختص برأيى فى الكلمة ذات الحرفين – والتى أحس بالدهشة لعدم إدراجها فى قائمة الناشر الإنجليزى السوداء مع الكلمات الأخرى الثلاث – فإننى ، إلى حد ما ، جسور وعاصف . أعنى على طول المدى اللعين ، بدءاً من كسور عظام القلب البشرى الخضراء الصغيرة حتى أعلى درجات تواطئه الروحية مع ... حسنا ، مع أساليب الطبيعة المطلقة ، إن شئت ذلك . هذه بالطبع ، أيها الأخ الحمار ، هى الدراسة التى لا تلائم الإنسان ؟ إنها المجرى الأساسى لاستنزاف القلب ؟ إن فى وسعنا أن نصنع أطلساً لزفراتنا !

طرح زيوس هيرا على ظهرها

لكنه اكتشف فقدانها لمهارتها

لقد وهنت من كثرة ماأفرطت

كانت عاجزة ، هكذا اعترفت

لاشىء يثبط عزم زيوس ، إنه يحاول
بحكمته العديد من اشكال التنكر الجيدة
نسر ، كبش ، ثور ودب
مستجيبا فى سرعة لصلاة هيرا
المرء يعرف إن الإله يجب أن يكون مِسهبا
لكن .... فكر فى كل تلك الأمور المتباينة

إلا أننى أتوقف هنا مرتبكا . أرى أنى فى خطر ، إذ لم أكن جاداً كما يجب أن أكون ! وهذه إهانة لا تغتفر ، كما أننى أهملت ملاحظتك الأخيرة عن اختيار أسلوب ما . حقا ، إن اختيار أسلوب ما ، ياأخى الحمار ، هو أكثر الأشياء أهمية . إن حديقة سوقنا الثقافية الوطنية تزدهر ازدهارا غريبا ، مخيفا مع ذكر كل زهرة يقف منتصبا . آه لو يكتب المرء مثل روسكين ! كان على « إفى جراى » المسكين عندما حاول أن يندس فى فراشه ، أن يصرف الفتاة بعيدا . آه لو يكتب المرء مثل كارليل ! خبائث العقل . هل يكون الربيع قد ذهب بعيدا الى الوراء عندما يحضر الاسكتلندى إلى المدينة ؟ كلا ، إن كل مانقوله صادق وسديد للغاية الصدق النسبى ، فكرة لا معنى لها بصورة ما ، إلا أننى سأحاول وأفكر ، رغم ذلك ، فيما يبتدعه أصحاب الحواشى هؤلاء ، إذ ان الأسلوب ، فى وضوح ، أمر مهم لى كما هو مهم بالنسبة إليك .

كيف نخوض فى هذا الأمر ؟ كان « كيتس » الذى يطرب للكلمة ، يبحث عن رنين بين حروف العلة والتى يمكن أن تمنحه صدى لدخيلة ذاته . كان يفحص التابوت الفارغ لموته المبكربأصابع متئدة يستمع الى الطنين الكئيب لخلوده المحقق وكان «بيرون» فظا مع اللغة الإنجليزية يعاملها كما يعامل السيد الخادم .

إلا أن اللغة ليست تابعا ذليلا . ومن ثم كانت تنمو النباتات الاستوائية المتسلقة فيما بين شقوق أشعاره تكاد تخنق الرجل . لقد عاش بحق . كانت حياته خيالية بالفعل . كان يكمن تحت بدعة هواه لذاته حكيما وفيلسوفا ، رغم أنه هو نفسه لم يكن يعي هذه الحقيقه . إن« دُون »[1] يضغط العصب المكشوف ، يثير الصخب في الجمجمة كلها. كان يؤمن بضرورة أن تلجم الحقيقة المرء . إنه يوجعنا ، يَخشى سهولته . إن أشعاره ، رغم ألم ضغطها ، يجب أن تمضغ حتى تغدو مزقا « شكسبير » يجعل الطبيعة كلها مدلاة الرأس . « بوب » يصيبه الأسلوب بالألم المبرح ، مثله فى ذلك مثل طفل يعانى من الإمساك . إنه يدهن اسطح أوراقه رملا حتى تنزلق عليها اقدامنا . إن أعظم أصحاب الأساليب المتميزة هم هؤلاء الأقل ثقة فى تأثيرهم . إن القصور الغامض فى مادتهم يلازمهم دون أن يدركوا ذلك ! ويضع « اليوت » حشية مخدر بارد فوق روح شدت باحكام ، بما جمعت من معلومات . إن أمانة معياره وشجاعتها الحازمة فى العودة الى بلطة السياف ، انما تشكل تحديا لنا جميعا . ولكن اين الابتسامة فى كل ذلك ؟ إنه يلوى مفاصل أقدامنا بطريقة خرقاء فى الوقت الذى نحاول نحن الرقص فيه ! إنه يختار اللون الرمادى أكثر مما يختار النور والضياء ، إنه "ورمبراندت" شريكان فى حصته ، إن " الرجل الأبيض والأسود" إنما هى حزمة أوراق داكنة خرقاء مليئة بما هو مستعار من المعبد الذى سوف ينهار على المكان كله ، عندما تتمزق الخيوط التى تشده ، ويبشر " لونج فيلو " بزمن الإبداع لأنه أول من فكر جهارا بالبيانو الآلى. ما أن تضع قدمك على دواسته حتى يبدأ فى الانشاد . وكان "لورنس" فرعا فى شجرة البلوط الأصيلة ، معه حاجته من حزام السرج والخيل . لماذا كشف لهم

---

(١) جون (١٥٧٢ - ١٦٣١) كاهن كاتدرائية سانت بول ، واعظ وشاعر ميتا فيزيقى .
مؤلف : هجائيات ، رسائل انجيلية ، قصائد تأملية - المترجم .

إن الأمر كانت له أهميته ، معرض نفسه بذلك لسهامهم ؟ وكان « إودن » يتحدث دوما . لقد حرر اللغة الدارجة وأعتقها .....

إلا أننى أقطع هنا ، ياأخى الحمار ، حديثى ، إذ من الواضح أن هذا ليس بأعلى نقد أو حتى أدناه ! إننى لا أفهم هذا النوع من المبالغة الذى يجرى فى جامعاتنا الأكثر قدما حيث مازالوا يحاولون ، بطريقة مؤلمة ، استخلاص ظل مامن الفن ، يبرر نمط حياتهم . لابد ، رغم كل شىء ، من وجود ذرة أمل من أجل هذه الجماعة من المسيحيين المحترفين الأمناء ، فى قلب كل هذا الهراء الذى تصبه قبيلتنا من جيل الى جيل . أم هل الفن ، فى بساطة ، هو تلك العصا البيضاء الصغيرة التى تعطى للأعمى ليدق بها دقة دقة فوق طريق لايراه ، لكنه على يقين من وجوده هناك ؟ أخى الحمار ، إن تقرير ذلك مرجعه إليك !

عندما لامنى بلتازار لأننى كنت مبهما أثير الإلتباس ، قلت له دون تردد ، " إن الكلمات هى ماتكون عليه ، والناس هم مايكونون عليه ، وربما كان من الأفضل ، على الدوام ، أن تقول عكس ماتعنى ؟ وعندما أمعنت التفكير ، فيما بعد ، فى وجهة النظر هذه . (والتى لم أكن أعرف أننى أعتقد بها) بدت لى حقا وجهة نظر حكيمة عاقلة بصورة رفيعة ! نحن الانجلو ساكسون ، إن أكثرنا من التفكير الواعى فإنك سوف ترى عجزنا عن أن نفكر لأنفسنا ، إننا نفكر عن انفسنا ، وهذا حق ، إننا ونحن نفكر عن انفسنا نضفى كل نوع من بديع الأداء على كل صوت من الأصوات ، من يوركشاير المشروخة ، الى البطاطا الساخنة من الفم المتحدث من الإذاعة البريطانية . هنا نبرع ونتفوق ، اذ نرى أنفسنا على مقربة من الحقيقة ، كمادة تحت الميكروسكوب ، إن هذه الفكرة عن الموضوعية هى فى الحقيقة امتداد مرائى لإحساسنا بخداعنا ودجلنا . إنك عندما تفكر لنفسك ، يغدو مستحيلا أن تكون مرائيا – ونحن نعيش بالرياء . آه . إننى اسمعك تقول ،

وأنت تتنهد ، إنه واحد آخر من الكتاب الإنجليز ، من سجانة الروح المرموقين ، إنهم يثيرون لنا المتاعب والقلق ! هذا حق تماما ، ومثير للحزن تماما .

سلاما : انجلترا الموحشة الدار المولعة بالرياء

بورسواردن يبعث اليك بتحياته القليلة

إن أفكارك تجعله يرتد على أعقابه

إنه يمقت الرياء ، إنه رائع

ولكن إن شئت تكبير الصورة فاستدر الى اوربا ، أوربا التى تمتد ، مثلا من « رابيليه » الى "دى ساد" إنه تَقَدم من وعى البطن الى وعى الرأس ، من اللحم والطعام الى العقل الرائق (الرائق !) ، مصحوبا بكل الشرور المتبادلة والتى تسخر منا . تَقَدم من النشوة المتدنية الى قرحة الإثنى عشر (من المحتمل أن يكون الانسان أكثر صحة إن فقد عقله تماما) . إلا أنك ياأخى الحمار ، لم تضع هذا الشىء فى حسبانك عندما اخترت المنافسة بغية الحصول على حزام الوزن الثقيل لفنانى الألف عام التى يحكم المسيح فيها على الأرض . لقد تأخر الوقت تماما للشكوى . لقد اعتقدت أنه فى وسعك ، على نحو ما ، أن تفلت من القصاص والعقاب دون أن يطلب منك فعل أى شىء أكثر من إثبات مهارتك بالكلمات ، لكن الكلمات .... إنها فقط قيثارة الريح أو آلة موسيقية رخيصة ذات قضبان خشبية متراصة يعزف عليها بالمطارق . إن سبع الماء نفسه ، يمكنه أن يتعلم كيف يحافظ على توازن كرة القدم فوق انفه ، أو أن يلعب على البورى الطويل المنزلق فى سيرك ما . ماذا يكمن وراء ذلك ...؟

كلا ، إننى أقولها جادا ، إن شئت أنت أن تكون – وأنا لا أقول أصيلا – ولكن مجرد معاصر لجيلك – فإنه يمكنك أن تحاول خدعة الورقات – الأربع فى

صورة رواية ما ، أن تمر بمحور مشترك عبر القصص الأربع ، مثلا وتكرس كل واحدة منها ، لواحدة من رياح السماء الأربع . إنه تجسيد متصل متجانس ، لا لزمن يستعاد ثانية ولكن لزمن الخلاص والنجاة (*) إن مُنحنى المكان ذاته سوف يعطيك رواية ستريو سكوبية (١) ، بينما الشخصية البشرية التي ترى عبر تواصل متجانس قد تغدو منشورية ؟ من الذى يستطيع تحديد ذلك ؟ إننى أرفض الفكرة. إن في وسعى تصور شكل يمكن ، إن أستوفِى ، أن يثير على أسس بشرية قضايا السببية أو الغموض ... وكلاهما أمر غير مرغوب فيه الى هذا الحد . مجرد فتاة عادية تلتقى بفتى القصة . ولكن إن تمت المعالجة هكذا ، فإنك ، مثل غالبية معاصريك ، لن تشق طريقك بطريقة ناعسة على امتداد خط من نقط !

هذا هو نوع الاسئلة التى سوف تجبر على أن تسألها لنفسك (" إننا لن نصل مكة المكرمة أبدا ! " ، كما قالت أخوات شيخوف فى إحدى التمثيليات التى نسيت عنوانها .) .

الطبيعة هى ماأُحَب ، وتأتى العرايا بعد الطبيعة .
كان يحاول مع كل إمرأة تستحق المحاولة .
يدفىء الوجنتين بنار الحياة .
وسقط خائضا معركة مع مليون إمرأة محتشمة .

من ذا الذى يجرؤ على أن يحلم بالامساك بصورة الحقيقة العابرة فى سرعة بكل تعدديتها المخيفة ؟ (كلا ، كلا ، دعنا نتعشى فى سعادة وبهجة بعيدا عن نفايات إلكمادات القديمة الملقاة ، وأن نسمح لأنفسنا بأن يصنفنا العلم كـذؤابات شعر ندية وجافة) .

(*) بالفرنسية فى الأصل

(١) تجسيد الصور المزدوجة – المترجم .

شخوص مَنْ تلك التى أراها أمامى تصطاد الآماد الضاربة الى الملوحة ؟ .

إن المرء يكتب ، ياأخى الحمار ، من أجل الجوعى روحيا ، من أجل النفوس المنبوذة ! إنهم دوما سيكونون الغالبية حتى وإن كان كل منهم مليونيرا من حر ماله . كن شجاعا ، فأنت هنا ستكون دوما سيد المستمعين اليك . إن العبقرية التى لا يمكن تداركها ، يجب تجاهلها فى أدب . إننى لا أعنى أنه لا جدوى من أن تتقن وأن تمارس حرفتك باستمرار . كلا فالكاتب الجيد قادر على كتابة أى شىء . إلا أن الكاتب الكبير هو خادم الإلتزامات الجبرية التى يكرسها بنيان الروح ذاته ، ولا يمكن التغاضى عنها . اين هذا الكاتب ؟ أين هو ؟ .

هيا بنا ، دعنا نتعاون معا حول عمل يقوم على أربعة أو خمسة مستويات ، هل نفعل ذلك ؟ " لماذا زل القسيس " سوف يكون عنوانا جيدا . أسرع إنهم ينتظرون هؤلاء الأشخاص المؤثرين بين مآذن لندن ، المؤذن الذى يؤذن على البضاعة . « هل ينال القسيس فتاة كما ينال راتبه ، أم ينال الراتب فقط ؟ إقرأ الألف صفحة التالية واكتشف الإجابة ؟ " . الحياة فى انجلترا فجة - مثلها مثل ميلودراما تقوم على الورع يمثلها وكلاء أملاك كنائس مجرمون محكوم عليهم بالهواجس والريب الجنسية مدى الحياة ! إننا بهذه الطريقة نستطيع ، لمصلحتنا المتبادلة ، أن نضع غطاء إبريق شاى فوق الحقيقة ، أن نكتبها كلها فى نثر واضح يمكن أن يتميز فقط عن الحديد المجلفن . إننا بهذه الطريقة سوف نضع غطاء فوق صندوق بلا أضلاع . دعنا ، ياأخى الحمار ، نؤلف عالما من الأدنياء الخائرين الذين لايبالون والذين يقرأون لا ليتحققوا من فراستهم وصدق حدسهم ، ولكن ليتحققوا مما يتوقعونه من ضرر وإجحاف !

إننى أتذكر داكابو العجوز وهو يقول ذات مرة فيما بعد الظهر ، " إن لدى اليوم خمس فتيات إن لدى اليوم خمس فتيات . إننى أعرف أن هذا سوف يبدو

لك إفراطا يتجاوز الحد . إننى لا أحاول أن أثبت بذلك أى شىء لنفسى . إذ لو قلت أننى قد خلطت خمسة أكواب من الشاى لتناسب ذوقى أو خمسة أنواع من التبغ لتناسب غليونى فإنك لن تفكر فى الأمر ولو لدقيقة واحدة ، بل على عكس ذلك سوف تعجب بقدرتى على الاختيار ، أليس كذلك ؟ " .

إن كنيلورث ، مصقول – الكرش ، والذى يعمل " فى المكتب الأجنبى " ، قد أخبرنى ذات مرة ، فى صوت نائح شجى ، أنه قد " حط على غير انتظار " . ومن باب الفضول ، على جيمس جويس ! وأنه اندهش وتألم لأنه وجده وقحا ، متعجرفا ، سريع الغضب . قلت له ، " لكنه كان يكفر عن عزلته وخلوته باعطاء دروس ، لواحد الى ستة من العبيد مدة ساعة ! ربما كان من حقه أن يحس بالأمان من أشياء لا تحكى ، مثلك أنت ، انت الذى يتخيل أن الفن إنما هو شـىء ، يمكن إن تعلمت تعليما جيدا أن تصبح أهلا له بصورة آلية ، باعتباره جزءاً من العتاد الاجتماعى ، من اللياقة الطبقية ، كما كان الرسم بالألوان المائية بالنسبة لسيدة مجتمع من العصر الفيكتورى ! إننى أستطيع تصور قلبه المسكين وهو يغوص بينما يتفحص وجهك ، الذى يرتسم عليه تعبير تفضل عنيد – اعتداد بالنفس بعيد الغور يمكن أن يراه المرء أحيانا يرفرف عبر وجه سمك المرجان الذهبى يحمل صك ملكية بالوراثه " . ولم نتحدث أبدا بعد ذلك . كان هذا ماأسعى اليه ، فن صناعة الأعداء الذين لابد من وجودهم ! ومع ذلك فقد أحببت فيه شيئا واحدا . كان ينطق كلمة الحضارة وكأن حرف الراء ملوى فى داخلها .

(إن أخى الحمار يعبر الآن عن الأفكار بالرموز ، وحتى اتحدث باحساس طيب حقا ، يجب علىّ الاعتراف بذلك) الرمزية ! اختزال اللغة الى شعر . الوجه المدرع للحقيقة ! الرمزية . الرمزية هى عملية الترميم الكبرى لحاجيات النفس ، أيها الأخ الحمار ، أقصى ما فى طاقة النفس (*) إنها الموسيقى التى تحمل

العضلة العاصرة على الاسترخاء ، تحاكى تموجات الروح وهى تتقدم عبر اللحم البشرى ، تتحرك ، تلعب فى داخلنا مثل الكهرباء ! (لقد قال بار العجوز ذات يوم وهو ثمل : « نعم ، إلا أنه من المؤلم أن تعرف !) .

حقا ، من المؤلم أن تعرف . إلا أننا نعرف أن تاريخ الأدب هو تاريخ الضحك والألم . إن الأمور القطعية التى لامهرب منها هى : أن تضحك حتى تتألم ، وأن تتألم حتى تضحك !

إن أعظم الأفكار متاحة لأقل عدد من الرجال . لماذا علينا أن نصارع هكذا ؟ لأن الإدراك ليس مهمة القياس المنطقى ، إنه التعبير عن مرحلة نماء النفس . تلك، أيها الأخ الحمار ، هى النقطة التى نختلف عندها . إن اى قدر من الشرح والتوضيح لا يمكن أن يسد الفجوة . إنه الادراك والاستيعاب فقط ! سوف تستيقظ ذات يوم من سباتك تصرخ ضاحكا .

أما فيما يختص بالفن ، فقد كنت أقول ، على الدوام ، لنفسى : عليك تهريب الحقيقة فى عروقهم ، مثلما يُمرر فيروس عبر مصفاة ، بينما هم يراقبون عرض الألعاب النارية والجمال الصارخ . إن هذا الكلام أسهل فى القول عنه فى التنفيذ . إن المرء ليتعلم فى بطء شديد كيف يسلم بهذا التناقض الظاهرى . إننى لست هنالك بعد ، إلاأننى رغم ذلك ، وعلى أى حال ، واحد من ذلك الفريق الصغير ، فريق الرواد المستكشفين ، " كنا لانزال على مسافة يومين سيرا على الأقدام من الشلالات ، إلا أننا رغم ذلك ، سمعنا فجأة هديرها يعلو عن بعد ! " .

آه ، ربما يجازى ذات يوم ، هؤلاء الذين هم أهل لذلك بشهادة ميلاد جديدة تقدمها لهم واحدة من ادارات الحكومة الرحيمة ، إن ذلك سوف يمنحهم حق تسلم

(*) بالفرنسية فى الأصل .

كل شىء مجانا – إنها جائزة مخصصة لهؤلاء الذين لا يريدون شيئا . الاقتصاديات رائعة الجودة التى يصمت عنها لينين صمتا غريبا ! الوجوه الكئيبة لشياطين الشعر الإنجليزى . سيدات المجتمع الشاحبات المجهدات وهن يرتدين القمصان النسائية وحبات الخرز ، يوزعن الشاى ويضعن الكعك والفطائر للغافلـــين ! .

الوجوه الثعلبية

لفضلاء العصر الادواردى

وجوه الخيل تفيض بالسحر

بخيوط حبات الخرز

وصرة الحبوب

وذؤابة قرد تحت كل ذراع !

المجتمع ! دعنا نُعَقِّد الوجود الى نقطة العنت والشقاء ، حتى يفعل فعل المحذر فى مواجة الحقيقة . هذا ظلم ! ظلم ولكن ياعزيزى الحمار ، إن الكتاب الذى أفكر فيه يدخل فى باب الكتب المرغوبة التى تحقق لنا الشهرة والثراء . لو استطاع اليهود ، الآن ، أن يتمثلوا الأمر فقط ، فإنهم سوف يقدمون لنا قدوة ثمينة فى موضوع تحطيم التشدد والتزمت فى كل مكان .

إنهم ولا أصحاب امتياز النظام المغلق ، ورد الفعل الأخلاقى ! حتى محرمات طعامنا ونواهيه ، حول اللحم والدجاج ، تلك المحظورات المنافية للعقل مأخوذة كأنها نسخة من هراء كاهنهم المتحكم الكئيب . نعم ، نحن الفنانين لا تثير السياسة اهتمامنا ، لكنها القيم – تلك هى ميدان معركتنا ! إننا إن استطعنا

ذات مرة ، أن نفك أو نرخي القبضة الرهيبة لما تسمى مملكة السماء ، والتى أحالت الأرض الى مكان مشرب بالدماء ، فربما نعيد اكتشاف مفتاح بحث وتنقيب ميتا فيزيقى يحتويه الجنس ، هو عقلنا ورشدنا (*) هنا فى الأسفل فوق الأرض . لو أن النظام المغلق والموانع الأخلاقية للحق الإلهى تراخت قليلا ، فما الذى لم نكن نقدم على فعله ؟ " .

ماذا حقا ؟ إلا أن بلتازار الطيب كان يدخن تبغ لا كاديف فى كآبة ويهز رأسه الكث الأشعث .وفكرت فى تأوهات جوليت السوداء المخملية ، والتزمت الصمت . فكرت فى البراعم البيضاء الناعمة – واشكال الورد التى لم تتفتح بعد – والتى تزين قبور النساء المسلمات ! والوداعة المسترخية اللينة التى بلا طعم لعقول هاته الإناث . كلا إن سيرتى ، فى وضوح ركيكة سخيفة الى حد ما .

دعنا أيها الأخ الحمار ، نتتبع تقدم الفنان الأوربى بدءا من كونه الطفل اللغز أو المعضلة الى حالة تاريخية ، ومن الحالة التاريخية الى الطفل البَكّاء ، لقد حافظ على روح أوروبا حية بقدرته على أن يكون مخطئا ، بجبنه ونذالته المتواصلة- تلك هى مهمته ! طفل العالم الغربى البَكّاء . اتحدوا ياأطفال العالم البكاءين ! لكن دعنى أتعجل فأضيف ، إننى ملىء بالأمل ، خشية أن تكون تلك الأصوات ساخرة أو باعثة على اليأس . هنالك دوما ، وفى كل لحظة ، احتمال أن يتغير الفنان فيما أدعوه فقط بالإشارة الكبرى ! ومتى حدث ذلك ، فإنه يغدو ، فى الحال ، حرا يستمتع بدوره فى الاخصاب ، إلا أن ذلك لن يكتمل أبدا وبدقة كما يجب أن يكون مالم تقع المعجزة – معجـــزة كومنولث بورسواردن المثالـــى ! نعم، إننى أؤمن بهذه المعجزة . إن وجودنا ، كفنانين يؤكد ذلك ! إنها عملية القول بنعم لكل ما يتحدث عنه شاعر المدينة التليد ، فى شعر أراه لى ، مترجمـا ، ذات

(*) بالفرنسية فى الأصل .

مرة . إن حقيقة ميلاد الفنان تؤكد وتعيد تأكيد هذا فى كل جيل . المعجزة هنالك ، ترقد فوق الثلج ، كما يقال . إنها سوف تزهر وتتفتح ذات يوم جميل لطيف . وحيذئذ سوف ينمو الفنان فجأة ويتحمل تحملا كاملا مسئولية منبته من بين الناس ، وعندما يدرك الناس ، فى ذات الوقت ، أهميته الخاصة وقيمته ، يرحبون به كالطفل الذى لم يولد لهم من أرحامهم ، طفل الفرحة ! إننى لعلى ثقة من أنهم الآن كالمصارعين الذين يدورون ، فى عصبية ، حول بعضهم البعض ، يبحث كل منهم عن الكيفية التى يمسك بها الآخر . ولكن عندما تأتى المعجزة . اللحظة المضيئة ضياءً قويا يعشى الأبصار - فإنه حينئذ فقط سيكون فى وسعنا الاستغناء عن السلطة الكهنوتية كشكل اجتماعى . إن المجتمع الجديد - والذى هو مختلف للغاية عن كل مانستطيع تخيله الآن - سوف يولد حول المعبد الأبيض الصغير الدقيق لطفل الفرحة ! سوف يتحلق حوله الرجال والنساء ، إنه النمو البروتوبلازمى للقرية ، للمدينة ، للعاصمة ! لن يقف شىء فى طريق هذا الكومنولث المثالى ، بأستثناء أن زهو الفنان وكسله قد تطابق دوما ، فى كل جيل، مع عمى انغماس الناس فى ذواتهم ، ولكن عليكم أن تستعدوا ، استعدوا ! إنه فى الطريق ، إنه هنا ، إنه هناك ، إنه لايوجد فى أى مكان .

ستنهض مدارس الحب الكبرى ، وتوقف المعرفة الحسية والذهنية تَدافعهم فى بعضهم البعض . سيطلق سراح الحيوان البشرى وقد تطهر من كل تفاهاته الثقافية القذرة وكل غائطه الحفرى المتحجر الرافض للمعتقد واليقين . ستطأ الروح البشرية التى تشع ضياء وضحكا ، العشب الأخضر ، فى رقة راقص ، ستبزغ لتضاجع أشكال الزمن وتنجب أطفالا لما هو جوهرى للعالم - حوريات ماء وسمندر وجنيات وحراس كنوز وآلهة النار وتصنيع المعادن ، ملائكة وعفاريت.

نعم ، أن يمتد مدى الحسية الجسدية ليحتضن الرياضيات وعلم اللاهوت : ليغذى ، لا ليعيق ، النمو الطبيعى للفراسة وصدق الحدس . إن الثقافة تعنى الجنس ، وهو المعرفة الجذرية . لقد خرجت الملكة العقلية عن مسارها أو أصابها العجز ، وأقبلت مشتقاتها ، قزمية ملتوية - تمنحك بدلا من الرمزية الصوفية ، قرنبيطا يهوديا كالمرمون [1] أو النباتيين . وأطفال بكاعين بدلا من الفنانين ، وعلم تطور الكلمات بدلا من الفلسفة .

إن الطاقة الجنسية والطاقة الخلاقة تسيران يدا فى يد . إنهما تتحولان الواحدة منهما الى الأخرى - إن الشمس الجنسية والقمر الروحانى يديران حوارا أبديا . إنهما تمتطيان لولب الزمن معاً ، تحتضنان كل الدافع البشرى . إن الحقيقة لاتوجد إلا فى احشائنا فقط - حقيقة الزمن .

" إن الجماع هو أنشودة الدهماء والصعاليك ! ، نعم ، وهو أيضا جامعة الروح : إلا أنها جامعة لا يتبرع لها ، فى الوقت الراهن ، أحد - إنها بدون كتب أو حتى طلاب . كلا ، هنالك القليل منهم .

كم هو رائع صراع الموت عند لورنس : أن تدرك تماما طبيعته الجنسية ، أن تتحرر من قيود التوراة ، أن تتوهج عبر أجواز الفضاء كالرجل السمكة الأبيض الضخم المناضل ، آخر شهيد مسيحى . إن نضاله هو نضالنا - حتى ننقذ يسوع من موسى . إن هذا يبدو ممكنا لبرهة من الوقت ، إلا أن سان بول أعاد الميزان إلى ماكان عليه ، وأطبقت أغلال سجن اليهودية ، الى الأبد ، على الروح النامية . إنه رغم ذلك ، يخبرنا بوضوح فى "الرجل الذى مات " ، بما يجب أن يكون ، وما كان يجب أن تعنيه قيامة المسيح - الميلاد الحقيقى لرجل حـر . أين

(١) طائفة دينية أمريكية تجيز تعدد الزوجات - المترجم .

هو ؟ ماذا حل به هل سيأتى أبدا ؟ . إن روحى تنتفض بالفرحة وأنا أتأمل مدينة النور هذه ، والتى يمكن أن تقع فيها ، أمام أعيننا ، وفى أية لحظة ، حادثة جليلة ! هنا يمكن للفن أن يجد شكله الحقيقى ومكانه . هنا يمكن للفنان أن ينساب ، دون نزا ع أو جدال ، أو حتى دون محاولة ، كالنافورة . إننى أرى وبوضوح أكثر وأكثر أن الفن يشبه نوعا من تسميد الروح . ليس لى مأرب أو غرض ، أى يمكن القول ، لا مكان لعلم اللاهوت. إن تغذية الروح ، بتسميدها ، يعاونها فى العثور على منسوبها الخاص ، مثلها فى ذلك مثل الماء ، إن هذا المنسوب إنما هو طهر وبراءة أصيلة - من ذا الذى ابتدع ضلال الخطيئة الأصلية ، تلك البذاءة الدنسة للغرب ؟ الفن اشبه بمدلك ماهر فى أرض الملعب . إنه يقف هنالك دوما ليقدم العون إن وقعت إصابة . إنه يفعل مثلما يفعل المدلك تماما ، إن مواساته تهون توترات جهاز الروح العضلى - إنه ، من أجل ذلك ، يذهب دوما إلى الأماكن التى تثير الحزن ، يضغط بأصابعه فوق العضلات ذات العقد ، فوق الوتر الذى ابتلى بتشنج وقتى - الخطايا ، الضلالات ، النقاط التى تثير الكدر والإستياء ، والتى نتردد فى قبولها . إنه يكشفها برقته القاسية ، يحل عقد التوترات ، يحقق استرخاء الروح . يجب أن ينتمى الجزء الآخر من المهمة ، إن كان هنالك ثمة جزء آخر ، الى الدين . إن الفن هــو مجرد العامل المطهر ، إنه خادم القناعة الصــامتة. إنه أساسى فقط للحب والمرح ! إن هذه القناعات الغريبة سوف تجدها ، يأخى الحمار ، كامنة وراء فكاهاتى الحادة التهكمية ، والتى يمكن وصفها فى بساطة ، بالتطبيب التقنى . يقول بلتازار ، " إن الطبيب الجيد، وخاصة الطبيب النفسى ، يجعل الأمر عسيرا ، الى حد ما ، وعميقا حتى يبل المريض بصورة أكثر سهولة . أنت تفعل به ذلك حتى تتعرف إن كانت نفسه تتمتع بأى قدر حقيقى من التوثب ، إذ إن سر الإلتئام يكمن فى المريض وليس فى الطبيب . إن المعيار الوحيد هو رد الفعل ! "

لقد ولدت فى ظل كوكب المشترى ، بطل النموذج الكوميدى ! إن اشعارى اشبه بموسيقى ناعمة تغزو أحاسيس المحبين الشبان المتعبة ، والذين يُتركون بمفردهم أثناء الليل .... ماذا كنت أقول ؟ نعم ، إن أفضل ماتفعل مع الحقيقة الكبرى ، كما أكتشف "رابليه " ، هو أن تطمرها ً فى جبل من الحماقات حيث يمكنها أن تنتظر مستريحة معاول وكواريك الإختيار .

مابين اللانهاية والأبدية يمتد الحبل المشدود الرفيع الصلب الذى على البشر أن يسيروا فوقه ، وقد ضمت خصورهم معا ! لا تدع هذه الآراء غير المحببة تثير يأسك ، ياأخى الحمار . لقد كُتبت فى مرح خالص ، لاتشوبها أى رغبة فى التبشير . إننى حقا اكتب الى مستمع أعمى - ولكن ألسنا كلنا كذلك ؟ الأدب الجيد يستخدم الإشارة ، مثل مريض لايستطيع الكلام ، مثل طفل ! ولكن ان أنت لم تتبع الاتجـاه الذى يشير اليه ، وتلقيته ، بدلا من ذلك ، باعتبـاره شيئا فى ذاته ، له قيمة ما مطلقة ، أو باعتباره أطروحة عن شيء مايمكن شرحه وتأويله ، فإنك بالتأكيد تفقد الإشارة تفقد فى الحال نفسك بين تجريدات النقد المجدبة ؟ حاول أن تخبر نفسك أن مااستهدفه فى الأساس كان استدعاء منتهى الصمت الذى التأم - وأن الرمزية التى يشتمل عليها الشكل والنمط ، إنما هى إطار للإشارة يمكن من خلاله ، كما يحدث فى المرآة ، أن يمسك المرء بفكرة الكون فى وضع السكون ً، كون يهيم حبا بذاته . سوف « تستحلب الكون مع كل نفس تأخذه » ! مثلك فى ذلك مثل طفل محمول على الأذرع . يجب أن نتعلم قراءة مابين السطور، مابين الحيوات .

لقد اعتادت ليزا القول ، " إلا أن كمالها جعل المرء على يقين من أنها فى طريقها الى النهاية " كانت على حق . إلا أن النساء لن يقبلن بالزمان وماتمليه لحظة الموت الجليلة . إنهن لا يرين أن الحضارة إنما هى فى بساطة مجاز

واستعارة كبرى ، تصف ماتصبو اليه روح الفرد فى صورة مجمعة – ربما تفعل مايمكن أن تفعله الرواية أو القصيدة الشعرية ، إن الصراع يجرى دوما لتحقيق أحاسيس أكثر سموا . ولكن وأسفاه ! إن الحضارات تموت إن هى وعت ذاتها – إنها تدرك ، وهى تفقد قلبها ، أن الحافز غير الواعى للدفع الى الأمام لم يعد له وجود هنالك . إنها تبدأ محاولة يائسة لتقليد صورتها فى المرآة . ولاجدوى . إلا أنه من المؤكد وجود خدعة ما . الزمان هو الخدعة ! المكان فكرة محدودة ، إلا أن الزمان فكرة مجردة . إنك ترى ذلك بوضوح تام فى أثر جراح أنسجة قصيدة "بروست الكبرى « ، إن أعماله هى الأكاديمية العظمى للوعى بالزمان . ولما كان راغبا عن تجميع معنى الزمان ، فقد دُفع به للعودة الى الذاكرة ، سلف الأمل !

آه ، لقد كان يمتلك الأمل ، لكَونه يهوديا – ومع الأمل تجيء الرغبة التى لاتقاوم للتدخل فيما لا يعنيه . إننا السلتيين (١) نزامل الآن اليأس ، الذى ينمو ، فقط من خلاله الضحك والغرام المتهور للقنوط الأبدى . إننا نقتنص مالا يمكن إدراكه ، إن الأمر بالنسبة لنا هو فقط بحث لا ينتهى .

كانت عبارتى ، " مد الطفولة الى الفن " لا تعنى شيئا بالنسبة اليه . إن منصة القفز ، ياأخى الحمار، وارجوحة الترابيز تتواجدان شرق هذا الموقع بالضبط ! إنها قفزة واحدة عبر القبة الزرقاء تنقلك الى حال جديد – فقط عليك ألا تخطيء الحلقة ! لماذا ، مثلا ، لم يستطيعوا التعرف ، فى المسيح على الساخر الكبير الذى كانه الكوميديان ؟ إننى لعلى ثقة أن ثلثى السعادة إنما هى مزح ودعابات أو هجو وتقريع على طريقة " شوانج تزو" . إن أجيالا من معلمى أسرار الدين والمتحـذلقين قد فقدوا القدرة على الفهم . إننى واثق من ذلك ، على

---

(١) نسبة الى سكان غرب أوربا الأقدمين – المترجم .

أى حال ، اذ لابد أنه قد عرف أن الحقيقة تختفى عند القول بها . إنها من الممكن إيصالها ، لكنه لايمكن قولها بصورة مقررة . إن التهكم وحده هو سلاح تلك المهمة .

دعنا نقلب الأمر على وجه آخر . إنك أنت من تناول بالذكر ، منذ لحظة مضت، افتقارنا الى ملاحظة كل ذلك الذى يهم بعضنا البعض – حدود الرؤية ذاتها . لقد تكلمت فى شجاعة ! إلا أننا إن ترجمنا ذلك روحيا ، فإننا نجد أن هذا القول قد أضفى عليك صورة رجل يسير حول منزله ، بحثا عن عويناته ، الموجودة فوق جبهته . أن ترى إنما يعنى انك تتخيل . وماالذى يمكن ، ياأخى الحمار ، أن يكون أفضل تصويرا لذلك ، من طريقة رؤيتك لجوستين ، والتى أضاعتها ، بصورة متقطعة ، إيماءات خيال كهربية ؟ إنها بصورة واضحة ، ليست نفس المرأة التى شرّعت فى محاصرتى ، والتى أبعدّتها فى النهاية عنى ، ضحكاتى الساخرة المستهزئة . لماذا رأيت أنت فيها رقة وجاذبية ، بدت لى أنا خشونة محسوبة على نحو خاص ، لم يكن مارأيته أنت فيها من إبتداعها ، لكنه كان مما بعثته أنت فيها . كل تلك الثرثرة الصادرة من الحلق ، الضغط ، والإكراه لاظهار الهيستريا على السطح ، تذكرنى بمريض يخدش ملاءة ! إن الحاجة العنيفة لتجريم الحياة ، لشرح حالاتها الروحية ، تذكرنى بمتسول يستجدى الشفقة ، بعرض أحزانه عرضا جيدا . لقد كانت تدفعنى عقليا الى أن أخدش نفسى على الدوام ؟ ومع ذلك ، فقد كان بها الكثير الذى يثير الاعجاب . لقد غمست فضولى مستكشفا خطوط شخصيتها فى شىء من التعاطف – شقاء حقيقى ، رغم أنه كانت لها على الدوام رائحة طلاء ، زلق ! قصة الطفلة مثلا !

" لقد عثرت عليها بالطبع ، أو بالاحرى فعل منجميان ذلك . عثر عليها فى ماخور . ماتت من شىء ما ، ربما كان التهابا سحائيا . جاء دارلى ونسيم

ليبعدانى . أدركت فجأة أننى لا أستطيع احتمال العثور عليها . كنت طوال بحثى عنها أعيش على أمل العثور عليها . لكن ، ما أن مات هذا الشىء ، حتى بدا وكأن هذا الموت قد حرمنى فجأة من كل مقاصدى . لقد أدركت ذلك ، إلا أن عقلى الداخلى ظل يصرخ أن ماأدركته ليس حقيقيا ، رافضا أن يدعنى ادرك ماأدركت ، رغم أننى قد أدركت بوعى هذا الأمر بالفعل " . إن مزيج تلك العواطف المتضاربة كان مثيرا للاهتمام حتى أننى دونته فى كراسة مذكراتى على نحو يقع بين الشعر ووصفة صناعة خبز الملائكة التى حصلت عليها من العلاف . وترتيبها مجدولا كالآتى :

١ – الراحة عند نهاية البحث .

٢ – اليأس عند نهاية البحث . ليس هنالك من قوة دافعة فى الحياة إلى أبعد من ذلك .

٣ – الرعب عند الموت .

٤ – الراحة عند الموت . أى مستقبل متاح أمامها ؟

٥ – الخجل المكثف (لاتحاول فهم هذه العبارة) .

٦ – الرغبة المفاجئة فى استمرار البحث بلا جدوى حتى لا يُعترف بالحقيقة .

٧ – تفضيل الاستمرار فى تغذية آمال كاذبة .

إنها عملية تجميع مربكة لنتف تترك بين مقتطفات أدبية لشاعر مشرف على الموت ! ولكن هنا كانت تكمن النقطة التى أحاول الوصول إليها . لقد قالت . " لم يلحظ نسيم أو دارلى ، بالطبع ، أى شىء إن الرجال أغبياء إلى حد كبير . إنهم لا يلحظون البتة أى شىء . لقد كان فى مقدورى أن أنسى الأمر وأن أحلم حقيقة أننى لم أكتشف هذا الأمر أبدا . إلا أن هنالك منمجيان الراغب فى الجائزة

والمقتنع بحقيقة قضيته الى حد إثارة شغب هائل . لقد تحدث بلتازار عن تشريح الجثة لفحصها . وكنت انا حمقاء للغاية اذ ذهبت الى عيادته أعرض رشوته حتى يقول إن الطفلة ليست طفلتى – لقد أصابته الدهشة الى حد ما ، لقد أردت منه أن ينكر حقيقة ، أعرف أنها صدقها تماما . وذلك حتى لا يكون علىّ تغيير نظرتى ، أن أحرم ، إن شئت القول ، من حزنى وحسرتى . لقد أردت أن يدوم الأمر – يستمر بحثا شديد الحماس لما لم أكن أجرؤ على كشفه . لقد أثرت خوف نسيم وأوقعت الشك فى نفسه بالاعيبى المضحكة حول خزائنه الخاصة ، هكذا سار الأمر . اخذت أبحث ، مدة من الوقت طويلة ، بطريقة آلية ، حتى أستطيع وقف ضغط الحقيقة والوصول الى توائم معها . أن أرى الأمر فى وضوح تام ، أرى الديوان والمسكن " .

وهنا وضعت على وجهها أجمل تعبيراتها ، تعبير الحزن المكثف ، ووضعت راحتيها على نهديها . هل أخبرك بشىء ما ؟ لقد شككت فى كذبها. كان فكرة غير لائقة – لكننى شخص لا يستأهل شيئا .

أنا : " هل عدت الى المكان ، فى أى وقت من الأوقات ؟ "

هى : " كلا . لقد وددت ذلك كثيرا ، لكننى لم أجرؤ على الذهاب " . وارتعدت قليلا . " لقد غدت ذاكرتى مشدودة الى الديوان القديم . لابد أنها تتجول هنالك فى مكان ما . إننى مازلت ، كما ترى ، نصف مقتنعة بأن كل ماحدث إنما كان حلما " .

وتناولت للحال غليونى وكمانى ، غدوت كصائد الأيائل ، شرلوك حقيقى . كنت على الدوام الرجل الذى يحدد اللحظة . قلت فى خفة ونشاط " دعينا نذهب ، ونعيد زيارة المكان " . كنت أعتقد أن الزيارة سوف تكون ، فى أسوأ الحالات ، كالدواء المُسْهِل . لقد كان الاقتراح ، فى الحقيقة ، عمليا بصورة فائقة ، نهضت

فى الحال وارتدت معطفها . سرنا صامتين عبر الأطراف الغربية للمدينة ، وذراع كل منا فى ذراع الآخر .

كان هنالك احتفال ما يجرى فى المدينة العربية . كان يضوى بالأنوار الكهربية والأعلام. البحر سكن وسحب صغيرة مرتفعة وقمر أشبه بأرشمندريت (١) مستتكر لأى عقيدة أو إيمان . رائحة السمك ، حبات الحبهان والأحشاء المقلية المتبلة بالكمون – والثوم (*). الجو مشحون بضوضاء المندولين التى تخربش الليل بأرواحها الصغيرة ، كأنما ابتليت بالبراغيث – تخربش وتخربش بأرواحها حتى يظهر الدم فوق تلك الليلة المليئة بالقمل المخدر ! كان الهواء ثقيلا ، تخترقه الأنفاس بطريقة غير مرئية . إنك تحسه داخلا خارجا من رئتين كوسادتين من جلد . ! هو ! كل تلك الأضواء والضوضاء البشعة ، هكذا فكرت . ويتحدثون عن رومانسية الشرق ! أعطنى « المتروبول » فى « برايتون » ، فى أى يوم ! اجتزنا هذا المقطع الضوئى بخطى سريعة متعمدة . سارت فى خطى سديدة وقد أحنت رأسها غارقة فى أفكارها . أخذت الشوارع تظلم تدريجيا ، تشحب ألوانها الى الظلمة البنفسجية ، غدت أكثر ضيقا ، ملتوية منحنية . أخيرا بلغنا مكانا خاليا تنيره النجوم ، ومبنى كالثكنة كبير وقاتم. سارت الآن فى بطء ، غدت أقل يقينا تبحث عن باب . قالت همسا ، " المطراوى العجوز يعتنى بهذا المكان . إنه طريح الفراش . الباب مفتوح دائما ، إلا أنه وهو فى فراشه يسمع كل شيء . خذ بيدى" . لم أكن أبدا ممن يأكلون النار . يجب علىّ الاعتراف بأننى أحسست بالاضطراب الى حد ما ونحن نسير عبر هذه اللفافة من الظلام الدامس . كانت يدها راسخة باردة ، وصوتها حريص دقيق لا يشوبه أى قدر من التشديد ،

---

(١) رتبة كهنوتية – المترجم .

(*) بالعربية فى حروف لاتينية .

لا ينم عن أى إحساس بالاضطراب أو الخوف . أعتقد أننى سمعت صوت مروق فئران ضخمة فى البنيان العطن حولى . إنها عوارض الليلة ذاتها (حدث ذات مرة ، وهنالك عاصفة رعدية ، أن رأيت أجسادها اللامعـة تبرق هنـا وهنـاك وهـى فى وليمـة تتغذى على الفضلات) . " أرجوك ياالهى ، تذكر أننى ، رغم كونى شاعرا إنجليزيا ، فإننى لا استحق أن تأكلنى الفئران " ، هكذا صليت فى صمت . أخذنا نسير عبر دهليز طويل من الظلمة ، وألواح الخشب العطن تزيق تحتنا ، ألواح يفتقد أحدها هنا أو هناك . كنت اتساءل إن كنا لا نسير فوق الحفرة نفسها التى بلا قرار . كان الجو يفوح برائحة الرماد المبتل ورائحة اللحم الأسود وهو يعرق . إنها تختلف كثيرا عن الأجساد البيضاء . إنها رائحة كثيفة كريهة نتنة ، مثل قفص الأسود فى حديقة الحيوان . كان الظلام نفسه يتصبب عرقا . ولماذا لا ؟ يجب أن يرتدى الظلام جلد عطيل . ورغبت فجأة ، باعتبارى مرافقا فزعا هيابا ، أن أتوجه الى دورة المياه . إلا أننى سحقت الفكرة كما يسحق المرء خنفساء . دع مثانتى تنتظر . تقدمنا الى الأمام يحيط بنا حائطان من ظلام ، تغطى أرضيتهما الألواح العطنة . همست فجأة ، " أعتقد أننا قد وصلنا " . دفعت بابا لينفتح على قطعة أخرى من الظلام الأصم الذى لا يمكن اختراقه . كان حجرة محددة الحجم إذ كان الهواء باردا . كان فى إمكان المرء أن يحس بالمكان رغم أنه لايرى شيئا أياً كان . وأخذ كلانا شهيقا عميقا .

" حسنا " ، قالت همسا وهى تفكر فى تأمل . بحثت فى حقيبة يدها عن علبة الثقاب اشعلت أحدها مترددة . الحجرة طويلة مسقوفة بالظلام رغم الرفرفة الصفراء لشعلة الثقاب . كانت هنالك نافذة واحدة تسمح بدخول واه لضوء النجوم . الحوائط بلون صدأ النحاس والملاط ساقط فى كل مكان ، والزخرفة الوحيدة عليها بصمات أكف صغيرة زرقاء تتناثر على الجدران الأربعة

بطريقة عشوائية ، وكأن العديد من الأقزام الذين أصابهم جنون اللون الأزرق ، أخذوا يقفزون ، واقفين على أكفهم ، فوق الجدران ! إستكان الى اليسار، على بعد قليل من الوسط ، ديوان كبير كئيب ، يطفو فوق العتمة كنعش من نعوش الفايكنج . كان أثرا من مخلفات أحد الخفاء العثمانيين وقد طحن مرتين ، تخرمه الثقوب . انطفأ الثقاب . " هاك ، هو " ، قالت ذلك وهى تضع العلبة فى يدى وتترك جانبى. عندما اشعلت عودا آخر كانت تجلس الى جوار الديوان وقد أراحت وجنتها عليه وهى تربته فى رقة براحة يدها . كانت رابطة الجأش تماما ، تربت بلمسات شهوانية هادئة ثم مرت فوقه ببراثنها ، مما ذكرنى بلبؤة تجلس منفرجة الساقين تتناول وجبتها . كانت لحظة من التوتر الحبيس . إلا أن هذا لم ينعكس على وجهها (إن البشر يشبهون أرغن أنبوبى - ما أن تشد حاجزا موسوما بعلامة " المحب " أو " الأم " ، حتى تنثال العواطف المناسبة دون ضابط أو رابط - دموع وتنهدات، أو أصوات إعزاز وتحبب . أننى أحاول فى بعض الأحيان أن أجرب وأفكر فينا جميعا كأنماط سلوكية أكثر مما نكون بشرا . ألم تكن فكرة روح الفرد التى غرزها اليونان فينا ، يحكمها أمل عنيف فى أن يتم استيعابها ، بما لهامن جمال خالص ، أو كما نقول أن تفعل فعل التطعيم ؟ إن يكون فى وسعنا النماء الى حجم الفهم والإدراك ، وأن ننمى الشعلة السماوية فى قلب كل منا ؟ هل تم الاستيعاب أم لم يتم ؟ من ذا الذى فى وسعه قول ذلك ؟ إن البعض منا لايزال لديه هذه الفكرة ، ولكن كم تبدو بائدة منقرضة . ربما .....) .

" لقد سمعونا " .

كان هنالك ، فى مكان ما ، فى الظلام ، صوت دمدمة خافتة ، وامتلأ الصمت فجأة بوقع أقدام فوق أخشاب عطنة . ورأيت فى الرفرفة الخامدة للثقاب ، وكأن ذلك فى مكان ما بعيد للغاية ، حاجزا من ضوء - وكأن باب أتون بعيد يفتح فى

السماء . وجاءت أصوات ، أصوات نمل ! جاء الأطفال عبر كوة ما أو باب أرضى مسحور ، مصنوع من الظلام ، فى قمصان نومهن القطنية ، وهن مدهونات بطريقة سخيفة منافية للعقل ، وقد وضعن خواتم فى أصابع أيديهن وأجراسا فى اصابع أقدامهن ، وبذا تصاحب الموسيقى الواحدة منهن اينما ذهبت ! إحداهن تحمل طبقا يطفو فيه ضوء شمعى . كانت تصدر عنهن ولولة كالخنة وهن يتجهن نحونا يسألننا ، فى صراحة لافحة ، عن رغباتنا - إلا أنهن دهشن عندما رأين جوستين تجلس الى جوار نعش الفايكنج ووجهها (وهى تبتسم الآن) قد استدار نصف دورة نحوهن .

" أعتقد أنه يجب علينا أن نغادر " ، قلت فى صوت منخفض ، فقد كانت رائحتهن مخيفة ، تلك الأشباح الضئيلة ، والتى أخذت تبدى ميلا لبرم أذرعهن الجلدية حول خصرى ، بينما يتملقن وينغمن . إلا أن جوستين استدارت الى إحداهن وقالت ، " إحضرى الضوء هنا ، حيث نستطيع جميعا أن نرى . وعندما أُحضر الضوء ، أدارت نفسها فجأة ، ووضعت ساقيها متقاطعتين تحتها ، وأخذت تترنم فى تلك النبرة العالية ذات الجرس التى يتميز بها رواة القصص فى الشوارع : " الآن ، تجمعوا حولى . كلكن يامن باركك الله ، واستمعن الى عجائب القصة التى سوف أرويها لكن " . كان وقع الكلمات كمس الكهرباء . ! استقررن حولها كما تستقر أوراق شجر جافة فى ريح . تزاحمن مقتربات من بعضهن البعض ، بل إن البعض منهن تسلقن الديوان القديم ، وهن يضحكن ضحكات مكتومة ، يلكزن بعضهن البعض فى سعادة . وبدأت جوستين ، مرة أخرى ، فى نفس الصوت الثرى المنتصر ، فى صوت راوى القصص المحترف :" آه ، استمعن الىّ ، كلكن ايتها المؤمنات الحقيقيات ، وسوف اروى لكن قصة

عزيزة ويونس [1] وحبهما الكبير المورق ، والنكبات التى حلت بهما من أفعال «أبو على سرق المعزة) (*) كان ذلك فى زمن الخلافة العظيم ، عندما سقطت كثير من الرءوس وسارت كثير من الجيوش ..... "

كانت شعرا وحشيا حول الزمان والمكان - الدائرة الصغيرة للوجوه الذاوية ، الديوان، الضوء المتراخى ، والمطرب العربى الآسر ، على نحو غريب ، بما فيه من ثقل التصوير المزخرف - والنسيج المطرز للتكرار الجناسى الاستهلالى ، والنبرات التى لها رنة وخنة ، أضفت بهاء علمانيا جعل الدموع تطفر من عينى - دموع غزيرة ! كان ذلك غذاء دسما للروح ! وجعلنى ذلك أدرك كم كان القوت الذى قدمناه نحن المحدثين ، الى قرائنا ، هزيلا . الخطوط الملحمية التى تتسم بها قصتها ! أحسست أنى أغبطها . كم كانت تلك الصغيرات الشحاذات ثريات . كنت أيضا أحد المستمعين اليها ، وهى تتحدث عن العدالة المعطلة . كن غارقات فى شخوص قصتها مثل ثقالات من رصاص . كان فى وسع المرء أن يرى أرواحهن الحقيقية خارجة مثل الفئران ، تزحف خارجة من تلك الأقنعة المطلية فى تعبيرات دهشة دقيقة ، تعبيرات اثارة وفرحة . كن فى تلك الغبشة الصفراء تعبيرات تجسد الحقيقة الرهيبة . أنت ترى كيف يمكن أن يكن عندما يبلغن أواسط العمر - العرافة ، الزوجة الصالحة ، الثرثارة والسليطة . كان النظم الشعرى قد سلخهن حتى العظام ، ترك فقط أنفسهن الطبيعية لتزدهر هكذا فى تعبيرات صادقة أمينة تصور أرواحهن الضئيلة العاجزة .

---

(١) جاءت فى الأصل يونا وعزيز وأميل الى الاعتقاد بأنها عزيزة ويونس وأن المؤلف قد أنث يونس بيونا وذكّر عزيزة بعزيز - المترجم .

(*) عربية بحروف لاتينية

ماالذى كان فى مقدورى تقديمه من عون غير الإعجاب بها إذ منحتنى أكثر اللحظات دلالة وعمقا فى حياة الكاتب ؟ ووضعت ذراعى حول كتفها وجلست ذاهلا مستغرقا مثلى مثل أى واحـدة منهن ، أتتبع المنحنيات المتوجـة المتعرجـة للقصة الخالدة وهى تفضها أمام عينى .

كان من العسير عليهن تحمل فراقنا وقد بلغت القصة أخيرا نهايتها . تعلقن بها ، يتوسلن المزيد . قالت وهى تبتسم فى هدوء " لم يعد هنالك وقت ، إلا أننى ، ياصغيراتى سوف أحضر ثانية " . بالكاد تنبهن الى النقود التى كانت توزعها عليهن ، وقد تزاحمن وراءنا فى الممرات المظلمة حتى سواد الساحة . إلتفت الى الخلف عند أحد الأركان فلم أر غير ظلال ترفرف . قلن وداعاً فى أصوات تمزق عذوبتها نياط القلوب . سرنا فى صمت عميق تشملنا القناعة والرضا عبر المدينة المضعضعة المحطمة التى أفسدها الزمن حتى بلغنا واجهة البحر الرطبة . وقفنا لزمن طويل نستند الى الدعامات الحجرية الباردة فوق البحر ، ندخن ولا نقول شيئا ! أدارت ، أخيرا ، وجهها نحوى ، وقد ارتسم عليه إرهاق هائل ، وهمست ، " خذنى الآن الى المنزل . إننى أكاد أموت تعباً " . نادينا عربة حنطور كانت تتسكع . انطلقنا عبر الكورنيش فى رصانة رجال البنوك بعد مؤتمر ما . " أعتقد أننا جميعا نبحث عن أسرار النماء ! " ، كان ذلك كل ما قالته ونحن نفترق .

كانت ملاحظة غريبة تلك التى أبدتها عند الفراق . راقبتها وهى تسير متعبة تصعد الدرجات الى المنزل الكبير تتلمس مفتاحها . كنت مازلت ثملا بقصة يونس وعزيزة !

أخى الحمار ، إنه لما يؤسف له أنه لن تكون لديك الفرصة لقراءة كل هذا الهراء المطول الممل . إنه لما يطربنى أن أدرس تعبير وجهك الحائر المرتبك وأنت تفعل ذلك . لماذا يحاول الفنان دوما أن يتخم العالم بكربه الخاص . لقد سألتنى

أنت ذلك ذات مرة . لماذا حقا ؟ سوف أقدم لك عبارة أخرى : الغنغورية العاطفيـة (١) لقد كنت أنا ، على الدوام ، طيبا مع مبدعى العبارة المهذبة .

الوحدة تخلق الرغبة . وملك الذباب يقتنص الفرصة
تلك هى إمبراطورية الشر أعمق ما يباغت النفس
تعالى الى تلك الذراعين ياعزيزى الهولندى العجوز .
واحكم إغلاق الباب جيدا .
إننى لا استطيع ، ياعزيزى أن أحبك كثيرا جدا
أنا لا أحب .... أكثر !

فيما بعد ، بينما كنت أسير بلا هدف ، من الذى كان يمكن أن ألتقى به غير بومبال عائدا لتوه من الكازينو ، يترنح قليلا ، ومعه مبولة مليئة بأوراق نقدية ، وظمـأ عـارم لكأس أخيرة كبيـرة من الشـمبانيا ، التى كنـا نتنـاولهـا معا فى « الإيتوال » . كان غريبا اننى لم أكن راغبا ، فى تلك الليلة ، فى أى فتاة . كان يونس وعزيزة قد سدا الطريق أمامى ، على نحو ما . لقد همت ، بدلا من ذلك ، عائدا الى فندق " جبل النسر " ومعى زجاجة فى جيب معطفى لأواجه مرة أخرى سوء طالع صفحات كتابى ، التى سوف تغدو بعد عشرين عاما ، من الآن ، مصدرا لكثير من الجدل فيما بين الأشكال الدنيا من مدارسنا . لقد بدت كهدية ، هى نوع من الكوارث تقدم الى الأجيال التى لم تولد بعد . لقد كنت حريا أن أترك شيئا مثل يونس وعزيزة ، إلا أن ذلك لم يعد ممكنا ، منذ شوسر (٢) . ربما كانت سفسـطة المسـتمعين العلمانيين هى السبب ؟ إن فكـرة كل تلك الدنايا الصـغيرة

(١) أسلوب أدبى يتسم بالغموض والزخرفة اللفظية – المترجم .
(٢) شوسر جيوفر (١٣٤٠ – ١٤٠٠) شاعر انجليزى يعتبر أبرز الشعراء الإنجليز قبل شكسبير – المترجم .

الموجعة قد جعلتني أغلق دفتر مذكراتي في طرقات متتالية غاضبة . إن الشمبانيا ، على أي حال ، شراب رائع ملطف ، منعني من أن أكون غاية في الاكتئاب . ثم عثرت مصادفة على مذكرتك القصيرة والتي دفعت بها ، ياأخي الحمار ، من الباب ، مبكرا في المساء ، مذكرة تثني عليّ فيها بمناسبة سلسلة الأشعار الجديدة التي تصدرها « الأنفيل » (وبها خطأ مطبعي في كل سطر) . ولما كان الكُتاب هم ماجبلوا عليه ، فقد فكرت فيك برقة شديدة ، ورفعت كأسي في نخبك . لقد غدوت في عيني ناقدا يمتلك أنقى فراسة ، وسألت نفسي ثانية في نبرات ساخطة ، لماذا بحق الشيطان لم أضيع المزيد من الوقت معك ؟ كان ذلك ، حقيقة ، تراخيا مني . واعددت ، بينما أسقط نائما ، مذكرة ذهنية لاصطحبك الى العشاء في الأمسية القادمة ، واتحدث عن حماقات ماتنتجه رأسك – عن الكتابة بالطبع ، أو ماذا غير ذلك ؟ آه ! لكن تلك هي النقطة . ما أن يكون الكاتب مُقلا في حديثه ، وأنا أعرف ذلك ، صامتا كحداد ، حتى يتوجب عليّ أن أجلس واضعا راحتيّ في إبطيّ بينما تتكلم أنت !

إنني أرى في نومي مومياء ذات شفتين في لون الخشخاش ، ترتدي ملابس العرس البيضاء الطويلة ، مثل عرائس الحلوى العربية . إنها تبتسم ، لكنها لا تستيقظ ، رغم أني قبلتها وتحدثت إليها حديثا مقنعا . كانت عيناها مفتوحتين ، إلا أنهما أغلقتا ثانية ، وانزلقت الى الوراء في نوم باسم . همست باسمها الذي كان عزيزة ، والذي غدا ليزا بطريقة لا يمكن تعليلها . ولما لم تكن هنالك جدوى فقد طمرتها ثانية في الرمال المتحركة (حيث تتغير اشكال الرمال سريعا) وحيث لن يبقى لهذه البقعة من أثر . استيقظت مبكرا عند الفجر . أخذت عربة حنطور الى شاطيء رشدي حتى أتطهر في فجر البحر . لم يكن هنالك في ذاك الوقت من أحد حولي غير كليا ، على الشاطيء البعيد . في رداء استحمام

أزرق، وشعرها الرائع يتأرجح حولها مثل « بوتوسيلى » شقراء . لوحت لها فردت علىّ ملوحة ، إلا أنها لم تبد أى ميل للحضور والحديث مما جعلنى أشعر نحوها بالامتنان . رقدنا ، على بعد ألف ياردة من بعضنا البعض ، ندخن مبتلين مثل عجول البحر . وفكرت للحظة فى جسدها الصيفى البديع بلون البن المحروق ، وتلك الشعرات القليلة فوق فوديها وقد تحول لونها الى الرمادى . وأخذت استنشقها . بصورة مجازية ، مثل نفحة بن محمص ، أحلم بفخذيها الأبيضين وتلك العروق الزرقاء فيهما ! حسنا ، حسنا ... إنها قادرة على إثارة المتاعب مالم تكن بهذا الجمال . إن تلك النظرة المتألقة تفصح عن كل شىء ، وتفرض علىّ الاحتماء منها .

إن المرء ليكاد يسألها أن تعصب عينيها حتى يستطيع مضاجعتها ! ومع ذلك فإن هذا أشبه بارتداء الجورب الحريرى الأسود الذى يصر عليه بعض الرجال. هناك عبارتان تنتهيان باقتراح ! ماالذى يقدم عليه بورسواردن المسكين ؟

إن نثره قد أيقظ شبقا موجعا

بين الطبقات الوسطى

إن اقتراحاته قد نالها التنديد

باعتبارها خطرا على الجماهير

إن أعماله الكبرى قد صنفت

بين الغازات المهلكة

استيقظى ياانجلترا !

أيها الأخ الحمار ، إن مايسمى بعملية الحياة إنما هو فى الحقيقة خيال .

إن العالم الذى نصوره على الدوام باعتباره العالم الخارجى - إنما هو خاضع فقط للاستقصاء الذاتى ! إن مواجهة مثل تلك القسوة ، والتى هى تناقض ظاهرى ضرورى ، تفرض على الكاتب أن ينبت خياشيما وذيولا ، والأفضل له أن يسبح ضد تيارات الجهالة . ربما مايبدو فعل عنف جائر ، يكون نقيض ذلك . إذ عند استبدال هذه العملية بما هو ضدها ، على هذا النحو ، يتوحد المجرى المتدفق للانسانية فى ذروة الخمود والهمود وانعدام الطعم والرائحة ، الذروة التى اشتق منها الذروة ، اشتق منها جوهر دافعه وحافزه . (نعم ، إلا أنه من المؤلم أن يعرف !) . وإن كان عليه أن يتخلى عن دوره ، فإن كل أمل فى كسب موطء ارتكاز فوق سطح الحقيقة سوف يُفقد ، وكل شىء فى الطبيعة سوف يختفى ! إلا أن هذا الفعل الشعرى سيكف عن أن يكون ضروريا عندما يستطيع كل إمرىء أن يؤديه لنفسه . إننا نسأل ، ماالذى يمنعهم ؟ حسنا إننا جميعا خائفون، بالطبع ، من أن نستسلم لأخلاقنا المعلنة بطريقة تثير الشفقة ، والقفزة الشعرية التى أتحدث عنها ترقد فى الجانب الآخر منها . إنها مرعبة فقط لأننا نرفض التعرف على الوجوه المنحوتة الغريبة الرهيبة فى أنفسنا والتى تزين أعمدة الطوطم فى كنائسنا - قتلة ، كذبة ، زناة وهكذا . (إذ ما أن يتم التعرف عليها - حتى تتلاشى هذه الأقنعة المصنوعة من ورق خضار السلطة) . إن كل من يقدم على هذه القفزة الغامضة الى حقيقة الحياة الشعرية المنذرة المبشرة سوف يكتشف أن للحقيقة أخلاقها المشيدة فى داخلها ! ليس هناك من حاجة لارتداء قماط يفيد المرء أكثر من ذلك . أن الأخلاق فى داخل هذا النوع من غبش الحقيقة يمكن التغاضى عنها ، لأنها أمر يفترض العلم به ، إنها جزء من الشىء، وليست معوقا له ، ليست أمرا محظورا . إنها هناك كى يعيشها المرء ، وليست لمجرد التفكير والتأمل ! آه ، ياأخى الحمار ، سوف يبدو هذا ، كصرخة بعيدة

تستهدف مايشغل البال من " أدب خالص " يحدق بك : إلا أنك مالم تتعرض لهذا الركن من الحقل بمنجلك الصغير فإنك لن تحصد أبدا ذلك المحصول الذى فى داخلك ، وهكذا تنجز مهمتك الحقيقية ، هنا ، اسفل .

ولكن كيف ؟ إنك تسألنى فى حزن وشجن . أنت هنا تمسكنى من شعرى القصير ، إذ إن الشىء يحدث ، مع كل منا ، بطريقة مختلفة . إننى ، فقط أرى أنك لم تغدو يائسا بما يكفى ، مصمما بما يكفى ، أنت فى مكان ما ، من قلب الأشياء لاتزال كسول الروح . ومن ثم ، لماذا النضال ؟ إذ لو ألم بك شىء ، فإنه سـوف يلِّم من تلقاء نفسه . ربما تكون على صـواب تماما وأنت معلق هكذا ، تنتظـر. لقد كنت أنا متشـامخا للغاية . أحسسـت أنه يجب علىّ أن أمسك به من قرنيه ، أمسك بهذا السؤال الحيوى عن حقى المكتسب بحكم مولدى . كان الأمر بالنسـبة لى قائما على فعل تحـكمه الارادة . لذا فإننى أقول لمن هم على شاكلتى ، " اغتصب القفل عنوة ، اسحق الباب بقوة . واجه ، اعص ، إدحض الكهانة والوسيط الروحى ، تصبح الشاعر المقتحم المتحدى ! "

لكننى أعى أن هذه التجربة يمكن أن تحدث بأى شكل أو أسلوب ، إذ ربما تكون ، فى العالم الجسدى ، لطمة بين العينين ، أو سطور قليلة يخربشها قلم فوق ظهر غلاف خطاب متروك فى أحد المقاهى . إن الحقيقة المبشرة يمكن أن توجه ضربتها فى أية نقطة : من أعلى ، من أسفل ، إنها ليست شيئا ما له خصوصيته. إلا أنه بدونها يظل الإبهام قائما . ربما تسافر ، تتنقل ، حول العالم وتستوطن أطراف الأرض بسطورك ، لكنك أبدا لن تسمع بنفسك الشدو والغناء .

* * *

- ٣ -

وجدت نفسى أقرأ تلك الصفحات ، من كراسة مذكرات بورسواردن ، بكل ماتستحق من انتباه ومتعة ، دون أى تفكير فى " دفع تهمة ما " - إن استخدمت عبارة كليا . بدا لى ، على عكس ذلك ، أن ملاحظاته لم تكن تنقصها الدقة ، وأنه مهما وضع على صورتى من أسواط وعقارب ، فقد كانت مبررة تبريرا جيدا . بالإضافة إلى ذلك من المفيد والصحى أن يرى المرء صورته بهذه الصراحة الحراقة صادرة عن شخص يكن له الإعجاب ! إلا أننى ، اندهشت ، رغم ذلك ، إذ لم أحس حتى بأن احترامى لذاتى قد أصابته الجراح ، ليس فقط لأن عظامى لم تتكسر ، ولكن لأننى كنت فى بعض الأحيان أضحك عاليا من هجماته ونكاته ووجدت نفسى أخاطبه هامسا ، كأنه موجود أمامى بالفعل ، يقول ، أكثر مما يكتب ، تلك الحقائق الذاتية البغيضة . قلت هامسا ، " ياابن الزنا ، فقط انتظر قليلاً . وكأننى استطيع يوما ما أن أصفى الحساب معه ، وأريح النقاط . لقد كان أمرا شاقا أن أرفع رأسى وأدرك فجأة أنه قد خطا بالفعل وراء الحجب ، يندفع فى كل مكان ، بهذا المزيج الغريب من القوة والضعف الذى شكل شخصيته الغامضة .

" ماالذى يضحكك ؟ " قال تلفورد ، وهو يتشوق دوما إلى المشاركة فى تبادل النكات والمزح التى تتسق والفطنة المكتبية التى يحتاجها محتضر فى النزع الأخير .

" كراسة مذكرات " .

كان تلفورد رجلا ضخما يرتدى ملابس رديئة التفصيل ، ورباط عنق به نقط زرقاء . كان جلد بشرته مليئا بالبقع . إنه من ذلك النوع الذى يتمزق بسهولة تحت حد الموسى ، ولذا فقد كانت هنالك على الدوام باقات قطن ملتصقة بذقنه أو بأذنه ، لوقف نزيف جرح ما . كان على الدوام كثير الكلام ، ينفجر بالخطأ الذى يصدر عن طيبة قلب وسذاجة ،(*) ، مما يعطى انطباعا بأنه فى صراع دائم مع طاقم أسنانه الصناعية ، سيىء التثبيت . كان يغرغر مثل ديك رومى ، يشهق ، يعض فوق موانع سائبة ، أو يبتلع حنكا لينا طريا ، يشهق مثل سمكة وهو ينطق مزحة أو يضحك على نكاته مثل رجل يمتطى لعبة هزاز - العظام ، والجزء العلوى من أسنانه يضرب إلى أعلى وإلى أسفل فوق لثته . كان يصرخ ، " إننى أقول إن ذلك كان لذيذا ، أيها الثمرة العتيقة " . كما أننى لم أجد فيه زميل عمل كريه فى حجرة المكتب التى كنا نتشاركها فى الرقابة ، إذ لم يكن العمل محكما ، وكان هو، باعتباره قديما ، مستعدا على الدوام لتقديم النصح أو المساعدة . كما كنت استمتع أيضا باصراره وعناده وهو يعود الى قصصه عن " الأيام الخالية " الأسطورية ، عندما كان هو " ليتل تومى تلفورد " ، تلك الشخصية عظيمة الأهمية، والتى تلى ، مباشرة ، فى الرتبة والقوة ، ما سكيلين العظيم ، رئيسنا الحالى ، كان يشير إليه دوما " بالبريج [1] ، قائلا فى وضوح تام ، أن الإدارة التى كانت ، يوما ما ، " المكتب العربى " ، قد رأت أياما أفضل . لقد خفضت ، فى الحقيقة ، مرتبتها إلى مجرد إدارة للرقابة تتعامل مع جزر ومد المراسلات المدنية فى الشرق الأوسط . دور حقير إن قورن بـ " التجسس " والتى نطقها فى أربعة مقاطع لفظية متفرقة .

(*) بالفرنسية فى الأصل .

(١) اختصار بريجادير - المترجم .

كانت قصص المجد القديم ، والذى تلاشى الآن بعيدا عن الأذهان ، تشكل جزءاً من « الدورة الهوميروسية » ، إن جاز القول ، لحياة المكتب . إنها تتلى فى كآبة خلال فترات تختطف من العمل ، أو فيما بعد الظهر ، عندما تقع بعض المصائب الصغيرة ، عندما تجعل مروحة مكسورة الوجود ، فى مثل تلك الأبنية عديمة الهواء ، مستحيلا . إنه تلفورد الذى عرفت منه بذلك الصراع الطويل القاتل بين بورسواردن وماسكيلين - صراع استمر ، على نحو ما ، على مستوى آخر ، بين البريجادير الصامت وماونت أوليف ، إذ إن ماسكيلين كان يتلهف مستيئسا على الانضمام ثانية الى فوجه وطرح بذته المدنية . كانت تلك الرغبة معطلة . كان ماونت أوليف ، كما شرح تلفورد فى تنهدات لافحة (وهو يلوح بيدين مشققتين قصيرتين سمينتين محشوتين بتجمعات عروق عنقودية زرقاء أشبه بالبرقوق فى كعكة) ، قد تقدم الى " مكتب الحرب " ، وأقنعهم ألا يشجعوا ماسكيلين على الاستقالة . يجب أن أقول أن البريجادير ، والذى كنت أراه مرتين فى الأسبوع ، لم يكن يترك انطباعابالأمتعاض أو الغضب العابس ، لحبسه فى إدارة مدنية ، بينما يجرى الكثير فى الصحراء ، وإن كان أى جندى منتظم ، لابد أن يفعل ذلك . قال تلفورد فى صراحة ، " عندما تأتى الحرب ، هنالك كما ترى ، فرص للترقية ، أيها الشيء العتيق ، فرص عديدة . إن من حق البريج أن يفكر فى مستقبله المهنى مثل أى إنسان آخر . إن الأمر مختلف بالنسبة لنا ، لقد ولدنا ، إن جاز القول ، مدنيين " . لقد قضى هو نفسه العديد من السنوات فى تلك الحرفة الجارية فى الشرق الأدنى ، مقيما فى أماكن مثل زانت وباتراس ، إن أسباب مجيئة مبهمة . ربما وجد أن الحياة تلائمه فى مستعمرة بريطانية أكبر . كانت السيدة تلفورد بطة صغيرة سمينة تستخدم أحمر شفاه بنفسجيا زاهيا ، وترتدى قبعات أشبه بوسائد الدبابيس . كانت تبدو وكأنها تعيش فى انتظار

دعوة للسـفارة بمناسبة عيد مولد الملك " إن «مافيس» تحب عملها الرسمى المحدود ، إنها تحبه بالفعل ") .

قال تلفورد ، إنه وإن كانت الحرب الإدارية مع ماونت أوليف خالية تماما من أى نصر ، فإن هنالك مايعزى ، ومايُمكن البريج من استخراج متعة مدروسة : إذ أن ماونت أوليف يقيم فى نفس القارب . إن هذا القول قد جعله (تلفورد) " يشخر ضاحكا " وهى عبارة متميزة كثيرا ماكان يستخدمها ، ويبدو أن ماونت أوليف لم يكن أقل لهفة على ترك منصبه . كان قد طالب ، حقيقة ، مرات عدة بنقله من مصر . الا أن الحرب بسياستها ، لسوء الحظ ، تدخلت ، على أى حال ، " لتجميد الشخصيات ، وأرسل كنيلورث ، والذى ليس للسفير بصديق ، لتنفيذ سياسته . وأن كان البريجادير قد دبس فى مكانه بمكائد ماونت أوليف ، فإن المستشار الشخصى الذى عين حديثا قد دبس ماونت أوليف أيضا ، فى مكانه – ثبت فى مكانه " من أجل البقاء والدوام " . ودعك تلفورد راحتيه الدهنيتين ، بينما يروى لى كل هذا . قال ، " إنها عضة العضاض . وإن سألتنى فإن البريج سوف يستطيع الافلات فى وقت أسرع من سير دافيد . استمع الى ما أقول ، أيها الثمرة العتيقة " إن إيماءة واحدة تتسم بالوقار كانت تكفى لإرضائه باعتبار أن ماقاله قد وُضع فى الحسبان .

كان تلفورد وماسكيلين مرتبطين بنوع غريب من الرباط . كان يأسرنى الجندى المتوحد المنزوى كالمقطع الوحيد للكلمة ، والتاجر المتنقل المندفع فى إظهار مشاعره – ماالذى يمكن أن يكون مشتركا فيما بينهما ؟ (إن اسميهما ، بالتحديد، فى جدول الخدمة يوحى بفريق موسيقى داخل قاعة ، أو بشركة تجارية لحانوتية محترفين) . ومع ذلك فإننى أعتقد أن الرباط كان رباط إعجاب . كان تلفورد يتصرف فى حضور رئيسه باقدام ودهشة ، يثير حوله ، وهو قلق ،

جلبة لا داعى لها ، يتحرق شوقا انتظارا لأوامره ، وأن يحظى منه بكلمة مديح أو ثناء . كانت كلماته المثقلة باللعاب . " نعم سيدى « كلا سيدى » ، تندفع بقوة من بين طاقم أسنانه الصناعية بنفس الطريقة المنتظمة الخالية من كل حس التى يصدر بها صوت الوقواق من الساعة . ومن الغريب حقا ، إنه لم يكن هنالك أى إدعاء فى هذا التملق الذليل . كان فى الحقيقة شيئا ماأشبه برابطة غرامية إدارية ، إذ حتى لو كان ماسكيلين غائبا فإن تلفورد يتحدث عنه بأكبر قدر من التوقير والتبجيل ، سيادة البطل الأعمق تفكيرا - خليط متساو من الإعجاب الاجتماعى برتبته واحترام عميق لشخصيته وسداد رأيه . لقد حاولت من باب الفضول أن أرى ماسكيلين بعينى زميلى ، إلا أننى فشلت فى رؤية أكثر من مجرد جندى كئيب حسن التربية ، محدود القدرات ، تمسك به ، تثقله ، هموم لهجة مدرسية عامة . ومع ذلك فإن .. " البريج سيد مدقق حقا " . كان تلفورد يقول فى عاطفة عارمة الى حد تكاد تطفر فيها الدموع من عينيه . " إن البريج العجوز مستقيم مثل حبل مشدود ، لا ينحنى لفعل أى شىء دون مستواه " . ربما كان ذلك حقيقيا ، إلا أن هذا ، رغم ذلك ، ماكان ليجعل رئيسنا شخصية بارعة رائعة فى عينىّ .

كان تلفورد قد انتقى العديد من الواجبات الخدمية التى يقوم بانجازها لبطله، مثال ذلك . شراء الجريدة الأسبوعية العتيقة " دايلى تلجراف " ، ووضعها كل صباح فوق مكتب الرجل العظيم . كان يلتزم بمشية غريبة متكلفة عندما يجتاز الباب المصقول لغرفة مكتب ماسكيلين الخالية (حيث كنا نأتى مبكرين الى العمل) يكاد يكون خائفا من أن يترك آثار أقدامه خلفه . كان لابد أن يتسلل عبر الحجرة الى المكتب . كانت الرقة التى يطوى بها الجريدة ، ويجرى بها أصابعه فوق الثنيات قبل أن يضعها باحترام فوق النشافة الخضراء ، تذكرنى بامرأة تمسك بقميص زوجها المنشى حديث الكى .

لم يكن البريجادير نفسه غير راغب فى قبول ثقل مثل هذا الاعجاب الصادق الصريح . إننى اتخيل عددا قليلا من الناس هم مَن فى وسعهم مقاومة ذلك . كنت فى البداية أحس الحيرة من حقيقة أنه كان يزورنا مرة أو مرتين فى الأسبوع . كان من الواضح أنه ليس هنالك ، فى ذهنه ، من مسألة خاصة . كان يسير فى بطء جيئة وذهابا بين مكتبينا ، يطلق أحيانا ، فى تبسط مزحة حافلة بالألوان الرمادية - مشيرا الى مُتلَقى هذه المزحه بتوجيه عنق غليونه اليه ، فى إيماءة تكاد تكون خجلا . ورغم ذلك ، فإن وجهه الداكن البشرة الشبيه بكلب سلوقى ، كان خلال هذه الزيارات ، بما فيه من تغضن الجلد أسفل العينين ، لا يغير تعبيره ابدا ، كذلك كان صوته لايفقد البتة نغماته المدروسة طبقا لكل معنى . فى البداية، كما أقول ، كان هذا المظهر يحيرنى بعض الشىء ، إذ إن ماسكيلين كان أى شىء غير نفس حلوة المعشر . كان نادرا مايستطيع الحديث عن أى شىء غير العمل الذى يجرى انجازه ، ثم تبينت ، ذات مرة ، فى ذلك الشخص البطىء المتكلف الذى يسير بين مكتبينا ، آثار دلال عن غير قصد - ذكرنى بالطريقة التى يفرد بها الطاووس ذيله الكبير الأشبه بمروحة مرصعة بالعيون ، أمام الأنثى، أو الطريقة التى تدور بها المانيكان فى تصميم هندسى لتظهر الملابس التى ترتديها . حقيقة لقد جاء ماسكيلين ليحظى ، فى بساطة ، بالاعجاب ، ليشيع كنوز شخصيته وتربيته أمام تلفورد . هل كان من الممكن أن يمده هذا النصر السهل بيقين ماداخلى كان يفتقده ؟ كان من العسير الإجابة على ذلك . إلا أنه كان يستدفىء فى أعماقه بما فى عينى زميله الواسعتين من إعجاب . إننى لعلى ثقة أن ذلك كان يحدث عن غير قصد - هذه الإيماءة الصادرة عن رجل متفرد نحو المعجب الوحيد به ، بكل قلبه ، والذى لم يخرج بغيره حتى الآن من هذا العالم . لم يكن فى وسعه ، من جانبه هو ، على أى حال ، إلا أن يلتقى والتربية

القائمة على التلطف والتفضل التى تعلمها . كان ، فى أعماقه ، يضع تلفورد فى موضع الإزدراء ، لأنه لم يكن سيدا . كان يمكن سماعه وهو يقول متنهدا " تلفورد المسكين " ، عندما يكون بعيدا عن اسماع الآخرين ، " تلفورد البائس " . كان الرثاء الذى يتسم به صوته يوحى بالاشفاق على شخص ما يستحق الشفقة ، وإن كان شخصا غير مُلهَم الى حد يدعو الى اليأس . هؤلاء ، إذن ، كانوا خلانى خلال كل هذا الصيف الأول المرهق ، ولم تكن رفقتهم تطرح أية مشكلة فى مواجهتى . كان العمل بالنسبة لى مريحا لايثير أى قلق ذهنى وكان منصبى متواضعا لا يفرض علىّ أى التزامات اجتماعية . لم تكن تتزاور خارج المكتب . كان تلفورد يسكن فى مكان ما بالقرب من رشدى ، فى فيللا صغيرة فى الضواحى بعيدا عن وسط المدينة ، بينما نادرا ماكان يغادر ماسكيلين حجرته الهزيلة فى أعلى طابق بفندق سيسيل . إننى ماأن أتحرر من المكتب حتى أنساه تماما ، وأستأنف ثانية حياة المدينة أو مابقى منها .

كانت العلاقة الجديدة بكليا لاتثير أية مشاكل ، ربما لأننا تجنبنا ، عن قصد ، توصيف هذه العلاقة بصورة قاطعة . تركناها تتبع منحنيات طبيعتها الخاصة ، حتى تستكمل تصميمها الخاص . لم أكن ، مثلا ، أقيم دوما فى شقتها – إذ أنها عندما تعمل فى احدى الصور ، كانت تحتاج الى أيام قليلة تحقق لها توحدها وعزلتها لتتمكن من الإمساك بموضوعاتها . كانت تلك الخلوات المتقطعة ، والتى تمتد فى بعض الأحيان الى اسبوع أو أكثر ، تزيد من حدة العاطفة وتنعشها دون أن تضير بها . كنا ، على أى حال ، نلتقى فى بعض الأحيان مصادفة ، فنستأنف ، بلا ضعف ، علاقتنا المعلقة قبل أن تنتهى الأيام الثلاثة أو الأسبوع المتفق عليه ! لم يكن ذلك سهلا علينا .

كنت اقع عليها ، فى بعض الأمسيات ، شاردة جالسة بمفردها فى الشرفة

الخشبية الصغيرة الملونة لمقهى " بودروت " ، تحملق فى الفراغ ، وأمامها ترقد مجموعة رسومها التخطيطية دون فتحها . كانت تجلس هنا أشبه بأرنب برى ، وقد نسيت أن تزيل من شفتيها ذلك الشارب الدقيق من قشدة قهوتها الفينواز ! كانت مثل اللحظات تفرض عليّ كل تحكم فى ذاتى حتى لاأثب على السور الخشبى وأضع ذراعىّ حولها ، كم كان فعل هذه اللمسة يبدو مفعما بالحيوية وهو يومض فى ذاكرتها ، كم كانت تبدو كالأطفال ساكنة هادئة . ما أن تنهض صورة كليا المحبة الوفية المتقدة أمام ناظرى ، حتى يبدو لى فى الحال ، ان الانفصال عنها أمر لايطاق . وربما ، على عكس ذلك ، أحس فجأة (وأنا جالس أقرأ فوق مقعد فى حديقة عامة) بيدين باردتين تضغطان فوق عينىّ ، فاستدير فجأة لأعانقها واستنشق ثانية عبير جسدها عبر فستانها الصيفى الرقيق .. وفى أوقات أخرى ، غالبا فى اللحظات التى أفكر بالفعل فيها ، فإنها تدخل شقتى بما يشبه المعجزة وهى تقول ، " لقد أحسست أنك تدعونى للمجىء " ، أو " لقد أحسست فجأة أننى فى أشد الحاجة إليك " . كان لهذه المصادفات عذوبة حادة لاهثة ، تشعل فجأة شوقنا لبعضنا البعض . كان الأمر وكأننا قد بعدنا عن بعضنا سنوات لا أيام .

كان هذا التحكم فى الذات وتخطيط التباعد عن بعضنا البعض يشعل شرارة إعجاب بومبال ، والذى كان أيسر عليه أن يصعد إلى القمر من ممارسة نفس الأسلوب مع فوسكا . كان يبدو فى الصباح وكأنه يستيقظ واسمها على شفتيه . كان أول مايفعل هو الاتصال بها هاتفيا ، فى قلق ، للاطمئنان عليها – وكأن غيابها قد عرضها لأخطار رهيبة مجهولة . كان يومه الرسمى بما فيه من واجبات متنوعة ، كربا وعذابا . كان يهرع الى المنزل يتغدى حتى يراها ثانية . يجب أن أقول ، بكل حق وعدل ، إن ارتباطه هذا كان مشاركة كاملة ، إذ كانت علاقتهما

فى نقائها أشبه بتلك التى بين اثنين من كبار السن المتقاعدين ، من أرباب المعاشات . وإن حدث واحتجز الى ساعة متأخرة فى عشاء رسمى ، فإنها كانت تغرق فى حمى الخشية واحتمال الشر . (" كلا ، ليس إخلاصه مايشغل بالى ، إنها سلامته . إنه يسوق السيارة فى إهمال ، كما تعرف ") .

ولعب القصف الليلى للميناء ، لحسن الحظ دورا فى النشاطات الاجتماعية ، يكاد يكون حظرا للتجوال . كان من الممكن أن يقضيا معا كل ليلة تقريبا ، يلعبان الشطرنج أو الورق ، أو يقرآن فى صوت مرتفع . كانت فوسكا ، كما عرفتها ، مفكرة متأملة ، تكاد تكون امرأة شابة قوية ، تفتقد المرح . الى حد ما ، إلا أنها مجردة من الإعجاب بذاتها ، والذى كنت ميالا الى اتصافها به طبقا لوصف بومبال لها عندما التقينا أول مرة . كان لها وجه صارم سريع التأثر ، توحى تجعيداته المبكرة أنها تتميز بتجاربها كلاجئة . لم تكن تضحك أبدا فى صوت مرتفع ، وكان لابتسامتها لمسة حزن تنعكس عليها . لكنها كانت حكيمة عاقلة ، لديها دوما إجابة جاهزة صادرة عن تفكير وإمعان ، وذات مغزى ومضمون - كانت من نوع " الروح " التى يعتبرها الفرنسيون ، عن حق ، شيئا نفيسا فى المرأة . وجعل اقترابها من نهاية حملها بومبال يبدو أكثر فطنة وحبا وهياما - كان يتصرف حقيقة ، على نحو ما ، أشبه بالسرور والرضا بالطفل . أم هل كان يحاول ، فى بساطة ، الايحاء بأن الطفل طفله : كمظهر يقدمه للعالم حوله والذى يمكن أن يفكر فيه باعتباره " خصيا عديم الرجوله ؟ " . لم يكن فى وسعى أن أقرر . كان ، فى الصيف ، فيما بعد الظهر ، يبحر فى الميناء بسفينته الصغيرة، بينما تجلس فوسكا فى المؤخرة تضع يدا واحدة بيضاء فى البحر . كانت تغنى له ، فى بعض الأحيان ، فى صوت رقيق يشبه حقا صوت الطائر . كان ذلك

يطربه ، فتكتسى ملامحه بتعبير أب الأسرة البورجوازى (*) الطيب بينما يدق باصابعه الميزان الموسيقى . كانا يفضلان الجلوس فى الليل الى رقعة الشطرنج، بعيدا عن القصف الجوى - وهو اختيار فريد بصورة ما . إلا أنه ما أن تؤدى الضوضاء الجهنمية للمدافع إلى اصابته بصداع عصبى حتى يضع فى أذنيه سدادتين أعدهما بمهارة من الطرفين الراشحين لسيجارتين . وهكذا كان فى مقدورهما الجلوس مركزين فى صمت ! .

إلا أنه حدث مرة أو مرتين أن خيمت على هذا الانسجام السلامى أحداث خارجيه أثارت الهواجس والتى يمكن إدراكها تماما فى إطار علاقة كانت مبهمة الى حد كبير - أعنى علاقة كثيرا ما بحثت وحللت دون ممارستها . لقد وجدته يسير ذات يوم فى جلباب النوم وخف فى قدميه ، يبدو مكروبا بصورة مريبة ، بل حتى عيناه كانتا محمرتين قليلا . آه ، دارلى " ، تنهد بطريقة عاصفة وهو يسقط من كرسى النقرس ، يمسك بلحيته بين أصابعه كأنه يوشك أن يقتلعها كلها . " لن نفهمهن أبدا . النساء ! ياله من حظ سيىء ، أو ربما لا أكون غير مجرد غبى . فوسكا ! زوجها ! " .

" هل قتل ؟ " ، سألته .

هز بومبال رأسه فى حزن ، " كلا ، لقد أخذ أسيرا وأرسل الى ألمانيا " .

" حسنا ، ولماذا إذن هذه الجلبة " .

" إننى خجل ، ذاك كل مافى الأمر . لم أكن أعرف بالأمر تمام المعرفة ، ولا هى أيضا ، حتى جاءت هذه الأنباء . لقد كنا حقا نتوقع مقتله . بالطبع كان ذلك شعورا لا إراديا . والآن تفيض هى بازدرائها لذاتها . لقد قامت خطة حياتنا كلها ، دون وعى منا ، على أن يختار هو تسلم نفسه ، إن ذلك أمر فظيع . كان

(*) بالفرنسية فى الأصل .

موته سيمنحنا حريتنـــا ، إلا أن المشكلة برمتها قد أجلت لســنوات ، وربمــا الـــى الأبد ......"

كان يبدو حائرا تماما ، يُرَوِح لنفسه بإحدى الجرائد ، يتحدث همسا ، " إن الأمور تأخذ أكثر الإنحناءات غرابة ، استمر أخيرا " ، إذ إن فوسكا التى كانت قادرة على الاعتراف له بأمانة بالحقيقة بينما كان فى الجبهة ، لن تقدر البتة على فعل ذلك وهو أسير . لقد تركتها وهى تبكى . لقد تأجل كل شىء حتى نهاية الحرب " .

كان يجلس محملقا فىّ ، يطحن أسنانه الخلفية معا . كان من الصعب معرفة ماذا علىّ أن أقول حتى أواسيه .

" لماذا لا تكتب اليه ، تخبره بالأمر ؟ " .

" هذا مستحيل . من القسوة الشديدة أن تفعل ذلك والطفل قادم ؟ حتى أنا بومبال ما كنت لأرغب فى أن تفعل مثل هذه الفعلة . أبدا . لقد وجدتها تبكى ، ياصديقى ، وهى ممسكة بالبرقية . قالت فى نبرات تتسم بالغم والكرب ، " أوه ، جورجس جاستون ، إننى لأحس للمرة الأولى بخجلى من حبى ، وقد أدركت أننا كنا نتمنى موته أكثر من وقوعه أسيرا على هذا النحو » . ربما بدا الأمر لك معقدا ، إلا أن مشاعرها رقيقة للغاية ، إحساسها بالشرف والكبرياء وهكذا . ثم حدث شىء غريب . كان ألمنا مشتركا حتى أننى ، وأنا أحاول التسرية عنها ، انزلقت وبدأنا نمارس الجنس بطريقة حقيقية دون أن نلحظ ذلك . إنها صورة غريبة ، كما أنها ليست بالعملية السهلة . وعندما استعدنا انفسنا بدأت فى العويل ثانية وقالت « الآن ، ولأول مرة ، أحس أننى أكرهك ياجورجس جاستون ، لأن حبنا الآن قد غدا على نفس مستوى أى حب آخر . لقد جعلناه رخيصا ، بخس الثمن » إن النساء دوما يحملنك الخطأ على نحو ما . كانت السعادة

تغمرنى وقد استطعت أخيرا ... ثم أغرقتنى كلماتها فى اليأس فاندفعت بعيدا . إننى لم أرها حتى الآن منذ خمس ساعات . ربما كان ذلك هو نهاية كل شىء . آه ، ربما يمكن أن يكون بداية لشىء يسندنا ، على الأقل ، حتى نرى المشكلة كلها ضوء النهار " .

" ربما كانت غبية للغاية " .

وأصابت الدهشة بومبال . " كيف يمكنك قول هذا ! إن كل ذلك إنما يصدر عن جمال روحها الرائعة . هذا هو كل مافى الأمر . ولاتزد شقائى بقولك أشياء سخيفة عن امرأة بهذا القدر من الرقة . " .

" حسنا ، اتصل بها هاتفيا " .

" إن هاتفها لا يعمل . آى ! إن ذلك أسوأ من ألم الأسنان . لقد كنت أعبث ، لأول مرة فى حياتى ، بفكرة الانتحار . إن ذلك يبين لك النقطة التى وصلت أنا إليها " .

إلا أن الباب فتح من تلك اللحظة ، وخطت فوسكا الى داخل الغرفة . كانت تبكى هى أيضا . وتوقفت فجأة فى وقار غريب وبسطت يديها لبومبال الذى أطلق صرخة فرح مدمدمة لا تبين معالمها ، وخطا عبر الغرفة فى جلباب نومه ليعانقها فى انفعال شديد . ثم شدها الى طوق ذراعه وسارا معا فى بطء ، عبر الممر ، الى غرفته ، وأغلقا الباب وراءهما .

رأيته ، فيما بعد ، فى المساء ، آتيا نحوى عبر شارع فؤاد وهو مشع متلألىء « هورا ! » ، صرخ وهو يلقى بقبعته المرتفعة غالية الثمن فى الهواء . " أخيرا ، هانذا ! " (*) .

(*) بالفرنسية فى الأصل .

ورسمت القبعة فى الهواء قطعا مخروطيا كبيرا ، ثم استقرت وسط الطريق ، حيث مرت عليها للحال ثلاث سيارات فى تتابع سريع . شبك بومبال راحتيه معا وقد أشرق كأنما منحه المنظر فرحة كبرى . ثم أدار وجهه ، الأشبه بالقمر امتلاء واستدارة ، نحو السماء ، كأنما يبحث عن إشارة أو نذير . وما أن غدوت بجانبه حتى أمسك بيدى وقال ، " يالمنطق النساء القدسى ! حقا ، ليس هنالك من شيء، فوق الأرض ، أروع من إمرأة تفكر فى مشاعرها . إننى أهيم بها حبا . أهيم بها حبا .. إن حبنا ... فوسكا ! إنه كامل الآن . إننى غاية فى العجب والدهشة . اننى مندهش حقا . ماكان فى وسعى أن أفكر فى الأمر بهذه الدقة . استمع ، إنها ماكانت تضع نفسها موضع تخدع فيه الرجل الذى كان معرضا كل ساعة لخطر الموت . حقا . لكن الأمر اختلف الآن وهو فى أمان خلف القضبان . إننا أحرار فى أن نكون على سجيتنا . إننا ، بالطبع ، لن نسبب له مايسيء اليه باخباره بالأمر . إننا ، فى بساطة ، سوف نعاون أنفسنا على الخروج من الكرار ، كما اعتاد بورسواردن القول . أليس ذلك رائعا ياصديقى العزيز ؟ إن فوسكا ملاك " .

إنها تبدو إمرأة رغم كل شيء » .

« إمرأة ! إن الكلمة بكل مافيها من روعة لاتكاد تفى روحا مثل روحها » .

وأنفجر فى ضحك كالصهيل . لكزنى فى مودة فى كتفى . سرنا معا اسفل الشارع الطويل . " إننى ذاهب الى بيير انتونى لأبتاع لها هدية ثمينة ... أنا الذى لم أعط أية هدايا لأى امرأة أبدا ، أبدا فى حياتى كلها . كان ذلك يبدو لى ، على الدوام ، أمرا سخيفا . لقد رأيت ذات مرة فيلما عن طائر النجوين فى موسم التزاوج . كان ذكر البنجوين ، والذى لا يوجد شبيه للرجل ، أكثر بعثا على الضحك ، منه ، يجمع الأحجار ويصفها أمام السيدة التى اختارها وهو يتقدم

اليها بعرض الزواج . لابد أن يظهر بمظهر من يعرف قدرها . والآن أتصرف أنا كما يتصرف ذكر البنجوين . لاتبالى بما أقول ، لاتبالى . إن قصتنا الآن لا يمكن أن تكون إلا قصة ذات خاتمة سعيدة " .

كلمات تنبىء عن الغيب استعدتها كثيرا منذ ذلك الحدث ، إذ إنه فى غضون شهور قليلة غدت فوسكا مجرد مشكلة ولا أكثر .

★ ★ ★

- ٤ -

مرت فترة من الزمن طويلة لم اسمع فيها شيئا عن شقيقة بورسواردن ، رغم معرفتي بوجودها في المفوضية الصيفية . أما ماونت أوليف فقد كانت زياراته تسجل في مفكرات المكتب ، حتى أنني عرفت أنه يحضر من القاهرة كل عشرة أيام ليقضي ليلة واحدة . وتوقعت ، لفترة ما ، إشارة منه أو رسالة ، إلا أنه مع مرور الوقت ثقيلا ، نسيت ، كما من المرجح أن يكون هو قد نسي وجودي أيضا . ثم جاء صوتها يسبح طافيا عبر هاتف المكتب ، مقتحما على غير توقع - كان مفاجأة في عالم تقل فيه المفاجآت ، كما أنها تقابل بالترحيب . كان صوتا مجردا من الجسد بصورة غريبة . كان يمكن أن يكون صوت مراهق حائر يقول: "أعتقد أنك قد سمعت عني . إنني أود الحديث باعتبارك صديقا لأخي " . وقد وصفت هي الدعوة للعشاء في مساء اليوم التالي باعتبارها دعوة " خاصة وغير رسمية " ، مما أوحى اليّ بأن ماونت أوليف شخصيا سوف يكون حاضرا . استثار ذلك فيّ فضولا غير عادي وأنا أسير عبر الممشى الطويل وماحوله من أسوار اشجار البقس ، وعبر أيكة أشجار الصنوبر الصغيرة التي تحيط بمقر الإقامة الصيفي . كانت ليلة حارة انعدم فيها الهواء - كما يجب أن تنبىء بذلك تجمعات رياح الخماسين ، في مكان مافي الصحراء ، والتي سوف تكر بسحب ترابها على شوارع المدينة وميادينها مثل أعمدة من دخان . إلا أن هواء الليلة ، حتى الآن ، كان لايزال قاسيا صافيا .

دققت الجرس مرتين دون مجيب . كنت قد بدأت التفكير فى أنه عاطل عن العمل عندما سمعت خطى سريعة ناعمة فى الداخل . فتح الباب ، وهنالك كانت تقف ليزا وعلى وجهها العزيز تعبير رغبة انتصرت . وجدتها ، من النظرة الأولى جميلة للغاية وإن كانت قصيرة القامة قليلا . كانت ترتدى رداء من نسيج ناعم غامق ذى ياقة عريضة للغاية ، تنهض منها رقبتها ورأسها وكأنهما التويج يخرج من الزهرة . وقفت أمامى وقد رفعت رأسها الى أعلى ، نحو الأمام - يحيط بها جو شجاعة طيفية - كأنها تقدم رقبتها الجميلة الى جلاد غير مرئى . ما أن نطقت اسمى حتى إبتسمت وأومأت . رددته مرة أخرى فى همسة متوترة مثل خيط مشدود . " شكرا لكرمك أن جئت أخيراً ، قالت ، وكأنها كانت تنتظر زيارتى لأعوام مضت ! أضافت فى سرعة عندما خطوت متقدما ، " أرجو أن تغفر لى إن أنا ... إنها وسيلتى الوحيدة للتعرف » . أحسست فجأة بأصابعها الملساء الدافئة تتحرك فى سرعة فوق وجهى وكأنها تتهجى معالمه . إنتابنى اضطراب غريب مثير ، هو مزيج من الحسية والاشمئزاز ، بينما تلك الأصابع الخبيرة تجوس فوق وجنتىّ وشفتىَ . كانت راحتاها صغيرتين جميلتين ، الأصابع تنقل انطباعا بالرقة غير عادى . بدت كأنها تستدير قليلا عند اطرافها لتقدم باطنها الأبيض ، الى العالم، أشبه بقرون الاستشعار . لقد رأيت ذات مرة لاعب بيان عالمى مشهور له مثل تلك الأصابع تماما ، إنها حساسة إلى حد أنها تبدو وكأنها تنمو ما أن تلمس مفاتيح البيان . تنهدت تنهيدة قصيرة ، كأنما تعبر عن ارتياحها . أخذتنى من خصرى وهى تجذبنى عبر البهو وفى حجرة المعيشة بأثاثها الرسمى الثمين الذى بلا معالم ، حيث كان يقف ماونت أوليف أمام المدفأة ، يحيط به جو من الاهتمام المضطرب . كان هنالك ، فى مكان ما ، مذياع تصدر عنه موسيقى ناعمة . تصافحنا ، فأحسست فى قبضته بشىء ما متردد غير حاسم توافق معه صوته

الشارد وهو يعتذر عن صمته الطويل . قال بطريقة أقرب الى الغموض ، " كان عليّ أن أنتظر حتى تصبح ليزا على استعداد " .

لقد تغير ماونت أوليف كثيرا ، رغم أنه لايزال يحمل كل دلائل الكياسة الظاهرية اللازمة لعمله – كانت ملابسه منتقاه بطريقة شديدة التأنق – إذ حتى التبسط فى التجرد من الملابس لايزال (كما أعتقد عابسا) زياً للدبلوماسى . كان لطفه القديم وفطنته لايزالان كما كانا ، ومع ذلك فقد تقدم به العمر ، اذ لاحظت أنه الآن فى حاجة الى عوينات للقراءة ، كانت ترقد هنالك فوق نسخة من جريدة " التيمس " الى جوار الأريكة . كان قد أطلق شاربه ولم يشذبه مما غير شكل فمه ، مؤكدا وهناً رقيقاً معينا فى ملامحه بسبب تربيته . بدا أنه من غير الممكن تخيله ، فى أى وقت من الأوقات ، وقد وقع فى قبضة عاطفة قوية الى الحد الذى يجعله قادرا على تكييف ردود الفعل المثالية التى تعلمها والتى لها هذا القدر من الاكتمال . كما لم يكن فى وسعى الآن ، وأنا أنقل البصر منه اليها ، أن أصدق الهواجس والظنون التى جاهرت بها كليا من حبه لهذه الضريره الغريبة ، التى تجلس الآن فوق الأريكة كفيفة تحملق فىّ وقد طوت يديها فى حجرها – هاتان اليدان الجشعتان الشحيحتان الأشبه بيدى الموسيقار . هل لفت نفسها مثل حية صغيرة بغيضة فى قلب حياته المسالمة ؟ تقبلت شرابا من أصابعه . ذكرنى دفء ابتسامته بأنى كنت أحبه وأعجب به ، ومازلت كذلك .

" لقد كان كلانا فى شوق لرؤيتك ، وليزا على وجه الخصوص ، إذ أحسست أنك ربما تكون قادرا على مساعدتها . إلا أننا سوف نتحدث فى كل ذلك فيما بعد " . وتحول فى نعومة هادئة مفاجئة عن الموضوع الحقيقى لزيارتى ، ليستفسر إن كانت وظيفتى تروق لى ، وإن كنت أنا سعيدا بها . إه استبدال الموضوع بمداعبتين تتسمان بالمجاملة ، تثيران إجابتين مناسبتين لهما . ورغم

ذلك ، برقت هنا وهناك معلومة جديدة . " كانت ليزا مصممة تمام التصميم على بقائك هنا ، وهكذا اجتهدنا فى تدبير هذا البقاء ! ." لماذا ؟ كان علىّ ، فى بساطة ، أن أخضع لما تريد من اسئلة وأجوبة عن أخيها ، الذى لا أكاد أزعم ، فى الحقيقة ، معرفته . والذى يبدو لى كل يوم ، أكثر فأكثر غموضا – أقل أهمية كشخصية ، وأكثر فأكثر كفنان ؟ كان من الواضح أنه يجب على الانتظار حتى تفصح عما فى عقلها . ومع ذلك فقد كانت إضاعة الوقت عبثا – فى تبادل الحديث فى مسائل سطحية – أمرا محيرا .

لكن الذى ساد هو تلك الأمور غير الرسمية ، واصابتنى الدهشة إذ إن الفتاة ذاتها لم تقل شيئا – ولا كلمة واحدة . جلست هنالك فوق الأريكة ، فى رقة ويقظة كأنما هى جالسة فوق سحابة . كانت تضع ، كما لاحظت ، وشاحا مخمليا حول رقبتها ، وخطر لى أن شحوب لونها ، والذى صدم كليا كثيرا جدا ، إنما يرجع الى أنها لاتستطيع أن تصلح من شأنها وتزوق نفسها أمام المرآة . إلا أن كليا كانت محقة فيما قالته حول فمها ، إذ استطعت مرة أو أثنتين أن أمسك بتعبير قاطع ساخر ، هو صورة طبق الأصل من أخيها .

أدخل خادم العشاء فوق عربة . كنا لانزال نتبادل أحاديث قصيرة ، فجلسنا لنأكل . كانت ليزا تأكل فى سرعة ، كأنها جائعة ، دون الوقوع فى خطأ ، من الطبق الذى أعده ماونت أوليف لها . لاحظت أن أصابعها المعبرة ارتعشت قليلا عندما طالت كأس نبيذها . نهض ماونت أوليف أخيرا ، عندما انتهى العشاء ، فى جو من يفسح المجال بطريقة لا تكاد تكون خافية . " سوف أدعك بمفردك حتى تتحدث فى الأعمال مع ليزا . إن علىّ أن أقوم ببعض الأعمال هذا المساء فى مكتب الاستقبال . سوف تعذرنى لذلك . أليس كذلك ؟ " . ورأيت للحظة ظل تقطيبة إشفاق ترتسم على وجه ليزا ، إلا أنها سرعان مااختفت تقريبا ، وحل

محلها تعبير يوحى بشىء مابين اليأس والاستسلام . كانت أصابعها تنتش ذؤابة الوسادة بطريقة موحية رقيقة . كانت لاتزال تجلس صامتة عندما أغلق الباب خلفه ، إلا أنها غدت الآن ساكنة بطريقة غير عادية ، وقد تدلت رأسها الى أسفل، كأنها تحاول فك شفرة رسالة مكتوبة في راحة يدها . أخيرا تكلمت فى صوت بارد دقيق ، ناطقة الكلمات بطريقة حادة كأنما تسعى الى أن تكون واضحة المعنى .

" لم يكن لدى أدنى فكرة عن صعوبة شرح الأمر لك عندما فكرت فى أن أطلب العون منك والمساعدة . هذا الكتاب ...." .

تلا ذلك صمت طويل . قطرات عرق قليلة رشحت فوق شفتها العليا وصدغيها، كأنها كانت هنالك يتحكم فيها ضغط ما . أحسست نحوها بالتعاطف لحزنها . قلت . لا أستطيع ادعاء معرفته معرفة جيدة ، رغم إننى كثيرا ما التقيت به . إننى ، فى الحقيقة ، لا أعتقد أننا قد أحببنا بعضنا البعض كثيراً.

قالت فى نفاد صبر وحدة ، تزيح ما أعانيه من غموض والتباس ، " لقد فكرت، فى الأساس ، أن أقنعك بكتابة كتاب عنه ، إلا أننى أرى الآن أنه لابد لك وأن تعرف كل شىء . ليس يسيرا أن أعرف من أين أبدأ . إننى أشك إن كانت حقائق حياته يمكن كتابتها ونشرها . إلا أننى مدفوعة للتفكير فى الأمر ، أولا لأن ناشريه يصرون على ذلك – يقولون أن هنالك طلبا عاما كبيرا على ذلك ، إلا أن مايدفعنى أكثر من أى شىء ، هو ذلك الكتاب الذى يكتبه أو كتبه هذا الصحفى الدنىء ، كيتس "

كيتس " ، رددت مندهشا .

" إننى أعتقد أنه هنا ، فى مكان ما ، إلا أننى لا أعرفه . لقد أغرته زوجة أخى بالفكرة . إنها كما تعرف ، تكرهه بعد أن اكتشفت الأمر . إنها تعتقد ،

أننى وأخى ، فيما بيننا ، قد دمرنا حياتها . إننى حقيقة ، أخشاها ، إننى لا أدرى ماالذى قالته لكيتس ، أو ما الذى سوف يكتبه . إننى أرى الآن أن فكرتى الأساسية فى إحضارك الى هنا كانت لكتابة كتاب يمكن أن ... يوارى الحقيقة ، بصورة ما . لقد أصبح ذلك الأمر واضحا لىّ الآن بعد أن التقيت بك . سوف يؤلمنى، بطريقة تجل عن الوصف ، إن هو نشر شيئا يسىء الى ذكرى أخى " .

سمعت دمدمة الرعد ، فى مكان ما ، ناحية الشرق . وقفت وقد ألّم بها الفزع. عبرَت الحجرة ، بعد لحظة تردد ، الى البيان الكبير . ضربت أحد أوتاره . صفقت الغطاء ثم استدارت الىّ ثانية قائلة ، " إننى أخاف الرعد . أرجو أن تسمح لى أن أمسك يدك بقوة " . كانت يدها باردة برودة الموت . هزت شعرها الأسود الى الوراء . قالت ،. " لقد كنا ، كما تعرف ، عاشقين . ذلك هو المعنى الحقيقى لقصتى وقصته . حاول قصم هذه العلاقة . قام زواجه على هذه الفكرة. ربما لم يكن أمانة منه ألا يخبرها بالحقيقة قبل أن يتزوجها . إن الأمور تقع بطريقة غريبة ، لقد استمتعنا سنوات عديدة بسعادة حقيقية ، أنا وهو . إن النهاية المأساوية لذلك ، فى اعتقادى ، ليست خطأ أى أحد . لم يستطع تحرير نفســه من قبضتى عليه فى داخله ، رغم أنه حاول ذلك وناضل من أجل تحقيقه . أنا لم أســتطع تحرير نفسى منــه ، رغم أننى حقيقة لم أرغب البتة فى ذلك حتى .... جاء اليوم الذى تنبأ هو به منذ سنوات عديدة سابقة ، عندما جاء الرجل الذى كان يدعوه دوما " بالغريب الأسمر " . كان يراه فى وضوح تام وهو يحملق فى النار . كان دافيد ماونت أوليف . ومرت فترة من الزمن لم أخبره خلالها أننى وقعت فى الحب المقدر لى (لم يسمح دافيد لى بذلك . كان الشخص الوحيد الذى أخبرناه هى والدة نسيم . لقد أستأذننى دافيد فى ذلك) . إلا أن أخى عرف بالأمر بدقة تامة ، وكتب الىّ بعد فترة طويلة من الصمت يسألنى إن

كان الغريب قد جاء . وعندما تسلم خطابى بدا أنه قد أدرك فجأة أن علاقتنا يمكن أن تتعرض للخطر أو تتحطم على نفس المنوال الذى حل بعلاقته بزوجته – ليس لأى شيء فعلناه ، كلا ، ولكن بسبب الحقيقة البسيطة ، حقيقة وجودى . لذا أقدم على الانتحار . لقد شرح لى كل ذلك فى وضوح تام فى خطابه الأخير . فى وسـعى أن أتلوه عن ظهر قلب . قال ، " لقد انتظرت خطابك ، فى توقع كئيب ، لأعوام عديدة . كثيرا ماكتبته لك فى مخيلتى أُرْقى كل كلمة فيه بكلمة سحرية . كنت أعرف أنك وأنت فى سعادتك سوف تستديرين الىّ لتعبرى عن امتنان عاطفى لما أعطيتك – لتعليمك معنى الحب كله من خلالى : حتى إن جاء الغريب تكونين على استعداد لذلك .... واليوم جاءت تلك الرسالة التى انتظرتها طويلا ، تقول أنه قد قرأ الخطابات ، وعندما قرأت أنا السطور عرفت ، لأول مرة ، إحساسا لا يوصف بالراحة ، كذا بالفرحة – التى لم أحلم أبدا أن أعيشها فى حياتى – أن أفكر فيك وقد انغمست فجأة فى ثراء الحياة ، لم تعودى بعد مقيدة ، تشدك أصفاد صورة أخيك المعذب ! لقد انهالت الدعوات من شفتىّ تباركك . لكننى أحسست حينئذ ، وبالتدريج ، بعد أن إرتفعت السحابة وتلاشت ، بمدى ثقل حقيقة أخرى ، حقيقة لم تكن فى الحسبان ، وماكان يمكن البتة توقعها . الخوف من أنه طالما ظللت أنا حيا ، موجودا فى مكان ما من العالم ، فإنك سوف تجدين أنه من الصعوبة حقا الفرار من الأغلال التى أحطتك بها فى قسوة طوال كل هذه السنوات . ما أن حل بى هذا الخوف حتى برد الدم فى عروقى – إذ إننى أعرف حقيقة أنه لابد أن أقدم شيئا ما أكثر تحديدا ، إن كان عليك أن تتخلى عنى وأن تبدأى الحياة . يجب أن أهجرك حقا . أزيح نفسى من على المسرح حقا ، بطريقة لا تسمح بأى غموض فى قلبينا المترنحين . نعم لقد توقعت الفرحة ، لكننى لم أتوقع أنها سوف تحمل معها مثل ذلك التعبير الواضح

للموت المؤكد . لقد كان هذا تجديدا هائلا ! ومع ذلك فإنه سوف يكون أكمل عطية يمكن أن أقدمها إليك كهدية زواج ! إنك لو نظرت فيما وراء الألم الآتى ، فسوف ترين كم يبدو منطـق الحب مكتملا عنـد المرء الذى هو على استعداد للموت من أجله " .

نشجت نشجة واضحة قصيرة وتدلت رأسها . تناولت المنديل من جيب صدر سترتى وضغطته الى شفتها المرتعشة . أحسست أنى مذهول ضائع الرشد تحت ثقل هذه المعلومات الحزينة المفجعة . أحسست وأنا أعانى الألم مشفقا على بورسواردن ، أن معرفة جديدة به قد أخذت تنمو فى داخلى ، إستنارة جديدة ، وهكذا غدت أشياء عديدة أكثر وضوحا . ورغم ذلك لم أجد من كلمات المواساة أو الرثاء مايمكن أن يوفى بحق مثل هذه الحالة المأساوية . إنها تتكلم مرة أخرى .

" سوف أعطيك الخطابات الخاصة لتقرأها حتى يمكنك تقديم النصح لى . إن هذه الخطابات هى التى ليس لى أن أفتحها ، علىّ أن أحفظها حتى يجىء دافيد. كان عليه أن يقرأها لى ثم نتلفهـا معـا – أو هـكذا قال . كان غريبـا – الخطابات العادية قرئت لى بالطريقة المعتادة ، إلا أن هذه الخطابات الخاصة ، وهى عديدة للغاية ، ثقبت كلها بدبوس فى القمة عند الركن الأيسر ، حتى أستطيع التعرف عليها وصفها جانبا . إنها فى تلك الحقيبة هناك . إننى أود أن تأخذها معك وتدرسها . أوه ، دارلى ، إنك لم تقل ولا كلمة واحدة . هل أنت على استعداد لمساعدتى فى هذا الوضع البشع ؟ كم أود لو كان فى وسعى قراءة ماعلى وجهك من تعبير " .

" سأعاونك بالطبع . ولكن كيف ، وبأى معنى ؟ " .

" انصحنى ، ماذا أفعل ! ماكنت لأثير شيئا من هذا لولا تدخل هذا الصحفى الدنىء ولقائه بزوجته " .

" هل عين أخوك وصيا أدبيا ؟ "

" نعم ، إننى الوصية المنفذة " .

" إذن ، فلك الحق في رفض السماح بنشر أى من أعماله غير المباعة ، بينما مازالت فى حدود حقوق المؤلف . إننى لا أستطيع أن أرى بالاضافة إلى ذلك ، كيف يمكن اعلان هذه الحقائق على الملأ دون إذن منك ، حتى فى حدود تاريخ حياته الشخصية دون أن يكون هنالك تفويض بذلك . ليس هنالك من داع ، أيا كان ، لقلقك . لا يوجد كاتب مدرك يمكن أن يلمس تلك المادة ، ولا يوجد فى العالم ناشر يقوم بالطبع ، إن فعل الكاتب ذلك . إننى أعتقد أن أفضل مافى وسعى فعله هو محاولة اكتشاف أى شىء عن كتاب كيتس هذا . ومن ثم ، تستطيعين على الأقل معرفة أين تقف " .

" شكراً لك يادارلى . إننى لم أستطع التقدم الى كيتس بنفسى لأننى أعرف أنه يعمل معها . إننى أكرهها وأخشاها – ربما ظلما . كما أننى أحس باساءتى اليها دون رغبة منى . لقد كان خطأ مؤسفا من جانبه أنه لم يخبرها قبل زواجها . أعتقد أنه أيضا قد أدرك ذلك ، إذ أصر على ألا أكرر نفس الخطأ عندما ظهر دافيد . ومن ثم جاءت الخطابات الخاصة التى لا تترك مجالا للشك . ومع ذلك ، وقعت الأمور تماما كما خطط لها ، كما تنبأ لها . لقد اصطحبت دافيد ، فى ذات الليلة الأولى ، التى أخبرته فيها ، إلى المنزل مباشرة ليقرأها . جلسنا فوق السجادة أمام مدفأة الغاز ، وقرأها لى واحدا بعد واحد ، فى ذلك الصوت الذى لا يمكن أن يخطئه المرء – صوت الغريب " .

ابتسمت ، عند تلك الذكرى ، ابتسامة عمياء غريبة . ظهر أمامى فجأة ماونت أوليف فى صورة عاطفية ، وهو يجلس أمام النار يقرأ لها هذه الرسائل فى صوت بطىء متهدج ، وقد أذهلته رؤية دوره فى هذا القناع السحرى ، والذى

خُطط له منذ سنوات سابقة ، دون علمه . جلست ليزا الى جانبى غارقة فى تفكير عميق وقد تدلى رأسها . كانت شفتاها تتحركان فى بطء وكأنها تتهجى شيئا ما فى داخل عقلها ، تتابع تلاوة داخلية ما . هززت يدها فى رقة كأنما أوقظهـا . " « يجب أن أغادر الآن » ، قلت فى رقة ، « ولماذا علىّ أن أرى أصلا هذه الخطابات الخاصة ؟ ليس هنالك من حاجة الى ذلك " .

" إننى أطلب منك ، وقد عرفت الآن الأسوأ والأحسن ، أن تنصحنى فيما يخص موضوع إتلافها . لقد كانت تلك هى رغبته . إلا أن دافيد يعتقد أنها تنتمى الى كتاباته ، وأنه يقع علينا واجب الحفاظ عليها . عليك إذن أن تخبرنى إن كنت ترغب فى الحفاظ عليها أم لا . إنها كلها هنالك فى الحقيبة . هنالك شذره أو أخرى يمكنك المعاونة فى تحريرها إن كان لديك وقت لذلك أو إن ترى ذلك مناسبا . لقد كان يثير دوما حيرتى ، ماعدا وقت أن كنت آخذه بين ذراعى » .

وعبر وجهها تعبير مفاجىء يعكس غضبا وحشيا ، كأنما قد نخستها فجأة ذكرى كريهة . مرت بلسانها فوق شفتيها الجافتين . أضافت ، بينما نقف معا، فى صوت أجش قصير : « هنالك شىء آخر . أما وقد غُصْت فى حياتنا فلماذا لا تنظر الى القاع مباشرة ؟ إننى احتفظ بهذه دوما بالقرب منى " . ثم مالت حتى بلغت أسفل ردائها حيث أخرجت صورة ناولتها لى . كانت باهته متغضنة . صورة طفلة صغيرة ذات شعر طويل فى شرائط ، وقد جلست فوق مقعد فى منتزه ، تحملق فى اكتئاب ، تبتسم لآلة التصوير إبتسامة فطنة بينما تمسك فى يدها عصا بيضاء . استغرق الأمر منى لحظة أو مايقرب منها للتعرف على خطوط الفم والأنف التى تثير الحيرة باعتبارها ملامح بورسواردن ذاته ولإدراك أن البنت الصغيرة كانت عمياء .

« هل تراها ؟ " . قالت ليزا فى همسة تهز العواطف ، تصدم الأعصاب بما

فيـها من توتر غريب ، ومزيج من الوحشية والمرارة والعذاب المنتصر . " هل تراها ؟ لقد كانت طفلتنا . لقد سيطر عليه ، بعد أن ماتت ، شعور بالتأنيب والتبكيت ، بعد أن كان هذا الوضع يعود علينا فيما قبل بلا شىء غير الفرحة . لقد أحاله موتها الى مذنب آثم . هنا تعثرت علاقتنا ، إلا أنها غدت ، رغم ذلك ، أكثر كثافة وأكثر قربا . كنا مرتبطين معا بجريرتنا منذ تلك اللحظة . لقد تساءلت كثيرا ، لماذا يجب أن يكون الأمر على هذا النحو . سعادة هائلة لا تنقطع ثم ... نغدو ، ذات يوم مذنبين ، مثل سقوط ضلفة شباك حديدية " .

سقطت الكلمة مثل نجم هابط ، ثم تلاشت فى الصمت . وأخذت هى هذا الأثر الأكثر تعاسة من كل المخلفات الأثرية وضغطته فى راحتيها الباردتين .

قلت . " سآخذ الخطابات " .

قالت وقد بدت مرهقة ذاهلة ، " شكرا . لقد عرفت أن لنا فيك صديقا . سوف أعتمد على عونك لى " .

سمعت بينما أغلق الباب الأمامى خلفى ، ضربة وتر فى البيان رقيقة - وتر واحد علق فى الهواء الصامت ، تتلاشى ذبذباته مثل الصدى . لمحت ، وأنا أعبر بين الأشجار ماونت أوليف يتسلل نحو باب المنزل الجانبى . فجأة تكهنت أنه كان يسير جيئة وذهابا خارج المنزل فى عذاب التوجس والإشفاق ، فى حالة أشبه بحالة تلميذ خارج مكتب سيد الدار فى انتظار أن يتلقى علقه . أحسست بغصة تعاطف معه ، لضعفه ، للورطة الفظيعة التى وجد نفسه فيها . وجدت ، لدهشتى ، أن الوقت لايزال مبكرا . كانت كليا قد ذهبت اليوم إلى القاهرة ، ولم يكن من المتوقع عودتها . أخذت الحقيبة الصغيرة الى شقتها . جلست فوق الأرض وفتحتها .

بدأت أقرأ ، فى تلك الحجرة الهادئة ، وفى ضوء شموعها ، الخطابات الخاصة ، وأنا أحس بهاجس من فضول داخلى ، باضطراب شىء ما أشبه بالخوف – ما ابشع أن تستكشف أعمق أسرار حياة إنسان آخر . لم يتضاءل هذا الشعور وأنا أتقدم فى القراءة ، بل تعمق الى فزع يكاد يكون رعبا مما يمكن أن يأتى بعد ذلك . كانت الخطابات شرسة ، عابسة ، متألقة ، فياضة – كان سيل الكلمات الجارفة يفيض الى مالا نهاية ، فى قبضة اليد تلك ، ترصعه صور ماسية الصلابة ، تحليل وحشى ذاتى لجنون اليأس ، التبكيت والعاطفة . وأخذت أنتفض كما يجب أن يحدث فى حضرة سيد عظيم ، انتفض وأهمهم . أدركت ، وقد صدمت أعماقى ، أنه لا يوجد فى كل أدبنا ، طولا وعرضا ، مايمكن مقارنته بها . وأياً كانت الروائع الأدبية التى يمكن أن يكون بورسواردن قد كتبها ، فإن تلك الخطابات تبزها جميعا بما فيها من ضراوة وتألق تلقائى واسهاب . الأدب كما أقول ! لكن تلك كانت الحياة ذاتها ، ليست تعبيرا مدروسا عنها فى شكل ما – إنها الحياة بذاتها ، نهر الحياة المنساب المتكامل بكل ذكرياته المثيرة للرثاء ، إرادته النشوانة ، آلام الحياة بما فيها من رعب وإذعان وخضوع . هنا امتزج الوهم والحقيقة فى رؤية واحدة تعمى الأبصار ، رؤية عاطفة صافية غير قابلة للفساد ، تعلق فوق عقل الكاتب مثل نجم أسود – نجم الموت ! إن الأسى الهائل والجمال الذى عبر عنهما هذا الرجل فى يسر وسهولة – إن غزارة عطاياه وهباته المخيفة – قد ملأتنى بيأس عاجز ومتعة فى ذات الوقت. القسوة والثراء ! بدت الكلمات كأنها تنهال من كل مسام جسده – اللعنات والأنات ودموع الفرحة واليأس تمتزج معا – كلها تلاحمت بالدلالة الموسيقية السريعة العنيفة للغة أحكمها وأتقنها الغرض منها . هنا ، أخيرا ، يواجه المحبان كل منهما الآخر وقد تجردا عاريين ، تجردا حتى العظام .

وأمسكت ، للحظة ، من هذه التجربة الغريبة المخيفة ، بلمحة من بورسواردن الحقيقي – الرجل الذى راغ منى دوما . فكرت فى خجل فى الصفحات البذيئة فى مخطوط جوستين والتى كرستها له – لصورتى عنه . لقد إخترعت ، بسبب حسدى أو غيرتى الواعية ، بورسواردن حتى انتقده . لقد اتهمته فى كل ماكتبته عنه بنقاط ضعفى أنا – وحتى الهبوط الى تقديرات غير صحيحة لصفاته وسجاياه ، مثل الدونية الاجتماعية ، كانت خاصة بى أنا ، ولم تكن خاصة به البتة . اننى فقط الآن ، وأنا أتابع السطور المكتوبة بذلك القلم السريع الذى لا يضطرب ولا يتلعثم ، قد أدركت أن المعرفة الشعرية أو السامية التى تفوق العقل ، إنما تبطل ، بصورة ما ، تلك المعرفة النسبية الخالصة . وأن فكاهاته السوداء إنما كانت ، فى بساطة ، تهكما وسخرية ناتجة عن هذه المعرفة الغامضة المبهمة والذى كان مجالها يفوق ، يتجاوز تلك التى تنتمى الى البحث النسبى عن الحقيقة. ليس هناك من إجابة عن الأسئلة التى أثرتها فى صدق حقيقى . لقد كان هو محق تماما ، وكنت أنا أعمى مثل خلد أوربى ، أحفر ، أنقب فى جبانة الحقيقة النسبية ، أكوم البيانات ، وأكثر من المعلومات ، وأفتقد تماما ذلك الشعر الأساطيرى الذى يكمن تحت الحقيقة . وأطلقت على كل هذا ، «البحث عن الحقيقة» ! لم يكن هناك من طريق آخر يرشدنى إلى هذا الأمر غير التهكم والسخرية التى وجدتها جارحة للغاية . لقد أدركت الآن أن هذا الاستهزاء إنما كان ، فى الحقيقة ، رقة مقلوبة الى الخارج مثل القفاز . إننى وأنا أرى بورسواردن ، هكذا لأول مرة ، رأيت أنه كان يبحث ، من خلال أعماله ، عن الرقة ذاتها لعلم المنطق ذاته ، يبحث عن الطريقة التى توجد بها الأشياء ، ليس القياس المنطقى أو علاقات مد العاطفة وجزرها ، ولكن المحتوى الفعلى للبحث عن الحقيقة ، الحقيقة العارية ، الإيماءة والإشارة .... الدعابة التى لا تستهدف شيئا . نعم ، الدعابة ! واستيقظت فى فزع وأنا ألعن وأسب .

إن كان هنالك تفسيران ، على نفس القدر من الجودة ، أو أكثر لفعل إنسانى واحد ، إذن ماذا يعنى هذا الفعل غير أن يكون وهماً . إيماءة تصدر فى مواجهة الخلفية الضبابية للحقيقة ، غدت ملموسة فقط نتيجة الطبيعة الخداعة للانقسام البشرى ؟ هل تأمل أى روائى قبل بورسواردن هذه المسألة ؟ إننى لا أعتقد بذلك.

تعثرت أيضا فجأة وأنا أتأمل هذه الخطابات الرهيبة ، بالمعنى الحقيقى لعلاقتى ببورسواردن ، وبكل الكتاب من خلاله . رأيت أننا فى الحقيقة ، نحن الكتاب ، نشكل واحدة من تلك السلاسل البشرية الحزينة التى ينظمها البشر لتمرير دلاء المياه الى الحريق ، أو للإنزال الى قارب النجاة ، سلسلة متصلة من بشر ولدوا لاستكشاف الثراء الداخلى للحياة المتفردة باسم مجتمع لا يبالى ولا يتسامح ، وقد قيدتهم نفس الموهبة معا .

بدأت أرى أيضا ، أن " الرواية " الحقيقية لاتوجد فى صفحات أرناؤوطى أو بورسواردن – ولا حتى فى صفحاتى ، إن الحياة نفسها هى التى كانت رواية – نقولها جميعا بطرائقنا المختلفة ، وبقدر فهم كل منا لها طبقا لطبيعته وموهبته .

بدأت الآن فقط أرى مدى غموض الشكل الذى تكونت به حياتى من خواص عناصر توجد خارج الحياة النسبية – توجد فى المملكة التى يدعوها بورسواردن بـ " العالم البشير " . لقد كنا ، كما أرى الآن ، كُتابا ثلاثة ، نأمن الى مدينة أسطورية ، كان علينا أن نستخرج منها غذاءنا ، وأن نؤكد فيها مواهبنا . أرناؤوطى ، بورسواردن ، دارلى – مثل أفعال الماضى والحاضر والمستقبل ! وكانت فى حياتى الخاصة (المجرى الذى ينساب فى رخاوة من جانب الزمن الجريح) هاته النسوة الثلاث ، اللائى نظمن أيضا أنفسهن ، كأنما ليمثلن الأمزجة الثلاثة للفعل العظيم ، الحب : ميليسا ، جوستين وكليا .

ما أن تحققت من ذلك حتى انتابني فجأة ، يأس واكتئاب هائلان ، إذ ادركت الطبيعة المحدودة تماما لقدراتي ، التي كانت تسيجها حدود ذكاء له ، في ذاته ، قدرة كبيرة للغاية ، إلا أنه يفتقد السحر الخالص للكلمة ، قدرة الدفع الى الأمام ، العاطفة وأن يحقق هذا العالم الآخر من الإنجازات الفنية .

كنت قد أقفلت لتوي على هذه الخطابات التي يصعب احتمالها ، جالسا مكتئبا لإدراكي هذه الحقيقة ، عندما انفتح الباب ، ودخلت كليا مشعة باسمة ، «لماذا أنت هكذا يادارلي ، ماالذي تفعله وأنت جالس وسط أرضية الحجرة في هذا الوضع المحزن الكسيف ؟ هنالك ياعزيزي دموع في عينيك " . وللحال كانت إلي جواري ، بكل حنانها ورقتها ، جالسة فوق ركبتيها .

قلت . " دموع الحنق والغيظ " ، ثم احتضنتها ، " لقد أدركت لتوي إنني لست فنانا البتة . ليس هنالك من بارقة أمل أن أكون كذلك في أي وقت " .

" ماذا بالله كنت تفعل ؟ " .

" أقرأ خطابات بورسواردن الى ليزا " .

"هل رأيتها ؟ " .

" نعم إن كيتس يكتب كتابا سخيفا ...."

" لقد التقيت به لتوي . لقد عاد الليلة من الصحراء " .

جاهدت كي أنهض علي قدمي . بدا لي أنه من الضروري أن أجده وأن اكتشف مشروعه بقدر استطاعتي . قالت كليا ، " لقد تحدث عن ذهابه إلى شقة بومبال للاستحمام . إنني اتوقع ، إن أسرعت ، أن تعثر عليه هناك " .

كيتس ! فكرت وأنا أسرع أهبط الشارع الى شقته . كان عليه أن يلعب هو أيضا دوره في هذا التقديم المليء بالظلال ، للوحة حياة الفنان . كان هنالك على الدوام كيتس مايقع عليه الاختيار حتى يترجم السِّير ، يجرجر ذيله الطيني اللزج فوق حياة مشوشة تثير الشفقة ، استخرج منها الفنان بمثل ذلك الألم ، تلك الدرر

الغريبة المتفردة لإستنارته الذاتية . لقد بدا لى ، بعد قراءة هذه الخطابات ، أنه من الضرورى ، أكثر من أى وقت مضى ، إبعاد أمثال كيتس من التدخل فى شئون تتجاوز إهتماماتهم الطبيعية . إنه كصحفى وقع على قصة رومانسية (فالانتحار هو أكثر الأفعال رومانسية عند الفنان) لابد شعر بنفسه أمام مايمكن أن يطلق عليه فى الأيام القديمة " بالضربة الصاعقة ، بالقصة الأبرز فى المليون " . لقد فكرت فى أننى أعرف كيتس – لكننى بالطبع نسيت تماما ، مرة أخرى ، أن أضع فى اعتبارى مايفعله الزمن ، إذ إن كيتس قد تغير كما تغيرنا جميعا . وكان ناتج لقائى به على غير ماتوقعت منه ، مثله فى ذلك مثل كل شىء آخر فى المدينة .

كنت قد أضعت مفتاحى . وكان علىّ أن أدق الجرس حتى يفتح حميد الباب لى . نعم ، قال ، إن السيد كيتس هنالك فى الحمام . قطعت الممر ودققت على الباب الذى جاء من خلفه صوت اندفاع الماء وصفير مرح . " دارلى ، ياإلهى ، كم هو رائع " ، صرخ مجيبا ندائى ، " أدخل بينما أجفف نفسى . لقد سمعت بعودتك " .

وقف تحت الدش إله يونانى ! كنت مندهشا للغاية لهذا التحول حتى أننى جلست فجأة فوق المرحاض أدرس وأتفحص هذا .... الطيف . كان كيتس محترقا ، يكاد يكون أسود ، وقد تحول شعره الى اللون الأبيض . ورغم أنه كان أكثر نحافة ، إلا أنه بدا فى أفضل حال من الناحية البدنية . إن الجلد البنى والشعر الرمادى قد جعلا زرقة عينيه المتلألئتين أكثر عمقا من أى وقت مضى . إنه لا يحمل ، بالقطع ، أى شبه بذكرياتى عنه ! « لقد تسللت لأقضى الليلة فقط » ، قال وهو يتحدث فى صوت جديد سريع واثق ، " إننى أعالج قرحة فوق مرفقى ، من تلك القرح الصحراوية اللافحة ، وهكذا حصلت على إذن ، وها أنا ذا هنا . إننى لا أدرى أى جحيم ذلك الذى يسبب هذه القرح ، ولا أحد يدرى ،

ربما كانت بسبب الزبل المعلب الذى نأكله هنالك فى الصحراء ! إلا أن قضاء يومين فى الأسكندرية وأخذ بعض الحقن فى سرعة ، تبرء المرء ، مرة أخرى ، من هذا الشيء اللعين ! دارلى ، إنه لأمر غريب أن نلتقى ثانية هنالك الكثير الذى أود إخبارك به . هذه الحرب ! " . كان يبقبق فى معنويات عالية . " يا الهى ، إن هذه المياه وليمة . اننى أمرح وأطرب " .

" إنك تبدو فى قالب رائع " .

« إننى كذلك ! . إننى كذلك » . وقرقع بقوة وإفراط فوق اليتيه . " أما والمرء كذلك ، فإنه لأمر طيب أن يأتى إلى الأسكندرية . إن التباينات تجعلك تُقدر الأمور بصورة أفضل كثيرا . إن تلك الدبابات تسخن الى حد يشعرك كأنك سمك صغير يُقلى . تناول شرابى . هنالك مايكفى أيها الشاب " . كان ينتصب فوق الأرض كأس طويل ، به الويسكى والصودا ومكعب ثلج . هز الكأس وهو يقربه الى أذنه مثل طفل ، " استمع الى الثلج وهو يجلجل " . صاح فى نشوة وطرب . " موسيقى الروح ، هى جلجلة الثلج " . رفع كأسه وغضن أنفه نحوى وهو يشرب فى صحتى . " أنت أيضا تبدو فى صحة جيدة تماما " ، قال وقد تجعدت عيناه فى ضوء جديد من الخبث والشقاوة . " والآن علىّ أن أرتدى بعض الملابس ، ثم ..... إننى ثرى ياعزيزى الشاب . سوف أدعوك الى عشاء ظريف فى « البتى كوان » . لن أقبل عذرا أو رفضا . إن شيئا لن يوقفنى . كنت أرغب فى رؤيتك والحديث معك بصورة خاصة . إن لدى أخباراً " .

قفز الى حجرة النوم ليرتدى ملابسه ، وجلست أنا فوق سرير بويمبال لأكون فى رفقته وهو يفعل ذلك . كانت معنوياته العالية معدية تماما . كان يبدو غير قادر على البقاء ساكنا . كانت تبقبق فى داخله آلاف الأفكار والآراء التى يرغب فى الإفصاح عنها فى ذات الوقت . قفز السلالم هابطا مثل تلميذ ، طائرا فى النهاية فى وثبة واحدة. تصورت أنه سوف يندفع راقصا فى شارع فؤاد . «ولكن

فى جدية " ، قال وهو يعصر مرفقى فى قسوة آلمتنى ، " فى جدية ، فالحياة رائعة " ، وكأنما أراد أن يصور جديته فانفجر فى ضحكة رنانة ، " عندما أفكر كيف اعتدنا التأمل وانشـغال البال " . كان من الواضح أنه يضعنى ضمن النظرة ، الجديدة المرحة ، للحياة . " إننى أحس بالخجل كلما تذكرت كيف كنا نتناول كل شىء فى بطء " .

حجزنا فى " البتى كوان " ، منضدة ركنية بعد مشاجرة ودود مع ملازم بحرى ، وللحال أمسكنا بـ " مينوتى " ، وأمرناه بإحضار الشمبانيا . من اين ، بحق الشيطان ، جاء بهذا السلوك الضاحك الآمر ، والذى يفرض ، فى الحال ، احتراما وتعاطفا دون أن يصدر عنه مايسىء ؟ " الصحراء ! " قال كأنما يجيب عن سؤالى الذى لم أنطق به . " الصحراء ، يادارلى ، أيها الولد العجوز . إنها شىء لابد من رؤيته . " واخرج من جيب واسع نسخة من" أوراق بيكويك " . قال ، «اللعنة ، يجب ألا أنسى رد تلك النسخة ، وإلا فإن الطاقم الذى أعمل معه سوف يَقْلونى قليا طيبا " . كان كتابا صغيرا مشربا بالبلل ملوثا بالزيت ، أوراقه بها ثنيات ، وبالغلاف ثقب طلقة . " إنه مكتبتنا الوحيدة ، ويبدو أن واحدا من أبناء الزنا قد نشف نفسه فى ثلثه الأوسط . لقد أقسمت أن أعيده . هنالك بالفعل نسخة فى الشقة ، ولا أعتقد أن بومبال سوف يبالى إن أنا أخذتها . إن الوضع سخيف ، إذ عندما لا يكون هنالك عمل ما ، فإننا نستلقى ، نقرأه تحت النجوم ، يتلوه الواحد منا للآخر فى صوت مرتفع ! إنه سخف ياعزيزى الشاب ، إلا أن كل شىء ، بعد ذاك ، أكثر سخفا . أكثر وأكثر سخفا كل يوم " .

" إلا أنك توحى بسعادة شديدة " ، قلت دون أن أغبطه بصورة معينة .

" نعم " ، قال فى صوت أكثر انخفاضا ، ثم غدا ، ولأول مرة ، جادا بصورة نسبية . " كذلك بالفعـل . دعنى أسـتودعك ، يادارلى ، سـرا . عدنى ألا تزوم أو تزمجـر " .

" إننى أعدك بذلك " .

مال إلى الأمام ، قال هامسا وعيناه تطرفان ، " أخيرا ، غدوت كاتبا ! " .ثم ضحك فجأة ضحكته الرنانة . " لقد وعدت ألاتزمجر " .

" إننى لا أزمجر " .

" حسنا ، لقد بدوت مزمجرا متشامخا . كان المفروض أن يكون رد الفعل الصحيح هو الصياح . هورا ! "

" لا تصرخ هكذا عاليا ، وإلا طلبوا منا مغادرة المكان " .

" أسف ، فقد خلبت الفكرة لبى " .

شرب كأسا كبيرا مترعا من الشمبانيا ، فى جو من يشرب نخب نفسه ، ثم اتكأ الى الخلف فى مقعده يحملق فىّ مازحا بنفس بريق التخابث فى عينيه الزرقاوين .

" ماذا كتبت ؟ " ، تساءلت .

" لاشىء " ، قال مبتسما . " ولا كلمة واحدة حتى الآن . إنها هنا " . وأشار بأصبع بنى الى صدغه ، " إلا إننى الآن ، على الأقل ، أعرفها . إننى سواء كتبت أم لم أكتب فليس ذلك بالأمر المهم . إن تلك إن شئت ، ليست القضية الكلية كى تصبح كاتبا بأى حال . لقد اعتدت التفكير هكذا " .

كان يعزف ، فى الخارج ، فى الشارع أرغن أحد المتسولين فى ترجيع حزين أجوف . كان أرغن انجليزيا قديما للغاية عثر عليه " عريف " العجوز الضرير فى كومة من أكوام النفاية ، فقام باصلاحه بطريقة ماتقريبية . إن بعض النغمات الموسيقية قد أخفقت فى تحقيق الأثر المطلوب ، وبعدت عدة أوتار عن التناغم بطريقة لا أمل فى علاجها .

" استمع " ، قال كيتس فى عاطفة عميقة ، " استمع فقط الى عريف العجوز" . كان فى تلك الحالة العذبة من الإلهام والتى تحل بالمرء فقط عندما يحتسى الشمبانيا فى أعقاب حالة من التعب والإرهاق - نشوة السخرية الموحية . " جوش " (١) . استمر فى طرب وبهجة . أخذ يغنى فى صوت أجش هامس رقيق للغاية ، يضبط الايقاع بأصبعه ، " أصمت أيها البدوى الصغير " . ثم تنهد تنهيدة امتلاء عميقة . اختار لنفسه سيجارا من حقيبة عينات مينوتى . أخذ يتجول ثم عاد الى المنضدة حيث جلس أمامى ثانية ، يبتسم فى طرب ذاهل . قال فى النهاية ، " يجب أن أخبرك أن هذه الحرب .... مختلفة تماما عن الحال الذى تخيلت ضرورة أن تكون عليه " .

وفجأة غدا ، تحت تأثير نشوة الشمبانيا الزاهية ، وقورا بصورة نسبية . قال ، « لاأحد يرى الحرب للمرة الأولى ، ويستطيع أن يمنع نفسه من الصراخ بكل مافى عقله من عقل احتجاجا عليها أن يصرخ : « يجب وقفها » ! إنك ، ياعزيزى الشاب ، كى ترى أخلاقيات الإنسان ، طبقا لمعاييره ، يجب أن ترى معركة حربية . إن الفكرة العامة يمكن إجمالها فى العبارة المعبرة ، " إن لم تستطع أكلها أو .... ، إذن .... عليها ."ألفا عام من الحضارة تسلخ فى لمح البصر ! » أخمش بأصبعك الصغير ولسوف تصل الى وشم الحرب أو نقشها تحت الطلاء الكاذب المموه ! فقط افعل ذلك » ! ثم خدش الهواء ، فيما بيننا ، فى وهن ، بسيجاره الثمين ، " ومع ذلك - ماالذى تعرفه عنها ؟ إنها أكثر الأشياء إثارة للحيرة والتى يمكن تعليلها . لقد جعلت منى رجلا ، كما يقول المثل . وأكثر من ذلك، كاتبا ! إن روحى صافية تماما . إننى أعتقد أنه فى وسعك أن تنظر الىّ باعتبارى مشوهاً

(١) الإلــــه ، ياالهى . - المترجـــم .

بصورة دائمة ! لقد بدأت أخيرا كتابى الممتع اللعين . إنه يتشكل فصلا بعد فصل فى رأس الصحفى العجوز - كلا ، ليس بعد الآن ، رأس الصحفى ، إنه رأس الكاتب " . ضحك ثانية كأنما يضحك من فكرة محالة . " دارلى ، إننى عندما أنظر حولى الى تلك .... المعركة الحربية فى الليل ، فإننى أقف فى نشوة الخجل ، أطرب للأنوار الملونة ، التوهج واللمعان يكسو السماء ، كما يكسو الورق الجدار ، وأقول ، كان لابد من وقوع كل ذلك حتى يمكن لجون كيتس المسكين أن ينمو الى رجل . ذلك هو الأمر . إنه لغز كامل بالنسبة لى : ومع ذلك فإننى متيقن منه تمام اليقين . لم يكن هنالك من سبيل آخر يمكن أن يعاوننى، إذ كنت ملعونا غبيا تماما . هل ترى ما أقول ؟ " . صمت للحظة كأنه يعيد هذه القطعة الأخيرة من الحديث ليقدر صحتها وصوابها ، كلمة كلمة ، كما يختبر المرء قطعة من آلة . ثم أضاف ، ولكن فى حذر وعناية ، وبتعبير معين لتركيز مشتت ، " إن كلا رجل الفعل ورجل الفكر ، حقيقة ، نفس الرجل . إنهما يعملان فى مجالين مختلفين ولكن وصولا لنفس النهاية . انتظر ، إن هذا الذى أقول قد بدأ يعطى انطباعا بالغباء . " ودق صدغه فى تأنيب ثم عبس . واستمر بعد لحظة من تفكير ، وهو مازال عابسا : « هل أخبرك بمفهومى عنها ..... عن الحرب ؟ ما الذى بدأت أؤمن به ؟ إننى أؤمن أن الحرب قد أوت أول ما أوت فى الغرائز ، أشبه بفعل صدمة بيولوجية ، لدفع أزمة روحية ، ماكان يمكن معالجتها على أى نحو آخر ، بين أناس محصورين . إن الذين على قدر أقل منا حساسية ، فيما بيننا ، ليسوا بقادرين على تكوين صورة ذهنية عن الموت إلا بصعوبة ، بل وهم ، أكثر من ذلك ، يبتهجون بمعايشته . ولذا أحست القوى التى تنظم أمورنا أنها يجب أن تُثْبِتَه ، حتى يأوى الموت فى الزمن الحاضر فعليا . إن ذلك من باب المنفعة الخالصة ، إن كنت ترى ما أعنى ! " . وضحك ثانية ، لكن فى حزن هذه المرة . " الأمر بالطبع مختلف الآن الى حد ما ، إذ يضرب المشاهد والمتفرج بقسوة أشد

من ذلك الموجود فى الخط الأمامى . إن رجال العشيرة الذين يودون ترك الزوجات والأولاد فى أمان نسبى ، قبل أن يسيروا منتصبين متثاقلين الى تلك الرسامة (١) البدائية لمظلومين . إننى أعتقد أن الغريزة قد خمدت الى حد ما ، وقد تكون فى طريقها الى الزوال تماما ، ولكن ماالذى سيضعونه موضعها - ذلك هو مايحيرنى ؟ أما بالنسبة لى ، يادارلى ، فإننى لا أستطيع إلا القول بأنه ماكان فى إمكان نصف دسته من العشيقات الفرنسيات ، أو رحلات حول العالم ، أو مغامرات زمن السلم الذى عرفناه ، أن تؤدى الى نموى ، فى نصف هذا الزمن ، بكل مافى كلمة النمو من معنى . إنك تتذكر ماأعتدت أنا أن أكون عليه ؟ إننى الآن ناضج حقا - لكننى ، بالطبع ، أتقدم فى العمر سريعا ، بسرعة كبيرة للغاية ، بكل مافى الكلمة من معنى ! سوف يكون لهذا صداه السخيف اللعين لديك ، إلا أن وجود الموت هناك كظاهرة طبيعية للحياة - وبأعلى معدل سرعة ، إن جاز القول ، قد أوحى لى بأن الحياة باقية أبدا ! ماكان هنالك من سبيل آخر يمكننى من فهمهما ، عليها اللعنة . آه حسنا ، من المحتمل أن أقتل هنالك وأنا متمالك تماما لغبائى وبلاهتى ، كما يمكن لك أن تقول " .

وأنفجر ضاحكا مرة أخرى ، وهو يحيى نفسه مستحسنا بلا صوت ثلاث مرات ، رافعا سيجاره كل مرة بطريقة احتفالية ، ثم غمز لى بعناية وهو يملأ كأسه ثانية ، مضيفا خاتمة مبهمة : " للحياة معناها الكامل ، فقط عند هؤلاء الذين يختارون الموت ! " . كان فى وسعى رؤية أنه قد ثمل الأن ، إذ زالت تأثيرات الدش الساخن الملطفة عنه ، وبدا أن إرهاق الصحراء يؤكد ذاته .

(١) مثل رسامة الكاهن - المترجم .

" وماذا عن بورسواردن ؟ " ، قلت وأنا أتلمس تلك اللحظة التى يمكننى أن ألقى فيها باسمه مثل خُطاف فى مجرى حديثنا .

" بورسواردن ! " ، ردد الاسم فى نغمة مختلفة تتسم بالأكتئاب والحزن والمحبة . " إلا أنه ، ياعزيزى دارلى ، أشبه بشىء ما حاول هو اخبارى به ، بطريقته الخاصة التى تكاد تكون لعبته . وماذا عنى ؟ إننى لاأزال أحمر خجلا كلما فكرت فى الأسئلة التى ألقيتها عليه . ومع ذلك فإن إجاباته التى بدت حينذاك مبهمة بطريقة لعينة ، قد غدت الآن مفهومة لى تماما . إن الحقيقة ذات حدين كما ترى . وليس هناك من وسيلة للتعبير عنها بمصطلحات لغوية . اللغة هذا الوسيط الغريب المتشعب بثنائيته القاعدية . ماهو صراع الكاتب إن لم يكن صراعا لاستخدام هذا الوسيط بدقة قدر الإمكان ، إلا أنه لابد أن يكون عارفا بما فيه من غموض اساسى معرفة تامة ؟ إنها مهمة ميئوس منها ، إلا أنها على الأقل مجزية لكونها تدعو الى اليأس . فالمهمة نفسها ، الصراع مع مشكلة لاحل لها ، ينمى الكاتب ! هذا ماأدركه ذلك العجوز إبن الزنا . يجب أن تقرأ خطاباته الى زوجته ، اذ رغم كل مافيها من تألق ، أنظر كيف كان يتأوه ، يتضرع ، كيف قدم نفسه بازدراء – مثل شخصية ما من شخصيات دوستيو فسكى وقد أحدق بها ، رغما عنها ، عُصاب كريه . إنها حقا تترنح ، تلك النفس الحقيرة التافهة التى يكشف عنها هناك " . كان ذلك فهماً ثاقبا ، يثير الدهشة ، للخطابات المعذبة والتى هى رغم ذلك كائن كلى كامل ، والتى كنت أنا نفسـى قد قـرأتها لتوى ! قلت . " كيتس ، آخبرنى بالله عليك ، إن كنت تكتب عنه كتابا ؟ "

رشف كيتس شرابه فى بطء وتأمل ، وضع كأسه قلقا ، بصورة ما ، قبل أن يقول : كلا " .ملس ذقنه وصمت .

" إنهم يقولون أنك تكتب شيئا ما " ، قلت فى إصرار ، هز رأسه فى عناد .

تأمل كأسه بنظرة مبهمة . " لقد أردت ذلك " ، أقر أخيرا في بطء . " لقد أعددت عرضا طويلا لرواياته ، ذات مرة ، لمجلة صغيرة . تلقيت بعد ذلك رسالة من زوجته . كانت تريد كتابا عنه . إنها فتاة أيرلندية ضامرة ، عصبية للغاية ، قليلة العناية بنفسها ، وسيمة كما أعتقد الى حد كبير . تمخط أنفها دوما في لفاع قديم . ترتدي دوما خف سجادة . يجب القول أنني رققت له متأثرا ، إلا أنني تعثرت على الفور في عش دبابير هناك . كانت تشمئز منه . يبدو أنه كان هنالك الكثير مما يثير الاشمئزاز ، يجب أن أقول ذلك . قدمت لي قدرا كبيرا من المعلومات ، وفي بساطة ، أكداسا من خطابات ومخطوطات - مجموعة ثمينة حقا . إلا أنني ، ياعزيزي الشاب ، لم استطع استخدام هذا النوع من المواد . لا لأي سبب كان ، لأنني أحترم ذكراه وأعماله . كلا ، كلا لقد خدعتها . أخبرتها أنها لن تستطيع نشر مثل تلك الأشياء . كانت تبدو راغبة في تحقيق استشهاد علني ، في كتاب مطبوع ، لا لشيء إلا لتسترجعه - بورسواردن العجوز . لم أستطع أن أفعل مثل هذا الشيء : بالإضافة الى أن المادة كانت توقف شعر الرأس . إنني لا أود الحديث عنها . إنني ، حقا ، لن أعيد أبدا تكرار الحقيقة على مسمع أي انسان " .

جلسنا نفكر في تأمل ، بل حتى يراقب الواحد منا الآخر لوقت طويل ، قبل أن أتكلم ثانية " هل قابلت شقيقته ليزا ؟ " .

هز كيتس رأسه في بطء « كلا . بأي غرض أقابلها ؟ . لقد تخليت للتو عن المشروع ولذا لم تكن هنالك حاجة لمحاولة سماع قصتها . أنا أعرف أن في حوزتها قدرا كبيرا من المادة الخطية . لقد أخبرتني زوجته بذلك . إلا ... أنها هنا ، أليس كذلك ؟ ". وتجعدت شفته تجعيدة دقيقة للغاية توحي بالاشمئزاز . « حقيقة لم أرغب في لقائها . إن الحقيقة المرة في هذا الأمر ، تبدو لي في أن

الشخصية التى أحبها بورسواردن أكثر الحب - أعنى حبا روحيا خالصا - لم تدرك أبدا حالته الروحية ، إن جاز القول ، عندما مات : أو حتى كان لديها أية فكرة عن مدى إنجازاته . كلا ، لقد كانت مشغولة بعلاقة غرامية سرية مبتذلة ، يثير اهتمامها إضفاء شرعية على علاقتها ببورسواردن . إننى أعتقد أنها كانت تخشى أن يتعرض زواجها من دبلوماسى للخطر بفضيحة محتملة . ربما أكون مخطئا ، إلا أن ذلك هو الانطباع الذى خرجت به . إننى أعتقد أنها كانت تحاول إصدار كتاب يبيض الصورة . لكننى الآن ، وبصورة ما ، أمتلك بورسواردنى الخاص بى ، نسختى الخاصة منه ، إن شئت القول وفى ذلك مايكفينى . ماذا تهم التفاصيل ، ولماذا كان علىّ لقاء أخته ؟ إن أعماله ، وليست حياته ، هى التى تشكل ضرورة لنا - إنها تقدم واحدا من المعانى العديدة للكلمة ذات الأوجه الأربعـــة ! " .

وأحسست برغبة فى أن أصيح ، " هذا غبن " ، إلا أننى ردعت هذه الرغبة . إنه لمن المســتحيل تحقيق العـدالة التامـة لكل إمرىء . وسـقط جفنا كيتـس . « تعال » ، قلت وأنا أنادى فى طلب ورقة الحساب ، " لقد حان وقت ذهابك الى المنزل والنوم " .

كانت هنالك عربة حنطور مشدود اليها جواد هرم فى شارع جانبى . سعدنا غاية السعادة لعثورنا عليها . أخذ كيتس يحتج بأن قدمه قد بدأت توجعه ، وأن ذراعه قد بدأ يؤلمه . كان فى حالة عقلية مرهقة تتسم بالانبساط . كان نشوان ، الى حد ما ، بعد ما تناوله من جرعات الشراب . استند الى الخلف فى العربة العجوز ذات الرائحة وأغلق عينيه ، " هل تعرف ، يادارلى ، إننى كنت أنوى إخبارك ، لكننى نسيت . لاتغضب منى أيها الزميل - الراعى العجوز ، أرجو ألا تغضب . إننى أعرف أنك وكليا .... نعم أعرف ، وأنا سعيد بذلك . إلا أن لدى

أكثر الأحاسيس غرابة ، وهى إننى سأتزوجها ذات يوم . حقا لا تتصرف بحمق بهذا الخصوص . بالطبع لن أنطق بكلمة ، ربما يحدث ذلك بعد سنوات عدة من هذه الحرب البلهاء العجوز . إلا أننى أحس ، فى مكان ما ، على امتداد هذا الخط ، أننى مقيد برباط معها " .

" والآن ، ماذا تتوقع منى أن أقول ؟ " .

" حسنا ، هنالك مئات السبل لمواجهة ذلك . إنك لو كنت قلت لى مثل هذا الشىء لبدأت للتو فى الزعيق والصراخ . كنت انتهيت من شخصك فى سرعة ، دفعت بك خارج العربة ، أى شىء . ولكنت لكمت نفسى فى عينى " .

وقفت العربة أمام المنزل وهى تتدحرج . قلت ، " لقد وصلنا " . عاونت صاحبى على النزول الى الطريق . " إننى لست ثملا الى هذا الحد " ، صاح فى مرح ، نافضا عونى له ، " إنه ليس أكثر من تعب ، أيها الصديق العزيز " . بينما أجادل السائق فى أجر المشوار ، ذهب الى الجواد ليتسامر معه فى حديث خاص طويل ، وهو يربت له أنفه . " إننى أمنحه بعض الحكم التى تعينه على الحياة " . شرح لى ونحن نشق طريقنا الشاق فوق السلم ، " إلا أن الشمبانيا قد شوشت مخزونى من الاقتباسات . ماذا كان ذلك الشىء الذى قاله شكسبير عن العاشق والديوث وارتباطهما المحكم معا ، وهما يبحثان عن سمعة خداعة كالفقاعة حتى فى فوهة مدفع " . نطق العبارة الأخيرة بطريقة إلقاء غريبة ، كتلك التى كان يتحدث بها تشرشل ، كرجل ينشر الخشب . " أو شىء ما عن السابحين قفزا فى النقاء - شىء ما سابق التجهيز فى العقل الأزلى ، ولا أقل من ذلك ! "

" إنك تغتال كلاهما " .

" جوش ، إننى متعب . يبدو أنه لن تكون هنالك غارات جوية الليلة " .

" إن الغارات الجوية تتناقص " .

إنهار فوق فراشه وهو فى كامل ثيابه . أخذ يفك فى بطء حذاءه الصحراوى الجلدى اللين الناعم المزغب ، يملص أصابعه حتى انزلق فى بطء وسقط فوق الأرض . " هل رأيت كتاب بورسواردن الصغير والذى يحمل عنوان ، " الصلوات المختارة للمثقفين الإنجليز " . إنه كتاب يثير الضحك ، " عزيزى يسوع ، أرجو أن تحافظ علىّ كما كان الحال فى القرن الثامن عشر ، ولكن بدون ... " . ثم ضحك ضحكة ناعسة ، واضعا ذراعيه تحت رأسه ، منساقا فى نوم باسم . عندما أطفأت النور ، تنهد فى عمق وقال ، « حتى الموتى يغمروننا جميعا بالعطف والحنان طوال الوقت " .

فجأة بدت لى صورته صورة صبى صغير يسير على حافة جروف شديدة الانحدار ليجمع بيض طيور البحر . زلة واحدة .....

إلا أننى ماكنت لأراه ثانية . وداعا .

★ ★ ★

- ٥ -

أصابع معبودتى العمياء العشرة الظمأى
تمن على وجهى بسحرها الحسى

جرت السطور عبر رأسى وأنا أضغط جرس المقر الصيفى ، مساء اليوم التالى ، أحمل فى يدى الحقيبة الخضراء التى تحتوى خطابات بورسواردن الخاصة ، تلك الطلقات المتتالية المتألقة القوية ، فى كلمات لاتزال تتفجر فى ذاكرتى أشبه بعرض للألعاب النارية ، يلفحنى . لقد اتصلت هاتفيا بليزا من مكتبى فى الصباح لأحدد موعدا للقائها ، فتحت الباب ووقفت أمامى وقد ارتسم التوقع على وجهها فى تعبير يتسم بالجدية . " حسنا " ، همست عندما نطقت إسمى ، قالت ، " تعال " . استدارت تسير أمامى فى مشية متصلبة منتصبة ذكرتنى بطفلة ترتدى ملابس الملكة اليزابيث فى لغز تمثيلى . بدت متعبة مشدودة، وإن كانت متشامخة بطريقة غريبة - كانت حجرة المعيشة خالية ، وقد عاد ماونت أوليف كما أعلم ، الى القاهرة هذا الصباح . ودهشت إذ رأيت كتلة خشبية تشتعل فى المدفأة . وقفت أمامها وقد أحنت ظهرها ناحية الدفء ، تدعك يديها كأنما تعانى من البرد .

" لقد كنت سريعا ، سريعا للغاية " ، قالت بطريقة تكاد تكون قاطعة ، تكاد تحمل لمحة من تبكيت ضمنى فى لهجتها . " لكننى سعيدة " . كنت قد أخبرتها بالفعل ، هاتفيا ، بخلاصة حديثى مع كيتس حول الكتاب الذى لا وجود له .

« إننى سعيدة لأننا نستطيع ، أخيرا ، أن نقرر شيئا ما . لقد جافانى النوم طوال الليلة الماضية . ظللت اتخيلك تقرأ الخطابات . وظللت أتخيله يكتبها » .

« إنها رائعة . لم أقرأ فى حياتى كلها مايماثلها " . وأحسست فى لهجتى بنغمة حزن وكدر .

" نعم " ، قالت وهى تتنهد فى عمق ، " ومع ذلك فإننى كنت خائفة أن تصل الى تلك النتيجة ، خائفة أن تشارك دافيد رأيه وتنصحنى بالابقاء عليها مهما كان الثمن . ومع ذلك فقد طلب هو منى صراحة أن أقوم بحرقها " .

" أعرف ذلك " .

" إجلس يادارلى . أخبرنى بما تفكر فيه حقا " .

جلست واضعا الحقيبة الصغيرة فوق الأرض الى جوارى . قلت ، " ليست هذه، ياليزا بمشكلة أدبية مالم تضعيها أنت على هذا النحو . إنك لست فى حاجة الى نصيحة أحد . لن يستطيع أى إمرىء يقرآها إلا ويأسف بالطبع لفقدها " .

" ولكن ، لو كانت تلك الخطابات ، يادارلى ، خطاباتك ، وقد كتبتها الى شخص ما ..... تحبه ؟ " .

" كنت أحس الراحة لمعرفتى أن تعليماتى سوف يجرى تنفيذها . إننى أظن ، أن ذلك ، على الأقل ، هو ماسوف يحس به الآن ، حيثما كان " .

أدارت وجهها الضرير الى المرآة . بدت كأنها تستكشف صورتها فيها ، فى جدية واجتهاد . أراحت أطراف أصابعها المنمقة فوق رف المدفأة . اخيرا قالت ، " إننى متطيرة مثله تماما إلا أن الأمر يتجاوز ذلك . لقد كنت دوما مطيعة ، إذ كنت أعرف أنه يرى أبعد مما أرى ، ويفهم أكثر مما أفهم " .

إن هذه الصور المنعكسة الحبيسة لاترد اليها شيئا

تلك المرأة تنهل من المرايا مثل ايائل عطشى

كما غدا الكثير من شعر بورسواردن محددا جليا كالبلور فى ضوء كل هذه المعرفة الجديدة ! كم حشد من خواطر وتباريح شخصية ليزا وهى تستكشف عماها فى المرآة الكبيرة ، وشعرها الداكن ملقى الى الخلف فوق كتفيها !

استدارت اخيرا مرة أخرى وهى تتنهد ثانية . رأيت نظرة جنون تنساب على وجهها ، وقد غدت أكثر تعبيرا وإزعاجا بفراغ مقلتى عينيها . خطت الى الأمام خطوة ، قالت ، " حسنا ، إذن فقد تقرر الأمر . فقط قل لى أنك ستساعدنى على حرقها . إنها عديدة للغاية سوف تأخذ وقتا قصيرا " .

" إن شئت ذلك " .

" دعنا نجلس معاً الى جوار النار " .

جلسنا فوق السجادة يواجه كل منا الآخر . وضعت الحقيبة بيننا . ضغطت القفل حتى أطلق الغطاء قافزا محدثا صوتا حادا .

قالت ، " نعم هكذا يجب أن يكون الأمر . كان علىّ أن أدرك طوال الوقت ضرورة طاعته " . تناولْت فى بطء خطابا مثقوب الغلاف بعد خطاب ، أفضه وأناوله لها لتضعه فوق الكتلة المشتعلة .

" لقد اعتدنا كأطفال أن نجلس معاً مثل هذه الجلسة ، فى الشتاء أمام النار، وصندوق ألعابنا فيما بيننا . كنا نفعل ذلك مرات كثيرة ، بل دوماً . يجب عليك أن تعود بعيدا الى الوراء لتفهم الأمر كله . وحتى إن أنت فعلت ذلك ، فإننى أتساءل إن كنت ستفهم . طفلان صغيران تركا وحيدين فى بيت متداع ، فى مزرعة ، بين بحيرات متجمدة ، وسط ضباب وامطار ايرلندا . لم يكن لنا من مورد للثروة غير مافى كل منا للآخر . لقد حول عماى الى قصيدة شعرية ، رأيت الأشياء بعقله ، ورأى هو الأشياء بعينى . وهكذا خلقنا معا عالما شعريا كاملا لايفنى – أعظم

بكثير من أفضل كتبه . لقد قرأتها كلها بأصابعى . إنها كلّها موجودة فى المعهد. لقد قرأتها وأعدت قراءتها ، أبحث فيها عن مفتاح الإثم الذى حول كل شىء . لم يؤثر فينا شئ من قبل . كان كل شىء يتواطأ على عزلنا ، على بقائنا معاً . مات والدينا فى الوقت الذى كنا فيه أصغر من إدراك ذلك . عشنا فى منزل المزرعة القديم المتداعى ذاك ، فى رعاية عمة عجوز صماء غريبة الأطوار ، كانت تقوم بكل العمل ، حتى يمكن أن توفر لنا غذاءنا وتتركنا لما نستنبطه نحن بأنفسنا . كان هناك كتاب واحد فقط ، كتاب لبلوتارك ، حفظناه عن ظهر قلب ، أما ماخلا ذلك ، فقد كان من اختراعه هو . هذه هى الطريقة التى غدوت بها ملكة حياته الأسطورية الغريبة ، أعيش فى قصر فسيح من التنهدات - كما اعتاد أن يقول ، كان ذلك فى مصر أحيانا ، وفى بيرو أحيانا وفى بيزنطة احيانا أخرى . أعتقد أننى قد عرفت أن ذلك لم يكن حقا غير مطبخ بيت المزرعة العتيق بأثاثه الرث من خشب أبيض وأرضيات من قرميد أحمر . كنت أدرك ذلك ، على الأقل ، عندما كانت تغسل الأرضية بصابون منتول ، برائحته المتميزة التى أعرفها بنصف عقلى . إنها أرضية بيت المزرعة وليست قصرا بأرضيات فاخرة من فسيفساء تتألق بالحيات والصقور والأقزام . إلا أنه كان يعيدنى الى الواقع ، كما كان يدعوه ، بكلمة واحدة . وفيما بعد ، عندما بدأ النظر فى تبرير حبنا ، بدلا من مجرد التباهى به ، فى بساطة قرأ لى اقتباسا من كتاب . " كانت الأخت فى شعائر الدفن الأفريقية هى التى تعيد الملك الميت الى الحياة . كان الملك الذى يعتبر إلاها فى مصر ، وكذا الأمر فى بيرو ، يتخذ من شقيقته زوجة له . إلا أن الدافع الى ذلك كان هو الطقوس الدينية وليس الجنس ، إذ كانا يرمزان الى القمر والشمس فى التئامهما . الملك يتزوج شقيقته لأنه باعتباره الاله النجم ، الهائم فوق الأرض ، خالد لا يموت ، ومن ثم لا يتناسل فى إطفال امرأة غريبة ،

وأن يستمر كذلك حتى يسمح له بالموت ميتة طبيعية ، . كان ذلك سبب سعادته لحضوره الى مصر ، كان يشعر ، كما قال ، برابطة شعرية داخلية مع ايزوريس وايزيس ، مع بطليموس وارسينو – سلالة الشمس والقمر ! "

وضعت الخطاب بعد الخطاب في هدوء ، وبطريقة منهجية فوق المحرقة المشتعلة ، وهى تتحدث الى نفسها ، أكثر مما تتحدث اليّ ، فى نغم مطرد .

" كلا ، ليس فى الإمكان جعل الأمر مفهوما تماما ، لمن هم ليسوا من سلالتنا . لكن ، ما أن دخل الإثم ، حتى بدأت الحياة الشعرية القديمة تفقد سحرها – لم يكن ذلك بالنسبة لى ، لكنه كان بالنسبة اليه . إنه هو الذى جعلنى أصبغ شعرى باللون الأسود حتى أبدو كأخت غير شقيقة ، وليست له . لقد آلمنى بعمق أن أعرف ، على حين غرة ، أنه كان آثما بطريقة مفاجئة . لقد تدخل العالم ، أكثر فأكثر فى أمورنا ، ونحن ننمو . وأخذت حيوات أخرى تقتحم عالمنا المتوحد وقصورنا وممالكنا . واضطر هو للذهاب بعيدا لفترات طويلة . لم يكن لدى ، وهو غائب ، أى شىء مهما كان ، غير الظلام ، وكل ماأستطاعت ذاكرتى أن تمتلىء به عنه ، كنوز إبداعه كانت تتألق ، على نحو ما ، حتى عودته ، صوته ، لمسته . إن كل ماكنا نعرفه عن والدينا ، مجمل معرفتنا عنهما ، كان دولابا قديما من خشب البلوط ، ملىء بالملابس . كانت تبدو هائلة بالنسبة لنا ونحن صغيران – ملابس عمالقة ، وأحذية عمالقة ، قال ذات يوم ، إن هذه الملابس تقمعه وتضطهده . إننا لسنا فى حاجة الى والدين . أخذناها الى الخارج فى الباحة . صنعنا منها نارا كبيرة فى الخلاء وسط الجليد . بكينا بكاء مراً ، لا أدرى لماذا . رقصنا حول شعلة النار نغنى أغنية صيد قديمة بإحساس انتصار وحشى ، ومع ذلك كنا نبكى " .

وجلست صامته لفترة طويلة ، وقد تدلت رأسها فى تركيز شديد العمق حول هذه الصورة القديمة ، مثل عرافة تحملق بثبات فى بلورة الشباب الداكنة . ثم تنهدت ، رفعت رأسها وقالت ، " إننى أدرك لماذا تتردد . إنه الخطاب الأخير . أليس كذلك لقد عددتهم كما ترى . أعطه لى يادارلى " .

وناولته لها دون كلمة ، فوضعته فى النـــار فى رقة وهى تقول ، " لقد انتهت أخيراً .

★ ★ ★

الكتاب الثالث

- ١ -

بدأنا ، والصيف يمضى منهكا الى الخريف ، والخريف ثانية الى الشتاء ، نتنبه إلى أن الحرب التى طوقت المدينة ، قد بدأ جزرها . إنها تنساب بعيدا ، تدريجيا ، على امتداد الطرق الساحلية التى تشكل حواشى الصحراء ، تفك قبضتها عنا وعن مسراتنا . تترك وراءها ، وهى تتراجع ، تتقهقر ، مثل المد والجزر ، فضلاتها التذكارية ، على امتداد الشواطئ التى استخدمناها ، يوما ما ، لنجدها بيضاء ، كما كانت دوما ، مهجورة تحت طيور النورس المحلقة ، لقد حرمتنا الحرب منها زمنا طويلا ، لكننا الآن وقد أعدنا اكتشافها ، وجدنا أنها مفروشة بالدبابات التى عجنت والمدافع التى التوت ، وحطام ، يصعب تمييزه ، لإمدادات مؤقتة للموانئ ، هجرها المهندسون ، لتتعطن وتصدأ تحت شمس الصحراء ، ولتغطس تدريجيا تحت الكثبان المتحركة ، تبعث فى المرء طمأنينة سوداوية غريبة ليستحم الآن هناك - كأنما بين أشجار متحركة من العصر النيوليتى : الدبابات مثل هياكل الديناصورات .، والمدافع تنتصب مثل أثاث مبتذل بطل استعماله ، وحقول الألغام تشكل شيئا ما تكمن فيه المخاطر : والبدو غالبا ما يقعون فيه أثناء رعيهم . لقد انحرفت كليا ذات مرة ، إذ كان الطريق مفروشا بقطع تتألق من جمل تبعثر فى حادثة ما حديثه إلا ، أن مثل تلك الحوادث كانت نادرة . أما الدبابات ذاتها ، فقد كانت خالية ممن كانوا بها رغم

احتراقها، لم تكن بها أى أجساد بشرية ، وكانت ، على الأرجح ، قد استخرجت منها ودفنت فى وقار فى واحدة من تلك المقابر الهائلة التى نمت فى أركان لا يتوقعها المرء من الصحراء الغربية ، مثل مدن الموتى . والمدينة ، أيضا ، كانت تجد طريقها إلى الوراء ، إلى عاداتها وإيقاعاتها الطبيعية ، إذ توقفت قذائف المدافع الآن تماما ، وعادت حياة الشرق الأدنى العادية إلى الأزدهار ثانية ، إن البذات الرسمية قد غدت الآن أقل كثرة ، إلا أن البارات والنوادى الليلية مازالت مثابرة على تجارتها الرائعة مع الجنود أثناء أجازاتهم .

أخذت حياتى الخالية من أى حدث ، تستقر على خط روتينى طبيعى ، مقسمة بصور مصطنعة بين حياتى الخاصة والتى أسلمتها استغراقا كاملا فى كليا ، وحياة المكتب ، التى لم تكن ذات معنى لى ، رغم أنها لم تكن شاقة . لقد حدث تغير محدود : نعم ، أخيرا استطاع ماسكيلين تحطيم قيوده والهرب عائدا إلى فوجه . لقد زارنا فى زيه ليقول لنا وداعا ، مشيرا فى خجل إلى زميله ، الذى يبصبص له بذنبه ، ليس بغليونه كما اعتاد ولكن بعصا جديدة مفتولة يختال بها . قال تلفورد وفى صوته رنة حزن منتصر ، « لقد أخبرتك أنه سوف يفعلها ، كنت أعرف ذلك دوما » . إلا أن ماونت أوليف ظل كما هو ، إنه لا يزال ، كما هو واضح «مجمدا» فى منصبه .

كنت ، من وقت إلى آخر ، وذلك بناء على اتفاق وترتيب ، أقوم بزيارة الطفلة فى كوم أبو جيرج لأرى كيف تتقدم . ووجدت ، لبهجتى ، أن شتلها ، والذى كان لدى العديد من الهواجس حوله ، يسير بطريقة مرضية تماما . لقد تطابقت ، بوضوح ، حقيقة حياتها الحالية مع الأحلام التى ابتدعتها لها : كانت كلها كما يجب أن تكون – شخصيات أوراق اللعب الملونة ، والتى يمكن أن تعدها هى الآن بنفسها . ظلت جوستين ، إلى حد ما ، شخصية منحسرة ، لا يمكن التنبوء

بحالها ومزاجها ، لصمتها وسكونها ، ولم يكن ذلك ، بقدر ما استطعت أن أرى ، غير إضافة الى الصورة القاتمة للامبراطورة التى جردت من أملاكها . وتعرفت فى نسيم على الأب . اكتسبت صورته تحديدا بما كان يتوافر له من ألفة كبيرة نسبية . بسبب رقته الإنسانية . كان الآن الأب المرافق لها ، المثير لبهجتها . استكشفا معا ، فوق ظهر الخيل ، الأراضى الصحراوية المحيطة بالمنزل . كان قد أعطاها قوسا وسهاما ، وفتاة صغيرة تناهزها فى العمر ، " تاأور " ، كخادمة خصوصية وأمة (*) . واجتاز أيضا ما سميناه بالقصر ، والذى تخيلناه معا ، الاختبار الواقعى بطريقة رائعة . كان تيه حجراته العطنة وكنوزها المتداعية ، متعة خالدة . إنها الآن تكاد تكون قد نسيت الجزيرة . كانت مستغرقة تماما فيما بين تلك الكنوز الجديدة . لم أر جوستين خلال تلك الزيارات ، ولم أحاول فعل ذلك. كان نسيم هنالك فى بعض الأحيان ، إلا أنه لم يكن يصطحبنا البتة فى نزهاتنا على الأقدام أو ممتطين الخيل . وكانت الطفلة عادة ماتأتى الى مخاضة النهر لتلقانى ومعها حصان آخر .

كان بلتازار ، فى الربيع ، قد استعاد نفسه تماما ، ملقيا بها ثانية فى عمله. دعانى وكليا للمشاركة فى حفل يرضى - بصورة ما - مزاجه الساخر . كان ذلك هو الاحتفال بوضع الزهور على قبر كابوديستريا بمناسبة الذكرى المئوية لعيد ميلاد " بورن العظيم " . قال يشرح الأمر ، " إننى أمثل السلطة الصريحة لكابوديستريا ذاته .إنه يدفع دوما ثمن الزهور كل عام " . كان يوما مشمسا لطيفا للنزهة . وأصر بلتازار على ضرورة أن نسير على أقدامنا . كان فى حالة طيبة ، رغم أن باقة الزهور التى كان يحملها كانت تعرقله . كان يزهو بشعره الى حد لايطاق ، وقد أذعن : كما يجب ، لخدمات منمجيان ، الذى " طمس له معالم

(*) عربية بحروف لاتينية .

عمره » ، كما عبر هو عن ذلك . حقا ، كان التغيير رائعا . لقد غدا الآن ثانية بلتازار العتيد بعينيه الداكنتين الفطنتين ، وهما تنظران فى سخرية الى افعال المدنية ولم يكن الأمر بأقل من ذلك مع كابوديستريا الذى كان قد تلقى منه للتو رسالة طويلة. « ليس لديكم أى فكرة عما بلغه هذا الوحش من سطوة على الماء . لقد سار فى الدرب الشيطانى ، متغمسا فى السحر الأسود . إلا أننى سوف أقرأه لكم . إن جوار مقبرته ، كما أرى الآن ، هو أنسب الأماكن لقراءة بيانه عن تجاربه ! "

كانت الجبانة مقفرة تماما فى ضوء الشمس . إن كابوديستريا لم يبخل ، بالقطع ، بأية نفقات ليجعل قبره مهيبا مؤثرا فى النفس . كان قد زينه بطريقة سوقية مخيفة تكاد تصيب العقل بالجراح ، بملائكة الشاروبيم تلك والكتابة على قراطيس ملفوفة مثل أكاليل الزهور . وقد حفر على اللوحة تلك العبارة الساخرة ، " لم يفقد ، لكنه سبق بالذهاب " . وضحك بلتازار فى ود وهو يضع الأزهار فوق القبر ويقول له ، " عيد ميلاد سعيد " . انتحى جابنا ، خلع سترته وقبعته ، فقد كانت الشمس عالية مشرقة . جلسنا جميعا فوق دكة تحت شجرة السرو بينما كليا تاكل الحلوى . تلمس جيبه بحثا عن الحزمة الكبيرة المكتوبة بالآلة الكاتبة ، والتى تحتوى على آخر وأطول خطاب لكابوديستريا . قال ، " كليا ، اقرئيه لنا ، فقد نسيت نظارة القراءة ، كما أننى أحب أن يلقيها آخر على مسمعى ، لأرى إن كان وقعها أقل أم أكثر . هل تقرئينها ؟ " .

أخذت كليا الصفحات المكتوبة على الآلة الكاتبة فى امتثال ، وبدأت القراءة .

" عزيزى م . ب . "

" إن هذين الحرفين فى أول الكلمات " ، تدخل بلتازار ، " إنما يقومان مقام اللقب التهكمى الذى ألصقه بى بورسواردن – ماليخوليا بورياليس (١) ، وليس أقل

(١) السوداوية الشمالية – المترجم .

من ذلك ، إنها تنويه عن كآبتي اليهودية المزعومة . واصلي ياعزيزتي كليا " .

كان الخطاب مكتوبا بالفرنسية .

" إنني أدرك ، ياصديقي العزيز ، أنني مدين لك بتقديم حساب ما عن حياتي الجديدة هنا ، لقد كتبت لك الكثير ، ألا أنني رغم ذلك ، اعتدت التهرب من المشكلة.لماذا ؟ حسنا ، كان قلبي يغوص دائما وأنا أفكر في ضحكتك الساخرة ، وهذا أمر سخيف ، إذ إنني لم أكن البتة رجلا حساسا أو سريع القلق حول رأي جيراني عني . هنالك شيء آخر ، كان يقتضي مني شرحا طويلا مرهقا لما كنت أحسه دوما من ضيق وانعدام انسجام في اجتماعات القابال التي كانت تسعى الى أن يجرع العالم خيره خالصا .، لم أكن أعرف حينذاك أن طريقي لم يكن طريق النور بل الظلام . خلطت الأمور ، حينئذ ، وأربكتها أخلاقيا أو معنويا بالخير والشر . إنني أعرف تماما الطريق الذي أطأه الآن ، مثل رمانة الميزان – المستقر النهائي للأرجوحة ، كما كانت – والتي تُبقى على الجانب الأخف وزنا معلقا في الهواء . السحر ! إنني أتذكرك ، ذات مرة ، وأنت تقتبس لي نبذة كانت حينذاك ، لاتحمل أي معنى بالنسبة اليّ) من براسيلسوس . واعتقد أنك أضفت في ذاك الوقت ، أن تلك التمتمة يجب أن تعني أيضا شيئا ما . وقد كانت كذلك بالفعل . " إن الكيمياء السحرية الحقيقية التي تُعلم كيف تصنع (أو ه من المعادن الخمسة القاصرة غير المكتملة ، لاتحتاج الى مواد أخرى غير المعادن فقط . إن المعادن المكتملة المتقنة تستنبط من المعادن القاصرة غير المكتملة ، من خلالها وبها فقط . إذ هنالك القمر (الإبداع الخيالي) مع الأشيـــاء الأخرى ، إلا أن الشـمس (الحكمة) توجد في المعادن الأخرى .

" إنني أترك لحظة من صمت لضحكتك المتميزة ، والتي لم أكن ، في الماضي ، أتواني عن ترديدها ! أي جبل من نفاية ذلك الذي يحيط بفكرة الصباغة الفيزيائية . لابد أنك قد لاحظت ذلك . حسنا ، ولكن ...

« لم يكن شتائى الأول ، فى ذلك البرج العاصف ، بهيجا . كان السقف يرشح . لم يكن معى حينذاك كتبى لتؤنسنى . كان مسكنى ضيقا وأنا حائر فى كيفية توسيعه . تناثرت فوق قطعة الأرض التى يقف عليها البرج : فوق البحر، أكواخ وحظائر . هنا كان يقيم الإيطاليان العجوزان الأصمان اللذان يرعيان شئونى ، يطعماننى ، يغسلان وينظفان المكان لى ، إلا أننى كنت اتساءل ، ماذا إن عجزت عن تبديل استخدام اسطبلين زائدين ملحقين بمسكنهما . كان ذلك هو الوقت الذى اكتشفت فيه ، لدهشتى ، أنهما يأويان شخصا آخر لم أره البتة . كان غريبا متوحدا لايخرج إلا ليلا ، يرتدى ثياب الرهبان . إننى مدين بكل توجهى الجديد للقائى مع هذا الرجل . إنه راهب ايطالى جرد من وظيفته ، وهو يصف نفسه بأنه روز يكروسى [1] ، وعامل بالكيمياء السحرية . إنه يعيش هنا فى قلب جبل من المخطوطات الماسونية – بعضها عتيق للغاية – والتى كان يقوم على دراستها . لقد كان هو أول من أقنعنى أن هذا الخط من البحث (رغم بعض المظاهر غير المقبولة) مهتم بزيادة القبضة الداخلية للانسان على ذاته ، على المناطق التى ترقد غير مكتشفة فى داخله . إن هذا البحث يقوم بحزم على المنهج ، فقط بمقدمات أو فرضيات مختلفة ! ولو كان له ، كما أقول ، بعض المظاهر غير المقبولة ، فلماذا إذن يقوم العالم الرسمى بتشريح حيوان حى ، مثلا ، بغرض البحث العلمى أو الطبى . إننى ، على أى حال ، قد حققت وئاما مع ذاتى ، وشققت لنفسى مجالا من الدراسة يتعمق انهماكى فيه أكثر كلما مرت الشهور. واكتشفت اخيرا شيئا يناسب أيضا طبيعتى بطريقة خاصة للغاية . إن كل شىء فى هذا المجال يبدو ، حقيقة ، منعشا ومعضدا لى ! كذلك أصبحت قادرا على تقديم قدر كبير من المساعدة العمليـة للأب الروحـى (ف) كما

(١) نسبة الى روزا كروسيس مؤسسة حركة مسيحية بهذا الاسم فى القرن ١٥ – المترجم .

ســـأدعوه . إذ كان بعض تلك المخطـوطـات (المسروقة من مخابئها الســرية فى أثوس كما أعتـقــد) باللغـــات اليونانية والعــربية والروســـية - التى لم يكن يعــرفها جــيدا . ونضـجـت صـداقتنـا الى حــد المشــاركـة . الا أنه مضت شـــهور قبل أن يقدمنى الى شـــخصية أخرى غريبة مهيـبة كانت تخــوض ايضا فى هذه الأمور . كان بارونا نمســاويا يعيش فى دار كبيــرة فى الداخل . وكان مشغولا (كلا ، لا تضحك) بالمشكلة الغامضة التى ناقشناها ذات مرة - هل كانت عن طبيعة الأشــياء ؟ أعتقد أنهـــا عن تخـليق بشر صغار (*) . إن لديه ساقيا تركيا ، هو ايضا تابعه الذى يعاونه فى تجاربه وسرعان ماغدوت شخصية مقبولة هنا أيضا ، وسمح لى أن أعاونهما بأقصى ماعندى من قدرة .

" والآن ، فإن هذا البارون - والذى سوف تجد فيه بالقطع شخصية غريبة ومؤثرة - بذقنه الكثيفة وأسنانه الكبيرة مثل بذور كوز الذرة - هذا البارون قد .. آه يا عزيزى بلتازار ، قد أنتج بالفعل عشرة من البشر الصغار أطلق عليهم اســم (أرواحه المتنبئة) . كانت محفوظة فى صناديق زجاجية ضخمة تستخدم هنا فى الجوار ، فى غسيل الزيتون أو حفظ الفاكهة . وهم يعيشون فى الماء . إنهم يقفون فوق حامل صلب طويل من خشب البلوط . لقد انتجت أو جرى تنميطها . وأنا هنا استخدم تعبيره الخاص ، خلال اسابيع خمسة من اعمال الفكر المكثف وإقامة الطقوس . لقد كانت أشياء رائعة الجمال ، غامضة ، تسبح هنالك مثل أحصنة البحر . كانوا يتكونون من ملك ، ملكة ، فارس ، راهب ، راهبة ، مهنس معمارى ، عامل مناجم ، ملاك وفى النهاية روح زرقاء وأخرى

(*) باللاتينيــة فى الأصل .

حمراء ! كانوا يســترخون فى كســل فى تلك الجرار الضــخمة . كانوا يتنبهون ، على مايبدو، بنقــرة من ظفر الأصبع . كان طول الواحـد منهم حوالى الشـبر تقريبا ، ولما كان البارون قلقا متلهفا عليهم يود أن ينموا إلى حجم أكبر . فإننا عاوناه على دفنهم فى العديد من حمولات سـبلة الخيل . كان هذا السـماد العظيـم يرش كل يـوم بسائل شيطانى الرائحــة ، كان يعده البـارون وخادمه التركى بجهـد كبير . كان يحتوى على بعض العناصـر التى تكاد تثير التقـزز . كان السـماد . فى كل مرة يرش فيها ، يبدأ فى البخر كأنه يســخن بنار تحت السـطح . كان حــارا لدرجــة يصعب معه وضـــع أصـــبع فيه . وكان الأب الروحى والبارون يقضـــيان الليل بطوله ، كل ثلاثة أيام ، يصليان ويبخران السماد بالبخور ، حتى يرى البارون أخيرا أن هذه العملية قد اكتملت فتنقــل القوارير بعناية وتعاد الى أرفف المعمل . كان كل البشر قد نموا الى حجم لم تعد فيه القوارير الآن كبيرة بما يتناسب معهم ، وأصبح للذكور منهم لحى كثيفة . وكان هؤلاء الذين يمثلون أوضاعا بشرية اجتماعية يرتدون الملابس التى تناسب مقامهم وألقابهم . كانوا يتسمون بنوع من القبح الجميل وهم يطفون هنالك ، وعلى وجوههم تعبير لم أره من قبل إلا ذات مرة - على وجه رأس من بيرو منقوعة فى الخل ! تحولت العينان الى أعلى فى الجمجمة ، والشفاه ، شفاه أسماك شاحبة مشدودة الى الوراء لتكشف عن اسنان صغيرة رائعة التشكيل ! ولم يكن فى القارورتين اللتين تحتويان على الروح الحمراء والزرقاء ، على التوالى ، أى شيء يمكن رؤيته . كانت كل القوارير ، بالمناسبة ، محـكمة السداد تماما بمثانة ثور وشــمع يحمل طابع خاتم سـحرى . إلا أن المياه كانت تتلون عندما يدق البارون بظفر أصبعه على القوارير ويكرر بعض الكلمـــات بالعبرية ، فتأخذ فى التحول الى اللون الأحمــر ثم الأزرق على

التوالى . ويبدأ البشر الصغار فى إظهار وجوههم ، ليتحولوا الى شكل ضبابى أشبه بالطبعة الفوتوغرافية ، ويزدادون فى الحجم تدريجيا . كانت الروح الزرقاء جميلة جمال أى ملاك إلا أن الحمراء كانت تكتسى بتعبير مخيف حقا .

" كان البارون يطعم هذه الكائنات ، كل ثلاثة أيام ، بمادة جافة وردية محفوظة فى علب فضية مبطنة بخشب الصندل . كانت كريات فى حجم حبة البسلة الجافة . كما كان يتم ، أيضا تفريغ مياه القوارير مرة كل اسبوع ، ليعاد ملؤها بمياه الأمطار الطازجة . كان لابد من فعل ذلك فى سرعة كبيرة ، إذ كانت الأرواح ، خلال تلك اللحظات القليلة المعرضة فيها للهواء ، تبدو ضعيفة وقد أصابها الإغماء وكأنها توشك أن تموت كالأسماك . إلا أن الروح الزرقاء ماكانت تطعم أبدا ، بينما كانت الحمراء تتلقى ، مرة كل أسبوع ، ملء كشتبان من دم طازج لحيوان ما – دجاجة كما أعتقد . كان هذا الدم يختفى للحال فى الماء دون أن يصبغه أو حتى يثير فيه أى اضطراب . ما أن تفتح تلك القارورة حتى تصبح عكرة داكنة ، كما تصدر عنها رائحة بيض فاسد ! .

" وقد بلغ هؤلاء البشر الصغار ، خلال شهرين ، كامل قوامهم و مرحلة التنبؤ – كما يدعوها البارون ، ثم إن القوارير كانت تُحمل كل ليلة الى كنيسة صغيرة متهدمة ، قائمة داخل غابة صغيرة ، على مسافة ما من المنزل ، حيث كانت تقام صلاة قداس « وتُسأل » القوارير عما يجرى من أحداث المستقبل . كان يحدث ذلك بكتابة أسئلة بالعبرية فوق شرائح من ورق تضغط الى القارورة أمام عينى الكائن البشرى الصغير . كان الأمر أقرب الى تعريض ورق التصوير الحساس للضوء ، أعنى لم يكن الأمر وكأن هذه الكائنات تقرأ الاسئلة ، ولكن تتكهن بها ، فى بطء وفى كثير من التردد . كانت تتهجى الإجابات ، ترسمها بأصبع فوق الزجاج الشفاف . وكان البارون يدون هذه الردود فورا فى كتاب عادى كبير .

كان كل بشرى صغير يُسأل الاسئلة التى تناسب وضعه ، وكانت الروحان الحمراء والزرقاء تجيبان فقط بابتسامة أو تقطيبة لتحديد الرضا أو الخلاف . ومع ذلك فقد بدا . أنهم يعرفون كل شيء . وأنه يمكن طرح أى سؤال عليهم . كان الملك لا يتناول غير السياسة فقط ، والراهب الدين ... وهكذا وقد جعلنى ذلك شاهدا على تجميع وتصنيف مايسميه البارون « بتأريخ الزمن » ، وهى وثيقة لها أثرها ، على الأقل ، مثل تلك التى تركها نوستراداموس وراءه . إن كثيرا من هذه النبوءات قد أثبت صدقه خلال الشهور القليلة الأخيرة ، حتى أننى لا أشك إلا قليلا ، فى أن البقية سوف تثبت صحتها أيضا ، إنه لإحساس غريب أن تمعن النظر فى المستقبل هكذا !

" حدث ذات يوم أن سقطت الجرة التى تحتوى على الراهب فوق البلاطات الحجرية ، مصادفة وتحطمت . ومات الراهب المسكين بعد شهقتين صغيرتين مؤلمتين ، رغم كل الجهود التى بذلها البارون لإنقاذه . ودفن جسده فى الحديقة . وجرت محاولة أخرى عميقة لإنتاج راهب آخر على نفس النمط إلا أنها فشلت ، إذ نتج عنها شيء ما أشبه بدورة العلق دون أى حيوية ، ثم مات هذا الشيء فى غضون ساعات قليلة .

" وحاول الملك بعد فترة وجيزة ، فيما بعد الهروب من قارورته أثناء الليل . وجُد جالسا فوق القارورة التى توجد الملكة بداخلها ، يخمشها بأصابعه حتى يزيل الخاتم . كان قد خرج عن مدار عقله ، سريع الحركة للغاية ، رغم ضعفه الشديد بسبب تعرضه للهواء . ومع ذلك فقد أرهقنا بمطاردة حقة بين القوارير – التى كنا نخشى انقلابها . لقد كان غريبا بحق وهو على هذا القدر من الرشاقة ، حتى أننى كنت أشك فى قدرتنا على الإمساك به ، لولا أنه كان يزداد ضعفا لبعده عن

عناصر موطنه الأصلي . أمسكناه ، على أي حال ، ودفعنا به ، وهو يخمش ويعض ، الى قارورته . الا أننا لم ننجح في ذلك إلا بعد أن خمش ذقن الأب الروحي . كان قد أطلق أثناء العراك رائحة غريبة ، كرائحة لوحة معدنية ساخنة تبرد . ولمس أصبعي ساقه ، كانت رطبه مطاطية القوام ، ارسلت بقشعريرة في سلسلتي الفقرية .

" إلا أن مصيبة وقعت ، إذ أخذ وجه الأب الروحي المخموش يتورم ويتسمم ورقد وقد أصابته حمى شديدة وحمل الى المستشفى حيث يرقد حتى الآن في دور النقاهة . إلا أن أشياء كثيرة وهي الأسوأ حدثت بعد ذلك . كان البارون ، باعتباره نمساويا ، محل بحث واستقصاء دائم هنا ، وعلى نحو أخص الآن ، وقد غدا جنون - التجسس ، الذي تجلبه الحرب معها ، في أعلى مستوياته . بلغ مسمعي أن السلطات سوف تجري معه تحقيقا دقيقا . استقبل هو الأخبار بهدوء اليائس . كان من الواضح أنه غير قادر على احتمال حضور أناس غير مختصين لفحص معمله . كان قد تقرر « إذابة » البشريين الصغار ودفنهم في الحديقة ، وقد وافقت على معاونته في ذلك بسبب غياب الأب الروحي . لم أعرف ماالذي صبه في القوارير ، إلا أن كل لهب الجحيم قفز منها يغطي سقف المكان بالسناج ونسيج العنكبوت . تضاءل حجم الكائنات الى حجم ديدان العلق المجففة ، أو الخيط البحري المجفف ، والذي يحتفظ به القرويون في بعض الأحيان . كان البارون يزمجر عاليا ، من وقت لآخر ، زمجرات إمرأة تكدح وقد تفصدت جبهته عرقا . أخيرا اكتملت العملية ، وأخذت القوارير في منتصف الليل لطمرها تحت بعض البلاطات السائبة في الكنيسة الصغيرة ، حيث يجب أن تظل هناك ، كما أظن . وأعتقل البارون ، وختم حارس الأملاك على كتبه وأوراقه .

والأب الروحي يرقد ، كما قلت ، في المستشفى . وأنا ؟ حسنا ، إن جواز سفري اليوناني قد جعلني محل اشتباه أقل من غالبية هؤلاء الذين في الجوار . واعتزلت في برجي في الوقت الحاضر . لاتزال كتلة البيانات الماسونية هنالك في الاسطبلات التي كان يسكنها الآب الروحي ، وأنا مَن يتعهدها الآن . لقد كتبت الى البارون ، إلا أنه ، ربما من باب اللياقة، لم يرد عليّ ، ربما عن اقتناع بأن ربطي به قد يقود الى الضرر . وهكذا .. حسنا ، الحرب تمضي حولنا . وأنا أعرف نهايتها ومايلي ذلك حتى نهاية هذا القرن : إنها ترقد هنا الى جواري ، وأنا أكتب إليك ، في صورة سؤال وجواب . ولكن من ذا الذي سيصدقني إن أنا نشرتها كلها – وأنت طبيب العلوم التجريبية ، الشكاك الساخر ، أقلهم جميعا؟.

أما عن الحرب فقد قال باراسيلوس : « كم هي عديدة تفوق الحصر ذاتيات الإنسان ، ففيه ملائكة وشياطين ، سماء وجحيم ، كل ممالك الخلق الحيواني والنباتي والمعدني . وكما يمكن أن يمرض الرجل الصغير الفرد ، فهكذا ايضا يمرض الرجل العالمي الكبير، أمراض تفصح عن نفسها كأمراض تصيب الانسانية كلها . وفوق تلك الحقيقة ، قام التنبؤ بأحداث المستقبل » . وهكذا ياصديقي العزيز ، اخترت أنا الطريق المظلم نحو ضيائي الخاص . إنني أدرك الآن أنه يجب عليّ اتباع هذا الطريق مهما كانت النهاية التي يقودني اليها . اليس ذلك انجازا ؟ ربما كلا . إلا أنه ، بصدق وأمانة ، يبدو لي كذلك . لكنني اسمع الآن ضحكتك تلك !

المخلص لك أبدا

داكابو

والآن ، قالت كليا ، تفضلوا بالضحك » .

قلت ، " ضحكة كتلك التى أسماها بورسواردن ، « الضحكة السوداوية لبلتازار التى تنبىء عن الإيمان بأن النفس لا تعرف شيئا غير مايكيفها هى ، وأن النفس هى الشىء الوحيد الباقى » .

كان بلتازار يضحك الآن بالفعل ، يصفع ركبتيه ، يكور نفسه ، ليصبح أشبه بالمدية . قال ، " هذا الملعون الأحمر ، داكابو (*) ومع ذلك ، فلنكن معقولين ، إن كان ذلك حقا هو التعبير المناسب – إذ لن يحكى لنا حزمة من الأكاذيب . أو ربما يفعل ذلك ، كلا ، إنه لن يفعل ذلك ، ولكن هل يصدق كلاكما ، انتما الأثنان ، ما يقول

" نعم ، قالت كلا . وهنا ابتسم كلانا ، إذ أن ارتباطها بعرافى الإسكندرية يجعلها تنحاز بصورة طبيعية نحو فنون السحر . قالت فى هدوء " انتما تضحكان ." قال بلتازار فى رزانة أكثر ، «إن المرء ، إحقاقا للحق ، عندما يفتش فيما حوله من مجالات مايسمى بالمعرفة التى شققنا طريقها جزئيا ، يفيق على احتمال وجود مناطق كاملة من الظلام ، يمكن أن تنسب الى المناطق الباراسيلسينية – الجزء المغمور من جبل جليد المعرفة – كلا ، عليه اللعنة . يجب أن أعترف أنك على صواب . لقد اعتدنا اليقين من أنفسنا ، نسافر جيئة وذهابا على خطوط ترام الحقيقة التجريبية . لكن المرء ينال أحيانا ضربة خفيفة على الرأس من طوبة شاردة ، ألقى بها من منطقة أخرى . بالأمس فقط ، على سبيل المثال ، أخبرنى بويد بقصة لم يكن صداها أقل غرابة : عن جندى دفن فى الأسبوع الماضى . فى وسعى ، بالطبع ، تقديم تفسيرات تتناسب والحالة ، لكن دون أى يقين . هذا الصبى الشاب ذهب فى إجازة مدة أسبوع الى القاهرة . عاد

(*) بالفرنسية فى الأصل .

بعد أن قضى وقتــا ممتعا ، أو هكذا قال . أصيب فيما بعد بحمى غريبة متقطعة ، بلغت فيها درجة حرارته أقصاها . مات فى غضون أسبوع . تكونت قبل وفاته بساعات قليلة ، مياه بيضاء سميكة فوق مقلتى عينيه ، وظهر تنوء ما أحمر مضىء فوق شبكية العين . كان كل ماردده الصبى أثناء هذيانه ، عبارة واحدة ، " لقد فعلتها هى بابرة ذهبية » ، ولا شىء غير تلك الكلمات . وكما قلت ، كان فى وسع المرء أن ينهى الحالة فى العيادة بتخمين ذكى ولكن .... حتى أكون أمينا فإننى مجبر على الاعتراف بأنها لم تكن تتواءم بالضبط مع أى حالة مسلم بها عرفتها من قبل . كما أن تشريح الجثة لم يفصح ، بالمناسبة ، عن أى شىء يُمكن المرء من المتابعة : اختبارات الدم ، السائل النخاعى ، المعدة .... الخ . ولم يكن هنالك أى اختلال سحائى دقيق أو مألوف (وإن وجد فربما لايمكن تأويلة) . كان المخ بديعا غضا ! هكذا كان على الأقل ، كما يقول بويد . كان يحس بمتعة كبيرة وهو يستكشف الشاب فى عناية . سر يحوطه الغموض ! والآن ماذا كان يفعل هذا الشيطان فى تلك الإجازة ؟ يبدو أن التعرف على هذا الأمر ، غاية فى الصعوبة . إن إقامته غير مسجلة فى أى فندق أو دار ضيافة متنقلة من دور الجيش . إنه لا يتحدث أى لغة غير الإنجليزية . إن تلك الأيام التى قضاها فى القاهرة مفقودة تماما عداً وحساباً . ثم تلك المرأة وإبرتها الذهبية ؟ "

" إلا أن هذا ، فى الحقيقة ، يحدث دوما ، وفى اعتقادى أنك على صــواب " (موجها الحديث الى كليا) " فى اصرارك بعناد على وجود القوى السوداء ، وحقيقة أن بعض الناس يفتحون المندل بنفس البساطة التى أحملق بها فى ماسورة الميكروسكوب . ليس الجميع ، ولكن البعض منهم ، بمن فيهم أشد الناس غباء كسكوبيكى العجوز ، على سبيل المثال . خذى بالك اننى أعتقد أن ماقاله – أعنى المادة المفترضة عن ناروز – إنما كانت هراء من ذلك الذى كان يخرجه

أحيانا عندما يكون نشوان ، يرغب فى الاستعراض : لقد كانت كلها أيضا تمثيلية إلى حد لا تؤخذ معه مأخذ الجد . وحتى إن كانت بعض التفصيلات صحيحة ، فأنه قد اضاف اليها أثناء قيامه بواجباته . إن نمرود ، رغم كل شيء، هو الذى كتب المحضر (*) ، ولا بد أن هذه الوثيقة كانت تنقل من يد الى يد " .

" ماذا عن بلتازار ؟ " تساءلت فى دهشة ، وأنا أحس بالاستياء فيما بينى وبين نفسى ، لأن كليا إئتمنت بلتازار على أشياء حجبتها عنى . ولاحظت الآن أنها كانت تنظر بعيدا وقد شحبت تماما . الا أن بلتازار بدا وكأنه لم يلحظ شيئا واستمر فيما هو منغمس فيه . " إن عناصر الأقصوصة - أعنى محاولته جرك معه الى المقبرة . اه ، ألا تعتقــدين بذلك ؟ وعن البــكاء الذى يمكن أن تســمعيه." وتوقف فجأة . لقد لاحظ ، أخيرا ، ماعلى وجهها من تعبير . " ياألهى، كليــا ياعزيزتى " ، واستمر يؤنب نفسه ، " آمل ألا أكون قد خنت شيئا إئتمنتنى عليه . لقد تكدرت فجأة . هل طلبت منى ألا أكرر حكى قصة سكوبى ؟ " وأمسك بكلتا يديها ، وأدارها لتواجهه .

كانت بقعة حمراء قد ظهرت على كل من وجنتيها . هزت رأسها ، عضت شفتيها ، رغم أنها لم تقل شيئا ، كأنما قد أصابها الحنق والغيظ . اخيرا قالت " ليس هنالك من أسرار . إننى ، فى بساطة ، لم أخبر دارلى بذلك لأننى ... حسنا ، إنه تصرف أحمق كما تقول : إنه لايؤمن بمثل هذا الهراء . لم أرغب فى الظهــور أمامه بمظهر أكثر غباء مما أنا عليه ." ومالت تقبلنى على وجنتى معتذرة . لقد أحسست بضيقى ، كما أحس به بلتازار أيضا فتدلت رأسه وقال ، « لقد تحدثت بعيدا عما نحن فيه ! سيغضب الآن منك " .

" ياإلهى ، كلا » ! قلت محتجا ، " لقد انتابنى الفضول ، فى بساطة . ذلك كل مافى الأمر . ليس لدى أية نية للتدخل ، ياكليا ، فيما لا يعنينى " .

صدرت عنها إيماءة حنق يشوبه الألم المبرح وقالت ، " حسنا ، ليس الموضوع بذى أهمية . سوف أخبركم بالأمر كله " . وبدأت تتكلم فى سرعة كأنما تتخلص من مسألة كريهة هى مضيعة للوقت . " كان ذلك أثناء العشاء الأخير الذى أخبرتك عنه ، قبل أن أذهب الى سوريا . كان ثملا ، وأنالا أنكر ذلك . قال ماأخبرك به بلتازار الآن ، وأضاف وصفا لشخص ما ، وقد أوحى لى هذا الوصف بأنه شقيق نسيم . قال وهو يحدد المكان بإبهامه فوق شفتيه هو : (شفتاه مشقوقتان هنا) ، لقد رأيته مغطى بجراح صغيرة ، يرقد فوق منضدة . كانت هنالك بحيرة فى الخارج . لقد وصل الى قرار . سوف يعمل على جرك اليه . سوف تكونين فى مكان مظلم ، مسجونة ، عاجزة عن مقاومته . حقا ، هنالك أحدهم فى الجوار يمكن أن يعاونك إن استطاع ، إلا أنه لن يكون قويا بما يكفى " . ووقفت فجأة ، وأنهت قصتها كمن يقصف غصنا قالت ، " وهنا تفجرت دموعه عند هذه النقطة" .

كان غريبا ذلك الاكتئاب الذى حط فوق أرواحنا بسبب هذه التلاوة الأشبه بالهذيان ، وإن كانت منذرة بالسوء ، شيء ماكريه ، مثير للقلق ، كان يغزو شمس الربيع الساطعة الرائعة والهواء الطفيف الحدة . وأخذ بلتازار ، فى ذلك الصمت الذى تلا ، يطوى ويفرد معطفه ، فى غم وكدر ، فوق ركبته ، بينما استدارت كليا تتأمل المنحنى البعيد للميناء الكبير ، بما فيه من أساطيل صغيرة ، من زوارق

مدهونة بطريقة تكعيبية ، وفلوكة السباق المتناثرة كأوراق زهر مضيئة ، تقطع هدير الميناء ، تنشر بهجتها وهى تتجه نحو الشمندوره الزرقاء البعيدة . إن الاسكندرية تعود فى الواقع ، الآن ، الى طبيعتها ثانية ، ترقد فى المياه العميقة الراكدة للحرب المتراجعة ، تستعيد مسيراتها . ورغم ذلك ، أظلم النهار حولنا فجأة ، ضاغطا على أرواحنا - إنه شعور يزيد من غيظنا بسبب سخف باعثه . ولعنت إحساس سكوبى بأهمية ذاته والتى أقامها على قراءة الطالع .

" إن تلك المواهب ، كان يمكن أن تدفع به فى مهنته ، قليلا إلى الأمام ، إن كانت هى حقيقية بالفعل " ، قلت وقد ضاق صدرى .

ضحك بلتازار ، إلا أن ضحكته كان يشوبها شك حزين . كان شعوره بالندم لإثارة هذه القصة الغبية واضحا للعيان تماما .

" دعونا نذهب من هنا " ، قالت كليا فى حدة . بدت وقد أصابها الضيق أيضا الى حد ما . أفلتت ذراعها للحال عندما أمسكت به . وجدنا عربة حنطور عتيقة . سارت بنا فى بطء وصمت إلى المدينة .

« كلا ، عليه اللعنة » ، صاح بلتازار أخيرا . " دعونا نذهب ، على الأقل ، الى قرب الميناء لنشرب " ، أعاد توجيه سائق العربة ، دون انتظار إجابة منا ، ليسرع الخطى فى صمت عبر المنحنيات الهينة للكورنيش الكبير ، نحو نادى اليخت ، فى الميناء الخارجى ، حيث أصابنا منه الآن ، شىء خطير رهيب . اننى اتذكره بوضوح دون خلل ، فى هذا اليوم الربيعى . بحر أخضر نافر يضىء المنائر ، بقع رقيقة ، هنا وهناك ، من دفقات داكنة لريح ناعمة سريعة . آلات الماندولين تعزف فى ضجر فى المدينة العربية ، وكل رداء يتوهج متألقا مثل عربة أطفال ملونة . إن كل هذه الروعة سوف تظلم ، تتسمم ، فى غضون ربع ساعة بسبب

موت مفاجيء ، لا معنى له على الإطلاق : لكن المأساة إن كانت تضرب ضربتها فجأة فإن اللحظة الفعلية للضربة تستمر فى ذبذبتها ، تمتد فى الزمن مثل الصدى الكريه لناقوس كبير ، يخدر الروح والإدراك . فجأة ، نعم ، لكنها تسرى فى بطء شديد فى الوعى بها وفهمها – تموجاتها تنبسط ، تنتشر دوما فوق العقل والرشد – توسع دوائر الخوف . إلا أن الحياة العادية تسير طوال الوقت رغم ذلك ، خارج مركز اللوحة ، إن جاز القول ، بحكايتها الصغيرة المأساوية ، دون أن تعير أى شيء التفاتا . (إننا حتى لم نسمع صوت الطلقات ، مثلا ، إذ حملت الرياح خنتها الكئيبة بعيدا) .

ومع ذلك شُدت انظارنا ، كما تشد قوة خطوط لوحة زيتيه بحرية كبيرة ، شُدت الى فوضى بالغة الضآلة لقوارب تصطدم ببعضها البعض ، عند الجانب البعيد عن مهب الريح لبارجة حربية كانت تحوم فى الفضاء مثل كاتدرائية رمادية . كانت شراع القوارب ترفرف ، تهتز مثل فراشات تبارى النسيم . كان هنالك حركة غامضة لمجاديف وأذرع أشخاص صغار للغاية على هذا المدى ، حتى أنه يصعب التعرف عليهم أو تبينهم . وكان لهذا الاضطراب الضئيل للغاية ، رغم ذلك، قوة جاذبة للأنظار – لمن كان يعرف معنى الهاجس الداخلى ؟ رأينا المنظر أمامنا ينبسط مثل منظر بحرى فخيم لأستاذ ماهر . كان التنوع المميز لقوارب اللاجئين الصغيرة من كل أركان الشرق الأدنى – تصميم القوارب ونظام قلوعها قد أضفى على المنظر حسية وإيقاعا جميلا فى مواجهة المياه المتلألئة . كان كل شيء يحبس الأنفاس ، رغم أنه كان طبيعيا . رفاصات قطر السفن تنعق . الأطفال يصرخون . وجاءت من المقهى خشخشة الألواح « تريك تراك » وأصوات الطيور . طبيعية عالم بأكمله ، كانت تحيط اللوحة الضئيلة المركزية بقلوعها الخفاقة ، والإيماءات التى لم يكن فى وسعنا ترجمتها ، والأصوات الواهنة . وتمايلت الزوارق ، وارتفعت الأذرع وسقطت .

" حدث شىء ما " ، قال بلتازار ، وهو ينظر بعينيه الداكنتين الضيقتين الى المشهد . وتوقف الحصان للحال فجأة ، وكأن هذه العبارة قد أثرت عليه . لم يكن هنالك غيرنا ، الى جوار الرصيف غير شخص واحد كان قد رأى مارأينا ، فوقف ، هو أيضا ، يحملق بفم مفتوح ، مندهشا ، ذاهلا متنبها الى أن شيئا ما ، خارج عن المألوف ، يجرى هنالك على قدم وساق . ومع ذلك ، فهنالك أناس يلغطون ويضجون ، وباعة ينادون ويصيحون . وعند قدمى " الرجل وقف أطفال ثلاثة يلعبون فى استغراق تام ، وقد وضعوا قطعا من زجاج فوق خط الترام ، يأملون أن يروها وقد طحنت الى مسحوق عندما يمر عليها الترام التالى . وحامل ماء يدق أكوازه النحاسية صائحا ، " تعالوا الىّ أيها العطاشى " . وانسلت ، فى الخلفية ، باخرة ركاب دون ضجة ، كأنما تسير على حرير عبر دربها العام الأخضر نحو البحر المفتوح .

" إنه بومبال " ، أخيرا صاحت كليا فى نبرة حيرى ، واضعة ذراعها فى ذراعى فى حركة قلقة . كان حقا بومبال . وكان ماحل بهما قد جرى هكذا : كانا ينساقان على غير هدى حول الميناء ، فى زورقه الصغير ، بما اعتاده من تراخ وغفلة ، فشردا الى قرب شديد من البوارج الفرنسية ، حملتهما ، الى جانبها البعيد عن الريح ، خارجا عن مجراها ، لفحة ريح لم تكن فى الحسبان ، انقضت عليهما . كم كان مثيرا للسخرية ، ذلك الذى خططه سادة المسرح غير المرئيين ، والذين يوجهون أفعال الإنسان ، والسرعة التى تتم بها ! لقد كانت السفن الفرنسية ، رغم وجودها فى الأسر ، تحتفظ بكل من اسلحتها الصغيرة وإحساس بالخجل ، مما وسم تصرف الفرنسيين بسرعة الغضب ، وعدم القدرة على التنبؤ بما يمكن أن يقدموا عليه . كان لدى الحراس ، فوق تلك السفن ، أوامر باطلاق طلقة تحذيرية على مقدم أى قارب يقترب الى اثنى عشر مترا من

أى بارجة . وحدث ، إذن، تنفيذا لتلك الأوامر فقط أن اطلق احد الحراس طلقة على شراع قارب بومبال ، عندما اندفع متجاوزا الخط الأحمر نحو سفينته . كان ذلك مجرد انذار وتحذير دون أى نية لضرر متعمد . كان من الممكن حتى الآن أن .... ولكن كلا . ماكان للأمر أن يقع هكذا . إذ أن صديقى ، وقد تغلب عليه الغضب وشعور بالخيبة ، لمعاملته هكذا من هؤلاء الجبناء الضعفاء الذين هم أبناء جلدته ، تحول لونه الى الأرجوانى حنقا وغيظا ، فترك محرك الدفة تماما لينتصب واقفا معرضا نفسه للخطر ، هازاً قبضته الضخمة ، صارخا ، " أوباش" (١) و " أيها المخادعون ! " (٢) ومايمكن أن يكون صفة محدودة - " جبناء أنذال ! (٣) " .

هل سمع الطلقات بنفسه ؟ هذا أمر مشكوك فيه ، فى ظل كل هذا الإرباك الذى أحدثه ، إذ إن الزورق مال وجمح واستدار حول نفسه متخذا مسارا آخر ما أدى الى وقوعه . ولاحظ فى تلك اللحظة ، وهو راقد هناك ، يستعيد الإمساك بذراع الدفه الثمين ، لاحظ فوسكا فى ذات لحظة سقوطها ، ولكن فى بطء لا نهائى . لقد قال، فيما بعد ، إنها لم تعرف بإصابتها، ربما أحست ، فى بساطة بغمة وبتشتت انتباهها بطريقة غامضة غير عادية ، بالخدر السريع للصدمة الناتج ، فى سرعة شديدة ، عن جرحها . لقد تمايلت مثل برج عالٍ ، وأحست بألواح مؤخرة السفينة تقترب فى بطء لتضغط نفسها الى وجنتها . رقدت ، هنالك ، مفتوحة العينين على اتساعهما ، لينة طرية ، مثلما يرقد ديك برى جريح ، عيناه تبرقان رغم الدم المتدفق من منقاره . نادى اسمها ولم يتلق غير صمت الكلمة الجسيم ، إذ إن طوفانا كان يشتد ، يدفع بهما الآن نحو اليابسة .

---

(١) ، (٢) ، (٣) بالفرنسية فى الأصل .

لقد جاء فى اثر ذلك اضطراب من نوع آخر ، انجذبت قوارب أخرى كما تجذب الجراح الذباب . أخذت تتجمع ، تصرخ ، تقدم النصيحة وتظهر الاشفاق . كانت فوسكا ، فى تلك الأثناء ، بعينين مفتوحتين غائمتين تبتسم لنفسها ابتسامة ذلك النوع الآخر من الأحلام .

كانت تلك هى اللحظة التى استيقظ فيها بلتازار من سباته فجأة ، مناضلا للخروج من العربة ، دون كلمة واحدة . بدأ ترنحه الغريب ، أخذ يجرى عبر المرسى إلى هاتف الاسعاف الميدانى الأحمر ، بما فيه خط الطوارىء . وسمعت تكة المستقبل الصغيرة وصوته يتحدث متأنيا ثابت الجأش . واستجاب المركز الميدانى، الذى كان على بعد حوالى خمسين ياردة فقط ، الى الاستدعاء فى سرعة تكاد تكون اعجازية . وسمعت الصليل العذب لجرس سيارة الإسعاف ورأيتها تسرع نحونا عبر الحصى . عادت الوجوه تتجه ثانية ناحية قافلة القوارب الصغيرة – وجوه ! ارتسم عليها فقط الصبر والاستسلام أو الفزع . كان بومبال راقدا فوق الألواح على ركبتيه وقد أحنى رأسه . وكان وراءه ، "على" النوتى ، أول من أدرك الأمر وقدم العون ، يدير الدفة بمهارة . كانت كل القوارب الأخرى ، تطير على امتداد نفس المسار ، تتجمع حول بومبال كأنما تواسيه فى همة . استطعت قراءة الإسم " مانون " ، والذى كان قد أطلقه ، منذ مدة لاتزيد على أشهر ستة ، على القارب فى فخار واعتزاز . بدا كل شىء وكأنه قد غدا محيرا مربكا ، يهزه بُعد جديد تضخمه الشكوك والمخاوف .

وقف بلتازار فوق الرصيف ، يؤله نفاد صبره ، يستحثهم فى عقله أن يسرعوا ، سمعت لسانه يتكتك فى سقف حلقه ، تك تك ، يتكتك فى رقه وتأنيب ، وتساءلت إن كان ذلك موجها ضد بطئهم أم ضد الحياة ذاتها وأنماطها التى لم تعدّ سلفا .

أخيرا وصلوا إلينا . كان فى وسع المرء أن يسمع فى وضوح صوت أنفساهم، وصوت أنفسانا تشاركهم ، قرقعة سيور الحمالة الجلدية ، صليل الصلب المصقول ، القرقعة الصغيرة للكعوب المرصعة بمسامير النعال كبيرة الرأس . اختلطت كلها معا فى نشاط مضطرب ، الإنحناء والرفع ، أصوات كالقباع بينما الايدى الداكنة تجد لها مكانا تمسك به الحبل حفاظا على ثبات الزورق ، والأصوات الحادة كالسنون للأصوات المتصادمة وهى تعطى الأوامـر : « تقدم للمساعدة » و « برفق الآن » ، اختلطت كلها بموسيقى رقصة » الفوكس تروت " البعيدة القادمة من مذياع إحدى السفن . وتمرجحت النقالة مثل أرجوحة الطفل ، مثل سلة فاكهة فوق كتفى عربى داكنين ، وفتحت أبواب الصلب عن مدخل أبيض كالنحر .

كان وجه بومبال يكتسى بضبابية شاردة . كانت تقاطيعه مشتتة ، مزرقة اللون تماما . ارتمى فوق الرصيف مترنحا كأنما ألقى به من سحابة . سقط على ركبتيه ثم عاد الى قدميه . كان يسير هائما مترددا وراء بلتازار وحاملى المحفة ، يمأمىء مثل شاه ضالة – لابد أن الدم المتناثر فوق " اسباندريلها " الأبيض الثمين ، والذى اشتراه لها منذ أسبوع مضى من سوق جوشن التجارى ، كان معها . إن التفاصيل الصغيرة هى التى تصدم المرء كالضربات فى مثل تلك اللحظات . بذل محاولة كى يتشعبط فى النحر الأبيض ، إلا أنه نُهر بحدة . أغلقت الأبواب فى وجهه . لم تعد فوسكا الآن ملكا له ، غدت ملكا للعلم . وقف متذللا وقد أحنى رأسه ، مثل أمرىء فى كنيسة ، حتى يفتحوا ثانية ويسمحوا له بالدخول . كان يبدو وكأنه لايكاد يتنفس . أحسست برغبة لا إرادية فى الذهاب والوقوف الى جواره ، إلا أن ذراع كليا منعنى . انتظرنا صابرين مذعنين مثلنا مثل الأطفال ، نستمع الى الحركات الغامضة القادمة من داخل سيارة الإسعاف،

صوت الأحذية . ثم فتحت الأبواب بعد فترة دامت طويلا ، وهبط بلتازار مرهقا ، " أدخل ، تعالى معنا " . نظر بومبال اليه نظرة واحدة مضطربة وحشية ، ثم حول فجأة وجهه اليّ وكليا وقد كسى ملامحه الم ممض - صدرت عنه إيماءة واحدة ، مادا ذراعيه في يأس من لا يدرك شيئا ، قبل أن يصفق بيد سمينة على كل من أذنيه ، كأنما يتجنب سماع شيء ما . فجأة فرقع صوت بلتازار مثل رق من جلد، " أدخل " ، قال فى خشونة وغضب كأنما يتحدث الى مجرم . سمعته يضيف ، بينما يصعدان الى داخل السيارة الأبيض ، فى صوت أكثر انخفاضا، " إنها تموت " ، صفقت الأبواب الحديدية وهى تغلق ، وأحسست بيد كليا تتحول الى ثلج فى يدى .

وهكذا جلسنا ، جنبا الى جنب ، دون كلام ، فيما بعد ظهر هذا اليوم الربيعى الرائع ، والذى كان قد بدأ غوصه بالفعل فى الغسق . اشعلت ، أخيرا ، سيجارة . سرت بضع ياردات ، على امتداد الرصيف بين العرب الذين كانوا يتبادلون الحديث ، يصفون الحادث ، كل للآخر ، فى نبرات كالعواء . كان " علىّ" على وشك أن يعود بالزورق الى مرسى القوارب فى نادى اليخت . كان كل مايحتاجه منى شعلة لسيجارته . لاحظت ، عندما نفخ الدخان ، أن الذباب قد وجد طريقه الى الدم فوق الواح أرضية الزورق . " سوف أنظفها " ، قال " على " ، وقد لاحظ اتجاه نظرتى . قفز الى القارب فى رشاقة مثل قط . كان يود أن يقول أن ماحدث كان عملا (١) سيئا " ، إلا أن انجليزيته كانت قاصرة فصاح « سما سيئا " ياسيدى " . أومات برأسى . كانت كليا لاتزال جالسة فى العربة تنظر الى راحتيها . بدت هذه الحادثة المفاجئة وكأنها قد فصلتنا عن بعضنا البعض . " لنعد ،" قلت أخيرا . طلبت من السائق أن يعود بنا الى المدينة التى كنا تركناها منذ قليل " .

---

(١) Poison - Business -- المترجــــم .

" لنصلى لله أن تكون بخير " ، قالت كليا أخيرا . « إنه لأمر قاس للغاية » .

" لقد قال بلتازار أنها تموت . لقد سمعته " .

" ربما يكون مخطئا " .

" ربما يكون مخطئا " .

إلا أنه لم يكن مخطئا ، إذ إن فوسكا والطفل كانا قد ماتا ، رغم أننا لم نعرف تلك الأخبار إلا أخيرا فى المساء . أخذنا نطوف غرف مسكن كليا فى كسل وفتور عاجزين عن التركيز فى شىء ما . أخيرا قالت ، " من الأفضل أن تعود ، تقضى الأمسية معه . ألا ترى ذلك " . لم أكن متأكدا مما قالت . " أعتقد أنه يفضل البقاء منفرداً ."

" عد " ، قالت . ثم أضافت فى حدة ، " إننى لا أتحملك وأنت تتسكع هنا فى وقت كهذا ... أوه ، ياعزيزى ، لقد أسأت اليك . إننى آسفة " .

" بالطبع لم تسيئى الىّ أيتها الساذجة . لكننى سأذهب " .

كنت أفكر طوال الطريق عبر شارع فؤاد : إن لمثل تلك الإزاحة المحدودة النمط، لحياة بشرية واحدة ، قوة قادرة على التغيير الى حد كبير . إن مثل ذلك الاحتمال لم يقع حرفيا لأىّ منا . إننا نستطع ، فى بساطة ، أن نهضمه ، أن نضعه فى الصورة التى شيدها بومبال بنفسه ، بمثل تلك العناية . إن هذه الحقيقة الصغيرة السخيفة قد سممت كل شىء – حتى مشاعرنا نحوه تحولت الى فزع ومشاركة وجدانية ! كم كانت قاصرة لا تفى بالغرض ، مثلها فى ذلك مثل العواطف ، كم هى عاجزة عن أن تكون ذات نفع . كان علىّ أن أستبعد غريزتى تماما ! أحسست كأنى لا أود رؤيته البتة ثانية – حتى لا أثير خجله . سم سيىء حقا . رددت عبارة "على" الىّ مرة بعد أخرى .

كان بومبال ، عندما عدت الى هناك ، يجلس على كرسى النقرس ، غارقا ، كما هو واضح ، فى التفكير . كان الى جواره كأس ملىء بالويسكى الخالص ، بدا أنه لم يمسسه . كان ، على أى حال ، قد غيرّ ملابسه وارتدى " الروب دى شامبر " ، المرسوم عليه صورة طاووس ذهبى ، وفى قدميه خف مصرى قديم بال أشبه بجواريف ذهبية . دخلت الحجرة غاية فى الهدوء . جلست قبالته دون أن أنطق كلمة . لم يبد عليه أنه ينظر الىّ بالفعل ، ورغم ذلك أحسست ، على نحو ما ، أنه يدرك وجودى ، إلا أن عينيه بدتا غائمتين مثبتتين على منتصف المسافة بيننا . كانت أصابعه تمارس معا فى رقة ، لعبة قرن الغزال . قال ، وهو لايزال ينظر نحو النافذة ، فى صوت ضئيل له صرير - وكأن للكلمات قدرتها على تحريكه رغم أنه لم يكن يعرف بالضبط معناها ، " لقد ماتت يادارلى . لقد مات كلاهما" . أحسست بثقل من رصاص فوق قلبى ." ليس هذا من العدل فى شىء (*) أضاف وهو ذاهل ، ثم أخذ يشد جانب لحيته بأصابعه السمينة . كان يتصرف بطريقة مسطحة تماما ، غير عاطفية - كرجل يفيق من ضربة حادة. تناول فجأة جرعة من الويسكى ، ثم أجفل يسعل مختنقا . مال الى الأمام، تناول قلما واضمامة الورق التى فوق المائدة ، أخذ يشخبط ، تماما مثل طفل ، حلقات من أزهار وأقراص وتنين . " يجب أن أذهب غدا ، لأول مرة منذ أجيال الى الاعتراف "، قال فى بطء كأنما يحتاط فيما يقول تحوطا لانهائيا . " لقد أخبرت حميد أن يوقظنى مبكرا . هل تمانع فى مجىء كليا فقط ؟ " . هززت رأسى . فهمت أنه يعنى حضورها الجنازة . تنهد فى ارتياح . " حسنا » ، قال متناولا كأس الويسكى بينما يقف . فتح الباب فى تلك اللحظة ، وظهر بوردر سارح الفكر . تغير بومبال فى لمح البصر ، ربما كان ذلك بسبب وجود واحد ما

(*) بالفرنسية فى الأصل .

من جنسه . اطلق سلسلة طويلة من الشهقات العميقة . تعانق الرجلان وهما يتبادلان كلمات وعبارات غير مترابطة ، كأنما يواسى كل منهما الآخر فى كارثة أصابت كلاهما بنفس القدر من الجراح . رفع الدبلوماسى العجوز قبضته النسائية البيضاء فى الهواء ، وقال فجأة فى عمق وسخف ، " لقد قدمت بالفعل احتجاجا قوياً . أصابتنى الحيرة ، لمن قدم احتجاجه ؟ للقوى الخفية التى تصدر مرسوما بأن الأشياء سوف تنتهى على هذا النحو أو ذاك ؟ خرجت الكلمات تبقبق بلا معنى فى هواء حجرة الاستقبال الباردة . كان بومبال يتكلم .

قال " سوف اكتب اليه ، أخبره بكل شىء ، أعترف له بكل شىء " .

" جاستون " . قال رئيسه فى حدة وتأنيب . " يجب ألا تفعل أبدا مثل هذا الشىء . إن ذلك سوف يزيد من شقائه فى سجنه . ليس فى ذلك أى عدل . استمع الى نصيحتى ، يجب نسيان الأمر برمته " .

" نســيان ! " ، صاح صديقى كأنما لدغتـه نحلة . " إنك لا تفهـم الأمـر . نسيان ! يجب أن يعرف هو ، من أجلها هى " .

" يجب ألا يعرف أبداً ، قال الرجل الأكبرسنا ." أبداً " .

وقفا لفترة طويلة ، أيديهما متماسكة ، يحملقان فى بعضهما البعض عبر دموعهما وهما شاردان . فتح الباب فى تلك اللحظة ، ليسمح بظهور المعالم الخنزيرية للأب بول ، والذى لم يكن يوجد البتة بعيدا عن مركز أى فضيحة ، كأنما لتكتمل الصورة . وقف فى مدخل الباب يحيط به جو من المداهنة وقد تشكلت ملامحه بنهم رضائه عن ذاته . " يابنى المسكين " ، قال وهو يسلك زوره ، ثم قام بحركة غامضة بكفه ذات المخالب ، كأنما ينثر علينا الماء المقدس ، وتنهد ، ذكرنى بنسر ما عديم الشعر . ولدهشتى أخذ يقعقع عبارات قليلة مواسية باللاتينية .

تركت صديقى بين هذين المعزيين ضخمى الأجسام كالأفيال ، يخفف عنى ، على نحو ما ، إنه لا مكان لى فى كل ذلك الاحتفال المفكك من الرثاء اللاتينى . ضغطت يده وأنسللت من الشقة موجها خطاى نحو غرفة كليا .

أقيمت الجنازة فى اليوم التالى . عادت كليا منها شاحبة مشدودة . القت بقبعتها عبر الحجرة ، وهى تهز شعرها بحركة قلقة - كأنما لتطرد كل الذكرى الكريهة للحادثة . رقدت منهكة فوق الأريكة ، ووضعت ذراعيها فوق عينيها .

" كان الأمر شنيعا " ، أخيرا قالت ، " شنيعا بحق يادارلى . أولا وقبل كل شىء كانت هنالك مسألة حرق الجثة . أصر بومبال على تنفيذ رغباتها رغم الاحتجاجات العنيفة التى صدرت عن الأب بول - أى وحش هو هذا الرجل ، لقد تصرف كأنما جسدها قد غدا ملكا للكنيسة . غضب بومبال المسكين ، ونشب بينهما شجار رهيب حول ترتيب التفاصيل التى سمعتها . كما ... أننى لم أزر المحرقة الجديدة أبدا ! إنها لم تنته بعد . إنها تقف هنالك فى أرض رملية للنفايات ، يتناثر فيها القش وزجاجات الليموناندة المستعملة ، تكتنفها كومة من نفايات هياكل السيارات القديمة . إنها تبدو حقا مثل فرن ارتجل على وجه السرعة فى معتقل - طبقات تثير الفزع من قرميد مرصوص وأزهار نصف ميتة تنبت من الرمال ، قضيب حديدى قصير به سحاجات ينزلق النعش عليها . ياله من قبح ! ووجوه كل هؤلاء القناصل أو ممثليهم ! حتى بومبال ، بدا مأخوذا تماما من هذه البشاعة . وعملية الاشعال ! كان الأب بول ، بالطبع ، فى مقدمة الصورة ، يستمتع بدوره ، ثم أخذ النعش يصر صريرا نابيا وهو يتدحرج بعيدا فى ممر الحديقة ، ليميل الى كوة من صلب . ووقفنا معلقين ، على هذه الساق مرة وعلى تلك أخرى ، واتجه الأب بول الى ملء هذه الفجوة المريكة بصلوات ارتجالية، إلا أن مذياعا فى الجوار أخذ ، كل تلك اللحظة ، يصدر فالسات من فيينا ، وبذل

سائقون عديدون محاولات لتحديد مكانه واسكاته ، ولكن دون جدوى . لم أحس في حياتي أبدا بمثل هذا الشقاء ، وأنا واقفة في عشة الدواجن الموحشة تلك ، وقد ارتديت أفضل ثيابي . كانت هنالك رائحة تفحم بشعة تصدر عن الفرن. لم أكن أعرف حينئذ أن بومبال كان ينتوي نثر رمادها في الصحراء ، وأنه قد قرر أنني وحدي من سوف تصطحبه في رحلته . ولم أكن أدري أن الأب بول ، فيما يخص هذا الأمر – وقد اشتم فرصة لمزيد من الصلوات ، كان قد حسم أمره بحده ، أن يفعل نفس الشيء ، كان كل ماتلا ذلك مفاجأة لي .

" حسنا ، أخيرا أصبح الناووس [1] معدا – وأي ناووس ! كان وخزة حقيقية في عيوننا جميعا . كان أشبه بما يزهو به حلواني بذل جهدا لإعداد شيء ما مناسب لشيكولاته رخيصة الثمن . وحاول الأب بول خطفه ، إلا أن بومبال المسكين أمسك به بقوة بينما نجرجر انفسنا نحو السيارة . يجب أن أقول أن بومبال قد أظهر هنا ثبات عزمه . " لن يكون أنت " ، قال بينما بدأ القس صعود السيارة . " سأذهب وحدي وكليا » ، وأومأ لي برأسه .

" يابني » ، قال الأب بول في صوت شرس منخفض : « سوف آتي أنا أيضا

« لن تأتي » ، قال بومبال . " لقد أديت مهمتك » .

« يابني إني قادم » ، قال هذا الوغد العنيد .

« وبدا للحظة أن الأمر سوف ينتهي بتبادل اللكمات . هز بومبال رأسه للقس ، محملقا فيه بعينين غاضبتين . صعدت الى السيارة ، وأنا أحس بالحمق الشديد . دفع بومبال الأب بول بأفضل الأساليب الفرنسية – بقوة في الصدر – صعد وصفق الباب . انتشر الهمس بين القناصل المجتمعين تعليقا على هذا الإزدراء

---

(١) تابوت صغير في حجم صندوق الحلي يوضع فيه الرماد – المترجم .

العلنى للكـــاهن ، الا أن أحدا لم ينطق بكلمة . شـــحب القس غضـــبا . تحرك حركة مالا إرادية - كأنه ســيهز قبضته فى مواجهة بومــبال ، الا أنه عــدل عن فعل ذلك .

" وانطلقنا . اتخذ السائق طريقه الى الصحراء الغربية . كان يتصرف ، كما هو واضح ، طبقا لأوامر سابقة . جلس بومبال ساكنا تماما وقد وضع على ركبتيه هذه البونبونيره [١] المروعة يتنفس من خلال انفه وعيناه مغلقتان ، كأنما يستعيد رباط جأشه بعد كل محاولات الصباح . مد يده يمسك بيدى ، وقد جلسنا، هكذا ، صامتين نراقب الصحراء تمتد على جانبى السيارة ... مضينا بعيدا جدا قبل أن يطلب من السائق أن يقف . ثقلت أنفاسنا . خرجنا من السيارة ووقفنـا لحظـة ، دون هدف إلى جانب الطريق - خطا خطـوة أو أثنتين فى الرمال ثم توقف ناظرا الى الوراء ! « الآن سوف أقوم بالمهمة » ، . انطلق فى مشيته المتثاقلة الكسولة حوالى العشرين ياردة فى الصحراء . قلت للسائق فى عجلة ، « سق مدة خمس دقائق ، ثم عُد الينا » . لم يلتفت بومبال لصوت السيارة وهى تبدأ سيرها . سقط فجأة فوق ركبتيه مثل طفل يلعب فى حفرة رملية ، إلا أنه ظل ساكنا مدة طويلة . كان فى وسعى أن أسمعه وهو يتحدث فى صوت حميم ، رغم أننى لا أستطيع القول ، إن كان يصلى أم يتلو شعرا . أحسست أننى بائسة بصورة يائسة فى هذا الطريق الصحراوى الخالى والأسفلت يومض بالحرارة .

" بدأ يخمش فى الرمل أمامه ، ليملأ كفيه منه مثل المسلمين ويصبه فوق رأسه، كان يصدر عنه ضجيج أنين غريب . رقد ، أخيرا ، ووجهه الى الأرض

---

(٣٥) علبة حلـوى - المترجم .

وظل ساكنا تماما . أخذت تكات الدقائق تتوالى . سمعت صوت السيارة قادمة من بعيد فى بطء نحونا – كانت تسير بسرعة أشبه بخطوة السائر .

« بومبال » ، قلت أخيرا . لم يصدر عنه أى رد . سرت أقطع المسافة بيننا ، أحس بحذائى يمتلىء بالرمال الحارقة . لمست كتفه ، فوقف للحال ، وأخذ ينفض التراب عن نفسه . بدا ، فى الحال ، فجأة ، مسناً بطريقة مخيفة ، " نعم" ، قال فى تردد ، ونظرة جفلة تدور حوله فى المكان كله ، كأنما أدرك ، لأول مرة ، أين هو ، « خذينى الى المنزل ، ياكليا " . تناولت يده كأنى أقود رجلا أعمى – جذبته على مهل عائدة الى السيارة التى كانت قد وصلت الآن .

" جلس الى جوارى ، ينظر فى حيرة ثم بدأ يعوى ، كأنما مسته ذكرى ماحتى لحمه الحى ، كان مثل صبى صغير جرح ركبته . وضعت ذراعى حوله ، كنت سعيدة للغاية انك لست هناك – كانت روحك الانجلوساكسونية قد تلوت حتى الأطراف . ومع ذلك ظل يردد ، » لابد أن المسألة قد بدت سخيفة . لابد أن المسألة قد بدت سخيفة " . وفجأة آخذ يضحك بطريقة هيستيرية . كانت لحيته مليئة بالرمال" تذكرت فجأة وجه الأب بول » ، أخذ يشرح موضحا ، وهو لايزال يضحك ضحكة هيستيرية عالية ، اشبه بتلميذة . ثم تماسك فجأة ، مسح عينيه ، قال وهو يتنهد فى حزن ، لقد غُسلت كُليةً ، إننى منهك تماما . أحس أننى قادر على النوم اسبوعا بكامله " . وكان ذلك ، على الأرجح ، ماسوف يفعله . أعطاه بلتازار جرعة منوم قوى . انزلته عند مسكنه ، وجاءت بى العربة الى هنا . إننى لاأقل عنه إرهاقا . الحمد لله ، لقد انتهى كل ذلك . انه سوف يبدأ حياته ، على نحو ما ، حياة جديد تمام الجدة " .

دق جرس الهاتف . جاء صوت بومبال مرهقا حائرا ، كأنما يجسد هذا الاقتراح الأخير ، قال " دارلى ، أهو ذا أنت ؟ حسنا . نعم لقد فكرت فى وجودك

هناك . لقد أردت ، قبل ذهابي الى النوم أن أخبرك حتى يمكنك اتخاذ الترتيبات اللازمة حول المسكن . إن بوردر سوف يرسلنى فى بعثة الى سوريا . سوف أغادر مبكرا فى الصباح . سأحصل ، إن حدث ذلك ، على علاوات ، وأصبح قادرا على الحـفاظ ، فى سهولة على الجـزء الخـاص بى من المسكن حتى أعـــود . إه ؟ " .

" لاتقلق بالك بهذا الأمر " ، قلت .

" لقد كانت مجرد فكرة " .

" نم الآن " .

تلا ذلك صمت طويل . أضاف ، " إلا إننى سأكتب لك بالطبع ، اه ؟ نعم . حسنا جداً . لا توقظنى إن جئت هذا المساء " ، ووعدته ألا أفعل ذلك .

إلا أنه لم يكن هنالك أى داع لهذا التنبيه ، إذ إننى عندما عدت الى الشقة متأخرا فى تلك الليلة ، كان لايزال يقظا ، يجلس فى كرسى النقرس ، فى جو من الخشية واليأس . " إن هذه المادة التى اعطاها بلتازار لى ، غير ذات نفع " ، قال . " إنها تسبب لى قيئا خفيفا ، ذلك كل مافى الأمر . إنها تجعلنى أكثر وخماً عندما أشرب الويسكى . إلا أننى على نحو ما ، لا أود الذهاب الى الفراش. من يدرى أى احلام سوف احلم ؟ " . إلا أننى اقنعته فى النهاية ، بالذهاب الى الفراش ، فوافق شريطة أن أظل الى جواره واتحدث اليه حتى يذهب فى النوم . كان الآن هادئا ، نسبيا ، كما كان يزداد وسناً . تحدث فى نبرة هادئة مسترخية ، كما يمكن أن يتحدث المرء الى صديق يتخيله بينما يكون تحت المخـــدر.

" إنني أعتقد أن الأمر كله سـوف ينقضي ويزول . ذلك مآل كل شيء ، كل شيء ينقضي في النهاية . كنت أفكر في أناس آخرين في نفس هذا الوضع . إلا أن الأمر لاينقضي ، بالنسبة للبعض ، في يسر وسهولة . جاءت ليزا ذات ليلة الى هنا . جفلت عندما وجدتها على عتبة الباب بعينيها اللتين تبعثان فيّ القشعريرة - مثل أرنب بلا عينين في متجر دواجن . كانت تود مني أن أصطحبها الى حجرة شقيقها في فندق جبل النسر . قالت أنها تود أن تراه . سألت ماالذي سوف تراه . قالت في غضب ، لي طريقتي الخاصة في الأبصار ، حسنا ، كان عليّ أن آخذها . أحسست أن هذا العمل قد يسعد ماونت أوليف . إلا أنني لم أكن أعرف حينئذ أن جبل النسر لم يعد فندقا ، لقد تحول الى ماخور للقوات العسكرية . كنا في منتصف المسافة على السلم ، عندما بزغت لي تلك الحقيقة . كل تلك الفتيات العاريات والجنود العرقى بنصف ثيابهم وأجسادهم المليئة بالشعر ، وصلبانهم التي تصلصل مع أقراص هويتهم ، ورائحة العرق والروم والعطور الرخيصة . قلت ، يجب أن نغادر هذا المكان ، لقد تبدل وتحول ، إلا أنها ضربت الأرض بقدمها ، وأصرت في غضب مفاجيء . حسنا ، تسلقنا السلم . كانت الأبواب مفتوحة عند كل بسطة من بسطاته . كان في مقدور المرء أن يرى كل شيء . سعدت أنها ضريرة . أخيرا بلغنا غرفته . كانت مظلمة ، وهنالك فوق فراشه نامت امرأة عجوز وإلى جوارها غليون الحشيش . كان لها رائحة بالوعة . كانت ليزا مستثارة للغاية . قالت . " صفها " . بذلت أقصى ماعندي من جهد . تقدمت نحو الفراش . قلت وأنا أحاول جذبها الى الوراء ، هنالك إمرأة نائمة . هذا الآن ، منزل سيىء السمعة ياليزا . إنني أكرر إخبارك

بذلك « هل تعرف ماذا قالت ، « هذا أفضل بكثير » ، جفلت . ضغطت وجنتها الى الحشية الى جوار المرأة العجوز التى أخذت تئن فى الحال . ربتت ليزا جبهتها كأنما تربت طفلا . قالت « نامى الآن » . جاءت فى بطء وتردد الى القرب منى . ضحكت ضحكة غريبة ساخرة وقالت ، « أردت محاولة أخذ طابعه وأثره من الوسادة ، إلا أنها كانت فكرة عديمة الجدوى . يجب على المرء أن يحاول كل شيء لاستعادة الذكرى . إن مخابئها عديدة للغاية . » لم أفهم ماالذى قصدته بذلك . أخذنا فى هبوط السلم ثانية . رأيت عند البسطة التالية بعض الاستراليين السكارى يصعدون . كان فى وسعى أن أرى وجوههم . أن متاعب سوف تحدث معهم . كان أحدهم قد خُدع أو شيء من هذا القبيل . كانوا سكارى بصورة مخيفة . وضعت ذراعى حولها ، تظاهرت بأننى أمارس الحب معها فى ركن من البسطة حتى مروا فى سلام . كانت تنتفض ، لا أدرى من الخوف أم الانفعال . قالت ، « قل لى ماتعرف عن نسائه ، كيف كن يبدن ؟ » . هززتها بقسوة . قلت ، « لقد اصبحت الآن مبتذلة » . توقفت تنتفض وقد شحبت من الغضب . فى الطريق قالت ، « احضر لى سيارة أجره ، إننى لا أحبك » . فعلت ماشاءت وانصرفت دون كلمة واحدة . اسفت فيما بعد لوقاحتى ، إذ كانت تعانى . إن الأحداث تقع الآن فى سرعة تفوق استيعاب المرء لها ، حتى يكون فى وسعه وضعها فى حسبانه ، كما أن المرء لن يعرف أبدا مايكفى عن الناس ، وعما يعانون، حتى يكون قادرا على رد الفعل الصحيح فى لحظتها . قلت لها ، فى عقلى ، فيما بعد ، أشياء كثيرة ، أتعاطف بها معها . إلا أن الوقت كان متأخرا للغاية . دائما متأخرا للغاية » .

أفلت من شفتيه شخير خفيف ثم صمت . كنت أوشك أن أطفيء المصباح الذى الى جوار فراشه وأخرج من حجرته على أطراف أصابعى ، عندما استمر

فى الكلام ، فقط من بعيد للغاية ، يسترجع خيط أفكاره فى موضـــوع آخــر ، « عندما كانت ميليسا تلفظ أنفاسها الأخيرة ، قضت كليا اليوم بطوله معها . لقد قالت لكليا ذات مرة ، إن دارلى يمارس الحب وهو يعانى نوعا من عذاب الضمير، نوعا من اليأس . إننى أعتقد أنه يتخيل جوستين . إنه لم يستثرنى البتة كما يفعل باقى الرجال . إن كوهن العجوز مثلا ، كان مجرد رجل قذر العقل ، إلا أن شفتيه كانتا ، رغم ذلك مبللتين دوما بالنبيذ ، وأنا أحب ذلك . كان يدفعنى الى احترامه ، إذ كان رجلا ، إلا أن بورسواردن عاملنى كما يعامل الأوانى الصينية الثمينة ، كان خائفا أن يهشمنى ، مثل ميراث ثمين . كم هو جميل أن يحس المرء بالراحة ذات مرة ! " .

★ ★ ★

- ٢ -

دار العام على أعقابه ، عبر شتاء عاصف ، الصقيع فيه أحدّ من الشجن ، لايكاد يمدنا بالاستعداد لاستقبال ذلك الصيف الرائع الأخير ، والذى تلا الربيع فى عجلة شديدة . جاء ، هذا الصيف ، يتثنى ، كأنما هو قادم من خط عرض طال نسيانه ، كان أول ماحُلم به فى عدن ، وأعيد اكتشافه ثانية ، بمعجزة ، بين أفكار الجنس البشرى الهاجعة . لقد رسا علينا رسو سفينة ثلجية البياض شهيرة ، من سفن العقل ، لتسقط مرساتها أمام المدينة ، واشرعتها البيضاء مفرودة مثل أجنحة طائر من طيور البحر . آه ! إننى أتصيد المجاز الذى يمكن أن ينقل شيئا من السعادة المؤثرة والتى نادرا مايُنعم بها على هؤلاء العشاق . إلا أن الكلمات ، والتى ابتدعت أول ماابتدعت فى مواجهة اليأس ، تبدو فجة للغاية حتى أنها لا تعكس ، بقدر عميق ، خصائص شىء ما فى سلام مع ذاته ، خصائص امرىء مامع ذاته . إن الكلمات ماهى إلا مرايا ضجرنا ومللنا لاغير ، إنها تحتوى كل البيض الهائل الحجم ، لاحزان العالم ، والذى لم يفرخ بعد ، مالم تكن أكثر بساطة حتى يمكن ترديدها همسا من بعض السطور المنزوعة من قصيدة يونانية، كتبت ذات مرة ، فى ظل شراع ، فوق رأس بر ظمآن ، فى بيزنطة . شىء مايقول :

خبز أسود ، مياه صافيه ، سماء زرقاء

نحر ساكن أبيض ليس له نظير

الرغبة انطوت فوق الرغبة

العينان أغلقتا فى رقة فوق العينين

الأهداب ترتعش ، والأبدان عارية

لكنها سيئة باللغة الإنجليزية ، ومالم يسمعها المرء باليونانية تنثال فى رقة ، كلمة بعد كلمة ، من فم آليف يخصه ، هرسته قبلات التحبب المسرفة ، فإن السطور سوف تظل دوما ، صورا فقدت ، فى بساطة ، سحر الحقيقة التى تتجاوز مجال رؤية الشاعر ومداها ، إننى حزين أن يظل كل ذلك الريش الرائع لهذا الصيف ، أبعد من أن يُمسك به - إذ عمر المرء وقد تقدم ، لن يكون فيه إلا القليل من مثل تلك الذكريات التى سوف يقيم عليها سعادة تتسم بالأسف والندم، هل يمكن للذاكرة أن تمسك بها - بذلك النمط من الأيام التى لانظير لها - إننى أتساءل حائرا ؟ تمسك بالظلال البنفسجية الكثيفة للشراع البيضاء ، بما تحت أسطح أشجار التين المقببة كالمصابيح فى الظهيرة المكفهرة ، بما فوق الطرق الصحراوية الشهيرة حيث تسير قوافل التوابل وتستلقى الكثبان أرضا بعيدا عن السماء ، تمسك فى نومها وهى غائبة عن الوعى ، بصوت طبول أجنحة النورس وهى تتحول الى رذاذ ؟ أم بالضربات الباردة الأشبه بضربات السوط ، ضربات المياه وهى تسحق نفسها فوق الكرانيش الساقطة لجزر منسية ؟ بضباب الليل الهابط فوق مرافق مهجورة وخطوط حدود المد العربية القديمة على الشاطىء وهى تبين فى أصابع متآكلة ؟ إن مجمل هذه الأشياء سيظل بالتأكيد باقيا ، فى مكان ما . ليس هنالك من أماكن عامرة بعد . اليوم يلى اليوم فوق نتيجة (١) الرغبة ، كل ليلة تتقلب فى نومها لتبدل الظلام ، تغسلنا ثانية فى ضوء الشمس البديع . كل شىء يتواطأ ليكون الأمر كما نحتاجه .

---

(١) النتيجة هنا بمعنى التقويم السنوى للأيام والشهور - المترجم .

ليس من العسير الكتابة عن هذا الانتقال في الزمن ، أن تعرف أن كل هذا قد حدث بالفعل ، قد نظم ورتب على هذا النسق أو ذاك . لقد كان هذا كما يمكن القول ، مجرد " حدث جرى" – مجرد مسرح للإعلان والظهور . إلا أن السيناريو قد أعد بالفعل في مكان ما ، وتم اختيار الممثلين ، وروجع التوقيت مرارا حتى آخر التفاصيل فى عقل هذا المؤلف الخفى – والذى ربما يثبت أنه لم يكن غير المدينة ذاتها : الاسكندرية بمنزلتها الإنسانية . إن بذور أحداث المستقبل محمولة فى ذواتنا . إنها داخلنا ، تنتشر طبقا لقوانين طبيعتها الخاصة . إننى أعرف أنه من العسير على المرء أن يصدق عندما يفكر فى كمال ذلك الصيف وماتلاه .

كان هنالك الكثير مما يثير الاهتمام باكتشاف الجزيرة – ! كيف راغت منا هكذا لوقت طويل ؟

لم يكن هنالك ، حرفيا ، ركن واحد من هذا الساحل لم نعرفه ، ولاشاطىء لم نسعى اليه ، ولا مرسى لم نستخدمه . ومع ذلك ، فإنها كانت هنالك تحملق فى وجوهنا . " إن أردت أن تخفى شيئا " ، يقول المثل العربى ، " فاخفه فى عين الشمس ." إنها ترقد غير مخفيه البتة ، الى الغرب، بصورة ما ، من مقام سيدى العجمى الصغير – المنحدر الأبيض والنتوء الثلجى للضريح ، وهما يبرزان من تيه أشجار النخيل وشجيرات التين . كانت ، فى بساطة ، قطعة من الجرانيت محمولة على الأعناق ، دفع بها زلزال من قاع البحر، أو انتفاضة ماتحت سطح البحر ، فى الماضى البعيد . كانت تغمرها المياه بالطبع عندما يرتفع البحر . إلا أنها ظلت هنالك ، للغرابة ، غير محددة فوق خرائط الادميرالية ، إذ إنها تشكل خطرا حقيقيا على زورق متوسط الغاطس .

كانت كليا هى أول من اكتشف جزيرة ناروز الصغيرة . " من أين نبتت هذه الجزيرة ؟ " ، تساءلت فى دهشة : كان معصمها البنى يأرجح ذراع دفة القارب

الشراعى بقوة ليحملنا الى جانبها البعيد عن الريح . كانت كتلة الجرانيت الكبيرة، طويلة بما يكفى لتشكل مصدا للرياح . كانت دائرة من مياه زرقاء ساكنة وسط حركة المد والجزر التى تمشط المنطقة . كان فى جانبها الأيمن ، ناحية الأرض ، حرف " ن " محفورا بطريقة خشنة فى الصخر فوق حلقة حديدية عتيقة متاكلة ، بها مرساة كالحة لدعمها وتقويتها ، حتى تخدم كمرسى آمن للمراكب . من السخف أن يتحدث المرء عن التقدم نحو الشاطىء ، إذ إن الشاطىء كان مكونا من شريط ضيق ، من حصى أبيض باهر ، لا يزيد اتساعه عن اتساع مدفأة . " نعم ، إنها ، إنها جزيرة تاروز " ، صاحت وهى تطير فرحة وبهجة بهذا الاكتشاف – اذ أنها وجدت ، هنا ، أخيرا ، مكانا يمكنها أن تنغمس فيه كلية فى ممارسة مزاجها فى الخلوة . هنا يمكن للمرء أن يكون على حدة مثل طائر من طيور البحر . كان الشاطىء متجها ناحية البحر . وكان فى وسع المرء أن يرى خط الساحل المتمايل كله وبه أطلال الطوابى الساحلية والكثبان الرملية الراحلة بعيدا نحو تابوزيريس العتيق . فككنا مؤننا فى بهجة ، إذ هنا كان فى وسعنا أن نستحم عرايا ، ونأخذ حمام شمس يبعث فينا المسرة حتى أعماق قلوبنا دون أن يقطع أحد علينا خلوتنا .

هنا كان أخ نسيم الغريب المتوحد يقضى وقته فى الصيد . " لقد كنت أتساءل دوما ، أين يمكن أن تكون جزيرته تلك . لقد اعتقدت أنها ربما تكون ناحية الغرب بعد أبو الصير . إن نسيم لم يستطع إخبارنا . إلا أنه كان يعرف أن هنالك بركة صخرية عميقة بها حطام سفينة " .

" هنالك «ن» منحوته هنا " .

صفقت كليا بيديها فرحة . أخذت تخلع رداء الاستحمام . " إننى لعلى يقين من ذلك . لقد قال نسيم أنه ظل لشهور ، فى معركة ، يبارز سمكة ما كبيرة لم

يستطع تحديد نوعها . كان ذلك عندما أعطانى بندقية الصيد بالحربة التى يمتلكها ناروز . أليس ذلك غريبا ؟ لقد حملتها دوما ، فى صندوقها ، فى لفافة من مشمع كنت أعتقد أننى سوف أصطاد بها شيئا يوما ما . إلا أنها ثقيلة للغاية حتى أننى لا أستطيع استخدامها تحت الماء " .

" أى نوع من الأسماك كانت تلك السمكة ؟ " .

" إننى لا أعرف " .

إلا أنها تسلقت عائدة الى القارب الشراعى وأخرجت اللفة الضخمة التى كان هذا السلاح الفريد ملفوفا فيها . كانت اختراعا قبيح المنظر ، بندقية تعمل بالهواء المضغوط ولا أكثر ، ذات دبشك مجوف . كانت تطلق حربة من صلب رفيع الى مسافة تصل الى المتر ونصف . لقد صنعت له خصيصا فى ألمانيا طبقا للمواصفات . كانت تبدو مميتة بما يكفى لقتل سمكة كبيرة .

" إنها تبدو بشعة المنظر الى حد ما " .

" يجب أن نحاول استخدامها " .

" إنها ثقيلة جدا بالنسبة الىّ ، ربما تستطيع أنت ذلك . لقد وجدت أن الماسورة تعوقنى فى المياه . لم أستطع حملها بطريقة صحيحة . إلا أنه كان هدافا ماهرا ، اصطاد العديد من الأسماك الكبيرة ، كما قال نسيم . إلا أنه كانت هنالك واحدة كبيرة للغاية ، نادرا ما كانت تظهر . ظل يراقبها ، ينتظرها ، فى كمين شهورا عديدة . لقد أطلق عليها العديد من الطلقات ، إلا أنها كانت تخطئها على الدوام . آمل ألا تكون من أسماك القرش – إننى أخافها » .

" لا يوجد الكثير منها فى البحر المتوسط ، إنها هنالك فى البحر الأحمر ، حيث تجدينها فى أعداد كبيرة " .

" إننى ، على أى حال ، أرقب حولى بعين يقظة " .

كانت ، كما رأيت ، آلة ثقيلة جدا لسحبها تحت الماء ، بالإضافة الى أننى لم أكن مهتما بصيد السمك . ولذا قمت بلفها ووضعها ثانية فى صندوق الزورق الفسيح . رقدت هى هنالك عارية فى ضوء الشمس ، ناعسة مثل فقمة ، تدخن سيجارة قبل أن تبدأ مزيدا من الاستكشاف . كانت البركة الصخرية تتوهج تحت قاعدة القارب اللامعة مثل زمردة ترتعش ، وشرائط الضوء التى فى لون اللبن تخترقها فى بطء ، تتلصص هابطة مثل مجسات ذهبية . كان العمق ستة أقدام ، كما أعتقدت ، فأخذت نفساً عميقاً وتدحرجت تاركا جسدى يتلوى . هابطا مثل سمكة ، دون استخدام ذراعىّ .

كان جمالها ساحرا فتانا ، والغوص فيها أشبه بالغوص فى سرة كاتدرائية ، ترشح نوافذها ، الملونة الزجاج ، ضوء الشمس عبر دستة من قوس قزح . كانت جوانب المدرج تنفتح تدريجيا نحو البحر العميق - كأنما نحتها فنان حزين القلب من العصر الرومانسى ، الى دستة من الدهاليز نصف المنتهية ، التى تحدها التماثيل . كان بعضها كبير الشبه بمجموعة تماثيل حقيقية ، حتى أننى أعتقدت، للحظة ، أننى قد عثرت على لقية من الآثار القديمة . إلا أن تلك العمد التى على هيئة امرأة ملطخة كانت من صنع الأمواج ، ضغطها وصبها المد والجزر ، مصادفة ، فى تماثيل آلهات وأقزام ومهرجين كانت لها لحى من طحلب صخرى بحرى خفيف يتلألأ أصفر اللون وأخضره - وستائر ضحلة من عشب يتأرجح فى رشاقة مع المد والجزر ، تنفرج ، تنغلق ، كأنما لتكشف أسرارها بطريقة موحية ثم تغطيها ثانية . ودفعت بأصبعى عبر تلك الفروة من ورق النبات الكثيفة الزلقة لأضغط بها على وجه ديانا الضرير أو الأنف الخطافية لقزم من العصور الوسطى. كانت أرضية هذا القصر المهجور مكونة من الطين السيلينيتى اللدن ،

طرية عند اللمس ، لكنها ليست زلقة بأى حال . أرض حمصت الى دستة من ألوان تتفاوت مابين الأرجوانى والبنفسجي والذهبى . لم تكن المياه بالقرب من الجزيرة عميقة ، ربما كان عمقها قامة ونصفا – إلا أن الجزيرة كانت تهبط فى إنحدار ، حيث يمتد الدهليز الى البحر . كان لون حدود المياه الأكثر عمقا يتغير من الزمردى الى خضرة التفاح ، ومن الأزرق البروسى الى الأسود ، مما يوحى بعمق كبير . هنا ، أيضا ، كان حطام السفينة التى تحدثت كليا عنها . كنت آمل أن أجد جرة أثرية رومانية أو اثنتين . إلا أنها كانت قد انتهت الى سفينة عتيقة للغاية . وعرفت من انحناءة مؤخرة السفينة المتوهجة ، أنها من تصميم ايجى . انها نوع من الركوة [1] الذى كان اليونانيون يطلقون عليه اسم « تريكانديرى ». كانت مدكوكة قرب مؤخرتها وقد تهشم سطحها ، مليئة بحمولة مائتة من اسفنج أسود . حاولت العثور على العينين الملونتين على مقدم السفينة وكذا اسمها ، إلا أن كل ذلك كان قد تلاشى واختفى . كان الوحل يزحف فوق أخشابها ، والسرطانات المتوحدة تملأ كل شق فيها كطرفة العين . لابد أنها كانت مملوكة ، كما أعتقدت ، لصيادى
الاسفنج القادمين من كاليمنوس ، إذ إن اسطولهم كان يعبر كل عام ليصطاد عند الساحل الأفريقى ، ويحمل شباكه عائدا حيث يعالج الصيد فى جزر الدوديكانيز .

اندفعت عبر السقف الآن حزمة من ضوء يعشى الأبصار ، ويرق جسد كليا مفصحا عن نفسه ، متجها الى اسفل ، وخصلات شعرها المتفجرة تميل الى أعلى خلفها يدفعها اهتزاز الماء ، وقد فردت ذراعيها ، أمسكت بها وأخذنا نتدحرج ، ننزلق جانبا ، الواحد بين ذراعى الآخر ، نلعب مثل الأسماك ، حتى

---

(١) الزورق الصغير – المترجم .

دفعنا افتقاد الأنفاس للصعود الى أعلى ثانية فى ضوء الشمس . أن نجلس ، فى النهايــة ، لاهثين فى الظــلال ، يحملق كل منا فى الآخــر فى بهجــة ، وقد تقطعت أنفاســـه .

" يالها من بحيرة رائعة " ، صفقت بيديها فرحة .

" لقد رأيت الحطام " :

صعدنا عائدين الى الشاطىء الصغير الأشبه بالمنجل ، بحصاه الدافىء ، قالت وشعرها المبلل يتأرجح حولها ، " إننى أؤمن بفكرة أخرى ، لابد أن تكون هذه هى تيمونيوم – كنت أود تذكر التفاصيل بطريقة أكثر وضوحاً " .

" ماذا تكون ؟ " .

" إنهم لم يعثروا البتة على موقعها كما تعرف . إننى لعلى ثقة أن هذه لابد أن تكون هى ، أوه ، دعنا نعتقد أنها هى ، هل نفعل ذلك ؟ لقد عاد أنطونيو مهزوما من أكتيوم – حيث فرت كليوباترا باسطولها فزعة ، فاتحة ثغرة فى خط معركته ، تاركة اياه تحت رحمة أوكتافيوس ، ليعود بعد ذلك بأنهيار عصبى لا معنى له ، حيث لم يكن هنالك مايفعلانه غير انتظار الموت المؤكد بعد وصول أوكتافيوس ، ولهذا بنى لنفسه صومعة فوق جزيرة صغيرة . لقد أطلق عليها اسم فيلسوف شهير كان يتجنب الناس لكراهيتهم له وريبتهم فيه – ربما كان فيلسوفا يدعى تيمون ؟ لابد أنه كان يقضى عطلاته هنا – هنا يادارلى كان يستعيد الأمر كله فى عقله . تلك المرأة بسحرها وفتنتها القادرة على طرح شباكها . لقدغدت حياته حطاما ! ثم مرور الإله ، وكل تلك الأحداث ، وندائه أن يقول لها وداعا ، للاسكندرية – لعالم بأكمله ! " .

وابتسمت العينان المتلألئتان قليلا تشتاقان استنطاق عينى .

هل تنتظرين منى القول بأنها هى ؟ " .

" نعـــم .

" حسنا ، إنها هى " .

" قبلنى " .

" إن لفمك طعم البرتقال والنبيذ " .

كان الشاطىء صغيرا جدا - لا يكاد يزيد على فراش . كان غريبا أن يمارس اثنان الجنس هناك وكعبا أحدهما فى الماء الأزرق ، وشمس ساخنة تشتعل فوق ظهر الآخر ، وأخيرا قمنا بمحاولات عشوائية لتحديد مكان الصومعة أو أى شىء يمكن أن يتطابق وخيالها ، ولكن دون جدوى . كان يرقد ناحية البحر خليط من عوائق جرانيتية ناتئة تسقط منحدرة فى الماء الأسود ، وعصا غليظة تحدد منسوب مرفأ قديم ، ربما لتحديد اتجاه الريح وخصائص انكسار بحر الجزيرة . كان هنالك صمت وسكون ، لا نسمع غير حركة الريح الضئيلة عبر أذاننا ، بعيدا كصدى صدفة ما صغيرة للغاية . نعم ، كان نورس الرنجة يطير أحيانا . يحوم ، يحدد عمق الشاطىء مسرح عملياته المحتملة . أما غير ذلك . فالأجساد ترقد ، سكرى بالشمس ، فى نوم عميق ، وإيقاعات الدم الهادئة لا تستجيب الا لإيقاعات البحر والسماء الأكثر عمقا . ملاذ لما يرضى الحيوان ، بما تعجز الكلمات عن الإحاطة به .

ومن الغريب حقا أن يتذكر المرء أى وئام غريب أوجده البحر الذى تقاسمناه هذا الصيف الذى لا ينسى . بهجة تكاد تكون عميقة عمق رباط القبلات - أن ندخل إيقاع المياه معا ، يستجيب الواحد منا للآخر ولعبة المد والجزر الطويلين . كانت كليا على الدوام سباحة ماهرة ، وكنت أنام . سباحا هزيلا ، ولكن شكرا لما قضيته من وقت فى اليونان ، إذ غدوت الآن خبيرا أيضا ، غدوت أكثر من ند لها . لعبنا تحت الماء واستكشفنا عالم ماتحت سطح البحيرة . مثل أسماك فى اليوم الخامس لخلقها . كنا نلعب باليه ماء رائعا ، صامتا ، يسمح لنا فقط بتبادل

الابتسامات والايماءات ، إن صمت الماء قد حول كل شيء الى حركة بشرية ، حتى أننا أصبحنا مثل صورة ملونة لحوريات الماء مرسومة فوق هذه الستائر من الصخور والأعشاب ، نعكس ايقاعات الماء ، نحتذيها . هنا أفنى الفكر نفسه وأبيد ، متحولا الى رضاء بلا قاع للفعل البدنى ، ورأيت الصورة البراقة ، مثل نجم عبر هذا الفلك وقت الشفق . كان شعرها يمشط إلى أعلى وإلى الخارج فى باقة من ألوان متموجة . إلا أن الأمر لايقف بالطبع عند ما هنا من حدود ، إذ عندما تكون واقعا فى حب واحدة من مواطنى المدينة ، فإن المدينة تصبح عالما بأكمله . إن جغرافيا جديدة تماما قد انبثقت عن كليا ، أحياء معان قديمة ، تحديد عوالم محيطة نصف منسية ، تاريخ جديد يرقد مثل دفقة لون حافلة ، حياة شخصية جديدة تحل محل القديمة ، ذكرى المقاهى العتيقة الممتدة على واجهة البحر فى ضوء القمر البرونزى ، وتنداتها المخططة ترفرف مع نسيم بحر منتصف الليل . أن يجلس المرء يتناول العشاء فى وقت متأخر حتى تطفح الكئوس بنور القمر . أن يجلس فى ظلال مئذنة أو فوق شريط رملى يضيؤه وميض مصباح نفطى ، أو يجمع كومات من زهور الربيع فى رأس التين - زهور بخور مريم وشقائق النعمان الرائعة . أو نقف معا فى مقابر كوم الشقافة نستنشق الفواح الرطب للظلام الذى يفور من أماكن الراحة تحت الأرضية للسكندريين الذين ماتوا منذ زمن بعيد ، مدافن نحتت فى تربة سوداء كالشيكولاته، واحد فوق الآخر ، مثل سرر فى قمرة سفينة ، إنها عديمة الهواء متعفنة ، ورغم ذلك باردة ، بصورة ما ، بردا قارصا . (" إمسك يدى ") ، كانت ترتعش ، إلا أن ذلك لم يكن حينئذ بسبب مايثيره الموت من مشاعر مسبقة ، ولكن بسبب الثقل الخالص للارض الحبلى المكومة فوقنا مترا بعد متر . إن أى كائن من أبناء ضوء الشمس لابد أن يرتعش . ابتلع الظلام ذلك الرداء الصيفى الرائع

. " دعنا نذهب من هنا ، فأنا احس البرد" . حقا ، كان الجو باردا فى الأسفل هناك . إلا أن المرء يحس بالسعادة وهو يخطو مرة ثانية من الظلام الى الحياة الصاخبة التى تتسم بالفوضى للشارع المفتوح ، إن اله الشمس لابد أن يصعد يهز نفسه، يتحرر من قبضة ظلام التربة ، يبتسم للسماء المطبوعة بالأزرق والتى تجرى فيها نوبة الترحال والخلاص من الموت وتجديد حياة الكائنات عامة . نعم ، إن الموتى فى كل مكان . لا يمكن التهرب منهم فى يسر وسهولة ، يحس المرء بهم يضغطون بأصابعهم الحزينة الكفيفة المحرومة فوق لوحات حياتنا السرية . يسألون أن يظلوا فى الذاكرة ، وأن يعادوا الى حياة الجسد - يقيمون بين ضربات قلوبنا ، يغزون أحضاننا . إننا نحمل فى نفوسنا تلك الآثار البيولوجية التى أورثوها لنا وقد فشلوا فى استنفاد الحياة حتى آخرها - خط عين ، تقوس أنف ، صور أكثر زوالا مثل ضحكة بلا حياة لامرىء ما ، أو غمازة تظهر ابتسامة طال طمرها . إن ابسط ما فى تلك القبلات التى نتبادلها له فى الموت أصل ونسب . إننا نحقق فيها حبا منسيا ، له معزته ، يحاول أن يولد من جديد . إن جذور كل تنهيدة شوق ، مدفونة فى الأرض .

ومتى يغزونا الموتى ؟ إنهم يظهرون بذواتهم للعيان فى بعض الأحيان . فى هذا الصباح الرائع ، مثلا وكل شىء طبيعى بصورة خداعة ، انطلقت من البركة، مثل صاروخ ، وهى تلهث ، شاحبة شحوب الموت ، " هنالك رجال موتى ، فى أسفل البحيرة " ، مما أثار فزعى ! ومع ذلك ، لم تكن مخطئة . إذ إننى عندما استجمعت شجاعتى لأهبط بنفسى وأرى - كانوا هنالك حقيقة ، سبعة منهم ، يجلسون فى غبش الحوض يحيط بهم جو من الانتباه يثير الريب ، وكأنهم يستمعون الى نقاش خطير ، سوف يحدد مصير كل شىء بالنسبة اليهم . إن هذا الاجتماع السرى لتلك الشخوص الصامتة ، كان يشكل نصف دائرة صغيرة

عبر المدخل الخارجي للبحيرة . كانوا مربوطين فى جوالات وقد وضعت على أقدامهم أثقال كالرصاص ، حتى أنهم يقفون الآن منتصبين ، كقطع شطرنج فى حجم بشرى . لقد رأى المرء تماثيل ، فى مثل هذه الحال ، تُرحل فوق سيارة نقل عبر المدينة ، محمولة إلى متحف إقليمي كئيب . كانوا قابعين ، على نحو ما ، دون وجوه ، يستجيبون للوصلات التى تربطهم . وقفوا رغم ذلك فى إحجام يرفرفون فى رقة مثل أشخاص فى الأفلام الأولى الصامتة .

إنهم ، على مايبدو ، بحارة يونانيون ، كانوا يسبحون الى جوار سفينتهم الحربية عندما أنفجرت شحنة أعماق ، بسبب حادثة ما ، فقتلتهم فى الحال صدمتها . إن أبدانهم غير المميزة ، والتى تلمع مثل أسماك الماكريل ، قد جمعت بجهد كالحصاد فى شبكة سفينة طوربيد عتيقة ، ليمددوا فوق ظهر السفينة يقطرون ماءً ، حتى يجفوا قبل الدفن ، ثم قُذف بهم من فوق السطح ثانية وهم فى زى البحارة الجنائزى التقليدى ، ليأتى بهم المد والجزر ، بحركته المجعدة ، الى جزيرة ناروز .

قد يبدو غريبا أن يصف المرء كيف اعتدنا ، فى سرعة شديدة ، هؤلاء الزوار الصامتين للبحيرة . لقد استطعنا خلال أيام أن نريحهم ، أن نضعهم فى مكان خاص بهم ، كنا نسبح فيما بينهم حتى نصل الى المياه الخارجية . كنا ننحنى فى تحية تهكمية لرءوسهم المائلة فى انتباه .

لم يكن ذلك سخرية بالموت – لكنه كان لأنهم غدوا ودودين حالمين ، رموزا تعبر بصدق عن المكان ، هؤلاء الأشخاص الصابرون المثابرون . إن أكياس قماش القنب السميكة لم تظهر هى أو الحبال المتينة التى كانت تربطهم أى دلائل على التآكل . كان يغطيها ، على عكس ذلك ، الطل الفضى الكثيف كالزئبق ، والذى يُجمعه على الدوام قماش القنب ، الذى لاينفذ منه شىء ، عندما يغمس فى الماء .

تبادلنا الحديث مرة أو مرتين حول مطالبة السلطات البحرية اليونانية بنقلهم الى مياه أعمق ، إلا أننى كنت أعرف من خبرتى الطويلة أنهم لن يتعاونوا فى ذلك أن نحن حاولنا معهم . أسقطنا الموضوع باتفاق مشترك . خيل لى ، ذات مرة ، إننى رأيت سمكة من أسماك السلور تتحرك فيما بينهم ، إلا أننى لابد كنت مخطئا ، بل إننا فكرنا فى أن نطلق عليهم آسماء ، إلا أن الفكرة أوقفت لأنهم ، بالضرورة ، لهم أسماءهم الخاصة – تلك الأسماء السخيفة للسفسطائيين والقادة العسكريين القدامى أمثال أناكسيماندر ، بلاتو ، الكسندر ....

وهكذا سار هذا الصيف الساحر ، بأيامه السائرة قدما تلفحها الشمس الحارقة طويلا ، نحو نهايته ، دون نذر . حدث ، كما أعتقد ، أن قُتل ماسكيلين أثناء هجمة للخروج من حصار فى الصحراء ، فى نهاية الخريف . إلا أن ذلك الحدث مر دون أن يترك صدى فى نفسى – كانت هنالك مادة محدودة للغاية عنه فى عقلى ، باعتباره شخصية حية . كان الأمر الغامض ، حقيقة ، أن أجد تلفورد جالسا الى مكتبه ، بعد ظهر أحد الأيام ، أحمر العينين ، يكرر وهو يعصر يديه الورديتين معا ، وقد سحق وتحطم ، " لقد فعلها البريجادير العجوز المسكين". كان من العسير أن أعرف ماذا علىّ أن أقول . استمر تلفورد وفى صوته نوع من الحيرة المفككة المحببة . " ليس له من أحد فى هذا العالم ، هل تعرف ماذا فعل ؟ لقد قدم اسمى باعتبارى أقرب أقربائه " . كان متأثرا للغاية بهذا الدليل على الصداقة . وأخذ ، على أى حال ، يطلع على ممتلكاته الشخصية فى وقار كئيب . كان الميراث ضئيلا للغاية باستثناء القليل من الملابس المدنية غير المناسبة حجماً والعديد من ميداليات ونجوم الحملات ، وحساب إئتمانى بخمسة عشر جنيها فى فرع بنك اللويدز الواقع فى طريق توتنهام كورت . كان أكثر ما أثار اهتمامى من آثار هى تلك المحتواه فى جراب جلدى صغير – دفتر معاش بال ، وشهادة تسريح مكتوبة على رق تعود الى جده . إن القصة التى

يحكيانها تفصح عن تاريخ يندرج ضمن تقليد ما . لقد التحق صبى - مزرعة سوفولك ، والمنسى الآن ، التحق عام ١٨٦١ ببورى سانت ادموندز . خدم فى حرس « الكولد ستريم » اثنين وثلاثين عاما إذ سُرح عام ١٨٩٣ . تزوج أثناء خدمته فى كنيسة برج لندن الصغيرة ، حيث أنجبت له زوجته ابنتين . كان هنالك صورة شاحبة أخذت له أثناء عودته من مصر عام ١٨٨٢ . إنه يظهر فيها مرتديا خوذة بيضاء اسفنجية وسترة حمراء وسروالا صوفيا خشنا أزرق اللون وطماقا جلديا رشيقا أسود ، وأحزمة متقاطعة جرى تلميعها . وكانت مثبتة الى صدره ميدالية الحرب المصرية ، قطعة فضية بشريط عليها معركة التل الكبير ونجمة الخديو ، ولم يكن مسجلا بين الممتلكات أى شىء يشير الى والد ماسكيلين .

" إنها لمأساة " ، قال تلفورد الصغير بطريقة عاطفية ، " إن ملفيس لم تستطع ، عندما أخبرتها ، أن تكف عن البكاء . لقد قابلته مرتين فقط . إن ذلك ليوضح مدى التأثير الذى يمكن أن يتركه رجل متين الخلق . كان دوما الرجل النبيل الكامل ، إنه البريج " . إلا أننى كنت أتأمل الشخص الشاحب الباهت فى الصورة الفوتوغرافية بعينيه المتجهمتين وشاربه الثقيل ، والأحزمة المتقاطعة اللامعة وميداليات الحملات . كان يبدو وكأن هذه الصورة الفوتوغرافية تلقى بالضوء على صورة ماسكيلين ذاته . إنها تضفى عليه وضوحا أكثر . أليست ، كما تساءلت ، قصة نجاح - نجاح تام متكامل فى إطار النمط الرسمى لشىء أكبر من حياة الفرد ، لتقليد ما ؟ إننى أشك أن ماسكيلين نفسه كان يبغى وقوع الأمور على نحو آخر . هنالك ، فى كل ميتة ، بذره لشىء ما ، يمكن للمرء أن يتعلمه . ومع ذلك فإن مغادرة ماسكيلين الهادئة لم تترك إلا أثرا ضئيلا فى مشاعرى ، رغم أننى فعلت مافى وسعى لمواساة تلفورد البائس . إلا أن خطوط مد وجزر حياتى كانت قد بدأت الآن تشدنى فى قوة ، وبصورة غير مرئية ، نحو مستقبل لا يمكن التكهن به . حقا ، إنه فى هذا الخريف الجميل ، بوابل أوراقه

البنية النحاسية التى تتساقط فى زخات من الشجر فى الحدائق العامة ، غدت كليا أمرا يثير قلقى . هل حدث ذلك ، إحقاقا للحق ، لأنها سمعت البكاء ؟ إننى لاأعرف . إنها لم تعترف بذلك صراحة البتة . لقد حاولت أنا نفسى تصور سماعى لها ، في بعض الأوقات – هذه الصرخة الواهنة لطفل صغير أو حيوان أليف أغلق الباب عليه لمنعه من الدخول : إلا أننى عرفت أننى لم أسمع شيئا ، لا شيء على الإطلاق . يمكن للمرء ، بالطبع ، أن ينظر الى ذلك بطريقة واقعية ، وتصنيفه فى إطار الأحداث الطبيعية التى يهذبها الزمن ويجددها طبقا لنزواته الخاصة . أعنى أن الحب يمكن أن يذوى مثل أى نبات آخر . ربما كانت تتهاوى بعيدا عن الحب ؟ ولكن حتى يمكن تسجيل الطريقة التى أنهت بها علاقتها بالحب فإننى أحس باضطرارى الى تقديم الأمر على أنه شيء آخر . وهو أمر ربما يبدو محالا – كتفقد مكتب تجارى ، إنه قوة ماتنشط فى منطقة غير مألوفة فيما وراء آفاق التخيل العادى . إن البداية ، على أى حال كانت حاسمة محددة مثل تاريخ فوق جدار أبيض . كانت فى الرابع عشر من نوفمبر ، قبل الفجر تماما . كنا معا طوال اليوم السابق ، نتسكع فى المدينة ، نتبادل القيل والقال ونتسوق . كانت قد ابتاعت بعض قطع موسيقى البيان ، واشتريت لها هدية عطر جديد من بازار العطور . (شممت فجأة فى نفس اللحظة التى استيقظت فيها ، ورأيتها واقفة ، أو بالأحرى جاثمة الى جوار النافذة ، رائحة العطر فى معصمى ، والذى كان قد دهن بعينات من الزجاجات ذات السدادات) . كان المطر قد هطل فى تلك الليلة ، وهدهد حفيفه الممتع نومنا . وكنا قد قرأنا ، على ضوء الشموع ، قبل أن ننام .

لكنها كانت تقف الآن الى جوار النافذة تستمع . كان جسدها كله متصلبا فى وضع تساؤل يقظ حاد الى حد يوحى بأنها تعانى شبه أزمة خوف من شر مرتقب

كان رأسها قد استدار قليلا إلى جانب ، كأنما تقدم أذنها الى النافذة الخالية من الستائر ، والذى يوجد وراءها ، على نحو معتم بعض الشيء ، فجر غسله المطر وقد بدأ يبزغ فوق اسطح المدينة . إلاماتستمع ؟ إننى لم أر مثل هذه الحالة من قبل . ناديتها ، فأدارت نحوى ، لأمد قصير ويصبر نافذ ، وجها ذاهلا لا يرى – وكأن صوتى قد مزق غشاء تركيزها الرقيق . صرخت ، عندما جلست ، فى صوت عميق مختنق : " أوه ، كلاً ، وصفقت براحتيها فوق أذنيها ، وسقطت ترتعد فوق ركبتيها ، كأن طلقة رصاص قد أطلقت عبر رأسها . سمعت طقطقة عظامها وهى تتدلى جاثمة وقد التوت ملامحها مقطبة . كانت راحتاها مثبتتين فوق أذنيها بقوة شديدة حتى أننى لم أستطع إزاحتهما ، وعندما حاولت رفعها من معصميها سقطت ، فى بساطة ، مرة أخرى الى ركبتيها فوق السجادة، وقد أغلقت عينيها مثل معتوه فقد عقله . " كليا ، ماالذى جرى ؟ " ظللنا لفترة طويلة راكعين معا ، وأنا فى حيرة كبرى . عيناها مغلقتان فى إحكام. أحس الريح الباردة تصب من النافذة الى داخل الحجرة . الصمت ، بأستثناء صرخاتنا ، مطبق . تنهدت أخيرا تنهيدة استرخاء عميقة : شهقت نفسا طويلا ، حلت يديها عن أذنيها ، مددت أطرافها فى بطء كأنما ترخيها فى تشنج عضلى مؤقت مؤلم . هزت رأسها كأنما تقول لى ، أن ليس هنالك من شيء . سارت تترنح مثل ثمل الى الحمام حيث بدت مريضة للغاية فى المغسل . وقفت أنا هنالك كالسائر فى نومه ، أحس كأن جذورى قد اجتثت . عادت أخيرا ، تصعد الفراش وقد أدارت وجهها للحائط . " ماالأمر ياكليا ؟ " ، سألتها ثانية وأنا أشعر بأنى أحمق لحوح . انتفض كتفاها قليلا تحت يدى ، واصطكت اسنانها قليلا من البرد . " لاشيء ، حقا لاشيء . صداع مفاجيء يغلق الرأس . لكنه انتهى ، دعنى أنام الآن ، هل ستفعل ذلك ؟ " .

استيقظت مبكرة فى الصباح لتعد الإفطار . بدت شاحبة بطريقة شاذة – ذلك الشحوب الذى يعقب ألم طويل ممض فى الأسنان . كانت تشكو من إحساسها بالفتور والإرهاق .

" لقد أثرت خوفى الليلة الماضية " ، قلت ، إلا أنها لم تجب . انصرفت بطريقة مراوغة عن الموضوع ، وفى عينيها قلق وضيق . طلبت أن تُمكن من قضاء اليوم بمفردها ترسم . غادرت اتمشى طويلا عبر المدينة ، تزعجنى أفكار لم تتشكل تماما بعد ، ونذر عجزت ، على نحو ما ، عن تبينها . كان يوما جميلا . البحر العالى يعدو ركضا والأمواج تضرب الصخور الناتئة مثل مكابس آلة هائلة . سحابات كثيفة من رذاذ تندفع بقوة عاليا فى الجو مثل انفجار بقاليل عملاقة لتعود تسقط فى زبد يئز على قمة الموجة التالية . وقفت أرقب المنظر مدة من الزمن طويلة ، أحس الريح تجذب طرف معطفى والرذاذ البارد فوق وجنتى . أعتقد أننى أدركت أنه بدءا من هذه النقطة ومستقبلا ، فإن كل شىء قد تغير بطريقة غامضة . لقد دخلنا ، إن جاز القول ، فلكا جديدا من المشاعر سوف يغير علاقاتنا .

يتحدث المرء عن التغيير ، إلا أن شيئا من ذلك التغيير لم يحدث فجأة ، متماسكا ، قاطعا . كلا ، لقد جرى التحول فى بطء نسبى ، يتزايد ويتناقص ، مثل المد والجزر ، يتقدم مرة ويتراجع أخرى . كانت هنالك أوقات ، أسابيع كاملة، نعود فيها كلية الى ماكنا عليه فى الماضى ، نجدد أوقات السعادة المفرطة القديمة بطريقة حادة أولدها الشعور بافتقاد الأمان . كنا نعود ثانية ، لفترة من الوقت ، يحقق الواحد منا ذاته تماما فى الآخر ، لاننفصل ولانفترق : لقد انقشعت الغمة . إننى أقول لنفسى الآن – دون أن أعرف على أى أساس – أن تلك كانت مراحل طويلة من الوقت لم تكن تسمع فيها البكاء الذى وصفته ، منذ

وقت بعيد ، على أنه صوت ناقة تعانى الضيق أو لعبة ما آلية بشعة . ولكن ماذا يمكن أن يعنى هذا الهراء ، حقيقة ، لأى أحد - كيف يمكن أن يفسر تلك الفترات الأخرى التى كانت تسقط فيها فى الصمت والكآبة ، والتى تغدو فيها نسخة أخرى ، حادة الطبع من ذاتها القديمة ؟ إننى لاأعرف . إننى أعرف فقط أن هذه الشخصية الجديدة كانت عرضة الآن لفترات طويلة من الصمت والذهول ، ولإحساس غير عادى بالإرهاق . إنها ربما تسقط ، مثلا ، نائمة فوق أريكة فى منتصف حفل ما وتبدأ فى الشخير : " كأنما قهرها الإرهاق بعد سهر طويل للغاية . وبدأ الأرق أيضا يلعب دوره ، وعادت الى جرعات كبيرة نسبيا من الباربيتال [1] تبحث عن خلاص منه . كانت تدخن حقا ، بكثافة شديدة .

" من هى هذه الشخصية العصبية التى لا أعرفها ؟ ، تساءل بلتازار فى حيرة ذات مساء عندما قصفت رأسه إثر ملحة تافهة ثم غادرت الحجرة وهى تصفق الباب فى وجهى .

قلت " هنالك خطأ ما " . نظر الىّ ، للحظة ، من فوق عود ثقاب مشتعل . تساءل ، " إنها ليست حبلى ؟ " . هززت رأسى . " اعتقد أنها قد بدأت تضيق بى حقا " . كلفنى ذلك جهدا حتى أخرج الكلمات . إلا أنه كانت لهذه الكلمات فضيلة تقديم شىء ما ، كتفسير معقول لهذه الحالات النفسية - مالم يكن على المرء تفضيل الاعتقاد بأنها تتآكل من مخاوف خافية .

" الصبر " ، قال ، " إذ لم يكن هنالك البتة مايكفى من تلك المشاعر " .

" إننى أفكر جادا ، فى الابتعاد فترة من الزمن " .

" قد تكون تلك فكرة طيبة . ولكن ليس لفترة طويلة جدا " .

---

(١) عقار منوم . - المترجم .

" ســـوف أرى " .

كنت فى بعض الأحيان أحاول ، بطريقتى الحمقاء ، جس مصادر هذا القلق الكئيب بابداء ملاحظة مزعجة . " لماذا ، ياكليا ، تنظرين دوما من فوق كتفيك - إلاما تنظرين ؟ " . إلا أن ذلك كان خطأ قاتلا . كان رد فعلها ، دوما ، هو سوء الخلق أو الهياج ، وكأننى ، بكل إشارة الى اضطرابها ، مهما كانت مستترة إنما أسخر منها بطريقة ما . كان مفزعا أن يرى المرء كيف يقتم وجهها فى سرعة ، وشفتاها مضمومتان . كان الأمر وكأنى قد حاولت وضع يدى على كنز سرى ، تقوم هى على حراسته بحياتها .

كانت أحيانا تغدو عصبية بصورة خاصة . حدث ذات مرة ، ونحن نغادر السينما ، أن أحسست بها تتصلب فى ذراعى . أدرت عينى فى اتجاه نظرتها . كانت تحملق فزعة فى رجل عجوز بوجهه جرح غائر . كان إسكافيا يونانيا أصيب أثناء غارة جوية أصابات متعددة . كنا نعرفه جميعا ، بالنظر ، معرفة جيدة . وكان أماريل قد عالجه حقا على قدر استطاعته . هززت ذراعها فى رقة أطمئنها ، وبدت فجأة وكأنها تعود الى يقظتها . انتصبت قامتها بغتة وقالت ، تعالى ، دعنا نذهب من هنا " . ارتعدت ارتعادة خفيفة واستعجلتنى أن نبتعد .

كنت عندما أبدى ، فى أحيان أخرى ، دون أن أكون حذرا ، تلميحا ماعن قلقها الداخلى - عن هذا الجو المجنون عن الاستماع دوما لشىء ما - كانت العواصف والاتهامات التى تلى ذلك توحى بجدية وصدق تشخيصى - تحديدا ، أنها تعمل على إبعادى . " إننى لاأصلح لك يادارلى . إننا منذ صرنا معا ، لم تكتب سطرا واحدا . ليس لديك خطط للمستقبل . إنك لاتكاد تقرأ شيئا " . كم كانت عيناها الرائعتان عابستين ، وقلقتين أيضا ! وأضطررت ، على أى حال ، الى الضحك . كنت ، حقيقة ، أعرف الآن أو أعتقدت أننى أعرف ، أننى لن أكون

البتة كاتبا . إن كل ما كان يحفزنى لائتمان العالم والثقة به ، بهذه الطريقة ، قد خبا ، مُزقت أحشاؤه . إن فكرة العالم الصغير من الورق والطباعة ، العالم المشاكس ، قد غدت ، عند تآملها ، فكرة شاقة غير محتملة . ومع ذلك فإننى لم أكن حزينا وأنا أحس أن الباعث قد هجرنى . كنت ، على نقيض ذلك ، مليئا باحساس التخفف، التخفف من قيد تلك الأشكال التى غدت قاصرة تماما ، كأداة لنقل حقيقة المشاعر . " كليا ، ياعزيزتى " ، قلت وأنا أبتسم إبتسامة عقيمة ، راغبا ، رغم ذلك ، وبطريقة ما ، فى مواجهة هذا الاتهام وفى تطييب خاطرها . " لقد كنت أفكر بالفعل فى كتاب نقدى " .

« النقد » ! رددت فى حدة ، وكأن الكلمة كانت إهانة لها . لطمتنى بقوة فى فمى، لطمة دفعت بالدموع الى عينى ، وقطعت الجزء الداخلى من شفتى فى مواجهة أسنانى . انسحبت الى الحمام أمسح فمى حيث كان فى وسعى أن أتذوق طعم الدم الملحى . كان ممتعا أن أرى أسنانى وقد حدد الدم معالمها . كنت أشْبه بغول تناول لتوه ملء فيه من جسد ضحيته الدامى . غسلت فمى وأنا فى حالة من الغضب الشديد . جاءت الى الحمام لتجلس فوق « البيديه » ، يلمؤها شعور باللوم والتأنيب . " أرجوك أن تسامحنى ، قالت . " إننى لاأدرى أى دافع حل بى، دارلى ، أرجو أن تسامحنى " .

قلت وأنا عابس متجهم ، " عرض آخر كهذا الذى حدث ، ولسوف أعطيك لطمة بين هاتين العينين الجميلتين ، لطمة سوف تتذكرينها على الدوام .»

" إننى آسفة ." ووضعت ذراعيها حول كتفى من الخلف وقبلت رقبتى . كان الدم قد توقف . قلت لصورتها فى المرآة ، " ماخطبك بحق الشيطان ؟ ماالذى حل بنا هذه الأيام ؟ إننا نبتعد عن بعضنا البعض ياكليا" .

" إننى أعرف ذلك " .

" لماذا ؟ " .

" لا أعرف ." إلا أن وجهها اكتسى بالعناد ثانية . جلست على « البيديه » ، ملست بيدها على ذقنها مفكرة ، غرقت فجأة ، فى خواطرها مرة أخرى . أشعلت سيجارة ، عادت الى غرفة المعيشة . عندما عدت ، كانت تجلس صامتة أمام لوحة زيتية تحملق فيها فى ثبات شرير خال من الانتباه .

" يجب علينا ، كما أعتقد أن نفترق مدة من الزمن » ، . قلت .

« إن شئت » بقبقت بطريقة آلية .

ثم بدأت فجأة فى الصراخ ، قالت " أوه ، كف عن استجوابى . إن كان فى الإمكان فقط أن تكف عن سؤالى ، سؤالا بعد الآخر . كأننى ، هذه الأيام ، فى محكمة » .

" حسنا جدا " ، قلت .

كان ذلك واحدا فقط من مثل تلك المشاهد العديدة . بدا واضحا أن غيابى عن المدينة كان هو السبيل الوحيد لتحريرها - لإعطائها الزمان والمكان المناسبين لـ .... لماذا ؟ أننى لاأعرف ، وأعتقدت فيما بعد ، فى الشتاء ، أنها قد بدأت تعانى من ارتفاع محدود فى درجة الحرارة فى المساء . وجلب ذلك علىّ مشهدا عنيفا آخر ، عندما طلبت من بلتازار أن يقوم بفحصها . واستسلمت لسماعة الطبيب ، بهدوء نسبى ، رغم غضبها . ولم يجد فيها بلتازار أى خلل بدنى ، باستثناء أن سرعة نبضها قد زادت ، وأصبح ضغطها أعلى من الوضع الطبيعى . إلا أنها ، على أى حال ، تجاهلت إرشاداته عن المنبهات والمنعشات . كانت قد غدت فى هذا الوقت ، أكثر نحافة .

استطعت أخيرا بعد عملية مداورة صابرة أن أنبش عن وظيفة صغيرة ، أناسبها ، وكانت هى ، على نحو ما ، مناسبة للوقع العام لأمور – إذ إننى لم أكن أتصور انفصالى عن كليا انفصالا نهائيا ، إنه شىء ما له طبيعة الانقطاع . كان، فى بساطة ، انسحابا مخططا لشهور قليلة لأفسح مكانا لقرارات ، أبعد نظرا ، يمكن لها أن تتخذها . كانت هنالك عوامل جديدة ايضا ، إذ بانتهاء الحرب ، غدت أوربا متاحة ، فى بطء ، مرة أخرى . هنالك أفق جديد ينفتح خلف خطوط المعركة . شىء ما كاد المرء أن يتوقف عن الحلم به ، الشكل المبهم لأوربا وقد سوتها بالأرض مطارق قاذفات القنابل ، يعذبها الجوع والقلق والاستياء . ومع ذلك ، فإنها ما زالت هنالك ، وهكذا أخبرتها عن رحيلى دون أسى أو كآبة – ولكن كقرار واقعى يجب عليها أن ترحب به لصالحها . إلا أن الطريقة التى نطقت بها ، وهى تشهق كلمة " بعيدا" قد أوحت للحظة قصيرة أنها ، ربما كانت ، رغم كل شىء خائفة أن تترك بمفردها . " إنك ، رغم كل شىء ، سوف تذهب بعيدا" .

" لشهور قليلة . إنهم يبنون محطة للتحويل فى الجزيرة ، وهنالك حاجة لشخص يعرف المكان ، ويتحدث اللغة المحلية " .

" عودة إلى الجزيرة " ، قالت فى رقة – وهنا لم يكن فى مقدورى أن أتبين مافى صوتها من معنى أو مافى فكرها من تصميم .

" لشهور قليلة فقط " .

" حسنا جدا " .

سارت جيئة وذهابا فوق السجادة تحملق الى أسفل فيها ، فى تفكير عميق ، وفى جو من الحيرة والارتباك . رفعت عينيها فجأة تنظر الىّ بتعبير رقيق عرفت فيه ، فى غصة – مزيجا من تأنيب الضمير والحنان لهذا الأسى الواقع علينا دون قصد أو عمد . كان ذلك هو وجه كليا القديمة . إلا أننى كنت أعرف أنه لن يدوم ،

وان ظل استياؤها وسخطها سوف يلقى بنفسه ثانية فوق علاقتنا. لم يكن هنالك مجال لأثق فى نفسى ، مرة أخرى ، فى شىء لم يثبت إلا لفترة قصيرة ." أوه دارلى " . قالت وهى تمسك بيدىّ ، متى تذهب ياعزيزى " .

" خلال أسبوعين . وأنا أقترح ، لحين ذلك ألا أراك البتة . ليس هنالك مايدعو الى أن يضايق الواحد منا الآخر بهذه المشاحنات " .

" كما تشاء " .

" سوف اكتب اليك " .

" نعم ، بالطبع " .

كانت طريقة غريبة فاترة للفراق بعد مثل تلك العلاقة التى كان لها شأنها . أصاب مشاعرنا نوع من الخدر الشبحى . كان فى داخلى نوع من الألم العميق ، إلا أنه لم يكن أسفا . إن التصافح الخامد خمود الموت الذى تبادلناه لم يكن غير تعبير عن استنفاد غريب وحقيقى للروح . جلست فى المقعد تدخن فى سكون وتراقبنى وأنا أجمع حاجياتى معاً وأنا أحشوها فى المحفظة القديمة البالية ، التى استعرتها من تلفورد ، ونسيت ردها اليه فى الصيف الماضى . كانت فرشة الأسنان قد تفلطحت فألقيت بها بعيدا . وكانت مناماتى ممزقة عند الكتف ، إلا أن النصف التحتى ، والذى لم أكن استخدمه البتة ، كان لايزال متغضنا وجديدا . جمعت تلك الحاجيات كما يفرز الجيولوجى عينات من عصر ناء وبعيد . بعض الكتب والأوراق . بدا الأمر كله نوعا من الأمور غير الحقيقية ، إلا أننى لاأستطيع القول أن أى شعور بالأسف العميق قد اختلط به .

" كم جعلتنا هذه الحرب مسنين ميتذلين " ، قالت فجأة كأنما تخاطب نفسها ، " كان يمكن للمرء فى الأيام الماضية أن يفكر فى الابتعاد حتى يهرب من نفسه ، كما كنا نقول . ولكن الهروب من ......" .

أدرك الآن ، وأنا أكتب هذه الكلمات ، بكل مافيها من ابتذال مرهق ، أنها كانت تحاول حقا أن تقول وداعا . إنها فاجعة الرغبات البشرية . كان المستقبل ، بالنسبة لى ، مفتوحا غير ملتزم بوعد أو عهد . لم يكن فيه جزء واحد لا أستطيع حينئذ تخيله دون أن يحتوى كليا ، بصورة ما . كان هذا الفراق .... حسنا ، كان فقط مثل تغيير الأربطة حتى يندمل الجرح . كنت عديم البصيرة فلم استطع التفكير بشكل محدد فى المستقبل الذى يمكن أن يلقى على كاهلى بمطالب غير متوقعة ، بأشياء يمكن أن تكون جديدة تمام الجدة . يجب أن تترك مثل تلك الأمور لتشكل نفسها طبقا لما فيه الحاضر من فراغ . أما عن كليا ، فقد كان المستقبل بالنسبة لها مسدودا ، كان يمثل بالفعل حوارا خاليا من كل شىء . كانت المخلوقة المسكنية خائفة !

" حسنا ، ذلك هو كل شىء " ، قلت أخيرا ، واقفا بالمحفظة تحت ذراعى . " « إن كان هنالك ماتبتغينه ، فما عليك إلا أن تدقى جرس الهاتف لى . سوف أكون فى مسكنى » .

" إننى أعرف ذلك " .

" سابتعد إذن لفترة . وداعاً .

سمعتها ، وأنا أغلق باب الشقة الصغيرة تنادى اسمى مرة ، إلا أن ذلك كان ، مرة أخرى ، واحدا من تلك الأمور المخادعة ، من تلك النوبات المحدودة التى تتسم بالشفقة والحنان ، والتى تخدع المرء . كان من الحمق أن أُعطى أى التفات أو انتباه ، أن أرتد على عقبىّ وأفتح جولة جديدة من الخلافات والنزاعات . هبطت السلم ، مصمما على أن أدع للمستقبل كل فرصة حتى يلملم جراحه .

كان يوما ربيعيا مشمسا رائعا ، تبدو فيه الشوارع وقد غسلتها الألوان . كان

الشعور بعدم وجود مكان يذهب المرء اليه أو وجود أى شىء يفعله ، محبطا ومنعشاً . عدت الى مسكنى فوجدت على رف المدفأة خطابا من بومبال يقول فيه أنه من المحتمل أن يصل قريبا الى ايطاليا ، وأنه غير قادر على الحفاظ على الشقة مستقبلا . أبهجنى ذلك النبأ ، إذ إنه يمكننى من إنهاء عقد الإيجار ، الذى لن أكون قادرا على دفع نصيبى فيه قريبا . كان الأمر غريبا ، الى حد ما ، فى البداية ، بل ربما كان المرء فيه مخدرا الى حد ما ، أن أترك وشأنى كلية ، إلا إننى سرعان ما أعتدت هذا الوضع . كما كان هنالك ، بالإضافة الى ذلك ، قدر كبير حقا من العمل يجب إنجازه ، بتصفية واجباتى فى الأعمال الرقابية وتسليم مهام منصبى الى من يخلفنى ، بينما أقوم فى ذات الوقت ، بجمع المعلومات العملية عن وحدة صغيرة من الفنيين تقوم بانشاء محطة للإذاعة . كان علىّ أن أكون مشغولا للغاية بين هاتين الإدارتين باحتياجاتهما المختلفة . واحتفظت خلال تلك الأيام بكلمتى ألا أرى كليا . مضى الوقت فى نوع من الحبس يتقاذفه عالم الرغبة وعالم الوداع – رغم أنه لم تكن هنالك أية عواطف محددة ، بصورة واضحة لى تمام الوضوح ، لم أكن شاعرا بأسف أو شوق أو حنين .

ثم حدث أن حل أخيرا ذلك اليوم القاتل ، قدم نفسه متنكرا تحت ابتسامة شمس ربيع ساطعة ، حارة بما يكفى لتشجيع الذباب كى يتكاثر فوق زجاج النافذة . كان طنينه هو الذى أيقظنى . كان ضوء الشمس ينثال فى الحجرة ، وللحظة بهر عينى حتى أننى تعرفت فى صعوبة على الشخص المبتسم الجالس عند موضع القدمين فى فراشى ، فى انتظار أن أفتح عينى . كانت كليا فى نسخة أصلية منسية من صورها ، إن جاز القول ، ترتدى جلبابا صيفيا رائعا أشبه بكرمة عنب متموجة ، وصندل أبيض ، وقد نُسق شعرها بطريقة جديدة . كانت تدخن سيجارة يعلق دخانها فى حلقات رائعة رمادية مجزعة فى ضوء

الشـمس فوقنا ، وكان وجهها الباسم مسترخيا ليس به ظل لأى شىء يشغل بالها . حملقت فيها ، إذ إنها بدت لى بدقة ، وبصورة جلية كليا التى يجب أن أتذكرها دوما . كان الحنان الذى يتسم بالشقاوة قد عاد ثانية الى عينيها . " حسنا " ، قلت في دهشة ناعسة " ماذا ..... ؟ " وأحسست بأنفساها الدافئة فوق وجنتى وقد مالت لتعانقنى .

" دارلى » ، قالت ، " لقد عرفت فجأة أنك مغادر غدا ، وأن اليوم هو مُولد السكوب . لم استطع مقاومة فكرة قضاء اليوم معا ، وأن نزور الضريح هذا المساء . أو قل إنك ستفعل ذلك . أنظر الى الشمس الساطعة . إنها دافئة بما يكفى للسباحة ، كما يمكننا أن نصطحب بلتازار معنا " .

لم أكن قد استيقظت تماما . كنت قد نسيت عيد القديس القرصان . " إلا أن عيد القديس سـانت جورج قد مضى مـنذ زمن طويل " قلت ، " إنه بالتأكـيد فى نهاية ابريل " .

" على العكس ، إذ إن طريقتهم المركبة فى حساب التقويم القمرى ، قد حولته الى عيد متحرك ، مثله فى ذلك مثل كل الأخرين . إنه ينزلق الآن الى أعلى والى اسفل مثل قديس محلي . إن بلتازار ، فى الحقيقة ، هو الذى حدثنى بالهاتف أمس وأخبرنى به ، وإلا كان المولد قد فاتنى" . ثم صمتت لتنفخ سـيجارتهـا . " « يجب ألا يفوتنا . أليس كذلك ؟ " ، أضافت فى قليل من التشوق .

" بالطبع يجب ألا يفوتنا ! كم كان طيبا منك أن تحضرى " .

"والجزيرة ، ربما يكون فى وسعك الحضور معنا ؟ " .

كانت الساعة قد بلغت العاشرة بالضبط . كان فى وسعى ، فى سهولة ، أن أتصل هاتفيا بتلفورد لأقدم له عذرا عن غيابى اليوم ، وقفز قلبى .

" إنني أحب ذلك " . قلت ، " كيف حال الريح ؟ " .

" هادئة كراهبة ، مع تدفق شرقى . إنها ، كما يمكن أن أقول ، مثالية بالنسبة للزورق . هل أنت متأكد من رغبتك فى الذهاب معنا ؟ " .

كان معها دامجانة [1] تغلفها الأغصان المجدولة وسلة . " سوف أذهب لإعداد مايلزمنا من مؤن ، على أن ترتدى ثيابك وتقابلنى عند نادى اليخت خلال ساعة ".

" حسنا " . إن هذا سوف يمنحنى فسحة من وقت لزيارة مكتبى وفحص البريد اليومى . " إنها فكرة رائعة . "

كانت الفكرة ، فى الحقيقة ، رائعة . كان اليوم صافيا يوحى بحرارة صيفية فيما بعد الظهر . واخذت أخب فى الكورنيش الكبير ، أتأمل غبش الأفق الخفيف وامتداد البحر الأزرق الساجى فى بهجة . كانت المدينة تتلألأ فى ضوء الشمس مثل جوهرة . الزوارق الصغيرة رائعة وقد ألقت مراسيها فى الحوض الداخلى ، وصورها الممسوخة فى انعكاساتها البراقة . المآذن تزعق فى صوت عال . والحرارة فى الحى العربى قد انجبت الروائح المعتادة ، للطين الآخذ فى الجفاف والأشبه بالجيفة ، للقرنفل والياسمين ، لعرق الحيوان والبرسيم . وأقزام داكنى اللون ، فى شارع التتويج ، فوق سلالم ، وقد ارتدوا قبعات قرمزية كأوانى الزهور، يشدون حبال أعلام من الشرفات. أحسست بدفء الشمس فوق اصابعى . عبرنا أمام الموقع الفرعونى القديم التى تغص المناطق الضحلة بقطعه المهمشة . إن توبى مانرينج ، كما أتذكر ، قد أراد ذات مرة أن يبدأ تجارة عاديات ببيع تلك الكسر الفرعونية كثقالات للورق . كان على سكوبى أن يكسرها

---

(١) قارورة كبيرة ضخمة ضيقة الرقبة - المترجم .

له بشاكوش ، وكان عليه هو أن يسلمها لباعة التجزئة فى كل أنحاء العالم . لماذا خاب هذا المشروع ؟ إننى لا أتذكر ذلك . ربما وجد سكوبى أن العمل شاق للغاية ؟ أو ربما تداخل مع ذلك المشروع الآخر لبيع مياه نهر الأردن الى القبط بسعر تنافسى ؟ هنالك فى مكان ما ، فرقة عسكرية تثير ضوضاء عالية .

كانا هنالك فى انتظارى أسفل عند الرصيف . طوح بلتازار عصاه فى مرح. كان يرتدى سروالا وصندلا أبيض وقميصا ملونا ، ويعبث فى قبعة بنمية [١] عتيقة مائلة الى الصفرة .

" اليوم الأول من الصيف " . ناديت فى بهجة .

" أنك مخطىء » ، قال فى صوت كالنقيق ، « أنظر الى هذه الغبشة . إنه بالفعل يوم حار تماما . لقد راهنت كليا على ألف قرش أن عاصفة رعدية سوف تهب فيما بعد الظهر » .

" إن لديه دوما شيئا يقوله " . ابتسمت كليا .

" إننى أعرف اسكندريتى » ، قال بلتازار .

شرعنا فى طريقنا وسط تلك المسرات العابثة ، وقد جلست كليا عند ذراع دفة زورقها الصغير . بالكاد كانت هنالك نسمة ريح داخل الميناء . أخذت تبحر فى بطء ، بصورة ما ، تلملم طريقها فقط بزخم الأمواج التى كانت تميل ناحية مدخل الميناء . سرنا متلصصين بين البوارج الحربية وسفن نقل الركاب ، نقاوم تلاطم أمواج القناة الرئيسية فى تردد واحجام . لم يكن الابحار الرئيسى قد اقترب بعد، حتى بلغنا فى النهاية أخلاط الطوابى الرمادية التى تحدد المدخل الرئيسى

---

(١) نسبة الى بنما - المترجم .

للميناء . يوجد هنا ، دوما كمية من المياه المتلاطمة كدسها المد والجزر . غصنا ، تعرجنا ، بالزورق فترة حتى ترنح فجأة واتخذ مساره فوق الريح واستقر صاريه الأمامي : أخذنا نئز فى البحر مثل السمك الطيار ، كأن الزورق مقدم على اقتحام أحد النجوم كالخازوق . استلقيت بين الألواح ، أحملق الى أعلى فى الشمس الساطعة الذهبية عبر الأشرعة ، اسمع ثرثرة المويجات عند مقدم السفينة الرشيق . كان بلتازار يطن بلحن ما . رقد معصم كليا البنى فوق ذراع الدفة فى اهمال رقيق خداع . وتوترت الأشرعة . تلك هى متع الابحار فى زورق صغير عبر طقس مثالى . إنها تسمو بالقلب . أمسكت بى فرحة صامتة ، خليط من النعم التى تولدها الشمس الدافئة والريح السريعة واللمسات الباردة الخفيفة للرذاذ الذى يصطدم بوجناتنا من وقت لآخر . ذهبنا بعيدا فى اتجاه شرقى حتى نتمكن من التوجه نحو الشاطىء . إننا ، وحتى الآن ، قد قمنا بهذه المناورة كثيرا حتى أنها غدت مزاجا ثانيا لكليا : أن تبحر الى جزيرة ناروز الصغيرة ، وأن تحدد بدقة اللحظة المناسبة ، التى عليها أن تستدير فيها فى عين الريح وتتمهل ، ليرفرف الشراع مثل رمش العين ، فأطوية ، وأدفع به نحو الشاطىء مسرعا ....

" عمل متقن حقـــا " قال بلتازار مســـتحسنا بينما يخطو فى المـــاء ثم ، " ياألهى ، إنه دفء خيالى تماماً .

" ماذا قلت لك ؟ ، " قالت كليا وهى مشغولة بصندوق القارب .

" إن ذلك يثبت صحة ماقلت عن العاصفة الرعدية " .

وجاءت فى تلك اللحظة ، وللغرابة الشديدة ، قعقعة الرعد الواضحة من تلك السماء الخالية من السحب . " هناك "، قال بلتازار فى انتصار ، " سوف تتشبع بالماء تشبعا جيدا ، كما أنك سوف تكونين مدينة لى ببعض النقود ياكليا " .

" سوف نرى " .

"إنها بطارية ساحلية " ، قلت أنا .

" سخف وهراء " ، قال بلتازار .

وهكذا أمّنا الزورق وحملنا مؤننا الى الشاطىء . رقد بلتازار على ظهره واضعا قبعته فوق انفه وهو فى أكثر حالاته مرحا . إنه لاينزل البحر ، يبدى عدم مبالاته بالسباحة . غطست أنا وكليا مرة أخرى فى البحيرة المألوفة لنا والتى أهملناها طوال الشتاء . لاشىء تغير . الديدبانات مازالت هنالك ، متجمعين فى نقاش صامت . كان مد الشتاء وجزره قد غيرا بعض الشىء من ترتيبهم ، بحيث تجمعوا أقرب قليلا الى الحطام . حييناهم ساخرين وإن كان فى احترام ، ونحن نتعرف ، فى تلك اللمحات القديمة وابتسامات ما تحت الماء ، على سعادة اعتدناها تنمو مع صفاء الاستحمام معا ، مرة أخرى . كان الأمر وكأن الدم قد بدأ جريانه ثانية فى عروق طال وهنها ، من عدم استخدامها . أمسكت بها من كعبها وأدرتها فى شقلبة طويلة نحو البحارة الموتى . استدارت فى مهارة لترد لى دينى بالصعود خلفى ، تدفعنى من كتفى الى اسفل وتتسلق الى أعلى قبل أن أرد على فعلتها بمثلها إنه هنا ، وهى تصعد نحو السطح بطريقة لولبية عبر الماء بشعرها يتلوى خلفها ، عادت صورة كليا ثانية . لقد أعادها الزمن ، كاملة وصحيحة ، مرة أخرى – طبيعية مثل ألهة فنون المدينة رمادية العينين ، كما يمكن أن نقتبس من الشعر اليونانى . إن أصابعها ، تحديدا ، والتى ضغطت بها فوق كتفى ، قد بعثتها من جديد ، فى سرعة ، بينما تنزلق عبر البركة الصامتة .

ثم نجلس ثانيـــة بعد ذلك فى ضوء الشمس الخالص ، نرشــف نبيذ القديس

متياس الأحمر ، بينما تكسر هى رغيفا دافئا بنيا من الخبز الفرنسى وتبحث عن نوع بذاته من الجبن وعنقود بلح : بينما يتحدث بلتازار بطريقة استطرادية (وهو نصف نائم) عن كرمة آمون ، ملوك مملكة الحراب ومعاركهم ، أو عن نبيذ مريوط، الذى عزى اليه هوراس النمام ، وليس التاريخ ، اضطراب كليوباترا العقلى ..... « ويقر التاريخ كل شىء ، ويعفو عن كل شىء – حتى تلك الأشياء التى لا نغفرها نحن أنفسنا » .

جاءت الظهيرة الدافئة ونحن نرقد هنالك فوق حصى ساخن : أخيرا ، ولفرحة بلتازار الهائلة وخيبة كليا – ظهرت العاصفة الرعدية المتنبأ بها ، تبشر بها سحابة رعدية تتدحرج من الشرق لتقعى فوق المدينة ، كالكدمة فى السماء . وفجأة أيضا – كما تفعل سمكة الحبار عندما تحس الخطر فتنفخ ما فى كيسها لتحيل الماء الصافى الى سحابة سوداء – انساب المطر فى صفائح براقة ، وخار الرعد فى لجاجة والحاح . بلتازار يصفق بيديه فرحا مع كل هزيم وقصف – ليس فقط لاثبات صحة نبوءته ، ولكن أيضا لأننا كنا نجلس هنا فى ضوء الشمس الساطع، نحس الراحة تماما ، نأكل البرتقال ونشرب النبيذ الى جوار بحر أزرق هادىء .

" كف عن الصياح كالغراب " ، قالت كليا فى حدة .

كانت هذه واحدة من تلك العواصف الأشبه بالنزوات ، والتى تنتشر فى باكورة الربيع ، بما فيه من تغيرات فى درجة الحرارة يولدها البحر والصحراء . كانت تحيل الشوارع ، فى لمح البصر الى سيول جارفة ، ورغم ذلك فإنها لا تدوم أبدا أكثر من نصف الساعة . وفجأة تدفع بقية من ريح تلك السحابة بعيدا ، لتختفى كلية . قال بلتازار ثملا بتحقيق نبوءته ، " اصغيا الىّ الآن . إننا ما أن نعود الى الميناء حتى يكون كل شىء جافا ثانية ، جافا مثل عظمة من العظام " .

جاء ما بعد الظهر ومعه ظاهرة أخرى بعثت البهجة فى نفوسنا – شىء ما يندر رؤيته فى الصيف فى مياه الأسكندرية ، ينتمى الى تلك الأيام التى تسبق عواصف الشتاء ، عندما يتساقط الزجاج حادا . أظلمت مياه البركة بصورة واضحة ، تخثرت ، ثم غدت مضيئة متألقة . كانت كليا هى التى لاحظت ذلك أولا . "أنظر "، صاحت فى فرحة ، دافعة كعبيها فى المياه الضحلة ، تراقب شرارة الضوء المتلألئة القارصة الصاعدة منها . " فسفور ! " . بدأ بلتازار يقول شيئا عن الكائن الذى يسبب هذه الظاهرة ، إلا أننا لم نلتفت اليه وغطسنا ، جنبا الى جنب، متجهين الى أسفل فى المياه . تحولنا الى شخوص من لهب . كانت الشرارات تبرق من أطراف أصابع أيدينا وأقدامنا تشع بكهربة استاتيكية . السابح تحت الماء يبدو لمن يراه مثل صورة رسمت لسقوط ابليس بالتحديد فوق النار . كانت طقطقة الكهرباء واضحة حتى أننا لم نستطع أن نمنع إحساسنا بالحيرة كيف أننا لم نصطل بها . لعبنا ، نتألق مثل نجوم مذنبة ، بين البحارة الساكنين ، والذين جلسوا يراقبوننا بأفكارهم ، يرددون فى وهن اختلاج المد والجزر فى أكياسهم المصنوعة من الخيش .

" السحابة تنقشع بالفعل " ، صاح بلتازار عندما عدت أخيرا الى السطح كى استنشق بعض الهواء . التألق المضىء الشارد سرعان مايتناقص ويتلاشى . كان لسبب ، أو آخر ، قد صعد الى مؤخرة الزورق ، ربما الى مكان أعلى ، أكثر ارتفاعا وأكثر سهولة لرؤية العاصفة الرعدية فوق المدينة .

أرحت ساعدى فوق حافة الزورق وأخذت نفسى . كان قد فض أربطة بندقية الرمح القديمة ، بندقية ناروز ، وكان يمسك بها فى إهمال فوق ركبته . خرجت كليا الى السطح فى رنة فرحة . ظلت صامتة فترة طويلة لتصبح ، " النار جميلة للغاية " . اثنت جسدها الرشيق المياس وغطست ثانية الى اسفل .

" ماذا تفعل بتلك ؟ " ، تساءلت فى حمق .

" أرى كيف تعمل " .

كان فى الحقيقة ، قد دفع بالحربة لتستقر فى الماسورة . أغلق عليها الزنبرك . قلت ، " الزناد مرفوع ، خذ حذرك " .

" نعم سوف أطلقه " .

مال بلتازار الى الأمام . نطق الملحوظة الوحيدة الجادة بين كل ماصدر عنه طوال ذلك اليوم ، " أنت تعرف " ، قال " أننى أعتقد أنه من الأفضل أخذها معك. إن لدىّ إحساسا أنك لن تعود ثانية الى الأسكندرية . خذ كليا معك ! " .

ثم ، وقبل أن أجيب ، وقعت الحادثة . كان يعبث فى البندقية بينما كان يتكلـم. إنزلقت من بين أصابعه ، سقطت فى صدمة شديدة . خبطت الماسورة حافة الزورق على بعد ست بوصات من وجهى . سمعت ، وأنا أتراجع وقد أحسست بالخطر ، الأزيز المفاجىء لضاغط الهواء ، الذى يشبه صوت الكوبرا ، والخنة الثقيلة لانطلاق الزناد . صفر الرمح فى الماء الى جانبى ، يخشخش حبله الأخضر الطويل خلفه . " من أجل خاطر المسيح " ، قلت . تحول لون بلتازار الى الشحوب انزعاجا وإحساسا بالخطر : كان مانطقه من اعتذارات مجتزءا وتعبيرات الدهشة الفزعة واضحة بليغة . " آسف شديد الأسف ." كنت قد سمعت التكة الخفيفة للصلب وقد استقرت فى هدف ما فى مكان ما ، هنالك أسـفل فى البحيرة . وقفنا متجمدين مدة ثانية ، إذ بزغ شىء آخر فى ذات الوقت فى عقلينا . عندما رأيت شفتيه وقد بدأتا تتخذان شكل الكلمة " كليا " ، أحسست بظلمة تهبط على روحى – ظلمة أرتفعت وانتقضت عند الأطراف ، ودفعة مثل زفزفة اجنحة عملاق . استدرت بالفعل قبل أن ينطق الكلمة . اندفعت فى الماء ،

مرة أخرى ، أتتبع الحبل الأخضر الطويل بكل قلق وحيرة أريادن (١) ، يضاف الى ذلك كل البطء الذى لا يصدر إلا عن خشية القلب الحزين . كنت أعرف ، بعقلى ، أننى أسبح بعزم وقوة – ورغم ذلك بدا الأمر مثل واحد من تلك الأفلام البطيئة الحركة ، حيث تبطىء آلة التصوير الأفعال البشرية وتطيلها بطريقة لينة ملساء الى مالا نهاية ، ملفوفة مثل الحلوى . كم عدد السنوات الضوئية التى يستغرقها المرء حتى يصل الى نهاية ذلك الحبل ؟ ماذا سأجد عند نهايته ؟ غصت الى أسفل ، إلى اسفل فى الوميض المتألق المتناقص ، من برودة البحيرة العميقة بظلالها .

استطعت أن أتبين ، عند النهاية البعيدة ، قرب الحطام ، حركة متكورة متشنجة ، واستطعت أن أتعرف فى غير وضوح على هيئة كليا وشكلها . كانت تبدو منهمكة ، عن عمد ، بلعبة طفولية تحت الماء ، من ذلك النوع الذى غالبا ماكنا نلعبه معاً . كانت تجذب بعنف شيئا ما ، وقد دفعت بقدميها الى خشب الحطام ، تشد وترخى جسدها . أحسست بموجة من الراحة ، رغم أن الحبل الأخضر كان يقود اليها – إذ ربما تحاول فقط تخليص الرمح وحمله الى السطح معها . ولكن كلا ، إذ كانت تتدحرج كالسكرى . انزلقت الى جانبها مثل ثعبان الماء ، أتحسس بيدى . أدارت رأسها عندما أحست بى قربها ، كأنما تريد أن تخبرنى بشىء ما ، أعاق شعرها الطويل رؤيتى . لم أستطع قراءة ماأرتسم على وجهها من ألم يائس لابد أنه كان مسطورا فوقه – إذ إن المياه تحول كل تعبيرات الملامح البشرية الى الجهامة الخرقاء الجاحظة لسمك الحبار . إلا أنها تقوست الآن ، دفعت برأسها الى الوراء فإنساب شعرها من فروة رأسها فى حرية الى أعلى – حركة تصدر

---

(١) إبنة مينوس التى أعطت تيسيوس الحبل وبذلك هرب من التيه – المترجم .

عن أمرىء بفتح رداء ليعرض جرحا . ورأيت . كان الرمح ، المصنوع من الصلب قد اخترق يدها اليمنى ومسمرها فى الحطام ، إنه لم يمر ، على الأقل ، بجسدها. صرخ عقلي مرتاحا باحثا عما يواسيه . إلا أن الشعور بالراحة تحول الى يأس سقيم خبيث عندما أمسكت بالسهم الصلب ودفعت قدميّ في مواجهة الخشب ، أجذب بقوة حتى طقطقت عضلات فخذى . إنه لايتحرك قيد أنملة . (كلا ، إن كل ذلك لم يكن غير جزء من حلم لا معقول ، ربما صنع فى العقول الميتة للشخوص السبع المتأملة ، والتى ترعى بعناية شديدة ، وتدقيق شديد ، الحركات والمناورات التى تحتاج الى جهد مرهق ، والتى نقوم بعرضها الآن - إننا لم نعد حُرين أو سريعى الحركة كالأسماك . إننا الآن مرتبكان مفلطحان ، مثل جراد بحر وقد سقط فى شراك إناء) . ناضلت بجنون ، ذلك السهم الصلب ، وأنا أرى بركن عينى ، السلسلة الطويلة من الفقاقيع البيضاء المندفعة من حلق كليا . أحسست بعضلاتها تتمدد ، تتناقص قدرتها . كانت تستقر تدريجيا فى وسن الماء الأزرق ، وقد غزاها الماء الذى أصاب البحارة بالخمود بالفعل ، وأنامهم . وهززتها . إننى لاأستطيع الزعم بأن أى شىء تلا ذلك كان يرجع الى إرادتى - إذ إن الغضب المجنون الذى سيطر عليّ لم يكن البتة واحدا من المشاعر التى عرفتها كمشاعر تنتمى الى ذاتى الحقيقية . لقد تجاوزت ، فى ضراوة عمياء عنيفة ، أى شىء أحسسته ، على الاطلاق ، من قبل . أحسست وأنا فى هذا الحلم الغريب الأبدى تحت الماء أن عقلى يرن جرس إنذار سيارة اسعاف ، يزيل الجزر والمد الخامد الواهن لظلمة البحر . لقد نخسنى فجأة مهماز الرعب الحاد . كان الأمر وكأننى أواجه نفسى لأول مرة - أو ربما تشكلت ذاتٌ أخرى لرجل عمل لم أعرفه فى نفسى من قبل . انطلقت الى السطح ثانية ، بدفعة واحدة وحشية ، لأظهر تحت أنف بلتازار مباشرة .

" السكين " ، قلت وأنا أمتص الهواء .

حملقت عيناه في عيني ، كأنما ينظر الىّ من فوق قارة ما غارقة ، في تعبير شفوق فزع ومشاعر مكنونة ، متحفزة ، منذ زمن جليدى للذاكرة البشرية ، بدأ ، وقد امسك به خوف فطرى ، يتهته كل الأسئلة التى غزت عقله – كلمات مثل " ماذا " ، "أين " "متى" "أى مكان" [1] إلا أن العى اصابه فلم ينطق غير الحرفين الأولين : إنها طريقة للسؤال غائمة تطفح بالكرب والألم المبرح . كانت السكينة التى تذكرتها سونكياً إيطاليا ، جلخ حتى غدا في حجم الخنجر ، وسن حتى غدا في حدة الموسى . كان " على " النوتى قد صنعه متباهيا به . كان يستخدمه في تشذيب الحبال ، في أعمال الربط والتجهيز . تعلقت هنالك مدة ثانية ، بينما سعى هو لإحضاره ، وقد أغلقت عيني ورئتاى ، كما يبدو ، تنهلان الجو كله . ثم أحسست بالجزء الخشبى من الخنجر في أصابعى ، فأدرت أصابع قدمىّ نحو السماء دون أن أتجاسر على النظر مرة أخرى الى بلتازار ، وعدت أقتفى آثارى ، أتتبع الحبل الأخضر .

كانت معلقة رخوة مسترخية ، تتمدد مترهلة ، بينما شعرها الطويل ينبسط خلفها ، والأمواج تتماوج على جسدها وخلاله ، بدت كأنها موجة كهربية تتلاعب . كان كل شيء ساكنا ، ودوائر ضوء الشمس الفضية الأشبه بالعملات تلمع رقطاء في أرض البحيرة ، والمراقبون الصامتون ، التماثيل التى تتحرك ذقونها في بطء، تتمايل في لين الى الأمام والخلف . عندما بدأت أحز عند يدها ، كنت ، عقليا أعد مكانا خاليا فسيحا في خاطرى لموتها . مكان كبير أشبه بقارة صغيرة ، لم تكتشف بعد ، في خرائط العقل . لم يمض وقت طويل للغاية قبل أن أشعر

---

(١) What , where, when, whither وتبدأ كلها في الأصل الانجليزى بـ Wh وهما الحرفان اللذان استطاع نطقهما (المترجم).

بجسدها ينفصل تحت ثقل هذه العقوبة المريرة . اقتمت المياه . أسقطت السكين ويدفعة قوية أرسلتها تترنح بعيدا عن الحطام : أمسكت بها من تحت الذراعين ، وهكذا صعدنا ، بدا وكأن الأمر قد استغرق حقبة من الزمان - ودقات قلب مطردة لا نهائية - فى ذلك العالم بطىء الحركة . ومع ذلك فإننا إرتطمنا بالسماء فى ارتجاج أفرغ مافى جوفى من أنفاس - وكأنى قد شققت جمجمتى فى سقف الكون . وقفت فى المياه الضحلة أدحرج كتلة جسدها المخضلة بالدماء . سمعت صوت أسنان بلتازار تنحطم وقد سقطت فى الزورق عندما قفز الى الماء بجانبى . لهثنا ، نخرنا كالخنازير ، كالعاملين فى شحن السفن وتفريغها حتى أخرجناها فوق الحصى . حبا بلتازار ، فى تلك الأثناء ، ليمسك بهذه اليد المصابة الدامية . كان أشبه بكهربائى يحاول أن يقبض على سلك عالى الجهد كان قد أفلت من موضعه ويعزله . ما أن أمسكها حتى تعلق بها كما يتعلق المرء برذيلة ما . بدت أمامى ، فجأة ، صورة طفل صغير تعلق ، فى عصبية ، بيد أمه وسط زحام من أطفال آخرين ، أو بينما يعبر حديقة حيث قام الصبية ذات يوم بإلقاء الحجارة عليه ... وقذف عبر لثته الوردية كلمة « دوبارة » - وكان فى صندوق الزورق ، لحسن الحظ ، ما يمكن أن يحقق حاجته .

« لكنها ماتت » ، قلت . وأثرت الكلمة فى دقات قلبى فبدلتها حتى أحسست أنى أوشك على الإغماء . كانت ترقد كطائر بحر سقط فوق بقعة الحصى الصغيرة . كان بلتازار يكاد يجلس القرفصاء فى الماء ممسكا ، فى حالة من الجنون ، بيدها التى ما كان فى وسعى احتمال النظر إليها ، ولكن ، مرة ثانية ، جاء صوت هذه الذات المتغيرة المجهولة من بعد سحيق ، ليعاوننى فى إعداد ضاغط للشرايين ، ألُف فيه قلماً وأناوله له . مددتها الآن وأنا ألهث . نزلت عليها بجمع كفى ، أطحن بقوة فوق ظهرها ، وكأن يدى قادمة من ارتفاع شاهق .

أحسست أن الرئتين المشبعتين بالماء تثبان تحت هذه اللطمة الفظة القاسية . بدأت أعصرهما ، فى بطء ، ولكن فى عنف هائل بتلك الطريقة المثيرة للشفقة والتى تماثل ، إلى حد ما ، فعلا جنسيا - إنقاذ الحياة ومنح الحياة . بدا بلتازار كأنما يصلى . جاءت بادرة من الأمل إذ انفتحت شفتى هذا الوجه الشاحب وسال منهما مزيج من فى مياه البحر والقئ . لم يكن ذلك ، بالطبع ، يعنى شيئا ، إلا أن كلينا صرخ لهذا البشير . أغلقت عينىّ وأعددت معصمىّ ألتمس هاتين الرئتين المحملتين بالماء ولعصرهما وتفريغهما . أخذت أعلو وأهبط ، أعلو وأهبط ، أضخهما بهذا الإيقاع البطئ القاسى . أحسست بعظامها الرقيقة تزيق تحت يدىّ إلا أنها كانت لاتزال راقدة بلا حياة . لكننى ما كنت أقبل بفكرة أنها قد ماتت ، رغم أنى كنت أدرك ذلك بجزء من عقلى . أحسست أننى أصر بجنون لإثبات عكس ذلك ، أن ألقى جانبا ، لو لزم الأمر ، بما تمليه الطبيعة ، وإجبارها على الحياة بفعل إرادى . أدهشتنى هذه القرارت ، التى وُجدت كصور واضحة محددة وراء الجهد البدنى الذى يُغيب المرء عن رشده ، وأنين هذا العمل وعرقه . لقد قررت ، كما أدركت ، إما أن أعيدها إلى الحياة أو أبقى هنالك معها أسفل عند قاع البحيرة . ولكن من أين ، من أى منطقة فى الإرادة ، جاء مثل ذاك القرار ، لقد عجزت عن تخمين ذلك ! ارتفعت حرارة الجو فغدا حارا . كنت أتفصد عرقا. بلتازار مازال جالسا ممسكا باليد ، يد الرسامة ، فى تذلل مثل طفل على ركبة أمه . كانت الدموع تنثال أسفل أنفه ، ورأسه تذهب من جانب إلى آخر فى تلك الحركة اليهودية المعبرة عن ندم يائس ، ولثته الخالية من الأسنان تصدر ذلك الصوت القديم إلى جوار حائط المبكى « آيى آيى » ، ولكن فى رقة شديدة ، كأنه يود ألا يقلقها .

أخيرا جاءت المكافأة . تفجر ، فجأة ، مثل ميزاب تحت ضغط المطر ، انفتح

فمها ليقذف بكتلة من قئ وماء البحر ، فتات خبز مشبع بالماء وبرتقال . حملقنا فى هذه الخلطة بفرحة طاغية ، كأننا نحملق فى غنيمة نصر عظيم . أحسست بالرئتين تستجيبان فى بطء ليدى ، مزيد من ضربات أخرى ، من هـذه الآلة الفجة ، وبدت حركة تموّج ثانوية تضطرب فى جهاز بدنها العضلى . كانت الرئتان تكادان ، مع كل دفعة إلى أسفل ، تعطيان فى تردد وألم قدرا من الماء . ثم سمعنا بعد فترة من الوقت طويلة ، إجهاشة واهنة . لابد أن تلك العملية كانت تسبب الألم ، كما تؤلم الأنفاس الأولى القليلة لطفل حديث الولادة . كان جسد كليا يحتج على هذا الميلاد الجديد القسرى . تحركت ، على حين بغتة ، تقاطيع هذا الوجه الشاحب . شكلت نفسها لتعبر عن شئ أشبه بالألم والاحتجاج . (نعم إلا أنه من الموجع أن يعرف المرء) .

" استمر ، " صاح بلتازار فى صوت جديد ، مهتز ومنتصر . لم يكن فى حاجة لإخبارى بذلك . كانت تختلج الآن قليلا . كان وجهها يبدو متشكيا ، دون صوت ، مع كل دفعة . بدا الأمر وكأنه بداية تشغيل آلة ديزل باردة للغاية . ومع ذلك حدثت، أخيرا ، معجزة - فتحت عينين زرقاوين تماما ، فاقدتى الإبصار ، مشتتتين ، مدة ثانية ، لتفحص الاحجار التى أمام أنفها بتركيز حائر ، ثم أغلقتهما ثانية . كانت تقاطيعها قد أظلمت من الألم ، إلا أن الألم ، حتى الألم ، كان انتصارا - إذ إنه كان ، على الأقل ، تعبيرا عن أحاسيس حية - أحاسيس حلت محل قناع الموت الشاحب . "إنها تتنفس " ، قلت . " بلتازار ، إنها تتنفس"

"إنها تتنفس " ، كرر الكلمات فى نوع من الطرب الأحمق . كانت تتنفس شهقات قصيرة مترنحة مؤلمة بصورة واضحة . واقترب الآن نوع آخر من العون . كنا منهمكين تماما فى هذه المهمة ، فلم نتنبه إلى أن سفينة قد دخلت المرفأ الصغير . كان القارب البخارى لخفر الميناء . لقد رأونا وخمنوا أننا نواجه أمرا

ما غير طبيعى . " ياالله يارحيم " ، صاح بلتازار وهو يصفق بذراعيه مثل غراب عجوز .

وجاءت أصوات انجليزية مرحة عبر المياه تسأل إن كنا فى حاجة للمساعدة . تقدم بحاران الى الشاطىء نحونا . " سوف نعيدها فى سرعة " ، قال بلتازار وهو يعبس منتفضا .

" إعطها بعض البراندى " .

" كلا " ، قال فى حدة . " لابراندى " .

أحضر البحارة ، الى الشاطىء ، غطاء من المشمع . لفوها فيه برقة مثل كليوباترا . لابد أنها كانت ، بالنسبة لعضلاتهم ، خفيفة خفة وبر الجمال . كانت حركاتهم الرقيقة ، غير الرشيقــة ، مؤثرة حتى أن الدموع طفــرت من عيــنىّ . " « ارفع هنالك على مهل يانوبى . كن رقيقا مع السيدة الصغيرة » . « هذا الضاغط للشرايين يجب مراقبته . إذهب أنت أيضا يابلتازار " .

" وأنت ؟ " .

" سوف أعود بزورقها" .

لم نضيع مزيدا من الوقت . فى لحظات قليلة أخذ الموتور القوى للقارب يثير الضوضاء ، يبحر بهم بسرعة عشر عقد . سمعت أحد البحارة يقول . " ماذا عن بعض « البوفريل » الساخن ؟ " .

"العاصمة " ، قال بلتازار . كان مشبعا بالماء حتى النخاع . كانت قبعته تعوم فى الماء الى جوارى . تذكر ، فجأة شيئا وهو يميل على مؤخرة الزورق .

" أسنانى . إحضر أسنانى " .

راقبتهم مدة من الزمن وهم يختفون عن الأنظار ، ورأسى بين راحتى . وجدت لدهشتى إننى انتفض مثل جواد أفزعته صدمة ما . هاجمنى صداع يشق الرأس . صعدت الى الزورق وأخذت أبحث عن البراندى والسجائر . كانت بندقية الصيد ترقد فوق الألواح . ألقيت بها من فوق ظهر الزورق وأنا ألعن . راقبتها وهى تزحف بطيئا الى أسفل فى البركة . هززت شراع المقدمة وأدرت الزورق على امتداد طوله حتى هلب المؤخرة . دفته الى الخارج حيث الرياح . أخذ ذلك منى وقتا أكثر مما كنت أقدر ، إذ إن رياح المساء كانت قد انحرفت بضع نقاط . كان علىّ أن أتخذ مجرى أكثر اتساعا قبل أن أصل الى مسار عودتى . كان " على" فى انتظارى . كان قد أُخبر بالحادث بالفعل ، وكان يحمل لى رسالة من بلتازار تقول إن كليا قد أُخذت الى المستشفى اليهودى .

أخذت « تاكسى » فور العثور عليه . عبرنا المدينة بأقصى سرعة . بدت الشوارع والأبنية ، ونحن نعبرها ، كاللطخات . كنت قلقا مضطربا حتى أنى رأيتها كأنما عبر زجاج شباك رصعه المطر . كان فى وسعى أن أسمع العداد وهو يتك مثل النبض . فى مكان ما ، فى جناح ما ، يمكن أن تكون كليا راقدة الآن تشرب الدم عبر ثقب ابرة فضية ، سوف يمر ، قطرة ، فى الوريد المتوسط مع كل دقة من دقات القلب . قلت لنفسى ، ليس هناك مايثير القلق ، ثم ضربت بقوة، غضبا ، فى جدار التاكسى المحشو ، عندما فكرت فى يدها المهشمة .

تعقبت ممرضة نوبتجية عبر الممرات الطويلة الخضراء ، والتى كانت جدرانها المدهونة بالزيت ترشح جوا من الرطوبة . اللمبات البيضاء تومض ، تتخلل تقدمنا ، تغوص فى الظلمة مثل حباحب منتفخة . فكرت متأملا فى أنهم ربما قد وضعوها فى الجناح الصغير ، ذى السرير الواحد ، المزود بالستائر ، والذى كان يحتجز فى الماضى للحالات الحرجة ، والتى كان احتمال بقائها حية ضئيلا .

إنها الآن حجرة الحوادث الطارئة . كان ينمو فى أعماقى الآن إحساس بألفة الأشباح . فى الماضى جئت الى هنا لأرى ميليسا . لابد أن كليا ترقد فى نفس السرير الحديدى الضيق فى الركن الى جوار الحائط ("وكأن الحياة الحقيقية تقلد الفن فى هذه النقطة ") .

التقيت ، على أى حال ، بأماريل وبلتازار فى الممر واقفين ، وقد ارتسم على ملامحها تعبير غريب بالتطهر ، أمام حامل متحرك أتت به اليهما للتو ممرضة نوبتجية . كان عليه عدد من صور أشعة إكس المبللة اللامعة . كان الرجلان يفحصانها فى قلق ووقار ، كأنما يفكران فى مشكلة من مشاكل الشطرنج . رآنى بلتازار فاستدار وقد أضاء وجهه . " إنها بخير تماما" ، قال فى صوت يكاد يكون محطما ، بينما يعصر يدى . ناولته أسنانه ، فأحمر خجلا ، ووضعها فى جيبه . كان أماريل يرتدى نظارة قراءة ذات حواف كالقرون . استدار من دراسته التى كان منكبا عليها ، لهذه الصور المتدلية والتى تسيل منها القطرات وعلى وجهه تعبير غضب جامح . " أى جحيم ملعون يجعلك تتوقع منى أن أفعل شيئا بهذا الخليط " ، انفجر وهو يلوح بيده البيضاء المتعجرفة فى اتجاه صور أشعة إكس . وثارت ثائرتى لما أحسست به من اتهام ضمنى ، وأخذنا ، فى ثانية ، نصرخ فى بعضنا البعض مثل باعة السمك ، وقد امتلأت عيوننا بالدموع . اعتقد أننا كنا نوشك على تبادل اللكمات ، بسبب السخط الخالص ، لولا تدخل بلتازار فيما بيننا . تلاشى للحال غضب أماريل ، وسار من حول بلتازار ليعانقنى وتمتم معتذرا . " إنها بخير " ، قال مدمدما ، وهو يربت على كتفى مواسيا ، " لقد طببناها بطريقة آمنة " .

" دع الباقى لنا » ، قال بلتازار .

" أود أن أراها " ، قلت وأنا أغبطهما - كأنها غدت ، وقد أعدتها الى الحياة ، ملكا خاصا لى أيضا ، بصورة ما . " هل استطيع رؤيتها ؟ " .

سمعت وأنا أدفع ، أنسل فى حرص الى الحجرة الصغيرة ، أماريل يقول برما ، " إنه لمن الجيد جدا أن يتحدث المرء عن معالجة جراحية بهذه الطريقة الزلقة ...."

كانت الحجرة هادئة جدا وبيضاء بنوافذها الطويلة . كانت ترقد ووجهها الى الحائط فى هذا الفراش الحديدى المتعب فوق قوارير صفراء مطاطية . كان لها رائحة الزهور ، رغم أنه لم تكن هنالك زهور يمكن رؤيتها ، كما أننى لم أستطيع تحديد الرائحة . ربما كانت رذاذا صناعيا من رشاشة عطر لاتنسى أبدا ؟ سحبت ، فى هدوء مقعدا الى جوار الفراش وجلست . كانت عيناها مفتوحتين تحملقان فى الحائط بتلك النظرة الدائخة التى توحى بتأثير المورفين والإرهاق معاً . ورغم أنه لم يبد ما يشير الى أنها قد سمعتنى وأنا أدخل ، إلا أنها قالت فجأة : .

" أهذا أنت يادارلى ؟ " .

" نعم " .

كان صوتها واضحا . تنهدت وهى تتحرك حركة خفيفة ، كأنما تعبر عن ارتياحها لحضورى . " إننى سعيدة للغاية " . كان فى صوتها نغمة إرهاق توحى بأنه فى مكان ما وراء قيد ألمها الحالى وتهويمها ، تتحرك ثقة بالنفس جديدة ، « لقد أردت أن أشكرك " .

" إن أماريل هو من تحبين " ، قلت وأنا أكاد أذرف الدمع . قلت ذلك بطريقة لا إرادية تماما . انفتح فجأة مصراع فى عقلى . أدركت أن هذه الحقيقة الجديدة التى أعلنها ، كانت من الحقائق التى عرفتها دائما ، ولكن دون أن أكون واعيا بهذه المعرفة ! أما وقد اتسم الأمر بهذا القدر من الحمق ، فقد كان إيضاح

الفرق مسألة واقعية . كان أماريل مثل كرت من أوراق اللعب موجود هنالك على الدوام ، يرقد أمامي فوق المنضدة ، وقد وضع وجهه الى أسفل . كنت أحس وجوده لكنني لم أقلب الكارت أبدا . لم يكن هنالك ، كما يجب أن أضيف ، أى شيء فى صوتى يتجاوز الدهشة العلمية الخالصة . كان بلا ألم ، فقط يفيض تعاطفا . إننا لم نستخدم البتة ، فيما بيننا ، هذه الكلمة البغيضة – الكلمة المرادفة للتشوش والمرض . وأن كنت استخدمها الآن عمدا ، فما ذاك إلا للإشارة الى معرفتى للطبيعة الشاملة للأمر . إنها كانت أشبه بالقــول ، " ياطفلتى المسكينة ، أنت مصابة بالسرطان ! " .

قالت بعد فترة من صمت ، " لقد غدا ذلك الآن فعلا ماضيا . واأسفاه " . كان صوتها بطيئا حائرا . " لقد كنت أقدر أنك على درجة جيدة من اللباقة ، معتقدة أنك قد تعرفت عليه أثناء فترتى السورية ! ألم تتعرف عليه حقا ؟ لقد حولنى أماريل الى إمرأة ، كما أعتقد . أوه ، أليس ذلك مقززا ؟ متى ننضج جميعــا ؟ كلا ، إلا أننى محوته من قلبى . أنت تعرف ذلك . الأمر ليس كما تتخيل ، فأنا أعرف أنه ليس رجلى . لم يكن هنالك من شيء يغرينى بأن أخذ مكان سميرة . لقد أدركت ذلك وأنا أضاجعه ، بالوقوع فى حبه . إن ذاك أمر غريب ومستهجن ، إلا أن التجربة حالت دون أن أسيء فهم موقفه من الأخرى ، كانت هى الوحيدة وإلى الأبد ! رغم أن مكانته تظل مسألة يجب اكتشافها . أحس أننى لم أواجه ، فعليا، المشاكل الحقيقية بعد . إنها ترقد هنالك على الجانب الآخر مما نحن فيه من مراحل . ورغم هذا الإلتواء والأعوجاج ، فقد كان لطيفا أن يكون المرء قربه – حتى وإن كان مسجى فوق منضدة العمليات . كيف يمكن للمرء أن يفسر حقيقة واحدة من حقائق القلب البشرى ؟ " .

" هل أؤجل رحلتى ؟ " .

" كلا . إنني لا أرغب فى ذلك البتة . إننا فى حاجة الآن الى بعض الوقت أعود فيه إلى نفسى وقد تحررت من الفزع أخيرا . ذلك الذى فعلته أنت على الأقل من أجلى – دفعتنى ، مرة أخرى ، إلى قلب المجرى ، وقد أقصيت التنين عنى . لقد ذهب ولن يعود ثانية . ضع يدك على كتفى واعصره بدلا من القبلة . كلا . لا تغير خططك . سوف يعتنون بى هنا جيدا كما تعرف . ولسوف نرى فيما بعد ، عندما تنتهى مهمتك . أليس كذلك ؟ حاول أن تكتب . إننى أحس أن فترة من التوقف ربما تكون بداية مرحلة جديدة لك " .

" سوف أفعل " ، إلا أننى كنت أعرف أننى لن أقدم على الكتابة .

" هنالك شىء واحد أود منك أن تفعله . أرجوك زيارة مولد السكوب الليلة ، حتى يمكنك أن تخبرنى بكل شىء عنه . إنها المرة الأولى ، كما ترى ، التى يسمحون فيها ، بعد الحرب ، بالإضاءة المعتادة فى هذا الحى . إنها لمتعة أن يرى المرء ذلك . إننى لاأحب أن تفوتك هذه المتعة . هل ستفعل ذلك ؟ " .

" بالطبع " .

" شكرا ، ياعزيزى " .

ووقفْت هنالك . قلت بعد فترة من صمت ، " كليا ، ماالذى كان يفزعك بالضبط ؟ " . إلا أنها كانت قد أغلقت عينيها ، وذهبت ، فى نعومة ، فى النوم . تحركت شفتاها ، إلا أننى لم أستطع سماع إجابتها . كان هنالك أثر ضئيل للغاية لإبتسامة فى ركنى فمها .

وبزغت فى رأسى عبارة لبورسواردن ، " إن أغنى الحب هو ماكان خاضعا لحكم الزمن ومراجعته " .

★ ★ ★

كان الوقت قد تأخر بالفعل عندما استطعت أن أكتشف ، أخيرا ، موضع عربة حنطور لتعيدنى الى المدينة . وجدت فى مسكنى رسالة تقول إن مغادرتى قد قدم موعدها ست ساعات . كان الزورق الآلى سوف يغادر عند منتصف الليل. كان حميد واقفا هنالك ساكنا تمام السكون ، صابرا ، كانت أمتعتى قد حملتها سيارة نقل من سيارات الجيش ، فيما بعد الظهر . لم يبق هنالك من شيء أفعله غير قتل الوقت حتى الثانية عشرة ، وكان علىّ أن أفعل ذلك طبقا للطريقة التى اقترحتها كليا : زيارة مولد السكوب . كان حميد لايزال واقفا أمامى يرزح تحت ثقل فراق آخر . " إنك لن تعود ، فى هذه المرة ثانية ياسيدى " ، قال وهو يطرف بعينه ، ناظرا الىّ بأسى . نظرت الى الرجل الضئيل وأنا أعطف عليه . إننى أتذكر كم كان فخورا وهو يعيد من جديد الحديث عن إنقاذ واحدة من عينيه، ربما كان ذلك بسبب كونه الأصغر والأقبح . كانت أمه قد خلعت عينىّ شقيقه حتى تمنع تجنيده الإجبارى فى الجيش ، إلا أن حميد نجا بعين واحدة بسبب نموه الناقص وقبحه . إن أخاه يعمل الآن مؤذنا أعمى فى طنطا ، بينما غدا حميد ثريا بعينه . كانت هى حظه السعيد فى العمل عند الأجانب الأثرياء الذين يدفعون أجرا طيبا .

" سوف آتى اليك فى لندن " ، قال فى لهفة وأمل .

" حسنا جدا ، سوف أكتب اليك " .

كان يرتدى أفضل ملابسه ، بمناسبة المولد - العباءة ، الحذاء الأحمر المصنوع من جلد مراكشى طرى ، وقد وضع فى صدره منديلا نظيفا أيضا . كانت تلك الأمسية إجازته كما أتذكر . كنت وبومبال قد وفرنا مبلغا من المال نعطيه له كهدية فراق . أخذ شيك النقود بين أصبعه السبابة والإبهام ، محنيا رأسه فى إمتنان . إلا أن ماعاد عليه من فائدة ، لم يكن بقادر على إيصال

البهجة الى نفسه فى مواجهة ألم الافتراق عنا . وهكذا كرر ثانية " سوف آتى الى لندن " . معزيا نفسه وهو يهز يديه معا بينما يقول هذه الكلمات .

" حسنا جدا ، " قلت للمرة الثالثة ، رغم أنه يصعب أن أرى حميد الأعور فى لندن . " سأكتب اليك . سوف أذهب الليلة الى مولد السكوب " .

" حسنا جدا " ، وهززته من أكتافه ، فدفعه هذا الشعور بالألفة الى إحناء رأسه وانسالت دمعة من عينه الضريرة لتظهر عند طرف أنفه .

" وداعا حميد " ، قلت وهبطت السلم ، تاركا أياه واقفا فى سكون عند القمة ، كأنما هو فى انتظار إشارة ما قادمة من الفضاء الخارجى . إندفع ، فجأة ، ورائى ممسكا بي عند الباب الأمامى ، ليدفع فى يدى ، هدية فراق ، كانت هى الصورة التى يعتز بها ، لى ولمليسا ، ونحن سائرين فى شارع فؤاد فيما بعد الظهر المنسى لأحد الأيام .



- ٣ -

كان الحى يغط فى الظلال البنفسجية ، والليل الهابط يتقدم . سماء من قطيفة ترتجف ، يقطعها ضوء آلاف اللمبات الكهربية شديدة التوهج ، تجثم فوق شارع التتويج مثل قشرة مخملية ، تعلوها ، فقط ، أطراف المآذن المضيئة التى تنهض فوق جذوعها الرشيقة غير المرئية . تبدو تتدلى معلقة فى السماء ، ترتعش قليلا فى الغبشة كأنها توشك أن تمد قلانسها كالكوبرات . سرت فى تكاسل عبر تلك الشوارع استعيد ذكراها ثانية ، وأنهل (إلى الأبد : ذكريات المدينة العربية) رائحة الأقحوان المطحون ، الروث ، الطيب ، التوت ، العرق البشرى والحمام المشوى . لم يصل الموكب بعد . إنه يتشكل فى مكان ما ، وراء حى الموسسات ، بين المقابر ، ثم يشق طريقه البطىء الى الضريح ، تحكم حركته رقصة موزونة ، يقف فى طريقه عند كل جامع لتُتلى آية أو أكثر من الكتاب على شرف السكوب . إلا أن الجانب الدنيوى فى المهرجان كان يتأرجح تأرجحا شديدا ، إذ جاء الناس، من الأزقة المظلمة ، بمناضد العشاء الى الشوارع ، تضيؤها الشموع وتزينها الزهور . إنهم يستطيعون ، وهم جلوس هكذا ، سماع قطع الأنغام الرئيسية للفتيات المغنيات ، اللاتى كن يقفن بالفعل فوق المنصات الخشبية خارج المقاهى، يخترقن الليل الثقيل بألحان الربع نغم التى يغنونها . الشوارع مزينة بالأعلام ، والصور الكبيرة ذات الأطر لأطباء عمليات الختان ، تتماوج عاليا بين المشاعل والعمد . رأيت ، فى باحة مظلمة ، من يصب السكر ، أحمر وأبيض فى

قوالب خشبية تخرج منها كل رموز الحيوانات والعادات المصرية – البط ، الفرسان ، الأرانب والماعز ، وكذلك التماثيل الصغيرة السكرية عن فولكلور الدلتا – عزيزة ويونس ، العاشقين متشابكين متداخلين – والأبطال الملتحين مثل أبو زيد مسلحا ، ممتطيا جواده ، بين كتائبه . كان يبدو عليها القبح – وهى بالتأكيد اسخف كلمة فى لغتنا – بصورة بديعة ، وقد صيغت بألوان رائعة قبل أن توضع عليها أرديتها الورقية ، والمزوقة ، ذات الترتر الذهبى ، ورصت للعرض فى الأكشاك التى تبيعها ، يتفرج الأطفال عليها ، فاغرى الأفواه ، ويشترونها . السرادقات الملونة نُصبت فى الميادين الصغيرة ، وكل منها عليه علامته التى تميزه .

كان المقامرون منهمكين بالفعل – أبو الفيران [1] ينادى مرحا على الزبائن ، وأمامه انتصب الصندوق الكبير محمولا على حُمر خشبيه ، وكل من مأويه الإثنى عشر عليه رقمه واسمه ، وفى الوسط وقف الفأر الحي الأبيض مدهونا بخطوط خضراء . أنت تضع نقودك على رقم أحد هذه المأوى وتكسب إن دخل الفأر فيه . وتدور نفس اللعبة فى صندوق آخر ، ولكن باستخدام حمامة بدلا من الفأر فى تلك المرة . وعندما توضع كل نقود الرهان فوق أرقامها ، يُلقى بملء كف من الحبوب فى الوسط ، وتدخل الحمامة ، وهى تأكل ، أحد هذه الأكشاك الصغيرة المرقمة.

اشتريت لنفسى زوجا من تلك التماثيل الصغيرة السكرية . جلست خارج أحد المقاهى أتفرج على العرض المار أمامى فى ألوان رائعة بدائية أصيلة . كنت أود الاحتفاظ بتلك العرائس – الصغيرة ، إلا أننى كنت أعرف أنها سوف تتفتت أو يأكلها النمل . كانت تلك التماثيل ابناء عمومة صغار لـ قديس الإقليم (*) أو رجل

---

(١) بالعربية فى حروف لاتينية (*) بالفرنسية فى الأصل .

الخبز المبتل (*) التى تباع فى أسواق الريف الفرنسية ، والتى تماثل الرجال المطليين باللون الذهبى والمصنوعين من فطيرة الترجيل والذين أنقرضوا الأن . طلبت ملـعقة من المستكة لاكلها مع الشربات (*) الباردة الفوارة . كان فى وسعى ، وأنا جالس عند زاوية تقع بين شارعين ضيقين ، أن أرى الموسسات وهن يطلين أنفسـهن فى النوافذ العليـا قبل أن يهبطن لينصبن أكشـاكهن الصـارخــة الألوان بين المشعوذين والمحتالين . كان " شوال" القزم يغيظهن من كشكه ، وهو فى مستوى الأرض ، مما يدفع الى ضحك زاعق لخبطاته الصائبة . كان صوته ضئيلا الى حد كبير ، كما كان فى وسعه أن يقوم بأكثر الخدع الأكروباتية جاذبية رغم حجمه المعوق . كان كثير الكلام ، حتى وهو واقف على رأسه ، يفصل بين تمتمته ودمدمته بالشقلبة مرتين متتاليتين . كان وجهه مطليا بطريقة تثير الضحك وشفتاه مرسومتين بابتسامة البهلوان ، وفى ركن آخر تحت ستارة تواريه ، جلس "فرج " قارىء الطالع بعدة العرافة – حبر ، رمل وكرة غريبة مغطاة بالشعر أشبه بخصية الثور ، فقط مغطاة بشعر أسود ، وموسس جميلة متألقة تجلس القرفصاء أمامه . كان قد ملأ راحة يدها بالحبر ، وأخذ يستحثها حتى تفتح المندل .

مشاهد صغيرة من حياة الشارع . إمرأة ساحرة متوحشة تندفع فجأة فى الشارع ، ترغى وتزبد ، تطلق لعنات رهيبة ، حتى أن الصمت حل بالجميع ، وجمد دم كل إمرىء . كانت عيناها تتأججان مثل عينى دب تحت شعرها الأبيض المتلبد . ولما كانت مجنونة ، فإنها مقدسة بصورة ما ، ولم يجرؤ أحد على مواجهة لعناتها البشعة التى كانت تقولها ، والتى إن تحققت لحل النحس بهم . اندفع كالسهم ، فجأة ، طفل رث من بين الزحام وجذبها بشدة من كمها ، وللحال هدأت

(*) بالفرنسية فى الأصل .

وأمسكت بيده واختفت فى أحد الأزقة . واطبق المهرجان على ذكراها إطباق الجلد على الجسد .

كنت أجلس نشوان بالمشهد أمامى ، عندما سمعت فجأة صوت سكوبى نفسه عند مرفقى . قال متأملا ، " والآن ، أيها العجوز ، يجب إن كانت لك ميول ومآرب، أن تمتلك أفقاً للرؤية . إن ذلك سبب وجودى فى الشرق الأوسط ، إن شئت المعرفة ....."

" ياإلهى ، لقد أفزعتنى" ، قلت وأنا أستدير جانبا . كان نمرود الشرطى ، أحد رؤساء الرجل العجوز فى قوة الشرطة . ضحك وجلس الى جوارى ، وهو يزيح طربوشه يمسح عرقه ! " هل تظن أنه قد عاد الى الحياة ؟ " تساءل .

" أعتقد يقينا بذلك " .

" إننى أعرف رجلى سكوبى ، كما ترى" .

وضع نمرود مذبته أمامه ، صفق بيديه طلبا للقهوة . استمر وهو يغمز لى بخبث ، يتحدث بالصوت الحقيقى للقديس ، " لقد جرى الأمر الخاص ببدجى على النحو التالى . لم يكن هنالك من مجال فى هورشام ، وإلا كنت لحقت به منذ أعوام مضت فى تجارة المراحيض الترابية . كان الرجل عبقريا فى الميكانيكا . إننى لا أبالى الإقرار بذلك . لم يكن له من دخل سوى ما يقدمه له المقلاع الطينى العجوز ، كما اعتاد أن يدعوه ضاحكا . إنه يواجه بالعراقيل . إنه محبط . هل أخبرتك ، فى أى وقت ، عن المرحاض الأرضى الظريف ؟ كلا هذا أمر غريب ، إذ اعتقدت أننى أخبرتك به . حسنا ، لقد كان اختراعا هائلا ، ثمرة تجربة طويلة. لقد كان ، كما تعرف ، فى إحدى الجمعيات الملكية . نال ذلك بالدراسة المنزلية ، إن هذا يوضح لك أى عقل كان لهذا الرجل . حسنا ، كان نوعا من

الروافع ذات الزناد . كان لكرسى المرحاض شيء ما كالزنبرك . ماأن تجلس حتى يهبط ، ولكن ما أن تنهض حتى يلقى ، من تلقاء نفسه ، بملء جاروف من التربة فى الصندوق الخازن . يقول بدجى ، أنه استنبط الفكرة من مراقبة كلبه وهو يغطى فعلته بمخالبه . ولكن كيف استطاع تطبيق الفكرة ، ذلك أمر لا أستطيع معرفة أبعاده . كان عبقرية خالصة . إن لديك فى المؤخرة مستودعا تملؤه بالتراب أو الرمال ، ووقت أن تنهض ، ينطلق الزنبرك فى ضربة عنيفة سريعة . إنه يصنع منه الفين فى العام ، إننى لاأبالى بقول ذلك . بالطبع يحتاج بناء تجارة الى الوقت ، إلا أن النفقات العامة كانت منخفضة . كان لديه عامل واحد فقط ، لبناء الجزء الأشبه بالصندوق . كان يشترى الزمبركات - يحصل عليها مصنوعة بمطرقة الحداد طبقا لمواصفات خاصة . وكانت تطلى حافتها أيضا بطريقة رائعة للغاية ، بأشياء ذات علاقة بعلم التنجيم . كانت تبدو غريبة ، إننى أعترف بذلك . كانت تبدو فى الحقيقة كاللغز . لكن تلك التحفة البديعة كانت اختراعا رائعا . وحدثت أزمة ، ذات مرة ، بينما كنت فى الوطن ، فى إجازة مدة شهر ، فذهبت لرؤية بدجى . كان يكاد يبكى . كان الرجل الذى يعاونه ، « توم » النجار ، معتاداً على الشراب قليلا ، ولابد أنه أخطأ وضع التروس فى إحدى مجموعات تلك التحف ، إذ بدأت تنهال الشكاوى ، على أى حال . قال بدجى إن مراحيضه قد أصابها الجنون فى « طول سوسكس » وعرضها . إنها تلقى بالتراب حولها بطريقة مستهجنة غريبة ، ومضرة بالصحة .ثار الزبائن غضبا . حسنا ، لم يكن هناك من سبيل غير زيارة كل أبناء أبرشيته ، فوق دراجة نارية ، وضبط التروس . كان ماتبقى لى من الوقت قليلا ، إلا أننى لم أرغب فى أن تفوتنى صحبته - وهكذا أخذنى معه . كانت مغامرة حقيقية ، وأنا لا أبالى من ذكرها لك . لقد جن بعضهم تماما فى مواجهة بدجى ، قالت إحدى النساء ، أن

التروس كانت قوية حتى أن مرحاضها كان يلقى بالطين على امتداد حجرة الاستقبال . قضينا بعض الوقت نهدئها . عاونت بأن مارست تأثيرا ملطفا ، لاأبالى بالاقرار به ، بينما كان بدجى يقوم باصلاح الزمبرك . كنت أحكى قصصا حتى أذهب باذهان الزبائن بعيدا عن هذا العمل الكئيب . إلا أن الأمور استقامت أخيرا ، وغدت الآن صناعة مربحة لها من يعضدها فى كل مكان " . رشف نمرود قهوته متأملا . حدجنى بعينه بنظرة ساخرة ، وهو فخور بقدرته على التقليد والمحاكاة . " والآن " ، قال وهو يلقى بذراعيه ، " السكوب ....."

مر عبر الشارع جمع من الفتيات المدهونات بالألوان ، رائعات مثل ببغاوات استوائية ، يكدن يشبهنها ضحكا وثرثرة . قال نمرود ، " لقد وضع أبو زيد المولد تحت رعايته مما قد يسبب لنا نوعا من الصداع . إن ذلك الحى حى مزدحم ، وهو قد أرسل هذا الصباح قافلة كاملة من الجمال الذكور فى هذا القيظ وهى محملة بالبرسيم . أنت تعرف مدى بشاعة رائحتها . فعندما يكون موسمها تظهر لها هذه الزوائد البشعة الهلامية على رقابها . لابد أنها تثيرها ، تتقيح أو شىء من هذا القبيل ، إذ أنها تحك رقابها فى العمد والجدران طوال الوقت . لقد اشتبك اثنان منهما فى قتال واستغرق الأمر ساعات لفض هذا الاشتباك ، مما أغلق المكان " .

فجأة وصلت الى الأسماع سلسلة من الضربات الشديدة ، قادمة من اتجاه الميناء ، وسلسلة من الأسهم النارية اللامعة الملونة وهى تشق لنفسها أخاديد عبر الليل ، ثم تذوى وتتساقط بعيدا فى دمدمة وأزيز . " آها " ، قال نمرود وهو راض عن نفسه . " هاك الاسطول ينطلق . إننى سعيد أنهم قد تذكروا " .

" الأسطول ؟ " ، رددت بينما خط طويل آخر من الأسهم النارية تلقى بريشها الرائع عبر الليل الناعم .

" إنهم الأولاد الذين يعملون على السفينة «ميلتون» ، سفينة صاحب الجلالة ، » قال ضاحكا ، " لقد حدث وتناولت العشاء معهم الليلة الماضية على ظهر السفينة. لقد انبهر ضباط السفينة بقصتى عن تاجر بحار عجوز نال حظوة الرب ، بالطبع لم أذكر لهم الكثير عن سكوبى ، على الأقل فيما يختص بموته . إلا أننى ألمحت الى أن بعض الألعاب النارية سوف يكون عملا مناسبًا باعتباره صادرا عن البحارة البريطانيين . وأضفت أيضا أنها لمحة سياسية تعبر عن الاحترام ، مما يكسبهم تقدير المتعبدين . لقد خلبتهم الفكرة ، فطلبوا الإذن من الادميرال لتنفيذها . وهاهم ينفذونها ! "

جلسنا فترة فى صحبة صامتة نرقب الألعاب النارية والجمع المبتهج للغاية والذى كان يحيى كل طلقة بصيحات فرحة طويلة مرتعشة " الله ! - الله"(*). وأخيرا سلك نمرود زوره وقال ، " دارلى ، هل فى وسعى أن أسألك سؤالا ؟ هل تعرف ماالذى توشك جوستين أن تفعله ؟ . » لابد أن وجهى بدا خاليا من أى تعبير، إذ إنه استمر دون تردد ، " إننى أسألك فقط لأنها اتصلت بى هاتفيا بالأمس وقالت أنها سوف تخرق التعهد بتحديد إقامتها اليوم ، وتحضر الى المدينة عن عمد ، طالبة منى أن ألقى القبض عليها . إن الأمر يبدو غاية فى السخف - أقصد مجيئها من كل هذا البعد لتسلم نفسها للشرطة . قالت أنها ترغب فى فرض لقاء شخصى مع ممليك . إنه أنا من يتوجب عليه ، طبقا للتقارير الواردة من ضباط القوة البريطانية ، أن يقوم بعمل ذى شأن يشد انتباه ممليك . إن الأمر يبدو كالهراء الى حد ما ، أليس كذلك ؟ إلا إننى حددت معها موعدا للقائها فى مركز الشرطة الرئيسى خلال نصف ساعة " .

" إننى لا أعرف شيئا عن هذه المسألة " .

(*) بالعربية فى حروف لاتينية .

" كنت سأصاب بالدهشة إن أنت عرفت : وعلى أى حال ، دع الموضوع سرا بيننا " .

" سوف أفعل ذلك " .

نهض واقفا ، مادا يده مودعا . " ستغادر الليلة كما أعتقد . حظا طيبا " . قال وهو يخطو ، يهبط من المنضدة الخشبية الصغيرة ، " إن بلتازار ، بالمناسبة، يبحث عنك . إنه فى مكان ما عند الضريح - يالها من كلمة " . انحنى انحناءة قصيرة متحركا بقامته الطويلة بعيدا فى دوامة الشارع المتلألئة . دفعت ثمن مشروبين وغادرت سائرا نحو شارع التتويج اتخبط وأصطدم بالناس المحتشدة فى يوم الإجازة هذا .

كانت تتدلى ، من كل شرفة ، على امتداد الشارع ، الشرائط والرايات ، وبراويز ضخمة تتدلى منها الأعلام الملونة . كانت القطعة الصغيرة من الأرض المقفرة قد غدت الآن أكثر الصالونات بذخا تحت البوابات المقوسة . خيام ضخمة بتصميمات مطرزة رائعة نصبت مكونة أرضية استعراضية احتفالية حيث يقام الرقص والغناء عندما يصل الموكب الى منتهاه . المنطقة مزدحمة بالأطفال . دندنة المصلين وجلجلة زغاريد النساء تأتى من ناحية الضريح الذى كان معتم الإضاءة . المتوسلون والمبتهلون يتضرعون الى دن - حمام سكوبى يطلبون الإخصاب . أيات السور - القرآنية تتهدج تغزل نفسها فى الليل فى نسيج من صوت رخيم شجى . أخذت أسعى قليلا وسط الزحام مثل كلب صيد أبحث عن بلتازار . أخيرا رأيته يجلس جانبا خارج أحد المقاهى . شققت طريقى الى جواره . قال ، " حسنا ، كنت أبحث عنك . لقد قال حميد أنك ستغادر الليلة . اتصل بى هاتفيا يخبرنى بذلك ويطلب عملا . وددت ، بالإضافة الى ذلك ، أن تشاركنى خليط مشاعرى خجلا وراحة بخصوص هذه الحادثة . الخجل من الغباء والراحة من أنها لم تمت ، وقد امتزج كلاهما بالآخر . إننى أكاد أكون ثملا

بالراحة ، وأكاد أفقد صوابى خجلاً . كان ، بالفعل يكاد يكون ثملا .» إلا أنها سوف تكون بخير . حمدا لله ! "

" ماذا يرى أماريل ؟ " .

" لاشيء بعد . وإن كان يعتقد بشيء فإنه لن يقوله . يجب أن تنال أربعا وعشرين ساعة ، من الراحة ، قبل أن يتقرر أى شيء ، هل ستغادر حقا ؟ »

وانخفض صوته مؤنبا " يجب أن تبقى . وأنت تعرف ذلك " .

" إنها غير راغبة فى بقائى " .

" أعرف ذلك . لقد صدمت ، الى حد ما ، عندما قالت لى أنها قد طلبت منك الرحيل . إلا أنها قالت ، « أنك لا تدرك الأمر . سوف أرى إن كنت لا أستطيع ابتغاءه مرة أخرى . إننا لسنا بعد ناضجين بما يكفى كى يكون كل منا للآخر . سوف نبلغ هذه المرحلة » ، لقد اندهشت وأنا أراها على هذا القدر من التألق والثقة بنفسها ثانية . اجلس ياعزيزى الشاب ، وتناول معى مشروبا مضاعفا من المشروبات المنعشة . سوف نشاهد الموكب على أفضل مايكون من هنا ، حيث لا زحام " . صفق بيديه بطريقة متقطعة وطلب مزيدا من المستكة .

عندما جيء بالكأسين ، جلس ساكنا مدة من الزمن طويلة واضعا ذقنه فوق راحتيه ، يحملق فيهما ، تنهد وهو يهز رأسه فى حزن .

قلت ، " ما الأمر ؟ " ، وأنا أدفع بالكأس فى الصينية ، أضعه أمامه بالضبط فوق المنضدة .

قال فى هدوء " ماتت ليلى" . بدت الكلمات وكأنها تثقله بالأسى . « لقد اتصل بى نسيم هاتفيا هذا المساء ليخبرنى ، ومن الغريب أن صوته بدا مبتهجا بهذا الخبر . لقد سعى للحصول على تصريح بالنزول واعداد ترتيبات جنازتها . هل

تعرف ماذا قال ؟ " . ونظر الىّ بلتازار بعينيه الداكنتين العميقتى الفهم والإدراك واستمر قائلا ، " رغم أنى أحببتها ، وما إلى ذلك ، إلا أن موتها قد حررنى بطريقة غريبة . إن حياة جديدة تنفتح أمامى . إننى أحس بأننى قد غدوت أكثر شباباً - لا أعرف إن كان ماسمعته خدعة من الهاتف أو ماذا ، إلا أن صوته بدا أكثر شباباً . كان مليئا بإثارة مكبوته . إنه يعرف ، بالطبع ، أننى وليلى كنا أقدم الأصدقاء وأنها كانت تكتب لى طوال هذه الفترة . كانت نفساً نادرة ياداراى ، واحدة من أندر زهرات الإسكندرية . لقد كتبت لى تقول ، أعرف أننى أموت ، ياعزيزى بلتازار ، ولكن فى بطء شديد . هل تؤمن بالأطباء وما يشخصون ، أنت يامن تعرف كل الرجال . إننى أموت مما فى القلب من أحزان ، مثل سكندرية حقيقية " .

ومخط بلتازار انفه فى جورب قصير قديم ، أخذه من جيب صدر معطفه ، ثم طواه فى عناية حتى يشبه منديلا نظيفا ، وأعاد وضعه بطريقة متحذلقة . « نعم"، قال ثانية فى وقار ، " يالها من كلمة ، أحزان القلب ! يبدو (مما قلته لى) أنه بينما كانت ليزا بورسواردن تدبر براءتها من وفاة شقيقها ، كان ماونت أوليف يعطى نفس اللطمة لليلى بظهر اليد ، وهكذا يدور كأس الحب . كأس الحب المسموم ! " . وأوما برأسه بينما يتناول رشفة عالية الصوت من شرابه . ومضى على مهل فى حرص مكثف وجهد أشبه بامرىء يترجم نصا مبهما وغامضا . " نعم ، تماما مثل خطاب ليزا الى بورسوراردن تخبره فيه أنه قد حدث أخيرا وظهر الغريب كالضربة القاضية (*) إن جاز القول ، تلقت ليلى ، كما أعتقد ، نفسُ الرسالة بالضبط . من ذا الذى يدرى كيف يتم ترتيب مثل تلك الأشياء ؟ ربما فى ذات الكلمات بالضبط ، نفس كلمات الامتنان العاطفى ، « إننى اباركك

(*) بالفرنسية فى الأصل .

اشكرك من صميم قلبى ، إذ إننى من خلالك استطعت أخيرا أن أتلقى المنحة الثمينة التى لايمكن أن ينالها أبدا هؤلاء الذين يجهلون قدرها » . تلك هى كلمات ماونت أوليف . لقد اقتبستها ليلى لى . حدث هذا بعد أن ذهبت بعيدا . كتبتها الىّ . كان الأمر يبدو وكأنها قد انقطعت عن نسيم ، ولم يعد هنالك إمرىء تستدير اليه . إمرىء تتحدث اليه . ومن ثم كانت هذه الخطابات الطويلة التى تصول فيها الى الأمام والى الوراء ، بتلك الصراحة الرائعة والرؤية الواضحة التى أحببتها فيها غاية الحب . لقد أبت كل خداع لنفسها . إلا أنها - ليلى - وقعت بين مقعدين ، بين حياتين ، بين حبين . لقد قالت شيئا من هذا القبيل وهى تشرح الأمر لى . « لقد اعتقدت فى البداية ، عندما تسلمت رسالته ، أنه مجرد ارتباط آخر - كما كان فى الماضى مع تلك البالرينا الروسية ، لم يكن هنالك أسرار البته فيما يختص بعلاقاته الغرامية ، فيما بيننا ، وهذا ماجعل حبنا يبدو صادقا تمام الصدق خالدا تمام الخلود ، بطريقته الخاصة . كان حبا بلا تحفظات . إلا أن كل شىء غدا واضحا لى ، فى هذه المرة عندما رفض ذكر اسمها لى ، حتى أشاركه فيها، إن جاز القول ! لقد عرفت حينئذ أن كل شىء قد انتهى ، كنت أتوقع ، بالطبع ، فى ركن من عقلى ، وقوع هذه اللحظة ، أتصور نفسى أواجهها فى نخوه وشهامة .. إلا أننى ، لدهشتى ، وجدت أن ذلك كان مستحيلا . إن هذا هو السبب فى أننى ، ولفترة طويلة ، حتى بعد أن عرفت أنه فى مصر ، وأنه مشتاق لرؤيتى ، لم أستطع أن أفرض على نفسى رؤيته . بالطبع تظاهرت أن مرجع ذلك أسباب أخرى ، أسباب أنثوية خالصة ، إلا أن الأمر لم يكن كذلك . لم يكن افتقاد شجاعة بسبب جمالى الذى تحطم . كلا ، إذ إننى أمتلك فى الحقيقة قلب رجل ". جلس بلتازار ، اللحظة ، يحملق فى الكئوس الفارغة بعينين واسعتين ، يضغط أصابعه برقة معا . لم تكن قصته تعنى لى غير القليل -

باستثناء دهشتى وأنا أتخيل ماونت أوليف قادرا على امتلاك أى مشاعر عميقة تماما ، وحيرتى وأنا أتخيل تلك العلاقة السرية مع والدة نسيم .

" عصفور الجنة الأسمر ! ،" قال بلتازار ، وهو يصفق بيديه طالبا المزيد من الشراب . " إننا لن نرى مثيلا لها مرة أخرى " .

كان الليل حولنا ، بما فيه من خشونة يمتلىء تدريجيا حتى الانتفاخ بدمدمة الموكب القادم العميقة . كان فى وسع المرء أن يرى الضوء الوردى للمشاعل بين الأسقف . الشوارع ، المكتظة بالفعل ، غدت الآن سوداء بمن فيها من بشر . كانوا يطنون مثل خلية نحل كبيرة وقد أصابتهم عدوى المعرفة بقدوم الموكب . فى وسعك أن تسمع الضربات البعيدة للطبول وأزيز الصنوج المتزايد ، وهى تحافظ على الحركة الزمنية لإيقاعات الرقص القديمة الدودية التقلصات - خطوة السير بطيئة نسبيا تقطعها وقفات غريبة ، حتى تتمكن الراقصات ، وقد أمسكت النشوة بهن ، من الدوران دون تقيد بالنظـم ثم العودة ثانية الى أماكنهن فى خط المسيرة . الموكب يشق طريقه ، عبر ضيق الشارع الرئيسى الذى يكبله ، مثل سيل جارف تدفعه قوته ليتجاوز مجراه وثبا ، إذ كانت كل الشوارع الجانبية مليئة بالنظارة الذين يجرون بحذاء الموكب يحافظون على سرعتهم معه .

جاء أولا ، لاعبو الأكروبات غريبو الأشكال والبهلوانات وقد ارتدو أقنعة ودهنوا وجوههم ، يتدحرجون ، يتلوون ، يقفزون فى الهواء ويسيرون على أيديهم، يتبعهم صف طويل من العربات المحملة بمن سيجرى ختانهم وقد ارتدوا ملابس حريرية مزركشة ، يحيط بهم من يرعاهم من الأهل ، نساء الحريم . كانوا يركبون فى فخار ، يغنون بأصوات أحداث يافعين ، يحيون جمع الناس : مثل ثغاء

(١) جلدة الذكر التى تقطع عند الختان - المترجم .

حملان الأضاحى ، ونق بلتازار ، " سوف تتساقط القلفات [1] الليلة ، كما هو واضح ، تساقط الجليد . إن مايثير الدهشة هو عدم حدوث تعفن أو انتقال للأمراض . إنهم ، كما تعرف ، يستخدمون البارود الأسود والجير السائل لتضميد الجراح ! » .

وجاءت الطرق الصوفية المختلفة تحمل الأطر التى تتدلى منها راياتها ، والتى تشبه غطاء الخيمة ، وقد مالت الى جانب ، وعليها كتبت أسماء الواحـد القـدوس بخطوط غير متقنة . كانت تنتفض كاوراق فى مهب الريح ، يحملها عاليا مشايخ يرتدون جلابيب رائعة ، يسيرون فى صعوبة بسبب ثقلها ، ومع ذلك كانوا محافظين على استقامة طابور الموكب ، ووعاظ الشوارع يتمتمون بأسماء الله المقدسة . وتحلقت مجموعة من حملة المجمرات النحاسية البراقة حول مجموعة من أصحاب المنزلة الملتحين الصارمى الوجوه ، الذين يحملون أمامهم مصابيح ورقية ضخمة أشبه بالبالونات . رأينا وهم يعبروننا سنسابين على امتداد شارع التتويج فى موجة طويلة من الألوان ، كل طرق الدراويش المختلفة وهى تخرج من الظلمة لتبزغ فى النور ، تميز كل منها ألوانها . كان يقودهم الرفاعية بقلانسهم السوداء - آكلى العقارب وأصحاب القدرات الأسطورية . كانت صرخاتهم القصيرة العالية كالسعال تشير الى أن الجلالة قد حلت بهم بالفعل . كانوا يحملقون حولهم بعيون دائخة ، والبعض منهم قد مرر أسياخا عبر وجناته ، والبعض الآخر يلعق سكاكين حمراء محماة . وأخيرا جاءت الشخصية المرموقة المصقولة ، أبو زيد ، ومعه مجموعة قليلة من تابعيه فوق أفراسهم وعليها أغطية سروج رائعة الزركشة ، وقد انتفخت عباءاتهم خلفهم ، يشرعون اسلحتهم بالتحية مثل فرسان فى مباراة- وأمامهم تجرى مجموعة مختلطة من الذكور الداعرين ، بوجوه مطلية بالمساحيق وشعور طويلة منسابة ، يضحكون ويتناقرون مثل دجاج

فى باحة مزرعة . أضفت الموسيقى على هذه الكتلة الغريبة غير المتصلة ، والمنسجمة رغم ذلك ، نوعا من التجانس . إنها تربطها ، تقيدها ، فى ضربات قلب الطبول وزعيق المزامير الثاقب وصرير الصنج - إنهم يتحلقون ، يتقدمون يتوقفون . وتحركت الطوابير الطويلة الراقصة نحو الضريح ، مندفعة خلال البوابات الضخمة التى تقود الى مسكن سكوبى مثل مد فى أقصاه ، منتشرة عبر الميدان المتألق فى سحابات من غبار .

عندما تحرك المنشدون الى الأمام ليتلون الآيات المقدسة ، احتل فجأة ستة من دراويش الموالد مركز المسرح ، وهم ينتشرون فى حركة مروحية بطيئة مشكلين نصف دائرة . كانوا يرتدون جلابيب بيضاء ناصعة تصل الى أقدامهم الموضوعة فى شباشب خضراء ، وفوق رءوسهم قبعات طويلة بنية أشبه بالآيس كريم . بدأوا الدوران فى هدوء وجمال ، "تلك الرءوس الدوارة كمغزل من صنع الله " ، بينما موسيقى المزامير تلازمهم برعشاتها الثاقبة . إنهم يتجمعون ، يدفعون أذرعهم فى قوة ، يضمونها أولا فى سرعة الى أكتافهم ، يفردونها كأنما بقوة طرد مركزية ، يمدونها الى أقصاها ، الكف الأيمن يتجه الى أعلى إلى السماء ، والأيسر إلى أسفل الى الأرض ، ويظلون هنالك يدورون كالمغزل بصورة إعجازية، لاتكاد أقدامهم تلمس الأرضية ، فى هذا العرض الرائع للأجساد السماوية فى حركتها الأبدية . يستمرون هكذا أسرع فأسرع ، حتى ينُهك العقل من محاولة مجاراتهم . وفكرت فى أشعار « جلال الدين » ، التى اعتاد بورسواردن تلاوتها فى بعض الأحيان . والرفاعية فى الحلقات الخارجية قد بدأوا عرضهم فى مسخ وتشويه أنفسهم . إنها عملية بشعة للغاية لمن يراها ، ومع ذلك فهى لاتضير احدا بصورة واضحة . كانت لمسة الشيخ تلئم الجراح التى تخترق الوجنات والصدور ، هنا درويش دفع بسيخ عبر منخاريه ، وهنالك آخر ينقض على رأس خنجر ،

يدفعه عبر حلقة الى جمجمته . إلا أن المجموعة المترابطة الأساسية من الراقصين استمرت فيما هى فيه دون أن تحيد عنه ، تدور كالمغزل فى سماء العقل .

" ياإلهى ، قال بلتازار من عند مرفقى وهو يضحك ضحكة مكتومة ، " لقد فكرت أنه مألوف لدىّ إنه المجذوب بشخصه هناك ، ذلك الذى عند الطرف البعيد ، إنه الذى افترضت أنت سرقته للطفلة وبيعها لأحد المواخير . أنظر اليه " .

رأيت وجهاً تبدو عليه صرامة إرهاق العالم مكثفة ، العينان مغلقتان ، والشفتان قد تقوستا فى نصف ابتسامة ، والراقص النحيل يدور فى بطء حتى التوقف ليتناول فى جو من المداعبة التى تتسم بالتواضع حزمة من أشواك يشعلها ، يدفع بالكتلة الملتهبة الى صدره فوق اللحم ، ثم يبدأ فى الدوران السريع ثانية ، مثل شجرة تحترق . وعندما توقفت الدائرة عن التطوح والترنح ، نتشها مرة أخرى ، وصفع بها الدرويش ، الذى يليه ، على الوجه مداعبا .

إلا أن دستة من الحلقات الراقصة تداخلت الآن وأمسكت بالزمام وفاضت الساحة الصغيرة بالشخوص الدوارة تتلوى . ومن ناحية الضريح ، جاءت تلك الدندنة الرتيبة للكلمة المقدسة ، تقطعها الزغاريد الحادة للمندورين .

قال بلتازار مسفها ، " سوف يواجه سكوبى ليلة ثقيلة ، يعد القلفات هنالك فى السماء » .

سمعت من مكان ما بعيد صفارة السفينة تدوى فى الميناء ، تعيدنى الى رشدى . حان وقت الذهاب . " سوف آتى معك " ، قال بلتازار . وبدأنا معا ، ندفع ، نراوغ ، نشق طريقنا خلال الشارع المزدحم نحو الكورنيش .

عثرنا على عربة حنطور ، جلسنا فيها صامتين ، نسمع الموسيقى ودق الطبول وهى تتراجع ، تتقهقر بينما نجتاز الخط الطويل المتدحرج للموكب

البحرى . كان القمر مكتملا يسطح فوق البحر الساكن الذى يغطيه نمش من نسيم رقيق . أومات أشجار النخيل بهاماتها . خبت بنا العربة فى الشوارع الضيقة الملتوية حتى وصلت أخيرا الى الميناء التجارى بسفنه الشبحية المتنوعة الساكنة . ومضت أضواء قليلة هنا وهناك . تحركت سفينة ركاب من مربطها وانزلقت ناعمة فوق القناة . هلال طويل من ضوء يتلألأ .

كان الزورق البخارى الصغير الذى سيقلنى لايزال يحمل بالمؤن ومتاع المسافرين .

" حسنا " . قلت . " ابتعد يابلتازار عما يضيرك " .

" سوف نلتقى ثانية فى القريب العاجل ." قال فى هدوء . « لايمكنك التخلص منى . اليهودى التائه ، كما تعرف . لكننى سوف أكتب اليك عن كليا . سوف أقول شيئا مثل ، « عد إلينا سريعا " ، إن لم يكن لدىّ إحساس بأنك لاتود العودة . علىّ اللعنة إن عرفت لماذا . إلا أن ما أنا على يقين منه ، هو أننا سوف نلتقى ثانية " .

قلت ، " وأنا أيضا " .

تعانقنا فى دفء . صعد فى حركة مفاجئة الى عربة الحنطور وجلس فيها ثانية .

" تذكر كلماتى " ، قال وقد بدأ الحصان سيره مع ضربة من السوط خفيفة وسريعة . وقفت أستمع الى ضوضاء حوافره حتى ابتلعها الليل . عدت الى ماعلىّ من عمل لأنجزه .

★ ★ ★



كليـــــا الغاليـــة :

مضت شهور ثلاثة طوال ، لم تصلني منك خلالها كلمة . لقد كنت عرضة للقلق الشديد لولا ماكان يرسله اليّ بلتازار الأمين من بطاقات بريدية ، في مواعيد محددة ، كل بضعة أيام ، فاتشجع بما تحرزينه من تقدم ، رغم أنه لم يكن يطلعني ، بالطبع ، على أية تفصيلات . لا بد أنك كنت تزدادين حنقا وغضبا من صمتي القاسي ، والذي لاتستحقين منه غير أقل القليل . إنني ، وبصدق ، أحس بخجل مرير ، ولا أعرف أي حائل غريب كان يمنعني ، إذ إنني كنت عاجزا عن تحليله أو التصرف بفاعلية حياله . كان أشبه بمقبض حجرة لايدور ، لماذا ؟ وتتضاعف غرابة هذا الوضع لأنني كنت أحس بكم جميعا ، طوال الوقت ، إحساسا تاما ، كما كنتم حاضرين في ذهني حضورا نشطا . لقد أمسكت بك ، مجازا ، باردة ، فاترة ، في مواجهة عقلي النابض كحد السكين . وربما كنت استمتع بك كفكرة ، أكثر منها شخصية حية ، لها فعلها في هذا العالم ؟ أم هي الكلمات وقد بدت خالية من عزاء بسبب المسافة التي تفصل فيما بيننا ؟ إنني لا أعرف . لقد بدا لي فجأة ، ومهمتي توشك على الانتهاء تقريبا ، أنني قد عثرت على لساني .

إن الأشياء تغير بؤرها فوق هذه الجزيرة الصغيرة . لقد اسميت أنت ذلك ، ذات يوم ، كما أتذكر ، بالمجاز والاستعارة ، إلا أن الأمر بالنسبة لى حقيقى للغاية . إن غزونا هو الذى غيرها . من العسير أن تتصورى أن عشرة من الفنيين قد أحدثوا هذا التغيير . إننا نستورد النقود ، نغير بها اقتصاديات المكان فى بطء . نزيح العمل متضخم الأسعار ، نخلق كل أنواع الحاجيات التى لم يكن السكان المحظوظون يَعُونها من قبل . احتياجات سوف تحطم ، فى التحليل الأخير ، نسيج هذه القرية الإقطاعية المتين ، بما فيها من روابط الدم والضغائن والمهرجانات المبتذلة . سوف يذوب كمالها ويتلاشى تحت تلك الضغوط الغريبة عليها . كانت متينة النسيج للغاية ، جميلة للغاية ، متماثلة متناسقة مثل عش السنونو [1] . إنا نزيحه جانبا مثل صبية كسالى لا يعون الدمار الذى يحدثون . يبدو أن الموت الذى نجىء به للنظام القديم ، على غير رغبته ، أمر لا مفر منه . إنه يحدث فى بساطة أيضا - بعض كمرات من الصلب ، بعض أدوات الحفر ورافعة ! وفجأة يبدأ تغيير شكل الأشياء ويولد جشع جديد ، يبدأ فى هدوء ببعض محلات الحلاقين ، لكنه ينتهى بتغيير كل بناء الميناء . سوف يغدو خلال عشر سنين خليطا ، لايمكن تمييزه ، من مستودعات البضائع وصالات الرقص والمواخير للبحارة المتحاريين ، فقط أعطنا مايكفى من الوقت !

إن الموقع الذى تم اختياره لمحطة إعادة بث البرامج الإذاعية يقع فوق الجانب الشرقى الجبلى للجزيرة ، وليس حيث كنت أعيش فيما سبق . كنت سعيدا بهذا ، بطريقة مبهمة . فأنا عاطفى ، بما يكفى ، أمام الذكريات القديمة التى يمتع المرء نفسه بها - إلا أنها تبدو أفضل بكثير إن تبدل مركز ثقلها تبدلا طفيفا . إنها تتجرد فجأة وتنتعش ، يضاف الى ذلك أن هذا الركن من الجزيرة لا يماثل أى

(١) طائر طويل الجناحين مشقوق الذيل - المترجم .

جزء آخر فيها – إنه واد ينتج محصولا عاليا من النبيذ ويطل على البحر . إن تربته ذهبية برونزية قرمزية . إننى أعتقد أنها مكونة من مارل بركانى . إن النبيذ الأحمر الذى يقومون بصناعته خفيف لطيف براق كأنه بركان هاجع فى كل زجاجة . نعم ، هنا تصر الجبال باسنانها (حتى أنه فى مقدور المرء أن يسمعها أثناء ارتجافاتها (العديدة) تطحن تلك الصخور المتحولة الى مسحوق طباشيرى. إننى أعيش فى منزل صغير مربع الشكل ، مكون من حجرتين فوق مخزن من مخازن النبيذ ، هنالك ساحة يكسوها الآجر ، بها مصطبة تفصل منزلى عن العديد من مثل هذه الأمكان المستخدمة للتخزين – إنها أقبية مليئة بالنبيذ الراقد فى دنان .

نحن فى وسط الكَرْم ، يحدنا من كل الجوانب مستطيل يمتد عبر السلسلة الفقرية للتل الأزرق فوق سطح البحر ، يقطع القنوات الضحلة للدبال والتربة الثرية بالمواد العضوية بين الكرمات المتماثلة والتى تزدهر الآن . الدهاليز – كلا ، طرقات لعبة البولينج (١) وأرضيتها الرمادية البنية ، والفتيات الكادحات قد نقبن ومحصن كل مايساوى ملء فم أو أصبع أو قبضة يد ، هنا وهناك تتطفل أشجار التين والزيتون على غابة الخضرة المتموجة ، هذا البساط من الكرمات ، إنه كثيف الى حد أنك ما أن تكونى بداخله ، قابعة ، حتى لا يتجاوز مجال رؤيتك أقداما ثلاثا ، مثل فأر فى حقل حنطة ، هنالك ، بينما أكتب ، دستة من فتيات غير مرئيات يشققن نفقا مثل الخلد ، يقلبن التربة . إننى أسمع أصواتهن إلا أننى لا أرى شيئا . نعم ، إنهن يزحفن هنالك مثل رماة ماهرين ، ينهضن ، يبدأن العمل مع الفجر ، إننى غالبا ما أسمعهن ، عندما أستيقظ ، وهن يصلن ، يغنين أحيانا قطعة من أغنية فولكلورية يونانية ! إننى استيقظ فى الخامسة ، وتجىء أوائل الطير لتجد فى استقبالها ، تحييها ، لجنة صغيرة من صيادين متفائلين ،

(١) لعبة بـ كرات خشبية – المترجم .

يطلقون عليها النيران فى تكاسل ، ثم يعبرون الى قمة التل ، وهم يثرثرون يتبادلون المزح والنكات .

هنالك شجرة توت طويلة بيضاء ، تلقى بظلالها على شرفتى ، تحمل أكبرثمار رأيتها فى حياتى – إنها كبيرة مثل اليرقات . الفاكهة ناضجة ، عثرت عليها الزنابير فسكرت تماما من حلاوتها . إنها تتصرف مثل الأدميـين ، تضحـك فى صخب على لاشىء ، تسقط ، تتنافر تتشاجر ....

الحياة شاقة ، لكنها طيبة ، أى متعة أن يعرق المرء بالفعل وهو يعمل ، يستخدم حقا يديه ! إننا بينما نجمع الصلب ، نرتفع به ، لوحا بعد لوح ، كالنذور الرقيقة الغامضة الى السماء – تنضج كروم العنب أيضا ، تُذكر بأنه بعد زمن طويل من توقف الإنسان عن إضاعة الوقت ، بصورة عُصابية ، مع الآلات التى تحمل الموت ، والتى يعبر بها عن خوفه من الحياة ، فإن الآلهة السوداء القديمة ، لاتزال هنالك تحت الأرض ، مدفونة فى الدبال الرطب للعالم الشيطانى (الكلمة المفضلة عند بورسواردن) . إنها تحتل مكانها ، الى الأبد ، فى الرغبة البشرية . إنها لن تستسلم أبدا . (إننى ، فى بساطة ، أتحدث بطريقة عشوائية حتى أقدم لك فكرة عن نوع الحياة التى أحياها هنا) .

الشعير الجبلى المبكر يجمع الآن . إنك تلتقى بأكوام منه يابسة سائرة – أكوام لا يبين منها غير زوج من الأقدام أسفلها ، تمشى مجهدة عبر تلك الدروب الصخرية . الصرخات المرهقة التى تطلقها النساء ، إما نداء على بهائم أو نداء على بعضهن البعض ، من جانب تل الى جانب تل آخر . "وو" ، "هوش" ، "جناو" وتوضع هذه الأكوام فوق أسطح مسطحة للدق والدرس ، باستخدام العصى ، حتى يخرج التبن . الشعير ! إنها الكلمة التى لاتكاد تقال حتى تبدأ مواكب النمل، سلاسل طويلة من نمل أسود يحاول حمله بعيدا الى مخازنه الخاصة . إن

ذلك بدوره قد نبه السحالى الصفراء ، فتطوف خلسة تأكل النمل ، ترقد كامنة تطرف بعينيها . وتأتى القطط ، وكأنما الأمر متابعة للثمانية السببية فى الطبيعة، لتصطاد السحالى وتأكلها ، إن هذه العملية ليست فى صالحها ، فالكثير منها يموت من أمراض الإسراف التى تعزى إلى هذه الحماقة والرعونة .إلا أننى أعتقد أن حمى المطاردة تلاحقها . وماذا بعد ؟ حسنا ، إن أفعى سامة تقتل قطة، مابين الحين والحين . ويحطم الإنسان بجاروفه ظهر الحية . والإنسان ؟ تأتى أمراض الخريف مع بدايات الأمطار ، ويتعثر الرجل العجوز فى القبر مثل فاكهة سقطت من شجرة . انتهت الحرب ! لقد كان الإيطاليون يحتلون هؤلاء الناس ، إلا أن القليل منهم للغاية من تعلم لغتهم ذات اللكنة المحلية .

فى الميدان الصغير نافورة ، حيث تجتمع النسوة وهن يعرضن أطفالهن فى فخار وقد زخرفنهم كأنما يعرضنهم للبيع . هذا طفل سمين ، ذاك نحيل . ويسير الشبان على امتداد الطريق جيئة وذهابا ينظرون نظرات حارة خجلة . أخذ أحدهم يغنى فى مجون ، " لك وحدك يالوتشيا " . إلا أنهن لا يفعلن شيئا غير تطويح رءوسهن والاستمرار فى ثرثرتهن . هنالك رجل عجوز يبدو من الظاهر أصم تماما ، يملأ ابريقا . إنه يكاد يكون كمن صعقته الكهرباء إن قيل ، " مات ديمترى فى البيت الكبير" . إنه يدور حول نفسه كالمغزل ، فى غضب جامح " مات ؟ من الذى مات ؟ آه ؟ ماذا ؟ " إن سمعه يتحسن للحال كثيرا .

هنالك قلعة صغيرة تدعى الآن « فونتانا » ، إنها عالية تخترق السحب . ومع ذلك ، فهى ليست بالبعيدة ، إلا أن المرء يلتقى ، وهو صاعد اليها فوق منحدر شديد من رماد محترق جاف لطبقات النهر وسط سحب من ذباب اسود ، بقطعان مندفعة من ماعز أسود مثل الشياطين . هنالك فوق القمة ، مأوى صغير للفقراء به راهب واحد مختل العقل ، مبنى فوق سطح دوار أشبه بفرن حريق هش . فى

وسعك ، من هنا ، أن تتهلى حتى تتملى من منظر منحنيات الجزيرة العذبة الضبابية المترامية نحو الغرب .

وماذا عن المستقبل ؟

حسنا ، هذا رسم تقريبى لحاضر يكاد يكون مثاليا ، لكنه لن يدوم الى الأبد . إنه يكاد فى الحقيقة أن يفنى ، إذ خلال شهر أو مايقاربه سوف تنتهى جدواى ، ومعها ، كما هو محتمل ، الوظيفة التى أعتمد عليها فى حياتى المحدودة – ليست لى مصادرى الخاصة ، وعلىّ أن ابحث عن سبل أخرى . كلا ، إن المستقبل يهتز فى أعماقى مع كل اهتزاز للسفينة ، مثل شحنة لم يشد وثاقها ، إن جاز القول . هل كتب علىّ ألا أراك مرة أخرى ، إذ إننى أشك فى عودتى ثانية الى الاسكندرية . إننى أحس بها تذبل فى أعماقى ، فى أفكارى مثل وهم أودعه – مثل التاريخ الحربى لملكة ما عظيمة غرقت ثرواتها بين الخرائب والجيوش ورمال الزمن ! إن عقلى يستدير غربا أكثر فأكثر ، نحو الميراث العتيق لإيطاليا أو فرنسا ، هنالك بالتأكيد عمل جدير بالاهتمام مازال يمكن القيام به بين خرائبهم – شيء مايمكن أن نعتز به ، وقد نعيد اليه الحياة ؟ إننى أسأل نفسى هذا السؤال . إن الطريق الذى أحب أن أسلكه ، على أى حال ، وأنا غير مرتبط حتى الآن بأى سبيل محدد ، هو ذلك الذى يقود الى الغرب والشمال . هنالك أسباب أخرى ، فشروط عقدى تعطينى حق « العودة الى الوطن » ، كما يسمونه ، بالمجان ، أن أعود الى انجلترا دون أن أتكلف شيئا ..... وحينئذ وبمثل هذه الهبة الظريفة التى اسبغتها الخدمة علىّ والتى اكسبتنيها كل تلك الفترة من العبودية ، فإننى أعتقد بقدرتى على أن يكون لىّ سحرى فى أوربا . إن قلبى ليقفز لهذه الفكرة .

(*) بالإيطالية فى الأصل .

إلا أن شيئا ما ، فى كل هذا ، يجب أن يوجد من يقرره لى . إن لدى إحساسا ، أعنى ، أننى لن أكون أنا هو من يتخذ القرار .

لقد وجدت نفسى ، السبت الماضى ، حرا ليوم ونصف ، عبرت الجزيرة أحمل صرة لأقضى ليلة فى المنزل الذى عشت فيه خلال زيارتى السـابقة . أى تناقض هذا الذى تواجه به هذه الهضبة المائلة الى الخضرة ، ذلك النتوء الجبلى الوحشى العاصف من البر داخل البحر ، والبحار الخضراء الحمضية وخطوط ساحل الماضى النخرة . لقد كانت . حقيقة ، جزيرة أخرى - إننى اعتقد أن الماضى دوما هكذا . هنا عشت ليلة ويوم حياة الصدى . أفكر كثيرا فى الماضى ، وحركتنا نحن جميعا داخله . الخيالات المنتقاة " والتى تخلطها الحياة مثل مجموعة من أوراق اللعب ، تخلطها ، تقسمها ، تسحبها وتستعيدها . بدا لى أنه ليس من حقى الإحساس بهذا القدر من الهدوء والسعادة : إنه إحساس بالكمال والوفرة ليس به من سؤال بلا إجابة غير ذلك الذى كانت تنيرة ذكرى اسمك .

نعم جزيرة مختلفة ، منظرها أكثر خشونة وجمالا . إن المرء يمسك بصمت الليل ، يحس به وهو يذوب فى بطء - كما يمسك الطفل بقطعة من الثلج ! دولفين ينهض من المحيط عند الظهيرة . أبخرة زلزال على امتداد خط البحر . غياض كبيرة من أشجار ملساء ، لحاؤها أسود كجلد الفيل ، تعريه الرياح فى ثنيات تكشف عن الجلد الداخلى الطرى الرمادى ..... لقد نسيت الكثير من التفاصيل .

يكاد النتوء الصخرى أن يكون بعيدا عن الطريق المطروق ، وقد يأتى هنا فقط جامعو الزيتون فى موسمه . وإلا فإن الزوار الوحيدين هم حارقو فحم الأخشاب إنهم يأتون كل يوم راكبين عبر الغياض قبل الضياء ولركابهم صليل متميز . لقد حفروا أخاديد طويلة ضيقة فوق التل ، يزحفون فوقها طوال اليوم ، سوداً كالشياطين .

يمكن للمرء غالب الوقت أن يعيش على القمر ، وضجة البحر الخافتة وصوت الصراصير (*) الحاد فى ضوء الشمس . لقد أمسكت ، ذات يوم ، أمام الباب الأمامى لمنزلى ، بسلحفاة برية ، وعلى الشاطىء هنالك بيضة سلحفاة بحرية مهشمة . وللنباتات ذاتها فقرات قصيرة من عقل متأمل ، مثل أنغام موسيقية تنتمى الى مقطوعة أكبر ، لا أعتقد أن المرء سوف يسمعها البتة . والسلاحف البحرية كائنات أليفة ساحرة بلا مطالب . إن فى مقدورى سماع بورسواردن يقول ، " أخى الحمار وسلحفاته البحرية . إنه زواج العقول الصادقة ! " .

أما عن الباقى ، فصورة رجل يلقى بأحجار مسطحة ، يدفع بها سطح البحيرة الساكن وقت المساء ، فى انتظار رسالة قادمة من الصمت .



ماكدت أدفع بهذا الخطاب الى رجل البريد ، راكب البغل ، والذى يأخذ بريدنا الى المدينة ، حتى تسلمت خطابا عليه طابع مصرى ، معنون الىّ فى خط لا أعرفه . كان الخطاب كالتالى .

"أنت لم تتعرف عليه أليس كذلك ؟ أقصد الخط على الغلاف ؟ أقر بأنى ضحكت وأنا أعنونه اليك ، قبل أن أكتب هذا الخطاب : إننى أستطيع أن أرى وجهك وقد غشاه فجأة تعبيرك الحائر ، رأيتك تقلب الخطاب بين أصابعك للحظة ، تحاول تخمين اسم راسله !

" إن هذا هو خطابى الجاد الأول الذى أحاول كتابته بيدى الجديدة ، بعيدا عن المذكرات القصيرة :

(*) بالفرنسية فى الأصل .

هذه القطعة المعاونة التكميلية التى زودنى بها أماريل الطبيب ، بعد أن غدا الأمر واقعا ! لقد أردتها قادرة على الكتابة قبل أن أكتب اليك . لقد أصابنى الفزع والتقزز ، بالطبع ، منها فى البداية ، كما يمكن لك أن تتخيل . لكننى أحترمها الآن احتراما كبيرا للغاية ، هذا الاختراع الرقيق الجميل المصنوع من الصلب والذى يرقد الى جوارى فى سكون شديد فى قفازه المخملى الأخضر ! لاتنافر معها كما قد يتبادر الى ذهن المرء . ماكنت أصدق القبول بها قبولا تاما على هذا النحو – لقد بدا غريبا أن يتجانس الصلب والمطاط مع اللحم البشرى . لكن اليد أثبتت كفاءة تكاد تفوق كفاءة العضو الطبيعى الذى هو من لحم ودم : إن قواها ، فى الحقيقة ، شاملة حتى أنى أخافها بعض الشيء . إنها تستطيع القيام بأكثر الأعمال دقة ، بما فى ذلك تقليب صفحات كتاب ، بنفس المهارة التى تنجز بها الأعمال الخشنة . إلا أن أكثر ماتستطيع القيام به أهمية – آه ، دارلى ، إننى أنتفض وأنا أكتب الكلمات – فى مقدورها أن « ترسم » ! .

" لقد أجتزت الحدود ودخلت مملكتى ، شكرا « لليد » . لاشيء من هذا كان يمكن تدبيره مسبقا . لقد تناولت فى أحد الأيام فرشاة ، وإذا بها تخرج الى الوجود ذات أصالة وسطوة تثيران الحيرة حقا . إن لدى الآن خمسا منها ، أحملق فيها بدهشة تتسم بالتبجيل والتوفير . من أين جاءت هذه اللوحات ؟ لكننى أعرف أن اليد هى المسئولة عن ذلك . إنها « اليد » وحدها التى دبرت إدخالى عبر الحواجز الى شركة « الأشياء الحقيقية » ، كما اعتاد بورسواردن القول . ومع ذلك ، فإنها مخيفة بعض الشيء . إن القفاز المخملى الرشيق يحرس سرها حراسة فائقة ، إننى إن أرتديت كلا القفازين فإن شيئا مجهول الهوية فى الحفظ والصون تماما ! إننى أراقبه فى حيرة وريبة ما ، كما يراقب المرء حيوانا محبوبا ، خطرا وجميلا مثل النمر الأمريكى ، يمكنك قول ذلك . ليس هنالك من شيء ، كما يبدو ، لا تستطيع أن تفعله بطريقة مؤثرة ، وعلى نحو أفضل مما أفعل . إن هذا يفسر لك صمتى الذى آمل أن تغفره لى . لقد كنت مستغرقة تماما

فى لغة اليد الجديدة هذه والتحولات الداخلية التى جاءت بها معها . لقد انفتحت كل السبل أمامى . كل شيء يبدو اليوم ممكنا لأول مرة .

" ترقد على المنضدة الى جوارى ، وأنا أكتب لك ، تذكرة الباخرة إلى فرنسا . لقد عرفت بالأمس ، وبشكل قاطع ، ضرورة أن أذهب إلى هناك . هل تتذكر كيف اعتاد بورسواردن القول إنّ الفنانين كالقطط المريضة يعرفون تماما بالغريزة أى عشب يحتاجون لشفائهم : وأن العشب المر – الحلو الذى يكشف لهم عن أنفسهم لا ينمو إلا فى مكان واحد فقط . هو فرنسا ؟ سوف أغادر خلال أيام عشرة . هنالك من بين الأشياء اليقينية الجديدة ، واحدة رفعت رأسها – إنها اليقين أنك ستتبعنى الى هنالك فى الوقت الذى يناسبك . إننى أتكلم عن اليقين وليس عن النبوءة – لقد انتهت علاقتى والى الأبد بقارئى الطالع !

« إننى أكتب لك هذا ، لاخبرك ، فى بساطة ، بالنزعات التى فرضتها اليد علىّ ، والتى قبلت بها فى لهفة وافتتان – وفى استسلام أيضا . قمت الاسبوع الماضى بجولة زيارات وداعية ، إذ أعتقد أنه سيمضى وقت طويل قبل أن أرى الاسكندرية مرة أخرى . لقد غدت ، بالنسبة لى ، مبتذلة ولا طائل منها . ومع ذلك فإننا لا نستطيع إلا أن نحب الأماكن التى دفعت بنا إلى المعاناة ؟ إن جاذبية الرحيل تشيع فى الجو ، وكأن التكوين الكلى لحياتنا قد دفعت به بعيدا موجة جديدة . إذ لست أنا الشخص الوحيد الذى سيغادر المكان – بعيدا عنه . إن ماونت أوليف ، مثلا ، سيغادر فى غضون شهرين . لقد نال ، بضربة حظ ، أفضل المواقع فى مهنته ، باريس ! وبهذه الأخبار تتلاشى كل الأشياء القديمة غير المؤكدة . لقد تزوج سرا فى الأسبوع الماضى ! سوف تخمن أنت مَن تزوج ." هنالك أمر آخر يشدد من العزائم بعمق . إنه عودة بومبال وشفائه . لقد عاد الآن الى « المكتب الأجنبى » فى وظيفة رئاسية ، ويبدو أنه قد استعاد الكثير من قالبه القديم ، إن حكم المرء عليه من خطابه المسهب الخصب الذى أرسله الىّ . إنه يكتب ، « كيف يمكننى أن أنسى » ، أنه لاتوجد فى العالم نساء غير النساء

الفرنسيات ؟ إن ذلك أمر غريب ، انهن أكثر إبداعات الخالق القدير بهاء . ومع ذلك ... ياعزيزتى كليا ، فهنالك منهن الكثير للغاية ، وكل منهن أكثر كمالا من الأخرى . ماذا فى وسع رجل مسكين مثلى أن يفعل فى مواجهة مثل هذه الكثرة ، فى مواجهة مثل هذا الجيش ؟ إسألى ، إكراما للرب ، أحدا ما ، أى أحد أن يأتينا بتعزيزات . ألا يحب دارلى أن يعاون صديقا قديما إكراما للأيام الخالية ؟».

" إننى أبعث بالدعوة إليك حتى توليها ماتستحق . سوف ينجب أماريل وسميرة طفلا هذا الشهر – طفلا له الأنف التى ابتدعتها أنا ! سوف يقضى عاما فى أمريكا فى وظيفة ماأو أى عمل آخر ، وسوف يأخذها معه . سيسافر بلتازار أيضا فى زيارة الى أزمير وفينيسيا . إن أكثر الأجزاء إثارة فى أخبارى ، قد احتفظت به ، على أى حال ، الى النهاية : جوستين !

" إننى لا أتوقع منك أن تصدق هذا الجزء إلا أنه يجب علىّ ، على أى حال ، أن أكتبه . بينما كنت أسير فى شارع فؤاد فى العاشرة من صباح ربيعى صاف ، رأيتها قادمة نحوى ، تتألق فى رداء جميل ، فستان ربيعى رائع التصميم ، يخب الى جوارها ، فوق الرصيف المترب ، يحجل مثل ضفدعة ، ممليك البغيض ! كان يرتدى حذاء برقبة ، ذا جوانب مطاطية مرنة ، وطماق ، يحمل عصا بها عقد ذهبية، ويضع إناء زهور حديث السك فوق رأسه ذات الزغب . انهرت تقريبا . كانت تقوده فى الطريق مثل البودل [1] . ويكاد المرء يرى المصفاة الجلدية الرخيصة حول ياقتة . حيتنى فى حرارة فياضة وقدمتنى الى أسيرها الذى تلخبط خجلا ، وحيانى فى صوت مزمجر عميق مثل ساكسفون جهير . كانا فى طريقهما للقاء نسيم فى الـ « سلكت » . هل أذهب أنا أيضا ؟ بالطبع يجب أن أذهب . أنت تعرف كم أنا فضولية لا تكل ولا تمل . ظلت ترسل الىّ بومضات تحتية مسلية دون أن يلحظ ممليك ذلك . كانت عيناها

(١) نوع من الكلاب – المترجم .

تبرقان بالسـعادة ، نوع من السخرية الشيطانية . كانت أشبه بآلة مدمرة قوية أديرت فجأة ، مرة أخرى . كانت تبدو أسعد وأكثر شبابا من أى وقت مضى . استطعت فقط ، عندما ذهبنا لنضع المساحيق على انوفنا ، أن أشهق وأقول ، «جوستين ! ممليك ! ماالذى يجرى فوق الأرض ؟ » قهقهت وهى تعانقنى بقوة ، قالت ، « لقد عثرت على نقطة ضعفه (*) إنه متعطش الى حياة المجتمع . إنه يود أن يتحرك فى دوائر الاسكندرية الاجتماعية ، وأن يلتقى بالعديد من النساء البيض » ، ضحكت أكثر . « ولكن ماالموضوع ؟ » قلت أنا فى إعجاب وافتتان . هنا غدت جادة فجأة، رغم وميض عينيها خبثا ذكيا . لقد بدأت ونسيم شيئا ما . لقد قمنا أخيرا بشق فتحة لنا . كليا ، إننى سـعيدة للغاية ، أكاد أصرخ وأصيح . إنه شىء أكبر بكثير فى هذه المرة ، إنه دولى ، علينا أن نذهب الى سويسرا العام القادم ، من أجل الخير، فى غالب الظن . لقد تغير حظ نسيم فجأة . إننى لاأستطيع إخبارك بأية تفاصيل . » .

« عندما بلغنا المنضدة ، فى الدور العلوى ، كان نسيم قد وصل بالفعل وأخذ يتحدث مع ممليك . أذهلنى مظهرة ، كان أكثر شبابا بكثير ، ظريفا للغاية ، ممتلكا لذاته ، أصابتنى غصة أيضا وأنا أرى الطريقـة العاطفيـة التى تعانقا بها ، نسيم وجوستين ، وكأنهما فى غفلة عن باقى العالم . هنالك بالضبط فى هذا المقهى ، وبمثل تلك العاطفة المذهلة ، حتى أننى لم أدر أين أولى عينى .

" كان ممليك جالسا هنالك ، وقفازه الثمين على ركبته ، يبتسم فى رقة . كان من الواضح أنه يستمتع بحياة الطبقة العليا من المجتمع ، وكان فى مقـدورى أن أرى من الطريقة التى قدم لى بها شيئا مثلجا أنه يستمتع أيضا بصحبة النساء البيض !

" آه . لقد بدأت تتعب ، هذه اليد المعجزة . يجب أن الحق هذا الخطاب ببريد

(*) بالفرنسـية فى الأصل .

المســاء . هنالك مئـات الأشــياء التى علىّ أن أعتنى بها قبل أن أبدأ عملية حـزم الأمتعة الثقيلة المملة . لدى إحساس أيها الحكيم ، إنك أنت أيضا ، ربما تكون قد عبرت العتبة الى مملكة خيالك ، لتمسك بها مرة والى الأبد . أكتب لى وأخبرنى – أو احتفظ بذلك لجلسة فى مقهى صغير تحت شجرة أبو فروة ، فى جو خريفى بلون الدخان الى جوار السين .

" إننى أخيرا انتظر فى هدوء تام وسعادة ، إنسانا حقيقيا ، فنانا . « كليـا » .

★ ★ ★

إلا أنه لم تمض غير فترة محدودة قبل أن تنقشع السحب أمامى ، لتكشف لى سر المنظر الذى كانت تكتب عنه ، والذى سوف تمتلكه من الآن فصاعدا ، ضربة فرشاه تتلوها ضربة فرشاه بطيئة ..... لقد كانت تتشكل فى داخلى هذه الصورة الثمينة ، تتشكل منذ أمد بعيد للغاية ، الصورة بأننى أنا أيضا لم أكن مستعدا كما كانت هى . وجاءت ذات يوم رائق صاف ، جاءت دون أى تدبير مسبق ، ودون أى إعلان ، وببساطة ماكنت أعتقد بها . كنت حتى ذلك الحين مثل فتاة شـديدة الحياء ، فزعة من ميلاد طفلها الأول .

نعم ، لقد وجدت نفسى ، ذات يوم ، أكتب بأصابع مرتعشة الكلمات الأربع (أربعة حروف ! أربعة وجوه !) ، التى خاطر بها كل حكاء منذ بداية العالم ، ليشد انتباه أقرانه من الرجال ، الى دعواه الرشيقة . كلمات تبشر ، فى بساطة ، بالقصة القديمة لفنان بلغ سن الرشد .

كتبت : " حدث ذات يوم .... " .

وأحسست كأن الكون كله يدفعنى برفق ، يلكزنـــى !

★ ★ ★

كليــا

الآن ، اكتلمت رباعية الاسكندرية لأول مرة فى المكتبة العربية . وستصبح الرواية بأجزائها الأربعة « جوستين – بلتازار – ماونت اوليف – كليا – رفيق – سفر المثقفين العــرب ».

انها الرواية التى حققت أدبيا نسبية انشتين بتقريرها لأبعاد الكون الأربعة : الطول والعرض والعمق والارتفاع .

كليــا هى الرواية الرابعة من رباعية يرى مؤلفها أنه يلزم عند الحكم عليها . النظر اليها باعتبارها عملا واحداً . إن الرباعية يناسبها أيضا عنوان فرعي يقول إنها : « نص روائي متواصل » .

كليا هى الزمان والمكان فى حركته . تتمم روايات ثلاثا سابقة . حيث نفس المكان والزمان والأحداث والحقائق التى تختلف طبقا لموقع صاحبها من الــرؤى .

طوال نصف قرن من الكتابة الروائية فى مصر والوطن العربى والعالم . شرقه وغربه . شماله وجنوبه . ونحن نقرأ إبداعات روائية . خرجت من معطف هذه الرباعية .

واليوم . يستطيع القارئ العربى أن يجد أمامه النص الذى لولاه ماكانت مغامرات التجريب فى روايات قــرننا العشــرين كلــه .

دار سعاد الصباح
ص ب ٢٧٢٨٠
الصــفاة ١٣١٣٣ - الكــويت
ص ب ١٢ المقطم القاهرة

